www.kotobarabia.com

رواية



لا أحد ينام فى الإسكندرية

www.kotobarabia.com

إبراهيم عبدالمجيد

إبراهيـــم عـبـد المجيـد

لا أحـــد يـنـــام فـــى الإسكندريـة

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

الإهداء..

إلـــــى وائـــــل . الولـــد الصامـــت

من اللذة إلىالجنون ، ومن الجنون إلى النور ، أبنى نفسى كاملاً ، من خلال كافة الكائنات (بول إيلور)

"البحر المتوسط بحر صغير للغاية ، إن عظمته وامتداد تاريخه يجعلاننـا نتخيله أكبر مما هو عليه الآن ، إلا أن الإسكندرية لا يقل وافعها عما يمكن تخيله عنها .. "

(لورانس داريل)

" انزعجت الآلهة من ضجيجهم الذي حرمها النوم ، فأرسلت عليهم الوباء ، لكنهم سرعان ما تكاثرت أعدادهم مرة أخرى وازداد ضجيجهم ، فأرسلت عليهم القحط ست سنوات ثم الطوفان الأعظم سبعة أيام ، لقد بلغ من هول الطوفان أن الآلهة ذعرت هي الأخرى وابتعـدت إلى الخلـف كثيراً فى السماء "

(من أسطورة الطوفان البابلية)

" أصوات خفية حبيبة ، أصوات أولئك الذين ماتوا ، أو أولئـك الـذين بالنسبة إلينا ضائعون مثل الموتى ، تتكلم في أحلامنا أحياناً،وأحياناً في الفكر يسمعها العقل ، ومع أصدائها تعود برهة أصوات من قصائد حياتنا الأولى ، مثل موسيقى بعيدة في الليل تخبو "

(كفافيس)

" الإنسان طين وفش
والله صانع الفخار "

-1-

كان هتلر يدور حول مبنى المستشارية في برلين ، عاقداً يديه خلف ظهره ، محنيا قليلاً ، في حالة من التأمل العميق ، لكنه أيضاً زم شفتيه مما أبرز شاربه مجدباً قليلاً ، وفتح عينيه في غضب أزاد لمعانهما . في الحقيقة كاد صدره ينفجر ورأسه ، وهو ذاهل تماماً عن حراس المبنى الواقفين ، وحراسه هم الذين يدورون خلفه ، كان يفكر لو يستطيع أن يمسك برئيس حكومة بولندا يعصره عصراً .

اليوم هو الخامس والعشرون من أغسطس ، الجو صحو فوق برلين ..فكر هتلر في الحروب قديماً حين تبدأ بمنازلة بين القائدين ، وتنتهي بهزيمة أحدهما فيستسلم هو وجيشه للمنتصر ، لكنه لا يستطيع أن يغامر بذلك ، يعرف جيداً مدى ضآلة جسده ، على الرغم من أنه ، هو نفسه ، الذي قدمت له النمسا في العام الماضي ببساطة عاهرة مدربة .وهو نفسه لم يتردد فى غزو تشيكوسلوفاكيا المسلحة جيداً فلم تقاوم ، البولنديون فقط يعاندونه ، لا يريدون أن يعيدوا لألمانيا ما أعطتهم زورا معاهدة فرساي . وهو لن يرضى إلا بكل ما ضاع من ألمانيا . هذا هو الوقت المناسب تماماً ، لقد مضت عشرون سنة على الوقت الذي أمضاه في المستشفى بعد أن كاد يفقد بصره في الحرب التي انتهت بكارثة على الأمة الألمانية ، ومرارة البؤس

القديم تتجسد أمامه في كثير من الأحيان ، وآن الأوان لكى يحصـد ثـار كفاحه ، منذ انضم إلى " حزب العمال الألمـان " إلى تكوينـه " للحـزب الاشتراكي الوطني " إلى سجنه ، إلى تكوينه لكتائب الصاعقة ، ونضاله ضد الشيوعيين ، حتى وثوبه إلى الحكم وذبحه كل أعدائه والشيوعيين من قبلهم ، لقد ساندته الشعب الألماني وهتف له فأدرك أنه المبعوث المنتظر من السـماء لكرامة ألمانيا ، لكنه لا يريد إعلان الحرب مبكـراً هكـذا ، البولنـديون بعنادهم يجبرونه على ذلك ، فليندفع إذن داخل مبنى المستشارية .

الساعة الآن الثالثة بعد الظهر تماماً ، وقع هتلر أمر الهجوم على بولندا ونفث الارتياح ، طلب شيئاً يأكله في مكتبـه ، داعـب إيفـا بـراون في التليفون . قال إنه لن يراها بعد ظهر اليوم ، تذكر وزير حربـه السـابق " بلومبرج " وكيف استدرجه ليكون ، ومعه جـورنج قائـد الطـيران ، شاهدين على عقد زواجه من امرأة ،قدم هيملر ، رئيس البوليس السري ، دليلاً فيما بعد ، على أنها عاهرة ولها ملف في دوائر الآداب . لعن بلومبرج وكل النساء العاهرات . وتذكر كيف أزاحه بعد ذلك في حركـة تغـيير واسعة . لكن هذا كله كان العام الماضي . إنه لا يحتاج أحدا الآن . فلينظر إلى الأمام . إلى الأمام فقط ، ووجد نفسه يفكر في صديقه موسيليني .

في السادسة مساء ، وهو لم يفارق مكتبه ، قدم له " أتوليكو " سـفير إيطاليا رسالة من صديقه الذي فكّـر فيه منذ ساعات .

" بالرغم من وقوف إيطاليا إلى جانب ألمانيا بلا قيد أو شـرط ، إلا أن إيطاليا لا تستطيع التدخل عسكرياً ما لم تقدم لها ألمانيا فوراً كل احتياجاتهـا من مواد الحرب الموضحة في القائمة المرسلة مع هذه الرسالة ".

راح هتلر يقلب القائمة وبغالب قوة هائلة للانفجار . لم يلحظه السفير أتوليكو وهو يهز رأسه من الغيظ ، رفبة هتلر ليست بالطول الكافي لـيلمح الشخص رأسه وهو يهتز . ذلك يحتاج صراخاً ، وهو ما يفعله عادة حـين يخطب في الجماهير . لكنه الآن لن يخطب ، يريد ، على العكس ، أن يبـدو هادئاً . بانتشاء مفاجئ تذكر يوم دخوله إلى النمسا وراء قواته التي لم تواجه بطلقة واحدة ، كان ذلك صباح الثاني عشر من مارس العام لماضي . يومها اتجه إلى مدينة : لينز " حيث دخل المدرسة وهو صغير لأول مرة ، وخطـب هائجاً في جماهير مجنونة، كان " هيس " سفيره في روما قد هاتفه في اليـوم السابق معلناً أن موسيليني يبعث إليه بأحسن تحياته ، وأن النمسا لا تعنيـه إطلاقاً. ورد هتلر على هيس بفرحة غامرة وبأنه لن ينسى ذلك أبداً أبـداً مهما حدث ، وإذا حدث يوماً وصار موسيليني في حاجة إليه ، فسـيكون بجواره حتى لو وقف العالم كله ضده .

في ذلك اليوم تأمل هتلر هياج النمساويين حوله وأمامه وهو يخطـب وتذكر كيف كان مولده لأب فقير من موظفي الجمارك ، وكيـف كـان يتطلع في صباه لأن يكون فناناً ، وكيف فشل في الالتحاق بأكاديمية الفنون في فيينا نفسا ، ما جعله يترك النمسا كلها إلى ألمانيا ، ثم تأمل هذا الدخول الظافر إلى مهد طفولته ، وتذكر مكالمة الأمس من روما ، وخلعته البهجـة عن الأرض . ماذا يحتاج المرء أكثر من ذلـك ليـشعر بأن العـناية الإلهية

تسانده ؟ وأخذ فراره بضم النمسا إلى الرايخ .. لكن موسيليني اليوم يخذله وهو لم يبدأ الحرب بعد ..!

اكتأب هتلر، أوشك أن يهـاتف إيفـابروان يـدعوها إلى مكتبـه. "البولنديون المتعجرفون يقفون مثل الأحجار ، وصديقي المخلص الذي يزهو بأنى من المؤمنين بأفكاره يتخلى عنى . أى صنف هم الإيطاليون ؟! فراصـنة حقيقيون .. لكن هؤلاء القراصنة يمكنهم خوض المعارك في البحر المتوسـط ضد فرنسا يشغلوها عنى حتى تنتهي بولندا من الوجود ".. رسالة موسيليني نذير شؤم حقيقي . لذلك حين دق التليفون تردد في تناول سماعته . رفعهـا إلى أذنه واستمع إلى صوت " ريبنتروب " وزير خارجيته يقول إن معاهـدة دفاع مشترك قد وقعت حالاً بين بولندا وإنجلترا ..

لم يكن لأحد في هذه اللحظة أن يحتل ذهن الفورهرر غير " كيتيـل" رئيس هيئة أركان الحرب . استدعاه على عجل ، وقال له بهـدوء كأنمـا ينفض يديه من الأمر كله : أوقف كل شيء فوراً .. إننى أحتاج إلى وقـت لإجراء مفاوضات .

لم يكن هذ الوقت طويلا . فقط خمسة أيـام . أطفئـت الأنـوار في باريس . وزعت فى مدن فرنسا المنشورات التي تدعو النساء إلى التطوع في الجيش .. أعلنت الأمة الفرنسية ثقتها التامة في جنرالاتها العسكريين الكبار ، جاملان ودارلان وفيلمان ، رؤساء هيئة أركان أسلحة البر والبحر والجو ، وأعلنت حالة التعبئة العامة ، فظهرت طوابير وقوافل الجنـود تمشـي فى

شوارع باريس عائدة إلى ثكناتها . وفي لندن ازدحمت أرصفة محطـة قطـار واترلو بالحقائب والأمتعة ، والسيارات والأطفال يغادرون إلى الريف ، وفي إيطاليا أصدر موسليني أمراً بتقسيم الجيش إلى قسمين قسم يتولاه الأمـير " أمبرتو " ولى العهد ، بينما يتولى المارشال جرازياني القسم الثـاني ، كمـا صادرت الحكومة البن من الأسواق ، معلنـة أن تجارتـه سـتكون تابعـة للحكومة نفسها لتزويد الجيوش ، هذا رغم ما فهم هتلر من رسالة موسليني من تقاعس عن مؤازرته في القتال .

اهتزت كل دولة في العالم ، وراحت تحدد موقفها إذا قامت الحرب ، القتال أو الحياد أو الانتظار ، استمرت الاضطرابات في فلسطين ، واقتربت من سواحلها باخرة تحمل ألفا ومائتي يهودي ، لتهريبهم داخـل الـبلاد . خرج قليل من الناس فى ألمانيا يحتجون على الحرب ، وقف بعضـهم أمـام القطارات ليموتوا قبل أن يروا حرباً جدية تجتاح الدنيا . حـدث ذلـك في مدن أوروبية كثيرة . وفي قناة السويس مرت الباخرة " ماريت باشا " حاملة جنودا فرنسيين وسنغاليين ، آخذة طريقها إلى سـوريا ولبنـان ، لتعزيـز الدفاعات الفرنسية . في القاهرة تأجل الاحتفال بخريجي كليـة فيكتوريـا ، تقرر زيادة دوريات البوليس ، وزيادة التدابير ضد التجسـس ، وتحويـل الضباط الاحتياطي إلى الجيش العامل . فرر محمـود غالـب باشـا وزيـر المواصلات ، تحويل بعض عربات السكك الحديدية إلى مستشفى ميـدان . أقيمت الغارات التجريبية. خصصت سبع بواخر عند بـولاق ، لترحيـل سكان القاهرة إذا اقتضت الحال . في الاسكندرية التقى " كانينجهام " القائد العام للأسطول البريطاني ، " برفعت على ماهر باشا " رئيس الوزراء في المقر

الصيفي في بولكي ، لبحث التدابير البحرية اللازمة إذا اندلعت الحـرب ، واجتمعت لجنة الوقاية من الغارات برئاسة محافظ المدينة ، وقـررت زيـادة مراكز الإطفاء إلى ثلاثة ، وتكليف أصحاب السيارات بطلاء مصـابيحهم باللون الأزرق القاتم بدلاً من الأزرق الفاتح ، وأقيمـت أيضـاً الغـارات التجريبية ، ونصبت الشباك المعدنية خارج الميناء لصـد هجـوم السـفن وأجريت التجارب الليلية لوحدات الإضاءة الكاشفة فوق سماء المدينة تحسباً لغارات الطائرات ، ووصل السيد مايلز لامبسون السفيرالبريطاني قادماً من لندن لمقابلة جلالة الملك بقصر المنتزه ، واقترح هتلر على الحكومة البريطانية تسوية النزاع بتسليم إقليم " دانزج " إلى ألمانيا حالاً ، وقيام استفتاء بـين سكان الممر البولندى يقررون فيه مصيرهم ، وحدد للرد يومين ، طالبـا أن يرد عليه رئيس حكومة بولندا نفسه ، أو وزير مفَوض .

صار هذا هو السبيل الوحيد لإنقاذ الموقف المتدهور ، وكـتم العـالم أنفاسه انتظاراً لإنتهاء اليومين ، وصار السؤال هل يمكن لأحد ، أو لقوة غير منظورة ، إنقاذ سكان الأرض من الجحيم القادم ؟

لم يعد هناك جدوى لأى احتجاجات شـعبية ، ولا أى انتحـارات ، دارت عجلات الموت ، لقد تقرر فتح كتاب الجحيم .

" وقال لى : إذا رأيت النار فقع فيها
فإنك إن وقعت فيها انطفت ،
وإن هربت منها طلبتك وأحرقتك "

- 2 -

فى الليلة الأخيرة لمجد الدين جلس صامتاً وسط أفراد عائلته ، راحوا ينظرون إليه غير قادرين على تصديق الأمر كله . لكنه بدا بينهم كمن لم يتغير أبداً . في الأربعين لكنه فى صورة ابن العشرين . وجه مستطيل قوى القسمات بارز الوجنتين ذو عينين خضراوين ، شعر الرأس أشقر لولا أنه مغطى دائماً بالطاقية البيضاء . ولا يزال له الجسم القوى نفسه للشاب الصغير .

- لماذا لا تسمح لنا بالقتال ؟

تساءل أحد أزواج أخواته الثلاث ثم أكمل :

نستطيع قتال القرية كلها لو استدعى الأمر ، ولا يزال في البيت سلاح قديم ، ونحن رجال .

لكن مجد الدين طلب من الجميع أن يناموا ، الصباح رباح ، ويحلها من لا يغفل ولاينام ، كلماته الأثيرة التي يعرفونها عند الضيق ، وتعرفها أكثر زوجته الشابة زهرة كلما غشيته الأزمات .

انصرف الجميع إلى غرفهم بالدور العلوي بالدار الكبيرة ، انصرفت أمه هادية التي انطفأ نور عينيها إلى حجرتها بالدور الأرضي مستندة على

ذراع زهرة التي كانت تحمل طفلتها " شوقية " ذات العام الواحـد علـى ذراعها الأخرى .

أتت من كل أركان الدار الرائحة التي يحبها مجدالدين . رائحة طـين الجدران التي شواها الحر بالنهار ، الرائحة المعجونة برائحة الروث القادمـة من الزريبة ، والمعجونة أيضاً برائحة حصائر الجبن ، ومخضات اللبن المعلقة على الجدران ، ووجد مجد الدين نفسه يصعد أعلى السطح .

تأمل برج الحمام الأبيض ، وأرهف السمع ، فسمع فرفرة خافتـة لا تكاد تبين ، تأمل مأوى الأرانب ولم يسمع شيئاً ، أحس بـالجو خانقـا . لم تنكسر حدة الحرارة منذ أيام ، والرطوبة تشتد يوماً بعد يوم كأنما لا ينصرم الصيف . ما الذي أحيا كل القديم الميت الآن ؟ ولمـاذا حقـا لا يريـد أن يقاوم؟

مثل مطر شديد مفاجئ نزل على القرية راح الناس يتحـدثون سـراً وعلانية ، عن المعارك القديمة بين عائلتي " الخلايلة " و " الطوالبة " ، وجاء شيخ البلد يطلب من مجد الدين ، أن يترك القرية في نهاية الأسبوع .

الثأر بين العائلتين انتهى منذ عشر سنوات ، حين لم يبق في القرية من الخلايلة غير مجد الدين ، ومن الطوالبة غير خلف ، مجد الدين حامل القرآن الذي أعفى لذلك من الجهادية ، وخلف صديقه منذ الطفولة . لقد جعلـت هذه الصداقة بينهما ، كلا منهما يتحايل على ألا يقابل الآخر في معركـة قُتِل إخوة مجد الدين الخمسة ، ومات أبوه محسوراً عليهم ، وبقى هو وأخوه

"البهي "الشارد دائماً في الآفاق ، وبقى أولاد عمه ، أزواج أخواتـه الآن . فتل إخوة خلف الستة أيضاً ، ومات أبوه محسوراً عليهم بدوره ، والقريـة كلها عرفت قصة العهد لذي أخذه كل من مجـد الـدين وخلـف علـى نفسيهما . لقد فررا منذ أكثر من عشر سنوات إيقاف نهر الدم وسأل مجـد الدين صديقه :

والآن يا خلف لم يبق غيرى ليموت ولن أترك نفسي أقاتلك .

ليس لى شىء عندك يا مجد الدين .

إذن ستسعى وراء البهي ، إذا كان ذلك فاقتلني يا خلف .

لن أسعى وراء أحد يا مجدالدين ، العار لحقنا جميعاً ، القاتل والمقتول . انتهت القصة من زمان إذن ، والبهى الذي صار يعيش في الإسـكندرية ، لم يعد للظهور بالقرية أبداً. لكن العمدة نكش الآن تراب السـنين ، إنـه لا ينسى ما فعله البهى به ، وإحياء قصة الثأر القديم بين الخلايلة والطوالبة مجرد حجة لطرد مجد الدين ، العمدة فجأة قرر إظهار ضعفه وحقده معاً ، ومجـد الدين منذور ، كما كان إخوته جميعاً ، لدفع ثمن خطايا البهى . ترى مـاذا في الإسكندرية حتى يعشقها البهى كل هذا العشق وهل سيلحق مجد الدين غداً به أم سيختار بلـدا آخـر في أرض الله الواسـعة ؟ .. يـا أرحـم الراحمين ..يهتف مجد الدين بلا صوت وهو يجلس مرتكناً بظهره إلى فاءـدة برج الحمام ، يخرج من صدبرينه علبة دخان ويلف سيجارة رفيعة . لم يحب من إخوته أحداً كما أحب البهى . ها هى الأيام تجمع بينهما كما يقال .

مات أبوك يا بهى وليس على لسانه إلا اسمك .

ليس لى عيش في القرية يا شيخ مجد ، لقد هدنى السجن .

بلدنا حلوة يا بهى .

أنت طيب يا شيخ مجد لا ترى الدنيا إلا من خلال القرآن .. لماذا حقاً تبقى في هذا البلد الوسخ !؟

ولم يرد مجد الدين .. لم يعرف ، ولا يعرف حتى اليوم كيف يجيب عن سؤال البهى واستمر البهي ذلك اليوم يتحدث. قال :

أبوك مات وإخوتك قتلوا . لم يبق غير النسوان وأنا . وأنا لا أفيدك .

بعد ذلك رحل البهى إلى الإسكندرية ، عشر سنوات كاملة من الانقطاع ، كان مجد الدين حريصاً على أن يزوره مرة أو مرتين كل عام ، زيارات سريعة لم تطل الواحدة منها عن ليلة يعود فى صباحها محملاً بكلام كثير جميل للأم هادية . كان يجد البهى دائماً فى ثياب نظيفة ، بنطلون وقميص إذ خلع لباس الريف منذ وقت طويل ويعيش فى حجرة واحدة لكنها نظيفة ، يحرص البهى دائماً على تعطيرها بالبخور والمسك ، ولا تفارق جيبه علبة عنبر تشع رائحة خلابة ، لكنه كان يبدو شاحباً مجهداً ، ولا يخفي آلاماً كثيرة يجدها في المدينة عن مجد الدين ، الذي لم يخبر أمه أبداً بهواجسه عن آلام أخيه ، بل يقدم إليها دائماً ما يسرها عن ابنها المسكين .

كانت هذه كذبة مجد الدين الوحيدة في حياته . كانت يؤلمه دائماً الحياة التي يحياها أخوه بالإسكندرية ، لكنه عود نفسه على أن يقول لأمه غير ذلك ، إنه يحب أخاه ويقول ما يحبه له أن يكون . خمس سنوات كانت الفارق بين عمريهما ، تمشي معهما وكأنها نصف قرن من الألم العجيب ،

البهى هو الأكبر ، ودائماً ما كان الأب ينظر إليه ويقـول " لله في خلقـه شئون ، هذا ابني من صلبي وهؤلاء أبنائي أيضاً ، وكلهم من أم واحـدة ، وفيهم من يزرع ومن يتاجر ومن يحمل القرآن إلا هو الوالد الـذي جـاء محملاً بخطايا العالمين " ! .

لقد كره البهى مبكراً كل محاولة لأن يتعلم حرفاً في الكتاب أو الزاوية أو البيت . ولم يكره شيئاً مثل كرهه للفلاحين ! قالوا ذلك لوسامته ، وقالوا لهيبة في قلبه ، وقال الأب دائماً والحسرة في عينيه " هكذا هـو خلْقـه " . اختارت له الأم اسم (البهى) لأنها ولدته فى ليلة السابع والعشـرين مـن رمضان . لقد رأت وهو ينزلق منها طاقة نور تخرج معه تضـيء الحجـرة وتمشي على الجدران .

وبكت القابلة وهى تلفه في القماط ، وتقول لأمه أن تخفيه عن العيون فهو فضلاً عن طاقة النور التي خرجت معه ، ولد مختوناً ، إنه ولد طاهر من البداية منذور لخير عميم .

وهكذا لم ير الناس البهى إلا حين استطاع المشي ، فتسلل من كـوة الباب الخشبي الكبير ، وتدحرج في الزقاق الضيق يحيط بوجهـه الضـوء العجيب . ولم ينته جزع الأم إلا بعد أن أنجبت بعده ثلاث بنـات ثم مجـد الدين . لم تعد أم الذكور فقط . جزع الأب الذي لم ينته . قد فطن مبكـراً إلى أن في عينى البهى نزقاً غير مألوف في العائلة ، مع أن للعيون فى العائلـة اللون الأخضر نفسه الذي أخذه الجميع من الأم ، في عينى البـهى وحـده اللون الأزرق ! وهذا أيضاً عجيب .

ما كان البهي يبلغ مرحلة الصبا ، حتى راح يخرج مـن الـدار مـع الصباح ولا يعود إلا في المساء ، لينام دون حديث مع أحد ، لم يسأله أحـد أين يمضي يومه ، الأم مستلئة الحنان ، والأب لا يستطيع أن يفسر لنفسـه ، هذا الضعيف الذي قذف به الله إلى قلبه تجاه الغلام . شيئاً فشيئاً صار البهى وسط العائلة مثل خيال ، يخرج الإخوة في الصباح البـاكر إلى الحقـول ، ويخرج هو بعدهم لكن لا يعرف أحد إلى أين ، يعودون في المسـاء متعـبين ليتناولوا عشاءهم وبناموا مبكراً ، وتظل الأم لا تنام ، إلا بعـد أن تسـمع صرير كوة الباب ، وخفقات البهى المتسلل عائداً ، ثم راح يغيب لأكثر من يوم وليلة وبعود ينام في أقرب مكان يقابله ، مع البهائم ، مـع الـدجاج ، فوق الفرن ، في الباحة ، بين الحجرات . المهم أنه لم يعد ينام في حجرة بهـا أحد من إخوته، ولا يزال الأب لا يدرى سر هذا الضعف الذي يتملكه أمام ابنه العجيب ، والابن المسالم لا تأتي من جرائه أى شـرور حـتى الآن ، ثم انكشف سر البهى وملأ فضاء القرية ، إنه مسوس بالعشـق يمشـي وراء النساء فوق الترع وفي الأسواق ، ونساء القرية أيضاً وفتياتها كن ينتظـرن مروره بين الأزقة ليتطلعن إليه من خلف الأبواب وفوق الأسطح ، صـارت مواقيته محفوظة للنساء ، وهالة النور التي قالت عنها أمه أنها انزلقت معه يوم مولده لم تكن قد فارقته بعد ، فقط لا يراها غير النساء والفتيات . وانتقـل خبره إلى القرى المجاورة فصارت النساء والفتيات يأتين ليجلسن على الترعة التي تفصل البلد عن الحقول ينتظرون مروره ، تفزع إليه صاحبات الحاجة ، تلمسنه ، تفزع منه الفتيات الصغيرات . يقفن بعيداً ويضـحكن وشـىء يزلزل أجسامهن . وإخوته وأبوه في دهشة مما يسمعون عن الصبي ، حـتى

جاء يوم رأوه فيه يظهر على رأس الحقل . كان هناك إخوته الخمسة . فتوح والقاسم وخليل وعمران وسليمان . ولم يكن مجد الدين ، أصغرهم ، معهم ذلك اليوم . في البداية اندهش الإخوة من ظهوره ، لكنه بعد أن جلس عند السافية ، انشغلوا عنه بالعمل . بعد لحظات رأوه يقف يدور حول الجميزة العجوز أكثر من مرة ويتطلع إلى بعيد ناحية القريـة ، ثم سمعـوه يصـرخ يناديهم . وقفوا بين شجيرات القطن القصيرة ومعهم فؤوسهم . رأوه مـن بعيد عدداً كبيراً من الرجال يأتون مسرعين رافعين فؤوسهم وعصيهم ناحية البهى . " الطوالبة " هتف الإخوة ، لم يكن حتى ذلك اليوم بين العائلتين أى دم . اقترب رجال الطوالبة فاندفع البهى ناحية إخوته كتلة من الرعب .

سيقتلونى .

اهرب أنت من هنا . بلغ أباك وأولاد عمك بسرعة .

وأنطلق البهى من خلفهم أسرع من فرس ، وهجم إخوتـه الرجـال المهاجمين ، ودارت المعركة وطالت . والبهى في طريقه رأى أباه وأبناء عمـه وأبناء خاله ، يسرعون ناحية الحقل حاملين العصى والفؤوس . لم يعد معهم ، أخذ طريقه بالسرعة نفسها إلى البيت ، كانت الأم تقف في رعب فـارتمى على صدرها . كان بالكاد في السادسة عشرة ، انفجر باكياً . ربتت علـى ظهره تسأله فى ألم .

لماذا فعلت ذلك يا ولدي !؟

غطيني يا أمي .

وأخذته إلى أقرب غرفة ، ثم غيرت رأيها وصعدت به إلى غرفة علوية " حتى لا يقتلك أبوك إذا عاد " قالت وسعمها البهى . أغلق عليه البـاب ونزلت تنتظر نهاية المعركة ، كانت تدرك أنه اليوم ، فتحت أبواب الجحـيم التي لن تنتهي إلا بعد أن تأكل النار كل الحطب .

وفي الحجرة العلوية كان البهي يدرك ذلك أيضاً . الفحبة ، الفاجرة ، زوجة عبد الغنى ، أكبر أبناء الطوالبة ، هى التي أغوته ، هى التي مدت يدها بالنهار يوم السوق ، وسحبته من قفاه ، وهو يمر أمام الباب ، وأدخلتـه إلى الدار . " كل هذا النور !" قالت وسعها صامتاً، وتركها تتأمـل عينيـه ، وتمشى بيدها على صدره . لقد سحرته . وضعت أصابعها عليه فمشـى في جسمه نمل جعله أسيراً لها . سحبته إلى غرفة قريبة وهو مستسلم ، تتابعـه نظرات الدجاج والبط فى ردهة الدار . الغرفة الكابية التي بلا نافذة أضاءت فجأة . أدركت هى النور ، ولم يدرك هو أنه دخل في ظلام ! " يخرج مـن جسمك يا عريس ، لابد أن أحمل سرك ، أشعلني وأدخلـني فى جنـهم " . سمعها وتركها تفعل ما تشاء . لقد حملته فوق سبع السماوات .

خرج من عندها خفيفاً كريشة . ما الذي كان يثقله ، وأفرغه فيهـا حتى يصير خفيفاً هكذا ؟ ولم تعد الشوارع الضيقة ضـيقة ، ولا البيـوت السوداء سوداء ، ولا روث البهائم في الطرقات له رائحة منفرة .

لم يكن قد مضى على زواجها من عبد الغني شهر واحـد. لـذلك لم تخرج إلى السوق مع نساء العائلة ، لا تزال فى حكم العروس . وبعد ذلك لم تخرج ،أيضاً عاندت واختلفت الأعذار عاماً كاملاً ، رأى أبنـاء الطوالبـة

كبيرهم ، عبد الغني ، يخضع للزوجة الصغيرة الجميلة ، فتعجبوا من سطوة الجمال على الرجال . لكن النساء ، نساء الإخوة الأخريات ، فكرن ودبرن حتى نجحن . وبالأمس رفعها عبد الغني عن الأرض ، ثم طرحها عليها بين إخوته ونسائهم وأمه وأبيه ، وداس على صدرها بقدمه ، ووضع السكين فوق عنقها " من يا بنت الجزمة ؟! " .

ولم تتردد . قالت بصوت واهن " البهى " . ذلك الولد الصغير الفاسق ! هتف الزوج ، وبصق على وجهها ، ومشى بالسكين عميقاً ، لكنها ضحكت ، وجلجلت ضحكتها في صحن الدار الكبير، وانقذف الزوج بعيداً إلى الوراء ساقطاً على مقعدته ، بينما طارت السكين من يده .

يا بوي ، يا بوي . هتف كأنه يتنهد ، وزاغت عيناه ثم تجمدتا على الفضاء اللانهائي . لقد غرس السكين في العنق ، وهو على يقين من ذلك ، لم ينبثق دم .

انفجرت فيه حزمة من الضوء .

قامت هي تضحك بلا انقطاع . جرى إخوته الرجال يبحثون عن السكين ، فلم يجدوها في أي مكان ، سيجدونها بعد ذلك في قلب صحن الدار ، ويندهشون كيف لم يرها أحد ذلك اليوم ، سيجدونها صدئة يفركها أحدهم بيده فتذوب رماداً . وحمله الإخوة إلى حجرته . لم يستطع القيام وحده ، كانت هي تقف في ركن بعيد تضحك وتنتحب معاً . أثارت شفقة النساء وخوفهن ، هن اللائي فكرن ودبرن . اقتربن منها ، وأخذنه إلى الزريبة ، وجلسن حولها في ركن من القش . كانت ترتعد بلا توقف . فلن

إنها ستموت الليلة . نسى أمرها الرجال الذين انشغلوا بـأخيهم الأكـبر العاجز . قدمت لها النساء إناء لبن طازجاً ، ابتلعته تاركة نصفه يسقط على صدرها ، ولا تتوقف عن الضحك والنحيب ، ثم مالت فوق القش ونامت ورأين جانبها يتحرك مع أنفاسها كما يتحرك جانب البهيمة المتعبة .

عند الفجر خرج الرجال من حجرة أخيهم متبـاطئين . صـرخت النسوة . مات ، هتف الرجال ، قُتل ! دمه في عنق الخلايلة " لايكفينا فيـه الولد الصغير العابق " لم ير أحد الزوجة وهى تتسلل من الزريبة مـع أول ضوء وتختفي . وفي الصباح ترصد أبناء الطوالبة البهى في الطريـق . كـان الخبر قد شاع ، وكان البهى عائداً من قرية مجاورة . لم يدرك أحد أن النساء والفتيات ، اللائي يغسلن أوانيهن في الترعة ، قد تباعدن إلى مسافات بعيدة ، حتى امتد صفهن إلى خارج زمام القرية . كل نساء القرية خرجن يغسلن أوانيهن ذلك اليوم، وهكذا قبل أن يدخل البهى شوارع القريـة أعلنتـه النساء ، فانشى إلى الحقول حيث يوجد إخوته ، وعادت النساء ينكمشن ، ويأخذن مكانهن المعتاد فوق الترعة ، عند منتصف القرية حيث يسبح البط ولا يبتعد ، وكان الطوالبة بدورهم قد وضعوا عيوناً لهم فعرفوا وجهة الفتى الصغير .

نزل مجد الدين تاركاً السطح . فتح كوة الباب الخشبي وخرج إلى دار خلف ، صديقه الباقي من العائلة الأخرى ، الذي أمر العمدة بطرده أيضـاً خارج القرية .

إلى أين انتهيت يا خلف ؟

يا شيخ مجد أنا ليس لى عيش هنا ، من زمان ومالي وتجارتي كلـها في طنطا ، وأنا أعرف أنى غير المقصود . العمدة فجأة قرر الإنتقام مما فعله بـه البهى زمان ، فأحيا حكاية الثأر بينا من سنين , سوف أترك القرية غـداً . أعرف أنى أستطيع العودة في اليوم التالي ، لكنى لن أعود .

وقدم خلف لمجد الدين سيجارة كوتاريللي . وسأله :

- سمعت أن أولاد عمك أزواج أخواتك يريدون قتال العمدة .

- لن يحدث قتال ، منعتهم .

- وماذا ستفعل ؟

- سأترك القرية غداً .

وخرج مجد الدين من دار خلف ، مدركاً لأول مرة ، أنه إنما ينصـاع لأمر العمدة ،ليس خوفاً ولا إذعانا ، لكن لرغبة قوية عميقة فيما يبـدو ، لترك القرية واللحاق بأخيه الشارد في الإسكندرية .

قبل هذ الليلة الأخيرة لمجد الدين بيومين ، كان الرد الذي طلبه هنالـر قد جاءه إعلاناً سريعاً بالتعبئة بين الشعب البولندى ، ونداء من رئيس بولندا إلى شعبه ، بأن يقف خلف جيشه ، دفاعاً عن الحرية والشرف .

انتهت المهلة إذن ، ولم يعد هناك مفر من دوران آلـة الشـر ، وفي صباح تلك الليلة الأخيرة لمجد الدين ،بالضبط في الساعة الرابعـة وخمـس وأربعين دقيقة ، بدأ الهجوم الكبير على بولندا .

كان اليوم هو الجمعة أو سبتمبر عام 1939 . لم يتعود مجـد الـدين الخروج إلى الحقل يوم الجمعة . كان يحب أن يمضي اليوم كله في " زواية " القرية الصغيرة ، ولكنه خرج ذلك اليوم إلى الحقل . لم يحب أن يـذهب إلى المحطة من داره مباشرة . وكان قد طلب من زهرة أن تسبقه إلى المحطـة في المساء ، لقد أرسل العمدة في الصباح ، عدداً من الخفراء إلى دار مجد الدين ، فعرفوا أنه في الحقل ، وسيغادرالقرية من هناك . وفي المساء وقف شـيخ الخفراء وخفراؤه على رأس الكوبرى الصغير ، الذي يربط القرية وطريـق الحقول ، ليمنعوا مجد الدين من العودة إلى داره . لم يصدق العمـدة أنـه سيترك القرية بسهولة لكنهم شاهدوه بالفعل يبتعد عن القرية ، على ظهـر حمار صغير أقرب إلى الأنان . أطلقت عدة أعيرة نارية للترهيب . لم ينشأ مجد الدين حتى أن يلتفت . إنه حقاً يريد الخروج

" إن الألم كنز ...

والليل يغدو أكثرنضرة إذا سلخت

عنه القشرة "

-3-

كانت محطة السكة الحديد ذلك المساء ، مثلها كل مساء خالية إلا من الناظر المسكين ، الذى لا يستطيع أن يبرحها قبل القطار الأخير في العاشرة ، ومثل كل مساء أيضاً ظل الرصيف حجرياً عريض الأحجـار وجامـداً ، واللافتة التي تعلن اسم البلدة كما هى بيضاء حائلة عليها خطوط سـوداء شاحبة ، ومرفوعة على الحاملين الحديدين الصدئين، ولا عصفور يقف فوقها أو يطير حولها .

لم تكن عصافير على الأشجار القريبة أيضاً ، والقضبان الأربعة بـين الرصيفين سوداء لامعة الأسطح ، بينها تختر البازوت ، وتجلط فوق العوارض الخشبية والزلط . القضبان تلمع دائماً من أعلى في نهارات الصيف ، وتبدو كأنما سطوحها بيضاء .

كان الطريق الذي يمر من المحطة إلى البلدة كما هو ، رفيعـاً مترب ـاً ساخن التراب ، قليل التعرجات ، قليل أشجار الكـافور والكـازورين ، وليس عليه فى هذا الوقت عادة غير رجل واحد يمشي .

ولأنه فى مثل هذا الوقت من كل يوم ، يظهر هذا الرجل في منتصف الطريق كان الأمر يحتاج إلى وقت أطول ، ليتأكد الواقف على المحطة ، مـا

إذا كان هذا الرجل قادماً إليه ، أو ماضياً نحو البلدة . الحقيقة أن الرجـل دائماً يختفي ، ولا يعرف أحد أين ذهب ، كأنما الأمر خدعة بصـرية ، مـا الذي يجعل العين لا ترى تبديلاً في المشهد كل مساء ، في المسافة بين البلدة والمحطة أيام الصيف ؟ .. هل هى حرارة الجو . وانكسـار الضـوء فـوق التراب ؟ والخضرة أيضاً كانت ، كما هى كل يوم ، ممتدة حـول الطريـق الترابي ، ولا يتحرك فوقها طير كثير . بعض غربان على ذؤابات النخيـل العالي ، وأبو قردان فوق أفرع الجميزات العجوز .

لقد أخذ مجد الذي طريقه إلى المحطة وسط هذا الجمود . بـدت لـه الدنيا كشيء مهمل ، براه ذات ظهيرة من فوق رابية ، في يوم مـن أيـام بؤونة . هل ما حدث له منذ قليل حقيقة ؟ هل هو حقاً الذي انصاع لأوامر العمدة بهذه السهولة ، وخرج من الغرفة كما تخرج الشوكة مـن العجـين وأسهل ؟ .. لقد رأى زهرة من بعيد تقف فوق رصيف المحطة ، وجوارهـا أخوها ، وعلى ذراعها الطفلة الصغيرة شوقية ، وجوار أقدامهم "فقـان " و" سلالي " . راحت تشير إليه أن يسرع . كانت الأتان بطيئة أكثـر مـا ينبغي ، فحثها على الإسراع ما استطاع . قبل أن يصل إلى المزلقـان تـرك الأتان . وعبر إلى الرصيف وحده . ولأن القطار كان قد اقترب كثيراً مـن المحطة ، هرول مجد الدين ، فتعثر بأحد الأسلاك الممدودة فوق الأرض بـين التحويلات ، فترك بلغته التي انخلعت من قدمه ، وعبر القضبان ، صاعداً إلى الرصيف . رأى ناظر المحطة في بزته الرسمية ، تلمـع أزراره النحاسـية في الضياء ، ويلمع طربوشه الأحمر ، فوق وجهه الأسود السـابح في ضـوء الغروب . بدا له الناظر كأحد جنود الهجانة . كان بوده أن يصافحه علـى

مهل ، فهو صديقه عبد الحميد ، ابن القرية المجاورة ، زميله في حمل القرآن . لقد التقيا معاً قبل عشرين سنة ، في مديرية طنطا ، لدخول الاختبار الخاص بحفظ القرآن ، والذي على أساس اجتيازه ، يتم اعفاؤهما من الجهادية معاً ، وكان على كل منهما ، حسب القانون ، ألا يعمل في شـيء غـير قـراءة القرآن بعد ذلك . أمضى كلاهما عشر سنوات لا يعمل ، ثم كان لابد مـن العمل . بعد السنوات العشر لا يمكن أن تظل الحكومة في مرافبتهما . راح مجد الدين يشارك إخوته في الفلاحة ، بينما التحق عبد الحميـد بالسـكة الحديد ، وألتقيا من جديد .. تعددت لقاءاتهما بعد سفرات مجد الدين لزيارة أخيه البهى بالإسكندرية . لماذا حقاً لم يستطع أى منهما العمـل مقرئـا أو منشدا للتواشيح ؟ ربما هو صوت ، صوت مجد الدين خافـت مشـروخ ، لكن صوت عبد الحميد جهوري وقوى . كثيراً ما فكر مجد الدين أن يسأل عبد الحميد عن ذلك ، لكنه يتراجع . في الحقيقة ينسى .

كان القطار قد خل إلى المحطة ، في اللحظة نفسها التي وصل فيها مجد الدين إلى زهرة ، رأى مجد الدين صاحبه القديم يتقدم نحوه ، يرفـع معـه إحدى القفتين ، ويدخلها معه إلى العربة ، عاد وفعل ذلك بالقفة الثانيـة ، كان أخو زهرة ، قد أدخل " السلالي " الكبير إلى العربـة، وقـال نـاظر المحطة :

- على مهلك يا شيخ مجد ، سأوقف القطار بعض الوقت ، أريـد أن أصافحك يا رجل كما ينبغي.

اندفع كل منهما في حضن الآخر ، فكر مجد الدين هل يعرف صديقه سر خروجه من القرية اليوم ،؟ نفث القطار البخار الأبيض، وصفر له الناظر أيضاً ، وأطل مجد الدين من النافذة يقول لأخى زهرة " الحمار عندك قبـل المزلقان " وازدادت سرعة القطار وصوت العجلات .

الآن فقط أدرك مجد الدين أن الأمر انتهى ، لقد طرد حقاً من بلدته، حتى لو كانت بداخله رغبة غامضة في الخروج . هذا شيء لم يحدث لأحـد من قبل ، ولم يره في حياته على الأقل .

جاء المحصل فأطلعته على " التسكرتين " اللتين اشترتهما قبل وصـول مجد الدين ، انصرف المحصل فلاحظ مجد الدين نظرة الرعب في عينى زهرة ، أبتعد عن عينيها ليرى فى آخر العربة، أمرة يجلس حولها خمسـة أطفـال ، ذكور وبنات ، في جلابيب قديمة ممزقة وحفـاة . لقـد رأى هـذه المـرأة والأطفال أنفسهم من قبل في القطار عند زيارته الأخيرة للبهي منذ منتصف العام . يا أرحم الراحمين . لا يصدق لكن هذا ما حدث .بل ورآهـا مـرة أسبق . يخيل إليه أنه منذ درج على زيارة أخيه ، وهو يرى هـذه المـرأة ، وهؤلاء الأطفال العراة الحفاة .

المرأة لا تشيخ ، والأطفال لا يكبرون رغم مضي السنوات . الصمت في العربة كبير ، عميق النوم لولا صوت العجلات تحـت الفاعـد. لقـد ابتعدت زهرة إلى طرف المقعد، وفرشت على المقعد جلباباً أخرجته من أعالى السلالى ، وأنامت الطفلة فوقه ، ثم غطتها بالشال الأسود الذي أخرجتـه

من السلالي بعد ذلك ، وطلبت من مجد الدين أن يحكم إغلاق النافذة الـتي بينهما . يغلق زجاجها أيضاً أمام الشيش . لقد حل الظلام والهواء البـارد راح يتسلل إليهم مع حركة القطار .

كيف يمكن أن تمضي الرحلة ؟ أى نوع من الكلام يمكن قولـه الآن بعد أن أنامت زهرة الطفلة وجلست تنظر إلى زوجها الـذي راح يبادلهـا النظر بدوره ، وإن لم يخالط عينيه الرعب نفسه الذي ملأ عينيها ؟

كانت زهرة تتألم في الحقيقة ، لأنه ليس لها من الإخوة الرجـال غـير أخيها الذي جاء معها إلى المحطة يودعها ، وهو أيضاً غير شقيق لها ؛ أخواتها البنات وأمها " سيدة " لا يستطعن قتال العمدة . أجل . كانت تود لـو أن لها عزوة كبيرة تقاتل العمدة ، ما دام مجد الدين قد منع أبنـاء عمـه مـن القتال . لابد أن مجد الدين خشى من ترمل أخوانه إذا مات رجالهن ، لكن كان لابد لأحد أن يمنع خروجهما ، رغم أنف مجد الدين نفسه ، هى تسافر معه مكسورة القلب ، فلا عزوة لها تساعد زوجها ، لكنها راضية أيضاً تقوم بما يجب على الزوجة الوفية . نظرة الرعب في عينيها ستنتهي بعد قليـل ، لابد ، وحدث ،تبدلت النظرة إلى حنان بالغ ، تمنت لو تركوه الليلة يعـود إلى داره .

في مثل هذا الوقت يكون قد عاد من الحقل ، واغتسـل وتعشـى ، وأطعم البهائم ، ومسح على أجسادها ، وغير لها الماء ، ووضع لها العلف ، وساعد زهرة على حلب الجاموس ، ثم صلى العشاء ، وانفرد عن الجميـع بالمصباح الغازي ، وراح يقرأ في الغرفة القرآن .

- هذا ما حدث على أى حال ... ها .. ها ..ها ..ها .

جاءهما صوت غليظ ، نظر مجد الدين ليرى صاحبه . لم تشـأ زهـرة الالتفات . امتعضت في صمت ، رأى مجد الدين صاحب الصوت ، فصـيراً سميناً ذا طربوش حائل ، يجلس على طرف المقعد ولا تكاد قدماه تصلان إلى أرضية العربة . كان يتحدث بدهشة بالغة لآخر يجلس أمامه إلى داخل المقعد قليلاً ، لذلك لم ير مجد الدين منه غير طربوشه وقفاه ، وبافة قميص بيضـاء متسخة قليلاً . واستمروا يتحدثان . ولفرهمـا مـن مجـد الـدين كـان يسمعهما .

- لن تتركه فرنسا ولا انجلترا ، إنها بداية حرب عالمية جديدة .

- وهذا ما يجعلني أضحك بشدة.

- ماذا تقصد بهذا الضحك ؟ أقول لك حرب عالمية سيموت فيهـا ناس .

- أقصد أننا منقولون للعمل بالإسكندرية نفس يوم هجوم ألمانيا على بولندا ، هذه مسألة مقصودة ، اتفاق مع هتلر .

راح مجد الدين يسمع الكلام مندهشاً . كان يعرف مما يتناثر في القرية ، ومما يقوله الراديو الضخم الذي نادراً ما يستمع إليه ، أن هناك استعداداً للحرب ، إن ألمانيا تثير المشاكل مع الدول الأخرى ، وإن الناس تخشى قيام حرب جديدة تكون جديدة تكون أشد فتكاً من الحرب السابقة . لقد نسى هذا كله خلال الأيام السابقة . ها هو يعود إليه . لذلك أنصـت لكـلام الرجلين .

لم ألحق بالجريدة المسائية في طنطا ، خطفها الناس من الباعة ، الإذاعة قالت إن وارسو تتعرض من الصباح الباكر إلى غارات شديدة ، وإن الجنود الألمان يدخلون بولندا من أكثر من جهة .

- هذه نتيجة أطماع الدول الأوروبية ، إنها حروب الطماعين .

- المشكلة أن هذه الحرب ستصل إلينا .

- لأننا منقولون إلى الإسكندرية في اليوم نفسه ؟! لا يمكن طبعاً . هذا تشاؤم لا محل له ، ما علاقة الإسكندرية بحرب تجرى في أوروبا ؟

بدأ الحديث وقد أخذ طابعاً غريباً على مجد الدين ، لـذلك أخـرج المصحف الصغير من جيب صداره ، لكنه قبل أن يفتحه عاد الحديث بـين الرجلين .

- الإسكندرية نفسها ستكون سبب وصول الحرب إليها يا محترم ، لا تنس أن إيطاليا في ليبيا .

- هل تظن أن موسيليني يفعلها ؟

- إنه أستاذ هتلر في الفكر ، إذا لم يلحق به هـذا العـام في العـام القادم .

- نحن على كل حال لن نبقى بالإسكندرية غير عام واحد ، ثم إنـني أشك في اتساع الحرب ، لقد ابتلع هتلر تشيكوسلوفاكيا وقبلها النمسـا ، ولم يتحرك أحد .. سيبتلع بولندا ولن يعارضه أحد ، وأوروبا كلها مرعوبة

، والاتحاد السوفيتي وقع معاهدة معه ، ثم لماذا نذهب بعيداً ، ليت ألمانيا أو إيطاليا أو الاثنتين معاً يحتلان مصر ويخلصاننا من الإنجليز .

انقطعت أصوات عجلات القطار الذي يقـف الآن فى محطـة كفـر الزيات. سكت الرجلان بدورهما ، وأضيئت مصابيح بيضاء أسفل سـقف العربة ، فازداد لمعان المقاعد الخشبية الصفراء النظيفة ، صـعد إلى العربـة رجل وثلاثة أطفال ذكور . الرجل أنيق فى بدلته " الشارك سكين " البيضاء الصيفي وطربوشه نظيف وحذاؤه المقسم بين الأبيض والأسود ذو سن رفيع مدبب . الأطفال يرتدون بنطلونات قصيرة زرقاء ، وقمصاناً بيضـاء ذات أكمام قصيرة ، للبنطلونات حمالات زرقاء أيضاً بها خطوط بيضاء رفيعـة . وجوارب الأطفال بيضاء طويلة وأحذيتهم السوداء لامعة عريضة البـوز ! لكن الأطفال بدوا وقد كفوا في الحال عن البكاء .جلس الرجل في مواجهة مجد الدين ، الذي رآه يضع إصبعه السبابة على شفتيه ، يحذر الأطفال الذين جلسوا أمامه ، من إصدار أى صوت . ثم رآه مجد الدين يخرج علبة سجائر مذهبة من جيب الجاكت ، ورآه يضغط على العلبة فتخرج منها سـيجارة رفيعة ، أشعلها الرجل ، ثم راح ينفث دخانهـا الأزرق ، مغمضـاً عينيـه بارتياح.

تحرك القطار ولم تكن المحطات التالية مجهولة لمجد الـدين ، سـاعتان ونصف الساعة ويصل القطار إلى الإسكندرية ، وهكذا تعلم مـن زيارتـه السابقة للبهى . هل سيجده في حالة طيبة هذه المرة ؟

ذلك اليوم البعيد عاد الأب وأبناؤه من المعركة ، يحملـون القاسـم ملفوفاً في جلباب أحدهم ، صرخت الأم ، وانفرد مجد الدين ، الذي كـان في الحادية عشرة ، بأحد الأركان ، وراح يبكى . القاسم هو أكثر الإخـوة حنانا على مجد الدين ، وهو أشجعهم ، تعرف شجاعته القريـة والقـرى المجاورة .

دفن الطوالبة ميتهم المغدور من زوجته في العصر ، ودفـن الخلايلـة قتيلهم بالليل ، ونامت القرية على الصمت والرعب . في اليـوم التـالي لم يخرج أحد من داره .وفي اليوم الثالث خرج الناس ، بعد أن سرت شائعة ، بأن الخلايلة قد رضوا بحكم الله . ابنهم العايق حسر عميد أبنـاء الطوالبـة حتى مات كمداً ، والطوالبة قتلوا عميد ابن الخلايلة ، فتساوى الجميع ولا دين لأحد على أحد . لكن عند نهاية الأسبوع عثر على أحد أبناء الطوالبة ، مقتولاً خارج البلدة ، وفشلت كل محاولة ، من العمدة أو المركز أو المديرية ، للصلح بين العائلتين ، ولا أحد يتهم أحداً بالقتل . أيقن الجميع أن الأيام ستجرى في المجرى الذي قدره الله لها . رأس برأس حتى تفنى العائلتـان .ولم يعد غريباً أن يعرف الناس من أى عائلة يكون القتيل القادم . بدت اللعبـة شديدة الإحكام مهما طال الوقت وترهل بين القتيل والآخر . وكلما قتـل واحد ، ازداد ازورار الناس في القرية عن البهى . لقد كـان هـو سـبب اشتعال القرية الهادئة التى لم تكن تعرف الثأر إلا حكايات قديمة ، عن أزمان لم يعشها أحد من الأحياء الآن . تمنى البهى لو قتله أحد من الطوالبة، لكنهم كانوا يهملونه دائماً. يشعرونه بالمهانة ، فهم لا يقتلونه استصغارا لشـأنه ، وهو يعرف لذلك كان كثيراً ما يخرج من القرية ، ويغيب أياماً في طنطـا أو

كفر الزيات. وكانت زوجة عبد الغني قد صارت تغنى على أطراف الحقول ، وتمشى جوار الترعة خارج زمام البلدة ، وإذا أخطأت ودخلتها طاردها الأطفال بالحجارة هاتفين " البهية للبهي " هكذا أسموها ، وكان اسمها القديم " وجيدة " ،كثيراً ما كان البهي يسمع هتاف الأطفال هذا ، ويتمنى لو جاء صباح ، وجدوا فيه " وجيدة " أو بهية كما صاروا يسمونها مقتولة، لكن ذلك لم يحدث . تماماً كما لم يقتله الطوالبة . قتلوا من إخواته خمسة الآن . وقتل إخوته منهم خمسة أيضاً . ومل الأطفال الهتاف كلما شاهدوا " وجيدة " فدخلت القرية وفتحت لها الناس الأبواب يقدمون لها الطعام والشراب ويتابعونها مشفقات ، وهى تمشى مغنية في الفضاء بصوت عذب . كانت بريطانياً قد أعلنت الحماية على مصر ، راح الناس يشاهدون قطارات الجنود ، وهى تمر أمام القرية ، ويحكون عنها قصصاً غريبة . نزلت قوات المركز والمدبرية من البوليس إلى القرية تختار أفضل الرجال ، نسوقهم إلى الحرب في البلاد البعيدة ، نسى الناس حكاية البهي ، وتراجع الثأر بين العائلتين ، وانشغل الناس بقصص " السلطة " ، وما تفعله بالفلاحين ، والشباب الزينة الذين اختفوا في ظروف غامضة ، والرجال الأبطال الذين عادوا من الحرب والذين لم يعودوا ، وكيف انتصرت بريطانيا على ألمانيا ، وإدارة الله التي تجعل النصر حليف غليوم الثالث ، فينقطع من مصر وباء الاحتلال . أيضاً شيئاً فشيئاً بهتت قصص الحرب ، وثورة سعد زغلول بعد الحرب . كانت القرية تتذكر أبناءها الشهداء في الثورة والحرب قبلها ، أبناءها الضائعين ومن بينهم كان البهي الذي اختفى سنوات الحرب ولم يعد ..

كان القطار يتحرك من محطة لأخرى ، والكمساري يفحـص بدقـة تذاكر الرجل الأنيق وأطفاله ، وفتح مجد الدين المصحف كيفمـا اتفـق ، فوقعت عيناه على سورة " الأعراف " وسألته زهرة فجأة :

- همّا عملوا فينا كده ليه يا شيخ مجد ؟

كانت آيات كثيرة من السورة في الصفحات السابقة . لم يفكـر أن يقرأ السورة من أولها . وارتفع صوته قليلاً غير آبه بأحد .

(قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها مـن يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) صدق الله العظيم . قال ذلك لنفسـه ، وأغمض عينيه و أغلق المصحف وراح يقرأ من محفوظاته .

(وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) . (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنـا هـو مولانا وعلى الله ليتوكل المؤمنون) . (وإنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلنـاه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها و ازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا لـيلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصـل الآيـات لقـوم يتفكرون) . (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول لـه كـن فيكـون) . (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجـر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ... إلى آخره....) كان يرفع صـوته شـيئاً فشيئاً حتى كاد يملأ العربة (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلـك غـداً إلا أن

يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هـذا رشداً) . (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صـبرتم لهـو خـير للصابرين) . (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ولـه الحمـد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون)

ومال الرجل القصير إلى زميله وهمس :

- الرجل يقرأ المصحف مغلق بين يديه . يقرأ بصوت عـال ويبـدو شارداً عما يقرؤه . لابد أنه يحمل هماً كبيراً .

- سترى ما هو أكثر من ذلك إذا طالت الحرب ؟

سكت الرجل القصير مندهشاً من تعليق زميله . وفكر فى الإسكندرية كيف ستستقبلهما بالليل .

اليوم صلى الملك فاروق صلاة الجمعة في مسجد مصطفى أودة باشـا بشارع الفتوح بالجمرك . هكذا أعلنت صحف الصباح . لقـد كـان في استقبال الملك ، على ماهر باشا صاحب المقام الرفيع ، وعبد الرحمن عـزام باشا ، وصاحب الفضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغي ، وبـالطبع محـافظ المدينة . لقد عاد الملك إلى قصر المنتزه العامر كما يحدث بعد كل صـلاة . وأعلن في الصحف الصباحية اليوم أن مواليد الإسكندرية هـذا الأسـبوع بلغوا خمسمائة وعشرين من أبناء المدينة وخمسة وعشرين من الأجانب ، أما الوفيات فكانوا مائة من أبناء المدينة وأجنبياً واحداً .

وكانت أسباب وفيات السكندريين : الشيخوخة أو الحمى القرمزيـة أو الحمى الشوكية والملاريا والسل الرئوي بالنسبة للكبار ، والدوسنتاريا ،

والسعال الديكى والتيتانوس بالنسبة للأطفال، أما الأجنبي الوحيـد وهـو يوناني فقد قتله فبرصي سكران .

" هذا العالم الصغير القاتل
موجه إلى البرىء
يأخذ الخبز من فمه
ويعطى بيته للنار .."

-4-

- دخول المدن بالليل أمر صعب .

هكذا قال الرجل السمين لرفيقه ، وهما يمران جوار مجد الـدين ، في طريقهما إلى باب العربة ، استعداداً للنزول ، لم يستمع مجد الدين لرد رفيق الرجل ، الذى بالفعل لم يرد .

- زهرة . أصح . وصلنا إسكندرية .

قال مجد الدين وهو يهز زوجته من كتفها. نهضت مذعورة قلـيلاً ... " يا ساتر يارب " قالت لنفسها ، بدت تدرك أين هي بالضبط ، تحسسـت رأسها فوجدت الطرحة السوداء مكانها . تحسست صدرها فوجدت النقود تحت ثيابها . حملقت فى مجد الدين فتأكدت أنه مجد الدين !

على الرصيف وقفت حاملة الطفلة ، وانشغل هو بمتابعة المرأة وأطفالها الخمسة ، والرجل الأنيق وأطفاله الثلاثة . ما الذي يجعله يفعل ذلك حقاً ؟ المدهش أن المرأة وأطفالها اختفوا من أمام عينيه ، رغم أنه لا يوجد زحام في المحطة ، ربما لأن الأنوار كابية . لكن هكذا يحدث في كل مرة يـزور فيهـا البهى . يرى المرأة وأطفالها في القطار ، ويختفون على الأرصفة .

الرجل الأنيق وأطفاله لم يختفوا . رآهم حتى خرجـوا مـن أقـرب الأبواب . لقد وقف على الرصيف طويلاً حتى كاد ركاب القطـار كلـه يختفون .

- شيال ؟!

- أجل .

وحمل الشيال الطويل القوى الحافي قفة على كتفه اليسرى ، واحتضن الاخرى تحت إبطه الأيمن . قال لمجد الدين أن يتبعه حاملاً السلالي. كانـت خطوات الشيال واسعة سريعة ، وكادت زهرة تتعثر أكثر من مرة ، ومجـد الدين متحير ، لا يستطيع أن يطلب من الرجل التمهـل . كانـت عينـاه مركزتين على القدمين الحافيتين لشيال لا يعرف لماذا يتذكر أنه كان يمكـن أن يكون حافياً أيضاً ، بعد أن ترك بلغته على الأرض ، حين تعثـر وهـو يهرول إلى المحطة ، لولا أن زهرة كانت قد أحضرت بلغة أخرى معهـا في السلالي ...

" صعب أن تدخل المدينة بالليل " ... رنت الكلمات في رأسه ، حين خرج من باب المحطة إلى فنائها الواسع . قابله ظلام عريض عميق . مصابيح الميدان المواجه للمحطة كلها مطفأة والأشجار شديدة السواد ، وليس مـن ضوء إلا فوانيس عربات الحنطور الحمراء ، المخالفة لتعليمات الأمن .

كان في فناء المحطة عدد قليل من عربات الحنطور ، وعربات الكـارو والتاكسيات . أنزل الشيال القفتين إلى الأرض بمساعدة مجد الدين . أعطاه مجد الدين قرش صاغ .

- الحرب قامت يا رجل ، هذا لن يكفيني عشاء .

لم يفهم مجد الدين معنى قيام الحرب . هل بدأت في الصباح كما سمع المسافرين لتصل هنا بالليل ؟ هل هي قريبة إلى هذا الحد ؟ طـال تفكـيره فيئس الشيال من الزيادة وانصرف .

- إلى أين ؟

تساءل الحوذي العجوز الذي اقترب من مجد الدين .

- غيط العنب .

- خمسة صاغ .

- موافق .

اقترب الحوذي بالحنطور . ساعد مجد الدين في حمل متاعه . ثم صـعد مجد الدين مع زهرة يجلسان على مقعد الحنطور . ظلت زهرة تحمل طفلتها ، وتدعو الله ألا تستيقظ وسط هذا الظلام .

فرفع الحوذي بسوطه في الفضاء ، وتحرك الحصان. انطلق في البدايـة بقوة فجأة فاهتزت العربة ، واندفعت زهرة إلى الخلف ، ثم إلى الإمام بشدة ، فكادت البنت تسقط تحت قدميها ، وتماسكت وتنفست ، وأحست بهواء بارد منعش يهدهد وجهها ويتسرب إلى جسمها . " الجو حنين " ، قالـت لنفسها إذ أشاعت النسمة الباردة المنعشة فيها شيئاً من الطمأنينـة . لقـد نامت زهرة من جديد من اهتزازات العربة ، وكان هذا عجيباً لمجد الدين إذ إنها نامت في القطار معظم الرحلة .

- أين في غيط العنب ؟

تساءل الحوذى ورد مجد الدين .

- شارع 12 بيت نمرة 88 .

- أنا أعرف الشارع ، لكن النمرة عليك أنت ، طبعاً تعرف تقرأ .

قال الحوذي ذلك ، وأخرج من صداره زجاجة صغيرة داكنة بحجـم كف يده ، رفعها إلى فمه بعد أن فك غطاءها ، وأخذ منها جرعة سريعة .

- تأخذ لك شفطة كينا .

لم يرد مجد الدين . ولم يطلب الحوذى رداً . فطن كل منهما للطريق .

لم يكن هناك غير قليل من المارة . رجال يعـدون علـى الأصـابع . عربات حنطور تعد على الأصابع أيضاً . سيارة أو اثنتان أجرة ، تمـر مـن جوارهما بين وقت وآخر. دخل الحوذي منذ قليل في شـارع عمـر بـن الخطاب . المحلات الصغيرة مضاءة بالفوانيس الصفراء الصغيرة . فـوانيس تضاء بالشموع ، نادراً ما يظهرمحل مضاء بالكهرباء . عند مبولة الحضري ، دخل الحوذي في شارع إبزيس ، كانت محلات الشارع قليلة ومعظمها مغلق ، حين دخل السائق في شارع راغب ازدادت الإضاءة قلـيلاً بـالمحلات . ازداد عدد المارة ، والسيارات الأجرة والحنطور ،كانت هناك عربـة تـرام تمشي أمامهم من بعيد ، مصابيح الاعمدة كانت مطليـة بـاللون الأزرق الفاتم . الضوء لا يكاد يصل إلى الأرض ، إضاءة المحلات الكهربائية القليلة تتسلل إلى الأرض الخالية فيظهر بلاطها مكسراً في أماكن كثيرة . السـاعة

بعد لم تصل إلى الحادية عشرة مساءً . لم يصادف مجد الدين في الطريـق أى مقهى غير واحد عند نهاية شارع إيزيس ، يجلس رواده الفليلون جداً علـى ضوء لمبة كهربية واحدة ، مدفونة في أبعد مكان بالمقهى . كما رأى مقهـى آخر عند آخر شارع راغب ، أمام الكوبري مباشرة جهة اليسار . مقهـى صغير لايجلس فيه غير ثلاثة أشخاص على ضوء الشموع . لقـد توقـف الحوذى الآن أمام الكوبري وقال :

- يبدو أن الكهرباء انقطعت .

لقد رأى مجد الدين حقاً خيمة سوداء نزلت على الدنيا منذ قليـل . لقد انطفأت مصابيح الشارع ، والمحلات القليلة ، وتراكمت كتل الظـلام أمامه . استمرالحوذى يتحدث .

- الكهرباء انقطعت ، والكوبري مفتوح للمراكب ، يعنى لازم ننتظر كان ممكناً أن أدور بكما من عند كوبري كرموز ، لكـن المشـي علـى المحمودية بالليل وفي الظلام خطر ، خطر على وعليكم وعلى الحصان .

كانت زهرة قد استيقظت في الوقت الذي تمنى فيه مجد الدين أن تنام .

قالت :

- إحنا فين !

- في راغب .

- راغب ! راغب من ؟

- اسكتي يا زهرة . نامي ، الكهرباء مقطوعة والكـوبري مفتـوح للمراكب ، فدامنا ساعة زمن .

لكن زهرة لم تنم . أخرجت ثديها أعطته للبنت الـتي اسـتيقظت في الظلام . كان مجد الدين يفكر فى المرات التي سبق وزار فيها البهي، كيـف كان التيار الكهربي ينقطع في الليل لأسباب يعرفها الناس ، ويتحدثون عنها في الصباح ، منها مطاردة البوليس للصوص الذين يهاجمون السـفن المـارة بترعة المحمودية ، أو القبض على بعض الشباب مـن الـذين ينتمـون إلى جماعات سياسية . وكان يعرف ماذا حدث في الظـلام مـن مشاكسـات جنسية . كل امرأة يداهمها الظلام ، تمتد ا أيدى بعض المارة الذين يصبحون خلفها أو جوارها فجأة ، رغم أنها كانت تمشي وحيدة في الطريق . لذلك لا تكاد تنقطع الكهرباء ، حتى تبحث كل امرأة او فتاة عن اخرى تلوذ بهـا ، لتشجع كل منهما الأخرى ، وكانت الأيدى لا ترحمهما أيضـاً ، لكنـهما يصبحان أكثر جرأة ، فيسبان صاحب اليد الممدودة .

كان عدد من الرجال قد تجمع أمام الكوبري ، وثلاث نساء آثـرن الوقوف معاً في فم المقهى الذي تضيئه الشموع، و تحسس مجد الدين زهرة جواره ، وهو يعرف أنها جواره ، وتجمعت عربات الحنطور وتقاربت ، بينما أخذت التاكسيات طريقها ناحية كوبرى كرموز ، وقد امتد نورها الأزرق قليلاً أمامها .

أخرج الحوذى زجاجة الكينا مرة أخرى وقال هامساً :

- المراكب الماشية في الترعة وقادمة من البينا متروسة أسلحة . مدافع وعربات وحواليها عساكر تتحرك وفي أيديها بطاريات . الحرب يبدو قادمة إلى هنا ..

ثم خاطب مجد الدين : لماذا جئت الإسكندرية اليوم يا أخ ؟. ألا تخاف من الحرب ؟

أضاء نور الشارع فجأة لم يرد مجد الدين. بدأ الكوبري يتحرك ليعود إلى مكانه فوق الترعة .

عبرت " الحنطور "الكوبري ، تكاد تنخلع من مطباته . من اليمين ، وبعد الكوبري مباشرة ، تأتي رائحة دقيق ، من وابور الطحين عالي الجدار ، ذى الشبابيك المسدودة بالشبك السلكي الضيق ، التي اكتست بذرات الدقيق الأبيض ، فظهرت وسط الغبش ، قبل نهاية دوران شريط الترام آخر الشارع ، وأمام نقطة البوليس التي تتصدر الدوران انحرف الحوذى إلى اليمين داخلاً شارع اللبان ، الذي يسميه الناس شارع (12) لأن عرضه اثنا عشر مترا ، وهو أوسع وأطول شوارع المنطقة ، لكن زهرة التي رأت أكثر من عربة ترام مضاءة بأضواء خفيفة واقفة في الدوران هتفت:

- إيه ده .. فطر.

قال مجد الدين بهدوء :

- ترومواي يا زهرة : ترومواى .

وضحك الحوذى وسأل ما إذا كانوا يأتون الإسـكندرية أول مـرة فأجاب مجد الدين بالإيجاب وسكت . ومرة أخرى أقبلت رائحة الدقيق من وابور طحين آخر على يسار الحنطور في شارع اللبان ، الذي كانت العربة تمشي فيه بصعوبة ، تنخلع أكثر مما كانت فوق الكوبري، أرض الشارع غير مبلطة ، ومفروشة بالدبش الأبيض الصغير . بعد لحظات طلب مجد الـدين من الحوذى أن يقف .ها هو البيت على يمينه . إنه لا يخطئه . بيت صغير من دورين محشور بين بيتين أعلى منه بدور واحد .

قال البهي وهو يصنع لهما الشاي على سـبرتاية في ركـن الحجـرة الصغيرة :

- أنتم محظوظون لأنكم وجدتموني ، أنا راجع تواً من المقهى .

وسأله مجد الدين الذي كان ممدداً على حصير فوق الأرض ، ومستنداً بظهره إلى الحائط :

- وماذا تفعل بالمقهى حتى هذا الوقت ؟

- لا شيء يا شيخ مجد .ثرثرة وشرب شاي .

وراح يضحك وهو يصب الشاي في الأكواب الصغيرة كانت زهـرة مقعية في ركن آخر من الحجرة، وتعطيهما ظهرها وترضع ابنـها الـتي لم ترضع كفايتها في العربة ، كانت تفكر كيف سينامون جميعاً في غرفة واحدة ، وكانت تجاهد دمعاً يكاد يجرى على وجنتيها ، تتذكر دارهم الكـبيرة فى

البلد .. فتحت الطفلة عينيها العسليتين اللوزيتين ونظرت إلى أمها ، بينما لم تترك حلمة البز من فمها ثم اندفعت في البكاء . هل انتقل الإحساس بـالألم من الأم إليها ؟ أغلب الظن أنه كذلك ، لكن زهرة سرعان مـا انتقلـت بمشاعرها إلى الدهشة من نظافة وأناقة حجرة البهي ، ورائحة المسك الـتي تنتشر فيها ،والبهي ذاته الذي يرتدى البنطلون والقميص كأبنـاء المـدن وحذاء أبيض . هذا رجل آخر غير الذي رأته منذ عشر سنوات . هل تفعل الإسكندرية ذلك بكل الناس ؟

وتساءل البهي :

- لماذا لا تحدثني عن سبب خروجك من البلد ، لم أعرف أنك تكـره البلد أو تحب الإسكندرية .

فلت لك إني من زمان أريد الخروج .

- وأرضك ؟

- مع أخواتي وأزوجهن.

- إذن عليه العوض ..

ولأنه سمع أنينا خافتا من ناحية زهرة سألها:

- ما الحكاية يا زهرة ، لماذ تبكين ؟

ولم يجد مجد الدين أمامه إلا أن يقص عليه الحكاية كاملة . وسـكت الجميع . أعمقهم سكوتاً كان البهي. إلى هذا الحد كان لعنة على أهلـه ، وحتى اليوم . ما الذي تريده الأقدار منه ، لقد تعذب السنين الفائتـة بمـا

يكفي وزيادة.هل كان عليه أن يقتل نفسه بيديه مبكراً ، كل ذلك لأنه ولد فتنة للنساء . لقد ترك نفسه يمشي في كل وقت وفي كل مكان لكن أحـداً من الطوالبة لم يقتله . خاض أهوال الحرب الفائتة ولم تعطه الأقدار فرصـة الموت .. أجل . ترك البلد وراح يتسكع في أسواق القرى المجاورة.. التقطته بائعة سمن وزبد من " شبرا النملة " . كان صيته قد سبقه إلى كل القـرى ، والفتنة لا تزال تشع من عينيه ، التقطته بائعة السـمن والزبـد، وكانـت (بهية) تترصده وتمشي وراءه في البلاد . لم يعد يطاردهـا الأطفـال مـن القرىالأخرى أيضاً . يئسوا وصارت بهية ظله أو نوره على الأرض ، وحين يأتي الليل تختفي في الحقول ، ويختفي هو عنها ، ويظن أنها لا تعرف طريقـه أبداً، وفي الصباح يجدها وراءه .

-لا تمشي ورائي (بهية) في الطرقات .

تبتسم وتمشي بيديها على صدره، وتزوغ عيناها إلى بعيـد ، ويـرى دموعها فيعطيها ظهره ويمشي يكاد يبكى ... فكر أكثرمن مرة أن يمسـك بها ويقفان معاً أمام القطار. لكنه لم يقدر على ذلك أيضاً ، إنه أضعف من أن ينتحر . وكان يرى خطوط الشيخوخة تظهر مبكرة فى وجهها وشـعرات رفيعة تنبت على ذقنها ، وحين التقطته بائعة السمن ترك نفسه لها غير خائف من شىء . بل وفكر بشيطانية أنه قد يكون سبباً في جنون امرأة أخـرى ، وتمنى أن يكون سبباً في جنون كل نساء القرى ، آه لو صارت النساء كلهن في الريف يمشين وراءه معتوهات . وكأنما كانت بهيـة تعـرف ، اختفـت فجأة . ودعته بائعة السمن إلى بيتها بجرأة ، فذهب معها قوى القلب آمـلاً أن يكون سبباً فى جنونها . رآها تقدمه لأبيها باعتباره تاجراً كبيراً من طنطا

، يريد سمنهم وزبدهم كله طول العام ، ورأى في نظرة أمها لؤماً وشـراهة وشكاً فيه ، ففكر أن يجنها أيضاً ! أعدوا له حجرة ينام فيها ، وطلب منهم أن يجمعوا ما يستطيعون من سمن وزبد وبيض من القرية ، عرف من المـرأة الجميلة الملحمة قليلاً ، أنها أرملة دهس زوجها السابق أوتومبيل في طنطا . كانت تأتي في غرفته كل مساء . لم يشك في معرفة والديها بذلك ، أدرك ما يتم ترتيبه له . لكنه لم يخلق للزواج والحياة الأسرية .في فجر اليوم السـابع تسلل خارجاً ..كانت الشابورة تلف دور القرية السوداء . كان مشهداً لا ينساه . بيوت شاحبة السواد تدور في بخار الماء الأبيض بحجم الكون . هل يختلف الجحيم عما يراه ؟ بدت له البيوت حيوانات خرافية تدور معذبة في عماء كامل .ولما لامست قدماه شريط السكة الحديد ، أخذ طريقه إلى طنطا وليس إلى قريته ، وحين قابله مزلقان ، جلس يشرب الشاي في خص أعد له على الطريق . كان يريد الانتظار حتى تنقشع الشـابورة ، ويـرى الـدنيا أوضح .

ولما انقشعت الشابورة رأى أمامه فريقاً من جنود الهجانة فوق الجمال يجرون فريقاً من الفلاحين المربوطين في حبل طويل . لم يكن لديه أى فرصة للهرب . ترجل أحد الجنود وأمسك بذراعه . بهدوء فيده مـع المقيـدين . وهو بدوره لم يعترض . ولم يسأل . لم يصرخ . سافوه مـع الآخـرين إلى المديرية في طنطا ، ومن هناك إلى معسكرات الجيش في القاهرة . لقد خطفته " السلطة " ليخدم ويحارب سخرة في جيوش إنجلترا التي أعلنت الحماية على مصر .

" الإحساس " بإيقاعات الإسكندرية
ينتقل عبر الشوارع إلى الأجساد
قبلات جائعة ،أو عبارات تردد،
بأصوات مبحوحة من الدهشة والحيرة " .

-5-

بدا أن كل شيء كان مهيئاً لاستقبال مجد الـدين وزهـرة . بالليـل أخبرهما البهي أن صاحب البيت " الخواجا ديمتر " رجـل طيـب يسـكن بالطابق الثاني في غرفتين ، وأمامهما غرفة مستقلة يمكن أن يؤجرهـا لهمـا. وعرفا منه أن بالدور الأرضي هنا تعيش امرأة اسمها " لولا " مع زوجهـا في الغرفة المواجهة لغرفته ، قال لهما البهي أيضاً إنه سيتركهما ينامان في غرفته الليلة ، وسيخرج لينام في مدخل البيت ، حيث يكون الجو أطيب حرارة ، وتكون الفرصة أكثر للاستيقاظ مبكراً . لم يكن أمام مجد الدين إلا أن يوافقه ، وإن اندهش قليلاً من حديث أخيه عن الاستيقاظ مبكراً ، ثم قال لـه أن يوقظه معه ليخرج يبحث عن عمل .

مضى أكثر الليل في كلام آخر عن الحي وسكانه ، لم يعلق بذهن مجد الدين منه شيء ، فهو يعرفه من قبل ، واندهشت زهرة من الحـديث عـن الخلاف بين المسيحيين والمسلمين ، وكيف صار غير واضـح الآن . بينمـا

الخلاف الحقيقي هو بين أبناء بحرى وأبناء قبلي . قال البهي إن أبناء بحـرى من رشيد ودمياط وغيرهما مسالمون دائماً ، لكن أولاد قبلي من الجعـافرة والجهانوة يتربصون بهم ويهينونهم . هناك صراع دائم بين الجعافرة والجهانوة أنفسهم ، لكنهم يتحدون على أولاد بحري . وقال إنه يعمل ليوم يقود فيه أولاد بحري لكسر شوكة الصعايدة ، وسيكون هذا اليوم قريباً جداً . لقـد وجدت زهرة نفسها تسأله على نحو مباغت :

- انت يتشتغل إيه يا بهي فى الإسكندرية ؟

تأملها قليلاً وابتسم ثم قال :

- اسألي الشيخ مجد الدين .

وتركها وحمل بطانية ومخدة ، وخرج لينام في مدخل البيت.. العجيب أن زهرة نامت بلا حلم واحد. وضعت رأسها على المخدة فـوق سـرير البهي، وأخذت ابنتها في حضنها ونامت . لم تشعرحتى بمجد الـدين وهـو يتمدد على الأرض جوار السرير الضيق . لقد أمرها أن تنـام هـي فـوق السرير ، وكان عليها كزوجة ريفية أن ترفض وتتركه له ، ولكنها وجدت نفسها بلا تفكير تصعد السرير وتنام . كانت امرأة غيرها هى الـتي تفعـل ذلك ، لذلك في الصباح جلست أمامه خجلانة . شغلت نفسـها بإعـداد الشاي له وللبهي.

خرج مجد الدين يبحث عن عمل دون تأخير ، وخرج البهي بعـده لا يعرف أحد إلى أين .

قال لمجد الدين وزهرة ، وهو يتناول معهما الشاي :

- لقد مر بي الخواجة ديمتـري مبكـراً ، فأخبرتـه بحضـوركما ، وبرغبتكما في استئجار الغرفة المقابلة لشقته ، ووافق . بل لقد صعد وأخبر زوجته أن تستقبل زهرة اليوم – ثم خاطب زهرة – يمكنـك أن تصـعدى إليهم بعد ساعة أو أكثر .

في حوالي العاشرة وجدت زهرة نفسها وحيدة بغرفة البهي ، فصعدت إلى الدور الثاني . ما كادت تخرج من باب الغرفة حتى وجدت أمامها امرأة جميلة . شقراء ترتدي قميص نوم شفافاً . عارية الكتفين والذراعين ، كانت تغتسل من حنفية الدور . قالت المرأة بفزع " يا أختى " وقالـت : زهـرة بارتباك " صباح الخير " تركت المرأة ماء الصنبور وسألت زهرة :

-أخت البهي ؟

- زوجة أخيه .

نظرت إليها المرأة من أعلى إلى أسفل .

-وأين أخوه ؟

- خرج يبحث عن عمل ، وخرج البهي معه .

واستجمعت زهرة شجاعتها، وبادلت المرأة النظرة المستنكرة ذاتها،ثم صعدت إلى الدور الثانى .

جلست زهرة صامتة بين الست مريم ، وبنتيها الجميلـتين كاميليـا وإيفون. الست مريم في حوالي الأربعين ، لها وجه مستدير أبيض ، وشعرها

كستنائي قصير تركته محلولاً بلا غطاء . كذلك كان شعر بنتيها محلولا ، إلا أنه كان طويلا ينزل إلى الظهر ، للبنتين الشعر الكستنائي نفسه ، والعيـون العسلية لأمهما ، وأيضاً استدارة وجه الأم ، مع ضيقه قليلاً مـن أسـفل وغمازتين في خدى كاميليا ، تشدان النظر وتبعثان على الابتهاج ..زهـرة ترتدي الثوب الأسود الفلاحي الطويل الذي أتت به امس ، ثوب ذو رقبة مربعة واسعة قليلاً يسهل رضاعتها لطفلتها ، وفوق رأسها طرحة سـوداء تنسدل على صدرها من الجانبين ، تغطىما يمكن أن ينكشف منـه بسـبب اتساع " قبة " الجلباب . تحت الطرحة غطاء رأس محبوك يغطـى شـعرها كله . كاميليا وإيفون لا تكفان عن تأمل زهرة بدهشة من اكتشف إنسـاناً من كوكب آخر ! الحقيقة أن صمت زهرة هو الذي كـان يدهشـهما ، وكذلك حاجباها المزججان بعناية وعيناها السوداوان اللوزيتـان . كانـت زهرة صامتة حقاً ، وفي نفس الوقت تتأمل الأيقونات المعلقة على الحـائط المقابل ، تعرفها زهرة جيداً. رأتها كثيراً في بيت عطا بقال القريـة ، الـذي تقوم زوجته فريال بخياطة ملابس النساء . عند الست مريم ماكينة خياطـة برجل تراها زهرة في ركن من الحجرة . ماكينة خياطة فريـال في القريـة صغيرة تعمل باليد ، وتضعها فريال فوق طبلية ، وتتكفئ عليها طول الليل ، حجرة الست مريم أصغر من بيت فريال ، لكنها ليست من الطين . كذلك هي مدهونة باللون السماوي فتبدو مشرقة ، والشباك المفتوح على الشارع يغمرها بالضوء ، فضلاً عن الباب المفتوح على الردهة ، زهرة ترى بابا آخر من داخل الغرفة ، فتدرك أنه يؤدى إلى غرفة أخرى " خازنـة " . زهـرة تجلس على كنبة وجوارها الست مريم ، وعلى كنبة أخرى تجلس كاميليـا

وإيفون ، والكنبتان مفروشتان بكليمين نظيفين عليهما رسـوم رياضـية.. دوائر وخطوط حمراء وخضراء وزرقاء ، وعلى الأرض كلـيم بـني بـلا رسوم . في السقف مروحة صغيرة متوقفة يتدلى جوارها سلك يحمل مصباحاً أسفل المروحة . لابد أن المروحة لا تعمل أبداً وإلا قطعت سلك المصباح . السقف من ألواح الخشب الممدودة فوق عروق قوية ، ومدهون كله باللون الأبيض . وعلى الحائط صورة قديمة للست مريم في حوالي العشرين ، تقف جوار ديمتري بفستان الفرح . ديمتري في الصورة أصلع قليلاً ذو شعر أسود ، ترى كيف صار الآن ؟ زهرة لم تره بعد. تحت الصورة ساعة حائط صغيرة ، وتحت الساعة دولاب زجاجي صغير به الأواني الصيني ، أدراجه مقفلة في نصفه الأسفل ، وفوقه راديو صغير " تليفونكن " خشبي عـريض القاعـدة نصف دئراي له زراران كبيران متجاوران من أسفل. في الركن هناك جوار ماكينة الخياطة توجد منضدة صغيرة قديمة ، فوقها أنواع من القماش الجيد ، والثياب الجديدة التي لم تكتمل .الثياب والقماش عند مريم اكثر منها عنـد فريال في البلد . " الناس هنا تحب تلبس " . قالت زهرة لنفسها ثم فكرت ، " هذه هي ستنا مريم الحقيقية ، وهذا هو ابنـها سـيدنا عيسـى- عليـه السلام .. وجه ستنا مريم مريح أبيض ناصع ريان ومحدب الذقن قليلاً مثـل وجه إيفون وكاميليا ، ووجه سيدنا عيسى مرح ، ولكن وجهه في الأيقونة الأخرى وهو في سن النبوة يبدو حزيناً رغم هالة النور التي تحيط برأسـه . هل كانت للبهي هالة من النور حقاً ؟ نعم كانت تمشي معه . ولكن وجـه البهي ليس كوجه المسيح . ياسبحان الله . إنه أقرب إليه فعلاً . أستغفر الله العظيم " .

أمس أيضاً قال لهما إن " بهية " هنا في الإسكندرية . لقد ظهرت منذ عام . رآها تدخل المقهى تنظر إليه ثم تخرج تقف على الرصيف الآخر تتطلع إليه . لم يدرك أنها بهية إلا بعد انصرافها في المساء فتجمد في مكانه . مازالت تأتي بالنهار تراقبه من بعيد وتختفي بالليل .

وقال إنه كان يمشي ليلة على شاطئ المحمودية فسمع صوتاً يناديـه . ظنه نداهة القرية . لكنه لا ينسى صوتها أبداً . بعد قليل من الدهشة ، تقدم ناحية الشاطئ ليجدها تقف أمام كوخ من الصفيح ، ترفع فى يـدها لمبـة سهاري تداري عليها بكفها الأخرى من الهواء . أفسحت له الباب فـدخل الكوخ وهو مرعوب . عيشة ضنك و تنام على الخيش ولديها خبز كـثير أغلبه عفن مما يجود به الناس ، ولديها تفاح وموز . أجل . أعطتـه تفاحـة وجلست تنظر إليه صامتة ، أخذها معه إلى البيت . فكر هل يأكلها أو يلقى بها . وضعها جواره فوق السرير ونام . وظلت فوق السرير حتى تعفنـت فألقى بها من النافذة وسكت طويلاً ـ ثم قال لمجد الدين : " إذا مت فادفنى في البلد .. " .

- عندك كام سنة يا زهرة .

سألتها الست مريم وأجابت زهرة .

- عشرين .

قالت كاميليا وإيفون وأمهما في وقت واحد :

-أول مرة تشوفي إسكندرية ؟

- نعم.

وسألتها الست مريم :

- وزوجك لماذا لم يرتح اليوم من السفر ؟

- هو هكذا لا يحب الكسل ؟

- ربنا معاه ، لا أحد يجد عملاً بسهولة الآن .

- ربنا موجود .

ودفعت زهرة مائة وستين قرشاً إيجار شـهرين للغرفـة ، ودخلتـها فوجدتها واسعة ، لكن شباكها على منور صغير وليس على الشارع . قالت في نفسها لا بأس ، فهى تشعر بألفة مع هذه السيدة وبناتها ، وسألتها الست مريم ما إذا كانت معها نقود أخرى لتأثيث الغرفـة فأجابـت بالإيجـاب ، فسألتها ما إذا كانت تحب أن تفعل ذلك اليوم ، ففكرت زهـرة قلـيلاً ثم قالت لنفسها ، ما الذي يمنع أن يعود مجد الـدين ليجـد الغرفـة مؤثثـة وجديدة . وافقت . قامت الست مريم ودخلت الغرفة الداخليـة لترتـدي ملابس الخروج . رأت زهرة بسرعة في الغرفة الداخليـة سـريراً نحاسـياً بأعمدة عالية محاطاً بناموسية بيضاء ، تماماً مثل سـريرها في البلـد ، إلا أن سريرها فى البلد ظهر عليه الصدأ في اكثر من موضع بالأعمدة ، ستشترى واحداً مثله اليوم .

كانت الست مريم قد أغلقت الباب بسرعة ، وعادت البنتان تنظران إلى زهرة في استغراب ، مما أشعرها بالخجل هذه المرة ، فطامنت رأسها وراحت تنظر إلى الكليم السادة فوق الأرض تبحث فيه عن خطوط وألوان لا تراها . فامت كاميليا بسرعة وفتحت الصوان الصغير تحت الراديو الساكت ، وأخرجت مجلة ، وجلست جوار زهرة ، وفتحتها بسرعة في صفحات تعرفها ، وسألت زهرة :

- تعرفي أسمهان ؟

- نعم.

- تحبي صوتها ؟

-لما أسمعه .

انطلقت البنتان تضحكان ، وقدمت كاميليا المجلة إلى زهرة فائلة .

- هذه هي صورتها .

رأت زهرة الجمال الطاغي لوجه أسمهان الذي لم يسبق لها رؤيته ، وقالت بهدوء وهى تتأمل العينين الناعستين ، وطابع الحسن المميز لوجه أسمهان .

- هى حلوة قوى كدة ؟

لكن كاميليا قفزت بالأسئلة :

- عندكم راديو في البلد ؟

- عندنا ثلاثة ، واحد عند العمدة ، وواحد في القهوة ، وواحـد في بيتنا .

وبان على وجهها شيء من الألم ، وسكت الجميع ، ومسحت زهـرة دمعة في عينيها قبل أن تتكون ، لكن كاميليا قلبت المجلة إلى صفحة أخـرى بها امرأة مشرقة الوجه ، على شفتيها المكتنزتين صبغة ثقيلة بنية ، وترتـدي فستاناً ضيقاً يبرز تفصيلات جسدها بطيش ونزق ، وقالت :

- وهذه هي إستر وليامز . هل عندكم سينما في البلد ؟

خرجت الست مريم في اللحظة نفسها من الغرفة ضاحكة تقول لزهرة التي بدأت ترتبك :

-كاميليا شقية يا زهرة .

لكن زهرة لم ترد . انجذبت إلى الفستان الأسود الـذي لا يصـل إلى قدمي الست مريم وإلى البيشة ذات اليشمك الذهبي على أنفها، ووضـعت الطفلة شوقية على الكنبة وقالت :

- أول مرة أترك شوقية .

- سنعود بسرعة قبل الغداء ، كاميليا ستعتني بها ، تتغدى معنا اليوم ، أم أنك لا تحبين أكل القبط ؟

ارتبكت زهرة قليلاً . أدهشها أنها لم يسبق أن أكلت أو شربت شـيئاً عند فربال الخياطة في البلد ، طالما سمعت وهي صغيرة كلام النسـاء عـن الرائحة غير الطيبة لأكل القبط . وقالت بهدوء .

- أنتم طيبون ولابد أن أكلكم طيب .

فأخذتها الست مريم من يدها برفق وخرجتا .

تمشي الست مريم على الرصيف بثقة ، بينما لا ترفع زهرة عينيها عن الأرض غير المرصوفة ، لذلك تتأخر عنها خطـوتين أو ثـلاث . الشـارع المفروش بقطع الدبش البيضاء يتعذر المشي فيه ، والرصيف كذلك لم يـتم تبليطه بعد ، وهو أعلى من الشارع تحده قطع البازلت المستطيلة ، ومفروش بالرمل والأحجار الصغيرة تمهيداً للبلاط . خذى بالك هنا حفرة بالوءـة ، هنا محبس مياه . تقول الست مريم بين حين وآخر ، وتتوقف زهرة لحظـة ، لتتجاوز ما ترشدها إليه الست مريم بحذر .

- هذا هو الترام . هل رأيتيه يا زهرة ؟

- أمس بالليل .

- هيا نركب ، احفظي النمرة ، ثمانية يروح أبو وردة .

- من أبو وردة ؟

ابتسمت الست مريم وقالت :

- شارع في بحري .

لاحظت زهرة أن هناك ثلاث سيدات ركبن قبلهما ، يـرخين جميعـاً البيشة على وجوههن ولا يتحدثن ، وقالت الست مريم :

- سنزل في العطارين . هذا الترام يمشي في خط دائري . من هنا إلى العطارين ثم شارع عبد المنعم وشارع استانبول وصفية زغلـول والغرفـة التجارية ، ثم المنشية وبحري من شارع التتويج ، ويرجع بنفس التذكرة ... فسحة يعني ...

لم ترد زهرة التي لم تفهم كيف يمضي الإنسان كل هذا الوقت بالترام بدا لها أن لا عمل هنا للنسوان ! وابتسمت وتحرك الترام فارتبكت للحظة ، ودق قلبها بعنف . كيف تخرج من البيت دون إذن زوجها ؟ وكيف تركت ابنتها مع ناس تلتقيهم لأول مرة ؟ وهل يكفي قول البهي عنهم أنهم طيبون ؟ متى كان البهي يقول شيئاً نافعاً ؟ لكنها تستطع أخذ قرار بالعودة، خطف عينيها الفضاء الأبيض واستسلمت له . إلى أين تأخذها هذه المدينة حقـاً ؟ وتركت نفسها تتطلع إلى البيوت التي لا ترتفع عن طابقين أو ثلاثة ، أبوابها الضيقة المفتوحة على الصمت .

واجهاتها القديمة معلق بشرفاتها غسيل عشوائي قليل . محلات قليلـة تحت أبوابها . لاحظت أن الست مريم ، دفعت للكمساري قرش تعريفـة ، وأخذت مليماً وتسكرتين ، ولما رأتها الست مريم تتطلع إلى واجهة تعـرض الأواني ، والأدوات الصينية والزجاجية الجميلة قالت إنهـا محـلات أحمـد إبراهيم ، أشهر المحلات في كرموز وراغب ، إنهما يمكن أن تشتريا منها مـا تحتاجه زهرة ، بعد العودة من شراء الأثاث .

ذابت زهرة مع الحركة البطيئة التي تدب في الشارع حولهـا ، ومـع صعود ونزول الركاب من الترام وداهمتها رائحة عجيبة فجـأة ، فـرأت

نفسها وسط شارع مكتظ بمحلات اللحوم ، وعربات فوقهـا الكـوارع ، ولحمة الرأس و " عفشة " البهائم وذبائح صغيرة معلقة علـى واجهـات المحلات عليها أختام حمراء ظاهرة ، وزحام من النساء بالملاءات اللف .

هنا ننزل ، هنا باب عمر باشا ، نعبر شارع الخديو وندخل العطـارين نزلنا وزهرة زائغة العينين ، بدأ هواء منعش في شارع الخـديو يهدهـدها ، لاحظت أن اللون الكابي يغلب على الدور الأول للبيوت ، وبدأت تظهـر محلات العطارين مفتوحة كلها ، وطوبلة من الداخل أشبه بالورش ، رفعت زهرة رأسها أكثر من مرة إلى شرفات البيوت .

البيوت هنا عريضة ضخمة ، وترتفع قليلاً عما رأته من قبل ، وأبوابها واسعة وراءها فراغات كبيرة ، مكتظة بالعلب والكراتين ، وأشياء أخـرى مرصوصة لا تعرفها ، الشرفات جميلة ، مسنودة على دعامات من حيوانات منحوتة ، أسود صغيرة ونمور وكباش ، وجدران الشـرفات مـن اسـيجة حديدية سوادء وخضراء لامعة . نساء قليلات يقفن في الشرفات ينشـرن ثياباً أو يجلسن في الشمس .

كثيرات منهن عجائز، تركن شعرهن الأبيض والمحنى ، وكشفن عـن أذرع بيضاء مترهلة ، تظهر من خلف الأسيجة .من الأرض كانت زهـرة تشم رائحة الماء المرشوش أمام المحلات . في أكثر من زقاق ضيق لمحت مقاهي صغيرة يجلس فيها واحد أو اثنان . يشربان الشيشة أو يقرآن الصـحف . فجأة مرت أمامها " دفعة " من الفتيات الصغيرات الجميلات ، يضـحكن وقد ارتدين البنطلونات الملونة الضيقة وفوقها بلوزات ضيقة أيضاً ، وقـد

ملأن وجوههن بالأحمر والأبيض ، وقصصـن شـعرهن " ألاجرسـون " فاندهشت كيف تقص الفتيات شعرهن على هذا النحو الرجالي ، أدركـت الست حيرة زهرة فقال لها " ماتخديش في بالك " ، وسمعت زهرة نداء مـن داخل أحد المحلات " ياعزيز امتى نبقـى إنجليـز " ، ثم سمعـت الفتيـات الصغيرات ينطلقن في الضحك الصاخب ، وتقول إحداهن" بعينك يـاروح أمك ، ولو بقيت فرنساوي " وشمت زهرة رائحة تبغ كثيفة ، ورأت أمامها دكاناً ذا واجهة حمراء ـ عليه كتابة سوداء كبيرة وعلى بنكـه ميـزان ، وخلفه رجل يجلس يدخن الشيشة ، وعلى أرفف المحل كـراتين صـغيرة ، وعلب سجائر كثيرة . وتعددت المحلات ذات الواجهة الحمـراء ، كأنهـا علامة مميزة لمحلات الدخان ، وأشارت الست مريم إلى شارع تهل منه رائحة السمن وجوز الهند والسكر ، وقالت " هنا بياصة الشوام ، كلها حلوانية ، وشارع الليثي أشهر شارع أنتيكات في إسكندرية ، وبيع تحفاً فرنساوي ، وتجفاً بلجيكي ، وساعات سويسرية ، وكراسي طليانية ،وحاجات غالية من كل الدنيا " كانت زهرة تفكر في الوجه الخواجاتي القوى ، للرجل الـذي رأته يدخن الشيشة في محل الدخان . واندفعت امرأة خارجة من زقاق جانبي ، بقميص نوم أبيض ، تسوق رجلاً من قفاه ، ودفعته إلى الشارع بعـد أن ضربته على قفاه ضربة قوية ، ثم وقفت لحظة تنظر حواليها ، حافية منكوشة الشعر ، يطل من عينيها المتعبتين الشرر، وعادت تدخل إلى الزقاق الـذي كانت ثلاث نساء متبرجات قد ظهرن في حلقة ، ووقفن يتابعنها وهى تطرد الرجل ، ثم عدن خلفها إلى قلب الزقاق . صبي مقهى صغير كان يمر حاملاً صينية ، فوقها فنجان قهوة وكنكة صغيرة ، وكوب مـاء كـاد يصـطدم

بالرجل المضروب الذي وقف يترنح ، لكنه تفاداه بمهارة ، وضحك وهـو يهتف " هنا الضرب على القفا يحلى " . ومشى الرجل المترنح ناحية زهـرة التي جفلت ، واختبأت خلف الست مريم ، التي بسرعة انحنت ، وخلعـت الشبشب من قدمها ، ولوحت به للرجل الذي عاد إلى الخلـف في هـدوء ضارباً لها تعظيم سلام ، والباعة في واجهات المحلات يضحكون .

مرت الست مريم وزهرة من شارع الليثي ، وخطفت العاديات بصر زهرة، كذلك العدد القليل من الرجال والنساء ، الذين يتحركـون بـبطء ورشاقة بين التحف يعاينونها ويتفرجون عليها . وارتفعت في الجو رائحـة " الجملكة " " والأستر " " والكحول والبوبات " .

- خلاص . دخلنا الشارع العربي ، ستجدين موبيليا من كل صنف .

ولاحظت زهرة أن أحد الأزقة ، مفروش كله بالأحذية ، من كل لون وصنف على المناضيد العالية والمنخفضة ، والرصيف . ولاحظت زقاقاً آخر طويلاً ، مفروشاً بالملابس القديمة ، ومعلقاً على واجهاته قمصان وجواكت وبلاط قديمة ، ورائحة مكتومة تهل منه ، ودخلنا شارعاً قصيراً ، غير واسع وغير ضيق ، أمام أبوابه مقاعد مرصوصة ، صالونات وأنتريهات خشـبية ومكسوة ، ومقاعد خيزران ، وصبية صغار يمشون عليها بالمناقض الريش .

- صباح الخير يا مقدس وليم .

- صباح النور يا ست مريم .

يعرفها بالاسم ، فكرت زهرة ، وأدركت أنه هنا يمكنـها أن تجلـس قليلاً ، هي محتاجة لذلك ، إذ كادت تصرخ طالبة ترك الحي كله .

المقدس وليم فى حوالي الخمسين ، قصير قوي البنيان ، يرتدي جلباباً بلدياً نظيفاً ، وعلى رأسه طربوش .

- عاش من شافك .

قالت ذلك وهو يقدم كرسيين ، للست مريم وزهرة اللتين جلستا على الفور ، رائحة الأرضية الأسمنتية المرشوشة منذ قليل بالماء ، تصعد إلى أنف زهرة ورائحة البخور التى تأتى من الداخل العميق المظلم للمحل تريح أعصابها ، وظهر صبي صغير ، فقال له الرجل :

- هات بسرعة " سطل " خروب .

ومشى المقدس وليم ، على أماكن بعينها في الحائط ، فأضاء المحل الكبير الطويل بالنور ، ولمعت فى زواياه الدواليب والأسرة والمناضد والمقاعد وغيرها من الأثاث . وسألته الست مريم .

- إيه الأخبار يا مقدس ؟

- أخبار وحشة . الحرب قامت والدنيا ولعت .

- الحرب قامت أمس فقط يا مقدس .

صار لنا شهور في رعب ، والإنجليز السكرانين طفشوا الزبائن ، والله فكرت أبيع المحل لواحد مغربي أو يوناني . لماذا نذهب بعيداً . أمس بالليل العيال الصياع مسكوا ثلاثة انجليز سكرانين ضربوهم وسرقوا فلوسهم ، جاءت أورطة بوليس من كوم الدكة ، سحبوا الناس على المديرية وضربوهم على قفاهم لما عموهم – وضحك – أنا كنت هناك . رحت

المديرية لأنهم قبضوا على عامل عندي . غاظني عسكري هندي واقف يقول للمخبرين المصريين وهم يضربون الناس " آجين و آجين " يعـني كمـان . تصوري هندي . كنت عايز أقول له إن عاندي نفسه دايخ مـن الجـوع علشان اللى زيه يبقى بني آدم مش عميل انجليزي ! .

فالت السيدة مريم بطريقة مدربة على سماع هذه القصص :

- وبعدين !!

- سابوا الناس طبعاً .. العيال الصياع فص ملح وذاب .

فالت زهرة :

-كل واحد له يوم .

تأملها المقدس وليم وقال :

-انت بنت حلال .

ومرت أمامهم امرأة عجوز ملأت وجهها بالأصباغ ، وصبغت شعرها باللون الأصفر الفاقع ، تحمل حقيبة جلدية حمراء رخيصة ، وترتدى تحـت الجورب القصير ، شراباً أحمر طويلاً خفيفاً تظهـر تحتـه عـروق سـاقها الخضراء . انكمشت زهرة في نفسها . وقال المقدس وليم " مسـير الـبر يتطهر "ولم تستطع الست مريم أن تخبر زهرة أنه هنا ، خلف الشوارع الـتي مشينا فيها ، وفي الأزقة الضيقة - تمارس كثير من النساء الدعارة . لابـد أن زهرة قد فهمت ذلك وحدها . لكن زهرة كانت بدأت تشعر بألم خفيف في ثدييها ، وبقطرات من اللبن تنسرب من حلمتي الثديين ، وتظهران بقعـاً

على جلبابها . لابد أن تعود إلى ابنتها بسرعة . وتشترى بسرعة ما تريـد . وقالت لها الست مريم (في عودتنا نشترى قماش التنجيد والقطـن . غـداً يكون عندك فرش عروسة . مبروك عليك يا زهرة) لكن زهرة التي كانت في حاجة إلى السعادة بالفعل ، كانت تشعر بكثير من الضيق والخوف مـن المدينة .

" أريد رجلاً عاقلاً كي أشاوره في

إحدى المشكلات ...

– ما في مدينتنا عاقل قط سوى

هذا المجنون "

-6-

هل كان الإسكندر يعلم أنه لا يقيم مدينة تحمل اسمه خالداً في الزمان وإنما يقيم عالماً بأسره وتاريخاً كاملاً ؟ أغلب الظن أنه كان يعرف . هـو لم يكن معيناً بالخلود فقط ، وإنما بتغيير الدنيا .

المسافة من جزيرة فاروس (الأنفوشي حاليا) إلى راقـودة (كرمـوز الآن) يقطعها السائر على قدميه في نحو ساعة . ولابد أنه كـان يسـتغرق الوقت نفسه قديماً لأنه لم تكن هناك مبان يـدور حولهـا . كانـت الأرض مسطحاً من رمال ، لذلك حين وقف الإسكندر بفرسه في راقودة رأى آخر نقطة في البحر ، فاروس ، فقرر أن يصل بينهما ، ومات قبل أن يتم ذلك . لقد كان بطليموس الأول ، وخلفه الثـاني ، همـا اللـذان أنجـزا بنـاء الإسكندرية . وضع الإسكندر حجر أساس المدينة وأوكل مهمة تخطيطها إلى دينوكراتيس البارع في الهندسة ، فخططها مثل رقعة من الشطرنج . شوارع مستقيمة . لماذا حقاً جعلها مثل رقعة الشطرنج ؟ هل كان يقصد أن تكون مسرحاً للعب والموت ؟ . لقد كان أهلها في زمن أغسطس ، بعـد مـوت كليوباترا وأنطونيو ، ثلاثمائة ألف من الأحرار ، ومثلهم من العبيد ، لكـن

أهل الإسكندرية كانوا مغرمين بمصارعة الديكة ، والتندر بالشعر على الحكام ، لذلك حين دخلها نابليون بونابرت ، لم يكونوا يتجاوزون الثمانية آلاف !! .

الإسكندرية منذ ذلك الوقت تجرى أمام الوقت! تتسع . تزدحم . يدخل رفعتها الغرباء من كل المسالك . صارت ميناء حقيقياً . فامت القصور في الفضاء الذي بين رأس التين وأبي العباس ، وحفر محمد على ترعة المحمودية ، ورسم المهندس اليهودي " منشى " خارطة تطوير المدينة ، الذي لم يتوقف في عصر أبناء محمد على ، إبراهيم وسعيد و إسماعيل ، ولما كثر الأجانب خرجوا إلى فضاء الرمل شرقاً ، اشتروه ، وبنوا فيه القصور والمنازل الباذخة ، فامت فوق البحيرات الصغيرة ، جنوب وشرق المدينة ، فرى ريفية بالرمل والسيوف والمندرة والحضرة ، تآكلت بعد ذلك بدورها ، وصارت أحياء مزدحمة ، بالوافدين الفقراء من شمال وجنوب البلاد .

ولكن المدينة ظلت تتقدم ، احتل الغرباء ، الأجانب شمالها ، واحتل الفقراء جنوبها ، وحين قامت سكة حديد ترام الرمل ، ازداد العمران شرقاً بشمال ، كما كانت السكة الحديد ، بينها وبين القاهرة ، طريقاً سهلاً للضائعين ، والباحثين عن الثروة من الدلتا والصعيد .

بين الأجانب مئات وآلاف من شذاذ الآفاق يأتون إلى المدينة العالمية حتى صارت كبرج بابل ، ومن أهل البلاد آلاف من الضائعين مثل مجد الدين سبقوه إليها وسوف يلحقون به .

لم يعد الشمال كافياً للأجانب فزحف فقـراؤهم ، مـن اليونـانيين واليهود والطليان والقبارصة ، إلى بعض الأحياء الشعبية كالعطارين واللبان ، وافتربوا واختلطوا بأهل البلاد الذين يستوطنون الجنوب ، وها هو مجـد الدين يصل الإسكندرية وهي تقف على قمة العالم . لقد أضيف للغرباء من اوروبا ، الجنود من أوروبا وسـائر دول الكومنولـث ، وهـو الفـلاح المطرود ..!

لايزال مجد الدين يخرج من بيته كل صباح ، باحثاً عن عمل وسـط عالم يغلي فوق بركان . أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا بعد يـومين مـن هجوم الألمان على بولندا ، وتم تأليف وزارة حرب تولى فيها تشرشل وزارة البحرية ، وأعلنت فرنسا بدورها الحرب على ألمانيا . والملـك الصـغير ، فاروق ، الذي لم يصل إلى العشرين بعد ، لا يزال ينتقل بين قصـري رأس التين والمنتزه ، ولا يزال الوزراء في مقرهم الصيفي ببولكي حتى اضطر أحد فراء جريدة الأهرام أن يوجه نداء للملك والوزراء بالعودة إلى القـاهرة ، لأن موظفي الدولة ، ابتداء من وكلاء الوزراء ، حتى أصـغر موظـف في الدواوين الحكومية ، لا يستطيعون أخذ أى قرار ، فتعطلت مصالح الناس في " زمن صعب " على حد تعبيره .

في الإسكندرية قدم سفير ألمانيا إلى صاحب الدولة على ماهر باشـا ، خطاباً يعلن فيه أن حكومة ألمانيا لا تريد لمصر إلا كل الخير ، إلا أن حالـة الطوارئ أعلنت في مصر كلها ، وانتشرت بالإسكندرية قوات البـوليس ، وبلوك النظام ، " ربما أيضاً لأن الملكة فريدة ، احتفلت بعيد ميلادهـا ، في الخامس من سبتمبر ، في قصر رأس التين ، الذي توافد عليه كبـار رجـال

الدولة " . وتم توزيع المنشورات والملصقات ، في كل أرجاء البلاد باللغتين الفرنسية والعربية ، تعلن للناس حالة الطوارئ ، وجاءت الأخبار عن استمرار الاضطرابات والمناوشات بين العرب واليهود في فلسطين ، بعد أن تمكن البوليس من القبض على ألف يهودي ، من الذين أرسلتهم السفينة ، التي كانت تحمل ألفاً ومائتين سراً إلى الساحل ، وأعلن رئيس وزراء مصر ، أن حياد إيطاليا هو الذي يبعد الخطر عن مصر، فأعلن وزير إيطاليا المفوض فى مصر، تأكيد صداقة حكومته لمصر ، وشعبها ، وانقسم الناس بين مؤيد لدخول الحرب مع انجلترا ومعارض لها ، بين مشجع لإنجلترا وحليفتها فرنسا ، ومشجع لألمانيا وهتلر الداهية ،وأعلنت الدولة المصرية أنها ستوفى بتعهدات معاهدة 1936 لإنجلترا ، ولكنها لن تشترك بجيشها في الحرب ، ولم يمنع ذلك الملك ، من إصدار مرسوم ملكي بتكوين جيش مرابط جديد ، يكون فائده عبد الرحمن بك عزام وزير الأوقاف وتكون مهمة هذا الجيش حماية المنشآت في السلم والحرب ، ودعم الجيش الأساسي بالمؤن والعتاد في الحرب ، والمشاركة معه ، إذا اقتضت الحال . وجاء في مرسوم إنشاء هذا الجيش الذي اعتبر الملك فائده الأعلى ، أنه يتكون من الذين بلغوا سن التجنيد ، ولم يقبلوا بسبب عاهة خلقية أو مرضية .

لقد أثار دهشة الناس تكوين هذا الجيش المشوه وخضوعه لوزارة عملها البر والإحسان . ورغم اليقين بابتعاد الحرب عن مصر ، بدأ الحديث عن الغلاء يزداد وانخفضت الأسعار في البورصة ، وبدأت فترة رواج للتجارة مع المعسكرات الإنجليزية . لكن الناس ظلت تعيش حياتها ، فالملك والوزراء ما لبثوا أن عادوا إلى القاهرة ، وفي الإسكندرية ظل الإقبال على

ورق بانصيب مؤسسة المواساة ، وازدحم المشاهدون أمام سينما الكوزمو ، ليشاهدوا تشارلز لوتون ومورين أوهارا في فيلم " أحدب نوتردام " ، وتم وضع الملاجئ تحت إشراف وزارة الشئون الاجتماعية بالاتفاق مـع بلديـة الإسكندرية ، وأعلنت بابا عز الدين أنها ستقدم في الصيف القـادم أيضـاً عروضها بالإسكندرية ، على مسرح ديانا بمحطة الرمل ، واستضاف كازينو الشاطبي فرقة من الآنسات اللبنانيات ، لتقديم رقصة الدبكـة ، في الحفـل السنوى للجمعية الخيرية المارونية ، وامتلأت الميناء الشرقية بالسفن الحربيـة والبحرية ، وأقيمت معسكرات في مناطق مصطفى كامل وسيدى بشـر ـ وشهدت نسمة العصاري عربات الحنطور ، وهى تحمل الجنود وبنات الليل السكندريات ، والوطنيات واليونانيات واليهوديات والأرمنيات وغيرهن ، وهن ينتزهن على الكورنيش . لم يكن جنود الإمبراطورية يتوغلون كثيراً فى المدينة . كانت النساء هن اللاتي يأتين إليهم . وامتلأت الخمارات الكـبيرة والصغيرة ، الغنية على الكورنيش ، والفقيرة في ازقة بحرى والمنشية بالجنود الاستراليين والنيوزيلنديين والهنود الذين اختلطوا مع قباطنة السفن وبحارتها وعمال الوفود الأقوياء والقوادين الذين يعرفون الطرق المظلمـة الضـيقة العفنة إلى البيوت التخرة التي تفشر بلاطها وسـكنت سـقوفها الخشـبية الفئران وعلى مداخلها جلست العجائز ذوات الشعر الأحمر يدخن النارجيلة ويسمحن للزبون للمرور بعد أن يعاين الفتيات الصـغيرات ، اليهوديـات والأرمنيات والسكندريات أيضاً ، اللاتي ينسكب الضوء الأبيض من لحمهن اللامع من وراء غلالات قمصان النوم القصيرة البائسـة . بيـوت بحـرى المفتوحة على الميناء أو القائمة خلف شارع التنويج ، وبيـوت العطـارين

المختفية خلف المحلات ، أو بيوت الفراهد وبـاب الكراسـتة أو " كـوم الناضورة " ، التل الذي أقامه " كافريللى " مهنـدس نـابليون ذات يـوم ليكون إحدى نقاط الدفاع عن المدينة !

كل صباح ، مبكرا للغاية ، يرى مجد الدين اكثر من تـرام يقـف فى دوران سيدى كريم ، الناس يصعدون إليه ويجلسون في صمت ينظرون مـن خلف زجاج النوافذ المغبشة بالندى الساقط عليها عند الفجر . كان مجـد الدين لا يستطيع أن يمنع التفاتة منه إلى قسم البوليس الذي يتربـع نهايـة الدوران ويقرأ لافتته كل صباح . " نقطة بوليس غيط العنب " . لمـاذا لا يستطيع أن يكف عن ذلك ؟ لا يدرى .

كان هناك كثيرون لا يركبون الترام . يأخذون طـريقهم صـاعدين المنحدر الصغير عابرين الكوبري . يتخلف منهم عدد أمام وابور الطحين ، كما سبق وتخلف عدد أمام الوابور الموجود بشـارع اللبـان ، ويسـتمر الآخرون في طريقهم الذي عرفه مجد الـدين ، يتوزعـون علـى شـاطئ المحمودية . من الجنوب يذهبون شرقاً إلى شركة غزل ونسيج محرم بـك ، ومن الشمال يتوزعون شرقاً وغرباً إلى معامل الثلج ، أو الزبوت ، أو شركة الغزل الأهلية بكرموز ، وسيمشي مجد الدين غرباً كثيراً بعد ذلك ، ويعمل في شركات زبوت وصابون وكُسب ومخازن حتى يصل إلى ميـناء البصـل ليعمل في شركات محالج وكبس القطن . ذلك كله سيكون فيما بعد . الآن

هو لا يعرف شيئاً عن هذه المصانع الكائنة بكفر عشري ومينا البصل . هو الآن محصور بين راغب وكرموز .

لم يحب أن يقف للعمل في وابور الطحين ، الأول أو الثاني . ماذا يمكن أن يعمل في وابور الطحين وهو الفلاح المزارع ؟ وماذا يمكن أن يعمـل في غيره ؟ لابد أنه فقط يريد أن يعمل فى مكان بعيد عن البيـت . ولا يـزال يصر على الخروج مرتدياً جلباباً جديداً نظيفاً وجزمة أجلسيه لامعة كـان يحتفظ بها دائماً للسفر .

في ترعة المحمودية يشاهد أكثر من سفينة تبحر على مهل ، داخلة إلى الميناء أو عائدة إلى الجنوب ، كما يتوقف أكثر من صندل بعيداً خاصة أمام الشركات . هناك دائماً معدية مركونة إلى الشاطئ القريب من الكـوبري ، تعمل حين ينفتح الكوبري للسفن فتنقل هى الناس من الجهتين ، نادراً مـا يشاهد نساء في الصباح الباكر . كل صباح يداخله فجأة يقين بأنه سـيقابل أحداً يعرفه ، ولا يقابل أحداً . والحقيقة أنه يتمني لو حدث ذلك .

إنه يحتاج إلى أحد يأخذ بيده في هذه المدينة . البهي لم يعـد يصـلح لشيء ، يمضى اليوم على المقهى . أما كيف يعيش ومن أين يحصل على المال فهذا مالا يصدقه مجد الدين . قال البهي في غيط العنب أكثـر مـن مائـة شخص من قريتهم ، يعرفهم هو واحداً واحداً ، ويعرف لماذا تركوا القريـة إلى الإسكندرية ، أى فضائح ارتكبوها قبل رحيلهم ، وأنه فـرض علـيهم إتاوة بواقع خمسة قروش يدفعها الواحد منهم له كل شهر .

وهكذا يفوز بخمسة جنيهات ، منذ شهرين تمردوا عليه ، ذهبـوا إلى نقطة البوليس واشتكوه للمأمور ، الذي نظر إليه غـير مصـدق أن مائـة شخص يخشون هذا الوقف أمامه . طردهم المأمور ، وخارج النقطـة قـرر البهي أن يدفع كل منهم عشرة قروش ، والآن صاروا عزوته ، وهو يريـد أن يقودهم لهزيمة أبناء قبلي . يتذكر مجد الدين كلام البهي ولا يصـدق ، ويظل يستمع لنداء أحد يعرفه ولا يتحقق النداء ، وتتعـدد الصـباحات ، والبحث عن العمل ، كل يوم يرى الناس حفاة عراة الـرؤوس ، أولئـك الذي يمشون أو يهرولون معه يبحثون عن عمل وكل يوم يلاحظ أن شـاباً بعينه يتعمد أن يقترب منه ، يبدو تائها لا تستقر حدقتاه على حال ، تـدور عيناه بشكل لم يسبق لمجد الدين أن رآه ، وعندما تكلم وقال " كن يوم عنى دانحان " أدرك مجد الدين أنه أخنف أيضاً ، وعادة يبدو غاضباً للحظة حين لا يفوز بعمل ثم يبتسم ويبدأ يهرول مع البافين ، ولكنه يقترب قاصداً مجد الدين الذي للحظة فكر أن عدم اختياره للعمل هو بسبب وقـوف هـذا النصف المعتوه جواره ، لكنه يعرف أن هؤلاء أولاد الله المباركين فاسـتغفر الله العظيم . ينحرف إلى اليسار لأن الأغلبية تنحرف بعد عبور الكوبري إلى اليسار .يتوقف مع المتوقفين أمام باب معدني كبير لأحد المصانع .

- ما نوع الشغل هنا .

- ثلج .

- وماذا نفعل في الثلج ؟

- نقوم برصه أو نقله إلى العربات الثلاجات التي تقوم بتوزيعه ، هذا المصنع سيغلق الشهر القادم ، إنه لا يعمل في الشتاء .

يخرج أحد العاملين بالمصنع، ينظر إلى زحام طالبي العمل ، يختار عدداً قليلاً ليس من بينهم مجد الدين . لاحظ مجد الدين أن معظم الباحثين عـن عمل مؤقت مزقو الثياب ، فضلاً عن حفائهم ، فأدرك أن العمل شـحيح للغاية ، لذلك لم يشأ أن يغير جلبابه وحذاءه اللامع . لن يظهر بمظهـر رث أبداً . وحين يجد عملاً سيشترى الملابس المناسبة جديدة . لقد أخذت زهرة معها ثلاثين جنيهاً كان يدخرها خلال الأعوام السابقة صرفت منها عشرين الآن ، اشترت كل الأثاث المطلوب . كان مجد الدين يتألم لتـدافع راغـبي العمل بقسوة وجهالة ، حين يطلب مندوب الشركة خمسة منهم أو عـدداً أقل . وكان يتخير مكاناً بعيداً إلى الوراء . أمام باب شركة الغزل الأهلية ، الباب المعدني الأخضر الكبير . وقف مع الواقفين كل يوم . خرج الرجـل الأسود الذي يخرج كل يوم يختار العمال ، اختاره وقال بصوت واثق:

- انت . تعال .

تقدم مجد الدين منه . ابتسم له الرجل وقال :

- من الغد سأعطيك عملاً ... عليك بالحضور ببنطلون وسترة .

ووجد عملاً بالشركة في دحرجة بالات القطن من العربات التي تنقلها من المحالج حتى بداية عنابر ماكينات الغزل . لكن العمل لم يدم أكثـر مـن ثلاثة أيام ، ثم عاد للبطالة والجرى مع الآخرين ، يبدأ جريهم من السـاعة السادسة لينتهي في الثامنة . يكونون قد مروا على كل الشركات الواقعـة

على ضفة المحمودية الشمالية ، شركات الزيوت والصابون والثلج والغزل ، وعرضوا قوتهم على الصنادل والسفن الراسية على مسـافات متباعـدة ، قادمة من الصعيد تفرغ شحناتها من القصب والفول والقطـن والحبـوب والبلاليص والفلل . عادة يكون هناك مقاول له أنفار يأتون معه هم الـذين يفوزون بالعمل لتفريغ السفن . إذا لحق مجد الدين أو أحـد مـن زملائـه بالعمل يكون اليوم بعشرة قروش .في الثامنة ، يتقدم مغالباً حزنه إلى المقهى المجاور للكوبري ، ويجلس طالباً كوباً من الشاي .

بعد لحظات يتشجع وينهض يشتري جريدة الأهـرام ، مـن الولـد الصغير الذي يبيع الصحف أمام المقهى فوق صندوق خشبي صغير ، دائمـاً يكون في المقهى وحده ، ويظل يسمع صوتاً يناديه ، ويخيل إليه أنه سـيقابل أحداً يعرفه ، حتى جاء يوم تناوله الجريدة وقدم جنيهاً كاملاً للولد البـائع الذي اعتذر عن عدم وجود فكة معه . تحير مجد الدين وترك الجريدة لكـن الولد الذي صار يعرفه ، طلب منه أن يقرأ الجريدة بـالمقهى ثم يعيـدها . جلس مجد الدين يقرأ أو يتأكد من أن الدنيا شديدة الزحام . البدء في توزيع أكياس الرمال من قبل مصلحة الدفاع المدني على المستشفيات والمنشـآت العامة .

إعلانات عن ساعات ماركة لو نجيت ، زينيت ، فولكـان ، سـهرة الراديو مع فتحية أحمد وفرقتها . قبلها في الثامنـة والنصـف تسـتمع إلى مونولوجات فكاهية لحسين المليجي ونعمات المليجي وقبلها في السابعة مـا تيسر من سورة الحج بصوت طه الفشني ، والملكة إليا صـابات تصـل إلى محطة إيتسون قادمة من بالمورالى في طريقها إلى مقر باكنجهام ،وارسو تختفي

من الوجود خمسة ملايين بولندي على الأقل راحوا ضحية الحرب في خلال شهر واحد . المدافع الجبارة التي لم يرها العالم من قبل تهدم وارسو . ويقول لنفسه : دنيا شديدة الزحام يا مجد الدين فإلى أين أنت ذاهب ؟ينهض ليعيد الجريدة للولد فيراه قد حمل الصحف وأطلق ساقيه للريح ؟ يتابعه مدهوشـاً فإذا بشرطي يمسك به من ذراعه وهو يقول " وكمان بتقـرأ الجورنـال " ويدخل شرطيان آخران المقهى يمسكان بشخصين جالسين ويساق الجميـع إلى عربة شرطة مغلقة ، ومخصصة أساساً لنقل المجرمين بـين السـجون أو المحاكم .و تسقط الصحيفة من يده ، ويصعد إلى العربة " البوكس " الـتي فوق الكوبري . يشاهد عربة تسد شارع راغب، وأخريين تسدان الطريـق المحاذي لترعة المحمودية من الجهتين .

يضطر الناس إذن إلى العبور على الكوبري فتتلقفهم الأخيرة ، ومـن يبدي مقاومة يشبعه الجنود ضرباً على قفاه ، وركلاً في أى مكان .

فى تخشيبة نقطة بوليس غيط العنب ، تم حشر أكثـر مـن عشـرين شخصاً قبض عليهم في الصباح بينهم مجد الدين لأول مرة في حياته، وقبـل أن يفكر في أي شيء وجد الشاب نصف المعتوه جالساً أمامه مع الجالسين ، وقد استقرت عيناه عليه فى ابتسامته اللانهائية ، فابتعـد عنـه بعينيـه إلى الجدران الصفراء التي يراها من خلال أسياخ التخشيبة العالية السوداء التي تشكل جداراً نصف دائري حولهم تتباعد أسياخه لمسافات قليلـة كنوافـذ السجون .

مبنى النقطة دائري يفتح بابه الرئيسي على دوران الترام ، حوائطـه صفراء عالية ، وبالداخل يجلس أومباشي كثيف الحاجبين ، خلفه طاولة من الخشب الأسود القديم ، وثلاثة جنود لا يكفون عن الحركـة ،وفي ركـن بنادق معلقة على الحائط ، وفي ركن آخر باب مغلق يفضي إلى غرفة المأمور ، الأومباشي يركز نظره على مجد الدين ، ثم يأمر أحد الجنود أن يفتح لـه باب التخشيبة ، ويشير إليه أن يتقدم نحوه .

- ما اسمك .

- مجد الدين خليل سليمان .

- شكلك مختلف عن الصياع يا مجد الدين ، لماذا لا تحمل معك بطاقة شخصية .

- أنا نسيت البطاقة في البلد ؟

- بلد ... أى بلد ؟

- بلدنا أنا وصلت إسكندرية من أيام فقط .

- أنت فلاح .

- أجل .

- زيارة أم إقامة دائمة ؟

- إقامة بإذن الله .

- طيب معك خمسة فروش ؟. كل من يدفع للحكومة خمسة فـروش يخرج .

- معي لم يطلب منى أحد شيئاً .

وهكذا قال مجد الدين كأنه يتنفس الصعداء ، مد يده فى جيب صداره تحت الجلباب ، وأخرج الجنيه الذي معه وقدمه للأومباشي . كانت الساعة قد دخلت في الثانية ظهراً . مضت ست ساعات وهو محشور في التخشـيبة صامتاً مع المحبوسين . قال الاومباشي إنه لا يملك " فكة الجنيه " ، وأرسـل أحد الجنود " ليفك " من كمسارية الترام ووجد الأومباشي مجد الـدين لا يتحرك فسأله :

- لماذا لا تعود إلى التخشيبة ؟ خائف على الجنيه .

وجد مجد الدين نفيه يقول :

- لا . لكن هذا الولد المسكين الأبله ، لماذا يبقى معنا ؟

تأمله الأومباشي لحظة ثم ابتسم وقال :

- سنأخذ منك عشرة فروش إذن ونخرجه مادمت تريد ذلك .

وقام من خلف مكتبه إلى التخشيبة وسحب من بين الجالسين الولـد الأبله الذي ظل ينظر إلى مجد الدين بابتسامته اللانهائية ويلوى عنقه يتـابع النظر إليه حتى خرج من النقطة ، وعاد مجد الدين يجلس بين المحبوسين الذين أغلق عليهم الاومباشي الباب بالقفل هذه المرة .

- أخذ منك جنيه ؟

- لأ. طلب خمسة صاغ . الجنيه ليفكه ويعيطلى الباقي .

- إذن معك خمسة صاغ ؟

- طبعاً معى جنيه كما رأيت .

- هل تصدق أننا جميعاً محبوسون من أجل خمسة صاغ . مـن أيـام صدقي باشا وأى واحد يمشي بدون بطاقة يدفع خمسة صاغ غرامة . لو فيه خمسة صاغ مع أى واحد هنا لم يكن قد خرج للعمـل . أى والله . وأنـت تبحث عن عمل ومعك جنيه .

اندهش مجد الدين من كلام محدثه . فكر للحظة أن يدفع الجنيه لهـم جميعاً ثم عدل عن الفكرة . إنه يحتاج إلى كل مليم الآن . قال :

- وكيف سيخرجون ؟

مثل كل مرة في المساء يأتي شيخ الحارة يستدل علينا ويضمنا ونخرج .

وحط صمت من جديد . تأخر العسكري ، وجلـس مجـد الـدين القرفصاء واضعاً مرفقيه على ركبتيه ، وأراح رأسه بين كفيه . البهي هـو الوحيد الذي يمكن أن يخلصه من هذه الورطة .

بدا بداخله شعور بأن الأومباشي أوعز للعسكري ألا يعود بالجنيـه . ماذا يحدث لو حل المساء ولم يعد ؟ كيف سيكون حال زهرة ؟ كعادتـه في الأزمات سلم أمره لله ، وجلس على مقعدته ، ووجد مكاناً يمد فيه ساقيه ، وأغمض عينيه للحظة ، فوجد نفسه يمشي فوق سطح قطار سريع ، وحوله جنود من كل سحنة ، يتحدثون بكل لغة ، يحملون بنـادق كأنهـا رمـاح

ويمشون في رمال تغوص فيها أقدامهم فوق سطح عربات القطار ، وفوقه وفوقهم طيور سوداء ضخمة لا يعرف أسماءها .فتح عينيه في دهشة من هذه الرؤيا الخاطفة ، وواجهته أقدام المحبوسين معه الممدودة أمامه أيضاً . أقدام مرتكزة على كعوبها ، ومتساند بعضها على بعض أو متباعدة ، أقدام كبيرة بدت له في البداية أحذية ، ثم تبين أنها أقدام عارية منحوتة من أسفل ، سوداء الباطن كلها عاليها وسافلها . بعض الكعوب بلغ به التشقق أن تهدلت منه شرائح الجلد الناشف المبروم ، تحتاج إلى أصابع تشدها، لكن صاحبها لا يفعل ذلك . أصابع الأقدام لها نتوءات بارزة من أعلى ، أكثر من نتوءين للإصبع الواحد . أظافر سوداء طالت والتوت إلى أسفل فكست الأصابع من الأمام ، تصد عنها غوائل الطريق . ها هي قدم بها أربعة أصابع ، وأخرى بها ست ، الإصبع الصغير السادس مندل من الجانب ، كطفل معلق على جانب أمه يكاد ينزلق واقعاً على الأرض . العجيب أن هذا الإصبع السادس نظيف . قدم قريبة تنتهي بلا أصابع . قدم مصمتة مجزوزة بسكين ، تكرمش جلدها الأمامي. قدم مثل مستطيل قديم من الخشب ، رآها مجد الدين مثل فم بلا أسنان !! في كل الأقدام تقريباً، حول بز القدم ، هالة زرقاء أو سوداء أو حمراء .

- هذه الجزمة التي في قدميك ألا تضايقك ؟

فوجئ بالسؤال من الرجل المجاور له ، هل رآه وهو يتأمل الأقدام الحافية ؟ ربما . يريده أن يخلع الحذاء فيسرقه . إنه هو محدثه السابق فيتأمل وجهه جيداً .

وجه متعب بحق . بشرة تميل إلى الاحمرار قليلاً لكـن بـلا نضـارة والتدفيق فيها يوضح سوء التغذية والهزال . الوجه نحيل يحمل أنفاً مـدبباً ، والأنف صغير والفم ، والشارب أشبه بالزغب ، وأعلـى الوجـه عينـان عسليتان ضيقتان وأعلى الرأس شعر أسود مدرج بمشط واسع ، وبـدأت شعيرات بيضاء تظهر ، والرجل بشكل عام يحمل عذاباً غامضاً، ولما لم يـرد مجد الدين استمر الرجل :

رأيتك تنظر بتمعن إلى الأقدام ، الحفاء هنا ليس مجرد فقـر ، أحيانـاً يكون هواية .

اتسعت عينا مجد الدين واستمر الرجل في الحديث :

- تريد أن تعرف كيف يهوى المصريون الحفاء ؟ تعرف إذا خلعـت جزمتك . ألا ترتاح إذا خلعت جزمتك ؟

- أرتاح طبعاً .

أجابه مجد الدين باسما فاستمر الرجل :

- إذن هناك من يحب أن يكون مرتاحاً من البداية !

كان الصوت مرتفعاً قليلاً ، فراح بقية المحبوسين يتابعونه ضـاحكين ، واستمر الرجل :

- عندما تدخل بيتاً ليس فيه كراس هل تستطيع الجلوس على الأرض والجزمة في قدميك ، طبعاً لا ، تخلع الجزمة ، نحن بيوتنا كلها بلا كراس،

هنا اضطر مجد الدين أن يضحك مع الآخرين ، الـذين جلجلـت ضحكاتهم ، فنهرهم الأومباشي ، وتذكر مجد الـدين الجنيـه ، فنظـر إلى الأومباشي الذي صرخ قائلاً أن ينتظر " ابن الكلب العسكرى " واسـتمر الرجل يتحدث إلى مجد الدين .

- الأهم أن الجزمة تدوب ، ويضطر الإنسان لشراء أخرى. الحـافي مرتاح . كل شهر يطلع له جلد جديد في قدميه ، يعنى جزمة جديدة ، لولا الملامة كان الواحد يبيع منها ! طبعاً . اثنتا عشرة جزمة في السنة مجاناً نعمة من الله . الواحد لا يستطيع أن يشترى جزمة واحدة بعشرين قرشاً .

ارتفع الضحك إلى صخب ، وعاد الأومباشي ينهرهم ، وكان مجـد الدين قد انجذب تماماً إلى الرجل النحيل صاحب الحديث العجيب . هـذا الرجل سيكون صاحبه لوقت طويل . لابد أنه سليفاه فى طريقـه كـثيراً . ويبدو أنه هو الذي كان يسمع صوته يناديه في كل صباح باكر . لقد أطلت من عيني كليهما دموع أفرزها الضحك البهيج . كذلك بقية المحبوسين .

وحط فوقهم الصمت من جديد ، وسكت كل شيء كأنما هى لحظات خشوع مرسلة من السماء ، ليسمعوا صوت الرجل نفسه الـذي كـان يحدث مجد الدين ، وهو يتلو بصوت خفيض ، معجباً بالكلمات ، مندهشـاً من معانيها الحزينة .

- " يا مجلس إسكندرية طال عليك صبري "

- " أكلمك بالروميكا ، ولا بالعبري ؟ "

- " تاخذ فلوس الناس تبعثر فيها على الكوبري "

- " بدل ما تاخد فلوس الناس تعال خد ... "

ولم يقل الكلمة التى توقعها الجميع .. سكت فانقشع الصمت بطلقات الضحك التي زلزلت أركان النقطة . وهاج الأومباشي ، وفزع عدد مـن العساكر وتراخى الضحك إلى ما يشبه الحشرجة .

لكن ثلاثة عساكر اندفعوا إلى الداخل مفزوعين ، يمسك كل منهم في يده الحزام الجلدي العريض الذي كان قد خلعه من بنطلونه . بدا أنهم كانوا في معركة وخسروها . هتف الأومباشي فيهم :

- مالك يا عسكري انت وهو .

- معركة كبيرة يا حضرة الأومباشي في شارع اللبان ؟

- مسلمين ومسيحيين ؟

- لا الصعايدة والفلاحين ..؟

- اضطرب قلب مجد الدين ، واستمر الأومباشي يحدث العسـكرى المفزوع :

- الفلاحون ليس لهم في العراك ، بعد قليل تنتهي بسلام .

- لا .. هذه المرة لا ، البهي خليل عامل زعيم ، وحـالف ليكسـر شوكة الصعايدة .

- هناك إصابات يا عسكري ؟

- كتير .

كاد مجد الدين ينهار حين سمع اسم البهي . أمر الأومباشي العسكري أن يجمع بقية زملائه من غرفتهم الملحقة خلف النقطة ويحملوا السـلاح ، وبدوره راح يدق التليفون طالباً مديرية الأمن . تحدث طالباً قوة من جنود بلوك النظام، ثم وقف وتقدم من التخشيبة وفتح بابها صارخاً :

- هيا اخرجوا ، القيامة قامت يا ولاد الكلب ...

كان أسرعهم إلى الطريق مجد الدين .

" من كل بلد لبلد
فردت قلعي بقماشى
الريح ليه معاكساني
غريب وصابح ماشي "

-7-

شارع اللبان صار خالياً إلا من جنود البوليس ، حضرت قـوة مـن بلوك النظام على عجل وأخذت موافعها على الجانبين بالخيزرانات والدروع ، عربة بوكس كبيرة تقف مكتظة بالفلاحين والصعايدة معـاً ، ولا يـزال الجنود يطاردون المتشاجرين فى الأزقة ، ويعودون ببعضـهم يقذفونـه إلى

العربة البوكس . النساء يتطلعن من خلف النوافذ . الرجـال والشـباب الصبية يقفون في فوهات الأبواب. صوت سيارة إسعاف تأتي مـن ناحيـة كرموز . امرأة تجلس منهارة فوق الأرض جوار البهي تبكي في صـمت ، حافية مزقة ثيابها السوداء ، منكوشة الشعر ذاهلة العينين ، لكنـها تبكـي كالعقلاء ، وأخرى ، شابة ، تقف منتحبة في صمت أيضاً في أحضان مجـد الدين ، الذي راح يربت على ظهرها ، وعيناه لاتفارقان وجه أخيه الجميل الذي يغطيه الدم، ومازالت عيناه مفتوحتين ، إنه ينظر إلى مجد الـدين . في عينيه أسف وخوف على مصيره . في عينيه اعتذار للأخ الصغير .

- ادخلي يا زهرة إلى البيت .

كان واضحاً أن الضربة شجت رأس البهي من الخلف ، لا فائـدة ، جرت المعركة امام البيت تماماً كأن البهي كان يريد لأحد أن يـراه وهـو يقاتل . لم يصدق أحد قصصه القديمة، مجد الدين فقط كان يصدقه دائماً . ما كان عليه أن يحارب أحد اليوم . تقدم مجد الدين ، وجلس واضـعاً رأس أخيه على فخذه ، وراح يهتز بألم لم يعرفه أحد من العالمين .

اقترب منه رجال الإسعاف ، ضابط بوليس شاب أصاب المرأة المقعية جوار الجثة ، والتي لم يفطن إليها مجد الدين بعد ، رعبا من الضابط فامـت جافلة ومشت مسرعة .

- من هذه المرأة ؟ تعرفونها ؟

سأل الضباط أحد الجنود .

- إنها مخبولة تشاهد دائماً تمشي وراء القتيل .

لم يفهم الضباط شيئاً . اتسعت عينا مجد الدين يفكـر في " بهيـة " . سأله الضابط :

- تعرف القتيل ؟

- أخي .

- هل تتهم أحداً ؟

لم يرد مجد الدين . قال الضابط الشاب :

- بعد دفن الجثة يمكن لك التقدم للشهادة أو بأى اتهام .

وأشار لرجال الإسعاف ليحملوا الجثة . أخذوها من فوق ساق مجـد الدين الذي لم يستطع القيام ، مد يده للواقف جواره .

- خذ بيدي يا أخي .

كان هو الرجل النحيل الذي صاحبه فى التخشيبة منذ قليل . مد إليه الرجل يده ، فنهض مجد الدين وقال الرجل :

- دميان و اسمي دميان : تماسك يا رجل .

تقدم منهما رجل عرفه دميان :إنه الخواجة ديمتري فلتـاؤوس أحـد المسيحيين المتعلمين في الحي ، والذي يعمل ملاحظاً للعمال في جراج البلدية بالحضرة . لقد سبق لدميان أن طلب منه السعي ، لإلحاقه بأى عمل بالبلدية ، لكن الرجل اعتذر بلطف بعد شهر عجز فيـه أن يجـد عمـلاً . سـأله ديمتري :

- هل تعرفه يا دميان ؟

أجاب دميان الذي سره أن ديمتري لم ينسه :

- أجل ، إنه صديقى !

- إذن اركب معه الإسعاف ، سألحق بكما فى المستشفى الأمـيري في تاكسي ، هذا رجل غريب .

كان مجد الدين يسمع ذلك ، وعيناه لا تزالان تتابعان المـرأة الـتي كانت جالسة جوار جثة البهي ، إنها " بهية " ولا أحد غيرها ، لقد صـارت بعيدة الآن في نهاية الشارع. يا أرحم الراحمين .

مشت سيارة الإسعاف حاملة القتيل ، مسجي فوق نقالة في الوسط ، بين مقعدين طويلين يجلس على أحدهما دميان ومجد الدين ، وعلى الآخـر رجلا الإسعاف . لم تكن العربة مسرعة ، ولم تدق جرسـها الـذي يفـتح الزحام ، لا زحام في الطريق ، وهي أيضاً تحمل ميتاً !

كانت الحركة البطيئة للعربة كحركة جواد هادئ ، وكحركة زورق فوق مياه رقيقة ، يضرب مجد الدين البحر بذراعه ، لا عصا معه ، فينشـق الماء عن طريق الحشائش الخضراء فيتهادى الفرس الرفيق ، يضـرب مجـد الدين من الغيظ الهواء فينزاح على الجانبين جدارين أملسين أبيضين زجاجيين تتقاطر فوقهما حبات المطر الثلجية اللؤلؤية . دموع بيضاء ودم أبيض وألم ، وهو يمشى وقد طار الهواء من الفراغ . ويتمزق عرقـاً ، فيخلـع جلبابـه

وصديريته وفانلته ، ويبقى فقط سرواله الذي التصق به فصارا شيئاً واحداً ، كل شيء يقفز أمامه من الجدران يتدحرج فوق الأرض . نساء جميلات وبنات أبكار وأحجار وفردة وعجائز متشحات بالسواد ووجه أليف لا يتذكره . رآه وسمعه يناديه كثيراً . تعال . تعال يا مجد الدين فيمشي وراءه إلى أين، لا يعرف ، لا يستطيع العودة ولا الانعتاق من أسر الصوت الحنون ، وتتدحرج أمامه كل الخيالات التي رآها من قبل ، وبينها إخوته القتلى ، وأبوه الميت ، وأمه العمياء ، وأخواته البنات، وأولاد عمه ، وكل عائلة الطوالبة والعمدة ، لكن الجميع أطفال ، والجميع يجرون أمامه يضحكون ، وهو يريد أن يمسك بأحد ، أى أحد منهم ، ولا يستطيع ، الصوت الحنون لا يتركه يعود ، حتى وصل إلى نهاية ، الحافة التي يرتفع منها البحر الأبيض ، ولا يرى فيها إلا أذرعا معذبة ، ويسمع منها أصوات الأنين ، وهو على أطراف أصابعه يكاد ... ، بل وقع بالفعل .

- لا تبك يا رجل ، ستقتل نفسك .

ربت دميان النحيل على كتفه ، وأحاطه بذراعه ، كان مجد الدين قد اندفع في بكاء أليم ، انتهت قصة البهي بيد البهي ، لقد عاد بعد الحرب الأولى ، وبعد أن انشغلت البلاد سنوات بالثورة ، وقال لمجد الدين " قريتنا هذه لا تتحرك ، إنها مثل خنفسة كبيرة لا تغادر جحرها " .

وكان عليه هو أن يحركها من جديد .

كان ظهوره وحده كافياً لإضرام النار . وكان قد عاد أقوى مما ذهب. لوحته الشمس وأحرقه البرد معاً ! أصبح يحمل شارباً كثاً ، وصار

عزوفاً عن الكلام ، وتحت عينيه برزت تجاعيد مبكرة ، وظهرت مسحة ألم لم توجد من قبل .

لم تصدق العائلة أنه كان كل الوقت في جيش السلطة . وم ـ ن أي ـ ن أخذوك ؟ من الطريق ؟ لماذ لم تخبرهم بهويتك ، أصلك وعائلتك فيتركوك ، فلت لهم ولم يتركوني ... لكن أحدا لم يصدقه غير مجد الدين . هناك بع ـ ض الناس منذورون للألم العظيم ، أيوب كان منهم ، والبهي الآن ، لذلك اختار البهي أن ينام في غرفة مجد الدين. وبالليل قال له كلاماً كثيراً عن الحرب ، عن السفينة التي شحنوه فيها مع الجنود إلى أوروبا ، عن الخنادق والـ ثلج فوق الجبال ، والقتال على الحدود الفرنسية الألمانية . بلاد لا يعرفها و ـ رد لا يحتمله ونساء جميلات يأتين للجنود وقت الراحة ، أو يذهب الجنود إليهن في القرى " كنت أخاف يا مجد الدين لكنهن كن يشددنى شداً فهل يحاسبني الله على الأجنبيات أيضاً ؟ وهل أنا الذي ذهب إلى هناك ؟ اسمع . أنا أعرف كلمات انجليزية كثيرة وفرنسية أيضاً . " بون جور " يعنى" صباح الخ ـ ير " جود مورنينج " يعنى صباح الخير أيضاً " كومنت آلية فو " . يعنى أزيك و " هاو أريو " يعنى أزيك أيضاً " وآدى ما " و" آبيان توت " يعنى إلى اللقاء ، وكذلك " باي باي " و " سي يو "و " سافا بيان " يعنى بخير ، و " ف ـ اين " يعنى بخير كذلك ، وبعد سنة انتقلنا إلى فلس ـ طين نحـ ـ ارب الأتـ ـ راك . الله يسامحنى حاربت مع الإنجليز ضد الأتراك المسلمين لكن غصباً عنى "

ولم يكن الظهور الجديد للبهي كافياً لغلق كتاب الماضـ ـ ي ، ظهـ ـ وره يعنى وجوده ، يعنى النأر . اشتعل الجحيم حتى لم يبق من العائلتين غير مجـ ـ د الدين وخلف البهي لم يكن محسوباً دائماً ، وهذا كان سر ألمه الكبير .

بالطبع كانت هناك الأخوات أيضاً ، والأم بعد موت الأب كمـداً ، لكن ورث البهي ومجد الدين مساحة كبيرة من أرض العائلة . وكان نصيب مجد الدين ثلاثة أفدنة وكذلك كان للبهي ، الذي باعها سراً ، واختفى من القرية من جديد . البكاء الصامت جعل نور عيني أمه يخبو . إلى هذا الحـد كانت تحبه أمه ولا تبوح . إنها لا تنسى طاقة النور التي خرجت معه . وكان قد عاد من الحرب بلا هالة من نور ، بدا وقد انطفأ فيه كل شيء . كيـف حقا انقلبت حياة الطفل الطاهر إلى ظلام ؟ وكان مجد الدين علـى يقـين بعودته يوماً . كادت الأم تعمى تماماً ، وإذا البهي يقف فجأة وسط الدار . منذ نزوله على المحطة طار الخبر . طيرته أولاً النساء ، ثم حمله الأطفال مـع الهواء ، وقبل ان تنزل بنات هادية بأمهم من الدور الثاني، كان البهي يصعد إليها : " يا نور عيني " هتفت وارتمت عليه . لكنه كان جامداً ، قبل وجهها وبديها في صمت .

في المساء أخبر مجد الدين بالمدينة التي أمضى فيها ذلـك الوقـت . الإسكندرية البيضاء التي يـأتيها الأجانب من كل الدنيا ، ويرحـل إليهـا أبناء البلاد الفقراء من كل الأرض ، ولم يشأ أن يخبر أحداً بعنوانه . قال إنه سيزورهم بين وقت وآخر ، في الصباح لم يجدوه في البيت ، ودخلت هادية في صمت أكثر جلالاً ، ومجد الدين يشجعها ويحثها على الحفاظ على مـا تبقى فى عينيها من نور . شيئاً فشيئاً استراحت الأم ، فالبهي يظهر بين وقت وآخر مهما طال الوقت بين ظهوره .

ثم لاحظ أهل القرية أن دارا جديدة تبني من الطوب الأحمر المجلـوب من فمائن كفر الزيات . يسأل أهل القرية البناءين عن الـدار وصـاحبها

فيقولون إنهم لا يعرفون شيئاً إلا أنها دار حكومية . والدار كانت تبنى خارج زمام البلد على أرض مهجورة لا يملكها أحد . ثم تلقى العمدة خطاباً رسمياً مختوماً بخاتم المحكمة الشرعية في طنطا ، يطلب منه تقديم التسهيلات ، الـتي سيطلبها منه مثلو العدالة ، في المحكمة الشرعية الجديدة ، الـتي سـتبنى فى القرية ، مع نهاية العام كانت الدار قد تم بناؤها ، والعمدة ينتظـر بشـغف مثلي العدالة . وحين رفعت لافتة " دار القضاء الشرعي الجديدة " وتحتـها شعار العدل ، والميزان والكف على كتاب الله أدرك أن وقته قـد جـاء ، ليقدم التسهيلات التي يمكن أن يطلبها مثلو العدالة . ظهر للمحكمة قـاض شرعي وحاجب وكاتب . قدم له الكاتب خطاباً جديداً يطلب فيه منه تقديم خفيرين نظاميين لحراسة المحكمة . وأقام العمدة وليمة عامرة لمثلي العدالة .

كانت الدار من طابق واحد ، ثلاث غرف ومنظـرة ودورة ميـاه ، وبدأت المحكمة في تلقى الشكاوى .

كانت الشكوى الأولى من امرأة غير عادية ، خضرة بنت شيخ البلد تشكو ضرب وإهانات زوجها لها .

خضرة من جميلات القرية ، وزوجها هو ابن عمها المرهوب الجانب ، استدعت المحكمة زوجها بين دهشة أهل القرية ، هذه أول مرة في حياتـه ، يسمعون فيها أن امرأة شكت زوجها في المحكمة ، ذلك لم يحدث قط علـي طول تاريخ القرية . لم يذهب الزوج ، وقرر ألا تعود خضرة إلى البيت حتى لو تنازلت عن شكواها ، أعلنته المحكمة بالحضور مرة ثانية خلال أسـبوع عن طريق كاتبها، ولم يمتثل . حكم القاضي بطلاق خضرة .

اهتزت القرية لهذا الحكم الذي لم يعهدوا مثله . اختفى القاضي مـن المحكمة أسبوعاً ، وظهر البهي يمشي في أزقة القرية لعدة أيام ثم اختفى . رأى الناس أبا خضرة يمشي منكسراً في الطرقات . كيف حقاً تذهب امرأة تشكو زوجها للحكومة ، أى شجاعة وأى كفر ؟

كان طبيعياً بعد ذلك أن يشدد الرجال على النساء ، حرموا علـيهن مجرد المرور من أمام المحكمة ، مضى عام كامل بلا شـكوى واحـدة ، ولا حكم واحد ، فاطمأن الناس ، ولأن خضرة اختفت من القريـة ، وتـزوج زوجها السابق بأحسن منها ، والحقيقة كانت غير ذلك ، بدأت قصة خضرة وزوجها تنتمي إلى الماضي . لكن امرأة أخرى تقدمت بشكوى تطلب فيها إنصافها في ميراثها الذي يستولى عليه زوجها ، فما كان من القاضي إلا أن حكم بعودة ميراثها إليها ، وطلاقها معـاً ، لأن الـزوج خـائن للأمانـة الشرعية . اهتزت القرية مرة أخرى ، ثم فوجئ عدد من الرجـال ، علـى مسافات زمنية متباعدة ، باستدعائهم للمحكمة ، كان الواحد يذهب غـير مدرك لما ينتظره ، يهجم على زوجته قبل الذهاب ، يضربها لتعترف مـا إذا كانت قد تقدمت بشكوى من أى نوع ضده والزوجة المغلوبة على أمرها ، تنكر فعل أي شيء من ذلك . يذهب الزوج إلى المحكمة فيفاجأ بشـكوى زوجته ، بل ومعرفة القاضى بتفاصيل حياته الشخصية مع زوجته فينـهار ، وينتظر حكم المحكمة ، التي يطلب قاضيها هذه المرة من الزوج ، أن يعـود ويحسن معاملة " أهله " . كان الواحد منهم يعود ويطلق زوجته بلا نقاش .. في ثلاثة أعوام تم طلاق عشرين امرأة . والبهي يختفي ثم يعود بـين حـين وآخر ، راكباً فرساً شهباء ، يمرح بها على حافة الترعة ، وعلـى أطـراف

الحقول ... لقد انتهت قصة الثأر المؤلمة ، وصار شغل القرية الشاغل هـو هذه المحكمة التي زلزلت الأسر والبيوت ، والتي امتد نشـاطها إلى القـرى المجاورة، خاصة فيما يختص بالمواريث .؟

لقد ظهر أن عشرات من النساء ، ضاعت حقوقهن بسبب الأزواج ، أو الإخوة الأقوياء ، وكانت المحكمة منصفة لهؤلاء المظلومات ، حتى يـوم أغبر استدعت فيه المحكمة العمدة ذاته ..

ذهب العمدة وأقصى ما فكر فيه ، أن المحكمة فى حاجـة إلى بعـض المساعدة في تنفيذ الأحكام ، لكن القاضي لم يستقبله في مكتبه ، بل في قاعة المحكمة الصغيرة ، ولم يسمح له بالجلوس . هو عمدة حقاً ، لكن للمحكمة تقاليدها التي تسرى على الصغير والكبير ، وكان السؤال المفجع للعمدة هو أنه يهين زوجته هى نفسها التي تقدمت بالشـكوى ، وأنـه لا يعاشـرها بالمعروف ولا يعاشرها كما أمر الشرع ، بل يعاشرها من الخلف ! .

من الممكن أن تتخيل العمدة وهو يقفز إلى الفضاء ، وهو يهجم على القاضي والحاجب ، لولا الخفراء الذين ذهبوا في معيته ، ومنعوه أن يرتكب هذا الخطأ . كانوا في دهشة ورعب ، الخبثاء منهم كتموا ابتساماتهم ، ترك العمدة المحكمة ولم يرد على أي سؤال . ركب فرسه وسـابق الـريح . في منتصف الطريق توقف . الفضاء الواسع حوله ، والزرع الأخضـر فـوق الأرض ، أعاد إليه الإحساس بالهدوء هذه القرية هادئـة علـى مـر الزمان . لم يعكرها إلا حوادث الثأر بين الخلايلة والطوالبة ، الـتي انتـهت وصارت ذكرى الآن . ولا يظن أن حوادث مثلها يمكن أن تعود بـين أي

عائلتين ، بعد النهاية الأليمة للخلايلة والطوالبة معاً ، ثم هذه المحكمة الـتي هزت القرية وأظهرت كل موبقاتها . لابد من قتل القاضي هـو والكاتـب والحاجب وهدم المحكمة .

لابد أن يتصل بالسلطات يطلب فيها نقل المحكمـة . هـذه محكمـة " للشيطان " .. لكن لا يمكن أن تكون زوجته قد فعلت ذلك ؟ لقد حاول أكثر من مرة أن يعاشرها على غير العادة ، لكنها رفست بعنف ، وهـو لم يعد إليه . كان شاباً فيه نزق . مستحيل أن تتذكر زوجته ذلـك الآن وأن تشكوه .

لحظات ووصل العمدة إلى بيئته وقف أمام زوجته يرتعش بالغضب بما يتناثر إلى آلاف من القطع الصغيرة ، سوف يموت إذا لم يفعل شيئاً ، الخفراء الجزم سينشرون الخبر ، لكنها الزوجة الجميلة الغنية بنت الأكابر التي يحبها بحق . وأنهار باكياً أمامها ولم يتكلم ، نام طالباً من الله الموت .

في الصباح نذهب إلى المحكمة ، إذا كانت هناك شكوى قتلنا ابنتنـا وبا دار ما دخلت شر .

في الصباح لم يكن هناك أحد بالمحكمة . كانت مفتوحة الأبواب تجرى بينها الريح . حتى اللافتة التى فوقها كانت مخلوعة وملقـاة علـى الأرض بإهمال . في الظهيرة كان هناك رجال البوليس من المديرية . وامتلأت القرية بالضحك والبكاء . لم تكن المحكمة حقيقة ، هى مجرد حيلة ابتدعها شيطان لخراب القرية . ونامت القرية على السؤال من يا ترى يكون هذا الشيطان؟

قال الناس إن " الحكومة عرجاء لكن تصيب الغزال " . واستطاع رجال البوليس الوصول إلى أول امرأة اتجهت إلى المحكمة . إلى خضرة التي اختفت من القرية بعد طلاقها . وجدوها في طنطا تعيش مع البهي ، الذي صار يوزع وقته بينها وبين القرية . وقالت إنها حاولت كثيراً منعه من الاستمرار ، لكنه كان قد صمم على خراب بيوت الناس كلها في البلد .

فاطع الناس بيت مجد الدين وأهله بعض الوقت ، لكن لعلم مجد الدين بالقرآن وورعه ، ولماضي البهي ، عاد الود بين الناس وبين مجد الدين ، وصار البهي ذكرى فى سجنه بطنطا ، ولم يعرف أحد أنه حين خرج من السجن اتجه للإسكندرية غير مجد الدين ، ولم يعرف أحد شيئاً عن خضرة أبداً . " يعنى هي حانفوت منها . زمان أبوها قتلها والاّ أخواتها " . تعليق كل من يذكر اسمها أمامه ، مضت سنوات بعد ذلك لم يظهر فيها البهي بالقرية ، صار نسياً منسياً ، العمدة تذكره فجأة، هو الذي يستطيع أن يبحث عنه في كل البلاد ، ولما فكر في شيء يفعله ، طرد مجد الدين من البلدة ،وحتى لا يتذكر الناس الإساءة التي لحقت به قال إن الطرد بحجة الثأر ، وطرد معه خلف آخر من تبقى من الطوالبة . لكن الناس في القرية ، عادوا يذكرون بقوة ما فعله البهي بالعمدة ويضحكون في سرهم ، ها هو البهي مسجى أمام أخيه ، بلا حيلة ولا قوة ،ولا طيش ولا ضعف ، اختار موته بيده في المدينة التي قال عنها إنها بيضاء .

" ونجنا كلنا من الغلاء والوباء والزلازل
والغرق والحريق وسبي البربر ومن
سيف الغريب ومن قيام الهراطقة "

" كيريباليسون "

-8-

عامود السواري هو اسم العامود الكبير الذي أقامه أهل الإسكندرية
تخليداً لذكرى الإمبراطور الروماني دقلديانوس . فدموه إبه هدية وتقـديراً

للرخاء الذي شاع بينهم .؟ نسوا أن دقلديانوس هو أكبر مـن عـذبهم ، وعذب المسيحيين بوجه عام في مصر وفلسطين .

عامود السواري يتوسط منطقة رافوده، في منتصف شـارع كرمـوز تقريباً ، يفصله عن الشارع سور كبير يحيط بالمنطقة الأثرية كلـها . علـى يسار آثار كوم الشقافة هذه ، مدافن المسلمين التي تشغل مساحة كبيرة من شارع كرموز إلى شارع الرحمة . هذه المدافن تسمى مدافن العامود نسبة إلى عامود السواري ، وهى تنتهي شمالاً على شارع المدرسة التليانيـة الضـيق الهادئ الذي نادراً ما يفطن إليه المارة أو العربات ، لذلك يشهد كل مساء أعداداً من العشاق ، يستغلون الظلام فيتبادلون الغـرام ، أحيانـاً يوغـل بعضهم في الحب غير خائف .

خلف عامود السواري يمتد جبل كوم الشقافة ، حيث تسكن بعـض العائلات النوبية ، وبعض من قبائل الغجر ، يبيع النوبيون عـادة ، الفـول السوداني واللب في فراطيس في الشوارع ، ويخرج الغجر فى رحلات قصيرة داخل المدينة ، يمارسون أعمالهم التقليدية ، من قراءة الكف والودع والحظ ، فضلاً عن الرقص وبيع الخلاخيل والغوايش وغيرها من المشغولات الذهبية الفالصو .

في شارع كرموز تمشي عربات الترام ، تبدأ مسـيرتها مـن شـاطئ المحمودية ، في منتصف المسافة بين كوبري كرموز الموصل إلى غيط العنـب من الناحية الشرقية ، وبين كوبري كفر عشري الذي يربط بـين شـاطئ المحمودية بالقرب من الميناء ، أمام النقطة التي يبدأ منها خط سـير التـرام

،وعلى الضفة الجنوبية لترعة المحمودية ،يقع "سكن" لعمال السكة الحديد ، الذين يعملون في خطوط السكك الحديدية جنوب المدينة ، وخلـف هـذه الخطوط الحديدية تقع بحيرة مريوط التي تمتد أكثر مما تمتد الإسكندرية حـتى تصل إلى الغرب إلى العامرية ، وفى الشرق إلى قرب " إدكو " سيكون على مجد الدين أن يكتشف كل هذه الأماكن ، لكن ذلك سيحدث فيما بعد .

كان يذهب إلى المقابر كل يوم ، يجلس أمام مقبرة أخيه يقرأ القـرآن أطول وقت سكن . كان في طريقه إلى المقابر يرى عامود السواري عاليـاً ، ويدرك أنه أثر من الأزمان الغابرة ، ويفكر تفكيراً غريباً ، أن يصعد ويجلس فوقه ، يمضي ما تبقى له من حياته ، بلا طعام أو شرب ، ولا يكـف عـن الصياح باسم الله ، تماماً كما فعل القطب الكبير ، السيد أحمد البـدوي ، على سطح أحد البيوت فى طنطا حتى مات.

- لا يمكن أن تظل على هذا الحال .

قال له دميان الذي ذهب خلفه يوماً إلى المقابر .

- ماذا أفعل يا دميان ؟

تخرج تبحث معي عن عمل . إنى أوفق الآن في معظم الأيام ، ثم إنك لن تمضي عمرك جالساً بين المقابر ، هذا كفر والعياذ بالله .

تأمله مجد الدين ملياً ، وقال .:

- معك حق يا رجل .

لقد تمت صداقة عظيمة وبسرعة بين الرجلين . يوم قتل البهي ، انتهى كل شيء بالمستشفى بسرعة ، بفضل وجود الخواجة ديمتري ودميـان . في صباح اليوم التالي صرحت النيابة بدفن الجثة . عند الظهـيرة كانـت قـد ووريت . وفي اللحظة التي انزلقت فيها جثة البهي المكفنة من يد الحـانوتي أسفل المقبرة ، أدرك مجد الدين الذنب العظيم الذي ارتكبه فى حق أخيـه ، لقد خالف وصيته بأن يدفن في البلد ، لقد ضحك تلك الليلة ، وقال له إنه في حال موته ودفنه بالبلد لن يسبب مشاكل لأحد !. لم يكن ممكنـاً لمجـد الدين تغيير ما حدث . هو لا يستطيع العودة إلى القرية الآن ، وأمه لا يجب أن تعرف بما جرى ، على الأقل لبعض الوقت ، والله يعلم عجـزه وقلـة حيلته.

لقد دفع الخواجة ديمتري عشرة الجنيهات تكاليف المقبرة والـدفن ، وقال لمجد الدين هامساً " تستطيع أن تعيدها حين ميسرة " وكان مجد الدين على ثقة من قدرته على إعادتها ، فأرضه فى البلد تدر دخلاً ، وأخوانه لابد سيرسلون إليه نصيبه كل موسم زراعي . الذي شغل مجد الدين هو هذا الود الذي يظهره الخواجة ديمتري له ولزوجته هو وأسرته ، مع أنهم لم يتعـارفوا إلا منذ أسابيع . قالت الست مريم لزهرة " سلفك البهي كان أميراً " وقال ديمتري لمجد الدين " أخوك كان ابن حلال " فكر مجد الدين أن البهي لابـد من إنه كان يقدم لهم خدمات عند الحاجة ، وأمر زهرة أن تخلى غرفة البهي لينتسلمها الخواجة ديمتري .

لم تكن هناك حاجة إلى ما في حجرة البهي ، لذلك يبعت كلها البـائع روبابيكيا في الصباح باستثناء ثيابه التي أخذها مجد الدين ، ووزعهـا علـى

الفقراء في المقابر ، ووجدت زهرة مظروفاً في الدولاب به عشرون جنيهـاً أعطتها لمجد الدين وهي تجهش بالبكاء . ها هو البهي يسترهما أمام الخواجة ديمتري ، ويستطيع مجد الدين الآن إعادة الجنيهات العشرة بـرغم كـرم الرجل الكبير ، وحكت زهرة لزوجها الحكاية التي لم يسألها عنها ، كيـف شارك البهي في المعركة وكيف مات . وقالت إنها سمعت أصوات صـياح في الشارع ، وكانت في غرفة الست مريم ، فنظرت معها من النافـذة .رأت البهى يطير بعصاته بين الرجال كالرهوان ،كل من طاله نالته منـه ضـربة أعجزته .كان على غير ما عرفته تماماً . رأته جنياً حقيقياً يجندل الرجـال . كان معه فلاحون كثيرون ، وكان الصعايدة أكثر ، لكن عينيهـا لم تكونـا تريان غير البهي . وفي اللحظة التي أوشكت فيها المعركة على الانتهاء ، بعد أن اختفى معظم الصعايدة من الشارع ، ظهرت جماعة منهم من ذقاق واحد قاصدة رجلاً واحداً هو البهي . انهالت العصى كلها فوق رأسه . كانت هي قد نزلت إلى الشارع صارخة لكن البهي كان قد مات . خيل إليها أنه ينظر إليها يشهدها على شجاعته . سألها مجد الدين ما إذا كانت " بهية " عـادت تظهر بالشارع ، قالت إنها لم ترها غير يوم مقتل البهي ، لقد رأتها ولم تصدق وسرعان ما ذهلت عنها بالنظر إلى البهي المقتول .

ظل مجد الدين يخرج كل يوم ، بعد الظهر إلى المقابر يوزع النقود على الفقراء ، ويقرأ بنفسه القرآن ، ويعود مع المساء يتناول عشـاءه ، وجبتـه الوحيدة بعد الفطور ، ثم يقرأ القرآن حتى صلاة العشاء ، ثم ينام ، ونـادراً ما دخل معها في كلام . صمت أكثر حين لاحظ أنه كثيراً ما يجد امـرأة أو أكثر ، أمام قبر البهي يبكين ، ويضعن فوقه ، وروداً وصباراً ، وحين يقترب

تبتعد الواحدة منهن ، أو يبتعدن إذا كن أكثر ، ويغادرن المكان دون كلام . لقد قرر أن يعرف سر هاته النساء . ذهب إلى الحانوتي في المحلات المقابلة للمدافن مباشرة وسأله . ابتسم الرجل وقال له "والله هذا أول ميت أجد كل أقاربه نساء . إنهن يأتين إلى فأدلهن على المقبرة . أنا لم أرهن يوم الدفن ، لكنهن لا ينتهين حتى الآن " . وسكت لحظة . يبدو أنه ابن حلال ، انهن يجزلن لي العطاء . ثم سكت أكثر وقال : العجيب أن رجلاً جاء وسألني عن المقبرة منذ أيام ، فأخذته إليها، فهجم على المرأة التي كانت سبقته وضربها ضرباً مؤلماً ، وسحبها من شعرها مقسماً بأغلظ الإيمان أن يطلقها والعياذ بالله . وسأل مجد الدين إذا كان يعرف شيئاً عن هذا الرجل ، فتركه مجد الدين بلا جواب .

- انت لا تعرف عني إلا أنني دميان عبد الشهيد . لكني أعرف عنك إنك ابن ناس . أنا أيضاً ابن أصول ، وأرجو أن تصدقني ، كان عنده ماليك . هكذا يحكون عنه في بلدنا ديروط . أنت من بحري ، وأنا من قبلي . بحري فيه أعيان كتير ، وفي الاثنين الفقر أكثر . طبعاً . لازم حد يأخذ من حد ! معقول الكلام ! أنت سامعني يا مجد الدين .

- سامعك .

هكذا يرد مجد الدين في كل مرة ، صار دميان يمر عليه كل صباح يصحبه في رحلة البحث عن عمل . في الأيام الخالية من العمل ، وعادة تكون أكثر ، يجلسان بالمقهى على الكوبري . يشتري مجد الدين الجريدة

ينبهر دميان بحرب الغواصات . زوارق الطوربيد الألمانية التي تدمر السـفن البريطانية وتختفي كالعفاريت داخل مياه المحيط الأطلنطي . وعرف من مجـد الدين كثيراً من حياته ، وأهم ما عرفه أنه لم يخدم في الجهادية لأنه من حفظة القرآن .

صار دميان ينادي مجد الدين بالشيخ مجد الدين ، وقال له ضـاحكاً ، إنه لا يوجد قانون يسمح بإعفاء حفظة الإنجيل مـن الجهاديـة أيضـاً . ثم ضحك وقال " ومن الذى يستطيع حفظ الإنجيل !؟" .

وفي كل مرة يقص على مجد الدين شيئاً من حياته حتى اكتملت أركان القصة . قال إنه فجأة هتف واحد من أهل القرية أن السـيد "بسـخرون" كافر وبسخرون هو الجد القريب لدميان ، وليس البعيد صاحب المماليك . لماذا هو كافر السيد بسخرون ؟ قال الرجل لأنه لم يتم تعميده وهو طفـل والحقيقة أنه كان هناك نزاع بين عائلتين على قطعة أرض ، واستطاع الخصم أن يروج هذه الإشاعة عن السيد بسخرون .

- وما هو التعميد يا دميان ؟

التعميد يعنى التنصر . من غيره يظل الإنسان حيران بين الجنة والنار .

- يعنى لا أحد يحاسبه ؟

- بالضبط .

ابتسم مجد الدين وقال :

- طيب وهل هذا يسىء إلى الشخص أو يضره ؟

- بطبعاً . لا تسألني كيف . لكنها مسألة صعبة جداً . أنا لا أعـرف جوهر الصعوبة لكن أحس به . حالة مثل الوقوع من فوق الجبل لكـن لا تصل أبداً إلى الأرض . تظل معلقاً في الفضاء . في فراغ خـال مـن كـل شيء . لا سخن ولا بادر ولا حتى هواء من أي نوع . تعرف يا شيخ مجـد لقد حدث لي ذلك مرة .

- وقفت بين الجنة والنار .

- أجل . أحسست بها وأنا راكب الأسانسير . هـي مـرة واحـدة ركبت فيها الأسانسير في عمارة في المنشية . كنت أقوم بتنظيـف سـطح العمارة . كان هناك عمل كثير . كان سطحاً فذراً ولا خرابة . لم أسـتطع النزول على قدمى . تصور . لم أستطع النزول !. المهم . ركبت الأسانسـير ودست على الزرار . نزل بسرعة شديدة جداً . أحسسـت أنى في مكـان مفرغ من كل شيء . تذكرت مسألة الجنة والنار والوقوف بينهما . ولـولا أني رأيت من خلال زجاج الباب الطوابق وهي تتحرك أمامي كنت صرخت من الخضة .

تأمله مجد الدين في دهشة المعجب المصدق ، ومشاعر دافئة حقيقيـة واستمر دميان يحكى قصة عائلته . قال :

ذهب جدي إلى الكنيسة في أسيوط ، إلى " دير المحرق " . أكبر كنيسة في أسيوط ، وعاد بالقسيس الذي عمده وهو طفل . كان رجلاً أعمى يمشي على عكازين !! لكن لم يصدقه أحد . السبب أن القسيس نفسه كان قـد ارتكب كثيراً من الخطايا في شبابه قبل دخول الدير .

تساءل مجد الدين وهو يشعر برغبة حقيقية في المعرفة .

- طيب هل ضروري أن يتم التعميد والإنسان صغير ؟

-الأصح . لكن يمكن التعميد في أي وقت . التعميد بسيط جداً ؟. يمسك القسيس بالطفل ويغطسه في مغطس رخام فيه ماء . طبعاً هناك موسيقى وترتيل وتهاليل وتباريك . فيه حفلة يعني.!

-كان واجب جدك يتعمد من جديد .

ضحك دميان وقال :

رفض بشدة . صمم أنه قد تم تعميده ، وأنه يخضع لمكائد . لكنه كان في داخله حزيناً . نام ولم ينهض إلى اليوم .

- لا حول ولا قوة إلا بالله .

المهم . أبي وأخوته كرهوا البلد . قسموا الأرض فيما بينهم وساروا في البلاد .أبي عمل بالتجارة حتى ضاعت فلوسه وأفلس تاركاً أمي وأنا وبنتين وولدا آخر مات بعد ذلك بالتيفود ، البنتان تزوجتا وتعيشان مع زوجيهما في سوهاج . أمي تعيش حتى الآن معي . لا تتحرك من فوق الأرض إلا للنوم . وهكذا تشردت عائلة كبيرة من أجل كذبة صغيرة ، لكن الحمد لله أن أحداً لم يقل إن " أبونا " عجز عن تعميد جدي ، أو إن مياه المغطس نشفت فيه حين أراد تعميد جدى . هذ يعني خطايا كبيرة . يعنى لعنة قديمة في العائلة . أجل . كثيراً ما يفاجأ " أبونا " وهو يعمد أحد

الأطفال أن مياه المغطس نشفت فجأة ، أو أن الطفل نفسه لصق بيديه ولا ينفصل عنها .

احتار مجد الدين كيف يعلق لى هذا الحكاية لصديقه الطيب . قال وهو ينظر إلى عينيه :

- أنت رجل صالح يا دميان .

ضحك دميان وقهقه وقال :

- يخيل إليك . أنا منذ سنوات طويلة لم أدخل الكنيسة . كنيسة ماري جرجس على بعد خطوتين من بيتي ، ومن بيتك أيضاً ، لكنى لم أدخلها لا في الآحاد ولا في الأعياد . هل تعرف السبب ؟

ارتبك مجد الدين ثم قال :

- بسبب حكاية جدك .

- لا .. أنسى . أنا دائماً أنسى . أحياناً أقول يا واد أنت صايع بلا عمل لماذا لا تذهب إلى الشهيد جورجيوس ، مارى جرجس يعنى يشوف لك شغلانة ثابتة ، ثم أنسى . رغم أني أعرف لماري جرجس معجزات كثيرة . المسلمون أحياناً يأتون في المولد ويطلبون منه المساعدة . ماري جرجس ولي كبير . طبعاً أنت تعرف الأولياء . تعرف أن مجلس الإسكندرية حاول هدم مسجد " أبو الدرداء " لتوسيع الطريق للترام، لكن كل من رفع معولا على المقام شلت يده . فتركوه مكانه وصار الترام يدور حوله . وأنا أعرف أن سيد البدوي كان يأتي بالأسرى من الأعداء . " الله الله يا بدوي

جاب اليسرى " . أنت من طنطا وتعرف القص أكثر مني . ثم يـا أخيأنـا مختار ماري جرجس له كرامات والسيد البدوي وأبو الدرداء لهما كرامات كلهم على حق ، ليه يكون فيه قبط ومسلمين ؟!

وسكت لحظات طويلة ثم قال دميان من جديد :

- عندي فكرة . ما رأيك أذهب أنا إلى ماري جرجس أطلب شـغل وتذهب أنت إلى أبو الدرداء أو أبو العباس وتطلب شغل . أوحـتى نعمـل العكس ! يمكن ماري جرجس زعلان مني لأني بعدت عنه كتير .

لم يكن مجد الدين يتوقع أن تبكي زهرة بهذه اللوعة سـاعة انطـلاق المدافع في المساء معلنة أن غداً هو أول شهر رمضان . كان هو أيضاً يشـعر بامتداد الحزن في صدره وحاجته للانفجار في البكاء ، لكنه تجلد . يعـرف الفارق بين رمضان في مدينة واسعة ، ورمضان هناك في قريتهما التي يحنـو عليهما فيها جميع تراب الأرض. لكن طرقاً خفيفاً على الباب الموارب جعل زهرة تجفف دمعها بسرعة .

كان الخواجة ديمتري وزوجته يتقدمان لتهنئة جيرانهما بحلول رمضان . قال مجد الدين للخواجة ديمتري بعد أن جلس على الأريكة جواره :

- يا أخي أنتم فتحتم نفسي على إسكندرية .

قال الخواجة ديمتري بإعتزاز :

- الإسكندرية مدينة عريقة يا سيد مجد الدين .

أحس مجد الدين بالمعني العميق في كلام الرجل . وكان اليـوم هـو العاشر من أكتوبر تسلم فيه عملاً في شركة الغول الأهلية بدا له سيسـتمر إلى وقت طويل . من يدرى قد تفتح له هذه المدينة صدرها الحنون الذي لم يره بعد . وقال الخواجة ديمتري .

- ما رأيك في جولة معى بالشوارع الآن ؟ رمضان يحب السهر .

وقالت الست مريم لزهرة :

- تعالى اسهرى اسمعي الراديو معنا .

خرج مجد الدين مع ديمتري ودخلت زهرة مع الست مريم إلى حجرتها المضيئة بالكهرباء . رأت الحجرة بيضاء باهرة ، البنتان إيفـون وكاميليـا تكادان تشتعلان من البهجة . كانت ماكينة الخياطة في وسـط الغرفـة . جلست مريم على الكرسي أمامها ، وجلست زهرة على الكنبة مع إيفـون ،وجلست كاميليا على الكنبة المقابلة إلى زهرة في سعادة مدهشة ، وزهرة لم تعد تشعر بالخجل الآن . سألتها لماذا دائماً تنظر إليها بهذه الدهشة ، فقالت لها كاميليا " أصلك جميلة جداً " . وضحك الجميع . وقالت الست مريم في سعادة كلمتها الأثيرة عن كاميليا .

- خذي بالك يازهرة كاميليا شقية .

وسمعت دقات خفيفة على الباب الموارب . كانت هناك نسمة بـاردة لكنها منعشة . نهضت كاميليا ، وهتفت في سعادة " دي سـت لـوللا " وأشرق وجه الست مريم بالابتسام ، وكذلك وجه إيفون . ووجدت زهرة نفسها تحملق في الست لوللا الشقراء الملفوفة القوام المتوردة الوجه ترتدي

روباً من القطن ، البانتسا الأخضر المشجر، وفي قدميها شبشب أخضر مـن القطيفة ، أما رأسها فهو عار، وشعرها الأصفر كثيف بـارق ككهرمـان . فالت لوللا وهي تجلس :

- الأفندي بتاعي خرج يسهر مع أصحابه على القهوة ، عمل حجته رمضان .

فالت الست مريم باسمة :

- واحنا كمان ، الأفندية بتوعنا خرجوا . يعنى في الهوا سوا .

ضحك الجميع ، بمن فيهم زهرة هذه المرة ، فتحت كاميليا الراديـو فانساب صوت عبد الوهاب ،وبدا أن البنت تعشقه ، "جفنه علم الغـزل" كانت أغنية عبد الوهاب، وموسيقاها الإسبانيولية المذاق جعلـت الفتـاة تتمايل برأسها ضاحكة ، وفجأة هتفت :

- أبو فروة !!

وسكت الجميع . كانت زهرة مندهشة ، بينما كان الجميع يستمعون للصوت الغامض الذي يرتفع في الشارع . صوت بائع أبو فروة الـذي لا تظهر حروف كلماته أبداً لكن الجميع يعرفون أنه بائع أبو فروة الذي يغيب طوال العام ويظهر مع بداية البرد. نزلت إيفون اشترت بخمسـة قـروش ، وبسرعة أحضرت كاميليا موفداً كحولياً أكبر من " السبرتاية " المشهورة ، موقد به أكثر من شريط ، وبدأت تشـوى أبـو فـروة. كانـت زهـرة تعرفه .كثيراً ما اشتراه مجد الدين من طنطا ، وحينما أخذت لوللا ثمرة منـه وضعتها بين أسنانها للحظات ،بدا فمها جميلاً جـداً ، وأسـنانها بيضـاء ،

وأحست زهرة أنها أمام امرأة غير عادية ، وراحت تتابعها وهى تأكل الثمرة على مهل وباستمتاع بطيء ، حتى إنها كانت تغمض عينيها أيضاً لحظات ، ثم قالت لوللا ..

- ياسلام على أبو فروة بالشيكولاتة ، الهارون جلاسـيه يعـنى يـا كاميليا .

- الله ... الله على الهارون جلاسيه ؟

كانت هذه أول مرة تسمع فيها زهرة هذه الكلمة . ولم تبد دهشـة كانت دهشتها داخلية ، فهذه كاميليا المنطلقة المرحة ، وهذه إيفون أختـها تبدو هادئة ، لله في خلقه شئون حقاً .

انتهت أغنية عبد الوهاب وإذا بكاميليا تنهض تعبث فى زرار الراديو وتقول سأبحث أيضاً على عبد الوهاب . وبالفعل وجدته . عرفت الموسيقى وهتفت : " مضناك جفاه مرفده " يا ست لوللا . إذن هناك ألفة بين لـوللا وكاميليا . قالت زهرة لنفسها ، ولم تفهم الاغنية الصعبة ، التي كـثيراً مـا كانت تستمع إليها في القرية فتبتعد عن الراديو أو تخفض صوته أو تغلقه .

لم تفهم الأغنية قط . وتطوعت كاميليا تشرحها لها . كل ما أدركته زهرة أن الست مريم سعيدة بابنتها وجرأتها ، أما هي ، زهرة، فلـم تفهـم أيضاً شرح كاميليا وقالت مبدية دهشة غير حقيقية " يا سلام ، كـل دا في الأغنية دي " . وضحك الجميع ...ثم هتفت كاميليا : " عم محمود " .

فالت لوللا " تاني ، حتى في رمضان " . وجاء صوت عم محمود مـن الشارع يهتف " الحادثة الجديدة " . أخذت كاميليا فرش تعريفة من أمها ،

ونزلت بسرعة . شرحت إيفون بهدوء لزهرة الامر ، عم محمود يأتي كلمـا حدثت حادثة غير عادية ، يبيع ورقة مطبوعة ، بها تفاصيل الحادثة قبـل أن تنشرها الصحف . تفلت زهرة في " عبها " وقالت " يا سـاتر يـارب " ، ودخلت كاميليا صامتة .

- أقرئي .

قالت لها أمها باسمة . ردت كاميليا :

- أحسن تقراها إيفون .

تناولت إيفون الورقة المطبوعة ، وقرأت صامتة ، فاحمر وجههـا مـن الخجل ، ثم قالت بلا مبالاة مصطنعة" أبداً . دى واحدة ست مجوزة اثنين في وقت واحد " . ضربت لوللا على صدرها رعباً وتفلت في عبها أكثر مـن مرة وقالت الست مريم بهدوء :

- قطعى الورقة وارميها في الزبالة .

لاحظ مجد الدين أن الأطفال قد خرجوا بكثرة في الشـارع ، رغـم الظلام وعدم وجود أعمدة إنارة . مشى مع الخواجة ديمتـري في الاتجـاه الآخر ناحية كرموز وقال الخواجة ديمترى :

- قطيعة تقطع انجلترا على ألمانيا في يوم واحد ، لم ينبنا غـير الغـلاء والظلام .

كانت المحلات مفتوحة تبيع على أضواء الشموع أو المصابيح الصغيرة ، وبعضها تجرأ وأضاء أكثر من مصباح كهربي ، لكن الإضاءة كلها بداخل المحلات . ما يتسرب من ضوء إلى الخارج كان يعين الأطفال على اللعـب والمارة على المشي . لقد خرج معظم الناس يشترون ما يحتاجونه من طعـام للسحور وللغد . رأى مجد الدين فرناً أفرنجياً ، وفكر أن يشتري خبزاً فقال له ديمتري إن الفرن يسهر للصباح ، إنهما يستطيعان شراء الخبز في العودة ، أما الآن فليذهبا أولاً إلى كوبري كرموز لشاء الدخان .

بعد عبور الكوبري مباشرة كان هناك محل أبيض الواجهة ، زجاجـه لامع ، الضوء داخله من مصباح أبيض صغير ، والبائع أبيض الوجه ، متورد ، يرتدي بالطو أبيض . لاحظ مجد الدين أن بالمحـل عديـداً مـن أنـواع السجائروالمعسل والتبغ . اشترى ديمتري بقرش صاغ دخاناً وقال :

- دخان تركي طازج له رائحة منعشة .

اشترى مجد الدين مثله ، وقرر أن يكون زبوناً عند صاحب المحـل ، فالدخان السائب أفضل من المحفوظ في العلب .

في عودتهما نظر مجد الدين من فوق الكـوبري إلى ترعـة المحموديـة المظلمة على الناحيتين . شاهد عدداً كبيراً من الصنادل والسفن الواقفـة . أدرك أنه في الغد ستكون هناك فرص عمل كبيرة للعـاطلين ، وفي شـارع ألبان كان الأطفال قد أوفدوا فوانيسهم غير آبهين بتعليمات الوقاية وراحوا يدورون على البيوت يطلبون " العادة " أو يجلسون في حلقـات صـغيرة يتسامرون .. ولم يشأ ديمتري أن يعود بسرعة . قال لمجد الدين :

- ما رأيك في فنجان قهوة ، نعطي الحريم فرصة للسهر .

ووجدها مجد الدين فرصة حقيقية لتتخلص زهرة من حزنها . ودخـل المقهى المجاور للحلواني :" جزر " الذي كان يغـص بالجالسـين يشـربون ويلعبون النرد والدومينو والورق على أضواء مصابيح صغيرة . كان دميان يلعب الدومنيو مع أحد الأشخاص وحولهما ثلاثة آخرون ، تركهم دميان و إذ شاهد مجد الدين ، أقبل يرحب بهما . قال له مجد الدين :

- أنت أيضاً تسهر يا دميان ؟

- رمضان يا شيخ مجد يحب السهر !

وما إن جلسوا حتى هتف دميان :

- من الغد تفتح مطاعم الشعب أبوابها للفقراء يفطـرون بتعليمـات الملك، يعنى الفقير ضمن الأكل لمدة شهر . يعيش الملك وعلى ماهر كمان .

رد رجل يجلس في ركن بعيد من المقهى وهتف قائلاً :

- ومحمد عبد المطلب والست فتحية أحمد !

لم يكن رمضان ليشفع عند الحكومة المصرية لتخفيف حالة الطـوارئ وإجراءات الوقاية ، بل على العكس ، تم التشديد على اتبـاع تعليمـات الوقاية ، ولم تتأخر البلدية بالإسكندرية ،وسائر البلديات ، في إقامة الغارات التجريبية النهارية والليلية ، وارتفعت أسعار بعض السلع وبخاصة البترولية ، الكيروسين والبنزين والغاز الطبيعي، كذلك أسعار الزيت والأرز والدقيق ،

وخرج بعضها من نظام التسعيرة، مثل الزيت، فارتفع سعره كثيراً ، وجـأر الناس بالشكوى خاصة وقد بدأت بعض مطاحن الدقيق في خلطه بنسـب أكبر مما هو قانوني بدقيق الذرة وكان من ظواهر التشديد علـى تعليمـات الوقاية عدم السماح بإقامة سرادقات دينية أو سرادقات للتسلية ، مما تعود عليه الناس في الساحات والجوامع وغيرها من الميادين ، لذلك بدا رمضـان مثل شجرة جرداء في صحراء بالنسبة للذين تعودوا عليه في المدن .

في الدنيا كانت الحرب البحرية لا تزال مشتعلة وأسطورة الطـراد " شار نهورست " وزميله " جيزناو " اللذين يقومان بمهاجمة القوافل البريطانية صارت تملأ الدنيا . بدا الطردان مثل شـبحين لا يعـرف أحـد موعـد ظهورهما .إنما يقومان بضربتهما ثم يدخلان إلى الميـاة العميقـة في المحـيط الأطلنطي ، وكذلك كانت تفعل البارجتان " ردتشلند " و" جراف شبي " ، وحدثت أول غارة لسلاح الجو الألماني علي فرنسا ، كانـت عبـارة عـن طلعات استكشافية ، طاردتها الطائرات الفرنسية و أسقطت بعضها، لكـن الظاهرة أثارت انتباه العالم ، فها هي الطائرات الألمانيـة تسـتطيع تجـاوز الإلزاس واللورين ، وبدأت المخاوف تزدادحيث امتدت الحشود الألمانية من حدود فرنسا إلى حدود هولندا ، وقال الألمان أن الحدود الفرنسية ضيقة ، لذلك لابد من التمدد بالقوات ، ليس لألمانيا أى مطامع في هولندا . وظهر في الأسواق البرتقال اليافاوي ، وقيل إن محصوله وفير الآن بفلسطين ، وإن الحكومة تجد صعوبة في تصديره إلى أوروبا بسبب الحرب ، لـذلك صـار رخيصاً جداً فى الأسواق ، وأنعم صاحب الجلالة الملك فاروق برتبة لـواء على صاحب السعادة بيكر باشا ، حكمدار بوليس إسكندرية ، وتم تحذير

الناس من التوجه إلى ضاحية سيدى بشر ليلاً خارج نطاق شريط النـرام ، حيث كثرت حوادث القتل والسرقة بالإكراه والاغتصـاب ، وتقـرر أن يسافر ضباط الجيش بالدرجة الأولى في السكك الحديدية لأول مرة ، تقديراً لمركزهم الممتاز في المجتمع ، وصونا لكرامتهم وغادر صاحب السمو الملكي الأمير محمد على الإسكندرية إلى القاهرة بعد إنتهاء مصيفه ، وقدم تياترو بيا عز الدين رواية الفودفيل (حرامي أرستقراطي) ، وبلغ سعر الجنيه الذهب مائة وخمسة وثمانين قرشاً وسجائر الكرافن ثلاثة قروش للعلبة عشر سجائر ، وستة للعلبة عشرين سيجارة ، وتقرر أن يكون ضباط الجيش المرابط من خريجي كلية التربية الرياضية الذين يعانون من البطالة دائماً ، وبدأ عـرض فيلم العزيمة ، وتم تعديل قانون الحياد الإمريكي ورفع الحظر عـن تصـدير السلاح للحلفاء وإعدام ثلاثة جنود ألمان ، وكانوا قد قتلوا الجنوال فـون فريتش أثناء القتال قرب وارسو ، واستمر الملك يؤدي صلاة الجمعة كـل أسبوع في جامع ومكان آخر ، فصلي حتى الآن في جامع كخيا بالقـاهرة ، والدخيلة بالإسكندرية ، وصدر تقرير الأمن العام يؤكد أن الحرائق دمرت هذا العام ثمانمائة وثمانية وخمسين بيتا ، وحرقت ما قيمته خمسة آلاف جنيه ، وأقيمت التدريبات في مرسى مطروح لقوات سلاح الحدود علـى المـدافع المضادة للطائرات ، وعين الأميرالاي على الشريف بك مديراً عاما لمصلحة الحدود ، وزار المارشال جورنج قائد الجو النازي الشهير إيطاليا فحبس العالم أنفاسه من نتائج الزيارة وخطب عصمت إينونو رئيس جمهورية تركيا طالباً حياد بلاده وتركها بعيداً عن الحرب ، وصدر قرار بعدم اسـتقدام فـرق التمثيل الأجنبية توفيراً للنفقات ، وتقديراً لفرق التمثيل المصرية ، وعلـق

أحد الخبثاء بأن طرق المواصلات العالمية مقطوعة بالأصل ، وأعاد " سـيرج بوجولوسكي " وهو فنان أجنبي مقيم في باريس ، لوحة " المستهتر " الـتي كان سرقها من اللوفر في يونيو الماضي . قال إنه يحب الفنان الفرنسي " واتو " من فناني القرن الثامن عشر ويحب هذه اللوحة ، وأراد أن يجرى عليهـا بعض الترميمات ، وقال الخبراء إنه في الحقيقة أفسدها مما جعل الحكم يصدر عليه بالسجن عامين ، وأقيمت الصلوات في الإسكندرية بالمدافن الفرنسية ، وعلى أرواح وقتلى الحرب الأولى من الفرنسيين ، وحضر الصلاة قنصـل فرنسا العام وأعيان الجالية الفرنسية ، وبدا في الأفق ان هتلر لـن يهـاجم الجبهة الفرنسية قبل الربيع القادم ، وطعن عز الدين عبد القادر الذي اطلق الرصاص على سيارة النحاس باشا من قبل ، في الحكم الصادر ضده بعشـر سنوات، وتأجل نظر الطعن ، وأقيمت أعياد الميلاد الملكية اكثر مـن مـرة أحدها للأميرة فوزية بمناسبة بلوغها التاسعة عشرة ، وتم الاحتفال في وقت واحد بالقصر الملكي بالقاهرة ، والقصر الإمبراطوري في طهران ، حيـث أنها زوجة ولي العهد الإيراني ، وأقيم عيد ميلاد الأمير محمد على ولي العهد الذي أتم الخامسة والستين ، وكذلك الأميرة فائزة الـتي تسـتقبل عامهـا السابع عشر ، واحتفلت سفارة رومانيا ببلوغ صاحب السمو الملكي الأمير ميشيل سن الرشد ، أى الثامنة عشرة من عمره ، وهو ابن الملك كـارول الثاني ، والأميرة هيلين اليونانية ، ووقعت أكبر معركة جوية بـين القـوات الفرنسية والألمانية فوق إقليم الإلزاس ،وأسقط الفرنسيون تسع طـائرات ألمانية ، وحاول الملك " ليوبولد " ملك بلجيكا ، والملكة " أولهلمينا " ملكـة هولندا ، الصلح بين الأطراف المتحاربة ، فتقدما بمبادرة لذلك ، وظهـر إءـلان

أفراص ري زيكس (Re-Zex) يعلن " يا رجل مصر إن العلم قد جاءكم من أمريكا البعيدة ، كأنك في العشرين مع أنك في الخمسين ، بأحد عشر فرشا ، ثمن علبة أفراص ري زيكس ولا تخجل بعد من نقص فوتـك الجسـمية والحيويـة " وخطـب هتلر في مشرب البيرة بميونيخ حيث سبق له أن أعلن الثورة عـام 1923 ، وأعلن أن ألمانيا تقاتل في سبيل مجالها الحيوي ، ثم بعد ذلك أعلن عام 1937 أن المجال الحيوي لألمانيا هو أوروبـا الشـرقية ، وأن بولنـدا وروسيا البيضاء وأكورانيا ، دول يجب أن تزال من الوجود ، وتباد شعوبها ، وتدخل ضمن الممتلكات الألمانية ، لذلك عندما دخل بولندا لم يتوان عن دخولهم من الناحية الأخرى لتأمين أوكرانيا وروسيا البيضاء ، إذا حـدث وانقلب هتلر عليهم ، اقتسم الروس معه بولندا ، وبعد انصـراف هتلـر ، انفجرت قنبلة في مشرب البيرة فانهار سقفه ، لكن لم يصب أحد بسـوء ، وتبرع صاحب الجلالة بمبلغ ثلاثمائة جنيه ، لصندوق الإحسان التابع لوزارة الشئون الاجتماعية ، وبدأت المخاوف في بلجيكا وهولندا من احتمال خرق ألمانيا لحيادها ، وارتفع سعر البيض المصري إلى مائتين وثمانين قرشاً للألـف بيضة ، بعد أن كان مائة وثمانين ، واحتفلت تركيا بذكرى وفاة أتـاتورك ، وبدأت امستردام في غمر أجزاء من حدودها بالمياة لعرقلة أى هجوم ألماني ، وأعلنت بلجيكا التعبئة العامة وأجريت مناورات مشتركة ، بـين الجـيش المصري والبريطاني في الصحراء الغربيـة ، وتم بنـاء مركـزين للتليفـون الأوتوماتيكي بالإسكندرية في الإبراهيمية وجليمونوبلو ، واشتكى أصحاب مصانع الكبريت من التسعيرة الجبرية الحكومية التي لا تناسب ارتفاع اسعار الخشب ومواد الصناعة وعثر في ناحية فيكتوريا على جثة شاب في حـوالي الخامسة والعشرين ملفاة في سافية ، وانفصل لورنـل وهـاردي ، وظهـر

هاردي في الصحف يقوم بتمثيل فيلم جديد مع هاري لا تجدن ، فعم الناس الغم ، وقامت طالبات مدرسة الاميرة فائزة بتوزيع ملابس داخلية وخارجية ، على طالبات التعليم الابتدائي بالإسكندرية ، بمناسبة عيد ميلاد صـاحب السمو الملكي، وتقدمت امرأة فقيرة إلى النائب العام تشكو اختفاء ابنتـها التي كانت قدمتها لأحد مكاتب الخدمة للعمل منذ سبعة أشهر ، واكتشفت بعد البحث أن مخدوم الفتاة الأول ، باعها لامرأة تدير أحد بيوت الـدعارة بقنا ، وأن هذه المرأة بدورها باعتها لبيت دعارة آخر في المنيا ، الذي باعها بدوره لبيت دعارة في الإسكندرية ، ثم بيعت لبيت دعارة في طنطا ، وهكذا استمرت طوال هذه الشهور السبعة تباع لمختلف بيوت الـدعارة شمـال وجنوب البلاد .

" إن المدينة تصبح عالماً عندما يجب
المرء أحد سكانها .. "

-9-

في " العيد الصغير " تأكد مجد الدين من ضـياع أرضـه . زاره زوج أخته وعرف بموت البهي وأوصاه مجد الدين بأن لا يكلـف أمـه مشـقة

الحضور لزيارة قبر ابنها والأفضل أن يتكتم الخبر . أخـبره زوج أختـه أن هناك مشروعا لطريق سريع في القرية ، سيمر من أراض كثيرة ، من بينـها أرض مجد الدين ، وأن لا أمل لأحد في تعويضات مناسبة ، وأن العمدة هو الذي وراء هذا المشروع . تذكر مجد الدين قول البهي له " عليه العوض في أرضك "وسكت طويلاً حتى سمع ابن عمه وزوج أخته يقول :

الأحكام العرفية ماشية في البلاد والعمدة يقدر ينفـي أى واحـد ، العمدة يقدر يقتل أي واحد ، الطوارئ تعطيه الحق فى أي تصـرف ، ربنـا يستر على البلاد والناس .إذن يمكن قتل مجد الدين بسهولة ، هذ ما يوحى به كلام زوج أخته .

على أي حال إذا حدث وحصلتم على أى تعويضات أرسلها إلىّ .

سلمه زوج أخته عشرين جنيهاً أحضرها له مـن محصـول الأول . أدرك مجد الدين أن هذه آخر نقود يتسلمها من أرضه وخيرها ،وأدرك أنـه لافاك له من البقاء في الإسكندرية وإلى الأبد ..

كاانت نسمة البرد قد مشت أكثر في الإسكندرية، بـل وأمطـرت السماء لعدة أيام على فترات متقطعة بالليل فوحلت الأزقة والشـوارع في المناطق الجنوبية للمدينة ، كانت زهرة لا تعرف كيف ستقضـي العيـد في المدينة الجديدة ، فوعدتها كاميليا وإيفون ، بأن يصحباها في نزهة بالمركب في ترعة المحمودية ، ثم زيارة حديقة الحيوان ، لكن زهرة قالت إنها لا تسـتطيع عمل ذلك . قالت لها الست مريم إذن عليها أن تصحبها إلى حلقة السمك في الأنفوشي عصر يوم الوقفة لشراء الأسماك للعيد ، وإن أسماك الإسكندرية

لا تقاوم ، فوافقت زهرة على الخروج معها ، خاصة أن مجد الدين طلـب منها أن تحتفل في العيد ، وكأنها فى فرحتها ولا داعي للحزن الذي لا طائـل من ورائه . كان هو قد تعود أن يشتري " الفترة " من طنطا ،و اشـتراها هذالا العام من " الميدان " .. اشترى كميات قليلة جداً مـن اليـاميش ، وليس كما كان يشتري كل عام . وكانت زهرة في حاجة للخـروج مـن البيت مرة أخرى ، صحيح أن حياتها في البيت تمضـي بهـدوء وتسـعدها الفتاتان الجميلتان بروحيهما الجميلتين وكذلك الست لوللا ذات الجسـد البارع والجمال الطاغي ، والتي بدا أنها تتمتع بخفة طبع محببة ، لكن ذلك لا يكفيها . تعودت في القرية أن تخرج للشمس والـريح في الحقـول ، وإلى الظل والهجير مع مجد الدين أو وحدها . قدماها تطلبان المشي ، وجسـدها يلح فى طلب الهواء النقي .

ركبت الترام مع الست مريم ، ترام أبو وردة . سـتنزل في نهايتـه ، وتمشي قليلاً في شارع التتويج حتى الشاطئ . أمامها قصر الملك الأبيض ذو النوافذ العديدة ، والنخيل السلطاني العالي يتمايل تحت الريح ، والحـرس شاكي السلاح ، وقليل من الرجال يمشون في الطريق . كثير من النساء في الملاءات اللف المحبوكة على أجسادهن السمينة . سيارات قليلة من نـوع ستروين وبكار تقف مع الناس أمام حلقة السمك . رائحة يود البحر تغلب على رائحة الزفارة وتنعش الصدور ، الهواء بارد ، والغيوم االسوداء تغطى البحر ، وصوت موج البحر ، الذي تحجب رؤيته بنايـة الحلقـة وقسـم البوليس ، يصل إليهما . أمام الحلقة يجلس الباعة على الرصيف أو يقفـون بالصديري الأسود أو الأبيض ، وتحته اللباس الإسكندراني الواسع ، أبـيض

أو أسود فضفاض وعلى الرأس البرنيطة ، ذات الحافة الدائريـة المشـغولة باليد . وعلى المناضد المنخفضة طاولات الأسماك المدهشة ، موزة فضـية ، بطاطا بيضاء وسوداء وحمام ، أجل ، سمك أحمر كبير البطن ، فالـت عنـه الست مريم إنه لا يصلح الشيء، والفقراء يصنعون منه شوربة السـمك ، وجفلت زهرة بعيداً عنه إنها لا تحب أن تكون من الفقراء وتشتريه ، رغـم لونه الجميل . لكن المرجان اكثر جمالاً منه وقيمة ، لذلك اشـترت منـه ، واشترات كذلك من البوري " الليان " ، ورأت الـدنيس والشـراغيش ، والميرا ، والمرمار . كانت الست مريم تشرح لها ميزة كل نـوع . حـتى " البساريا " قالت عنها إنها تصلح لعمل طاجن فاخر رغم سعرها ، وإنـه لا يعيب من يشتريها أن يكون من الفقراء لأنها لذيذة الطعم ، وأنها سـتعلمها طهوها وستشتريها أمامها وستعلمها أيضاً طهو صيادية الأرز الأحمر ، ولأمر غير مفهوم فكرت زهرة فجأة في تمثال محمد على باشا فوق جواده بالمنشية ، وهل يمكن له أن ينزل عن قاعدته ، يعيدها إلى قريتها ومعها مجد الـدين. ولابد أن الست مريم ، أدركت بفطنتها شرود زهرة عنها للحظات ، لذلك قالت لها :

- ما رأيك أن نمشي قليلاً على الكورنيش ، مازال الوقت مبكراً على المغرب ؟

- السمك يفسد .

- الجو بارد والسمك طازج .

ومشيت زهرة كطفلة تركت نفسها لأمها لا تبتعد عنها ..

في العيد أدرك مجد الدين ضياع أرضه ، وبقاءه في الإسكندرية ، وما كاد زوج أخته يفارقه ، حتى وجد أنه في حاجة للخروج . لا تكفيه زيـارة البهي ، وتوزيع الرحمة عليه ، ولا عمل له في العيد ، لا عمل عموماً للعمال المؤقتين . وتمنى أن يزوره دميان ، وفي صباح اليـوم الأخـير فقـط زاره دميان . لكنه كان وقتاً مناسباً إذ أوشك مجد الدين على الانفجار فهـو لا يعرف إلى أين يذهب في الإسكندرية أبعد من المحمودية والمقابر في كرموز .

- ما يرأيك أن تعطي زوجتك فرصة للجلوس مع الجـيران وتـأتي معى؟ .

هكذا قال دميان بعد أن جلس مباشرة فوافق مجد الدين بلا تـردد . لاحظ أن دميان يرتدي حذاء . منذ أسبوع وهو يرتـدى حـذاء جديـداً ويرتدي هذه المرة بنطلون صوف نظيفاً فوقه سترة صوفية قديمـة لكنـها نظيفة . قال لمجد الدين :

- مضى علينا شهر نعمل بانتظام .. اشتريت الحذاء متفـائلاً بعـد انقطاع العمل ، لكن دحرجة البالات عملية شاقة يا شيخ مجد وأنا هزلان .

- ستتعود يا دميان : تحمل حتى تجد عملاً أفضل .

- اشتريت الحذاء الجديد أيضاً متفائلاً بالعثور على عمل أفضل، لكن أنا لاأعرف أي عمل أفضل مما نفعل ؟

ضحك مجد الدين بهدوء ثم خرج مع صديقه يستقلان الترام ، وسط

صخب الأطفال في شارع اللبان ، بملابسهم ، ودراجاتهم الملونة التي يجرونها على الأرض غير الممهدة بصعوبة ، وبين تجمعات الأطفـال حـول باعـة البالونات والبخت والآيس كريم رغم البرد .

في دوران الترام بسيدى كريم ، كان الأطفال أكثر ، حيـث الأرض مسفلتة وكانت أصواتهم تملأ الفضاء . واستقل مجد الدين الترام مع دميان .

كانت مشاهد الأطفال لا تنقطع حول الترام الـتي تمشـي بطيئـة . عصافير ملونة بهيجة . نزلاً في الشارع الخديو .كان معظم محلاته مغلقـة ، انحرفا إلى ميدان المحطة .

الفرقة الموسيقية العسكرية تتوسط الحديقة وتعزف أغاني محمد عبـد الوهاب وأم كلثوم ، حولها زحام من الأطفـال والشـابات والشـباب ، وفلاحون وافدون وأبناء المدينة .

- خد بالك من اللصوص في الزحام .

قال : دميان لمجد الدين وهما يقتربان من المستمعين . لقد وقفا سـاعة كاملة مرت عبقرية لم يشعرا بها . لم يكن مجد الدين يعـرف مـن قبـل أن الموسيقى يمكن لها أن تحمل الإنسان إلى هذه السماوات من الأثير .

ومشياً يبتعدان في صمت كأنهما خارجان من صلاة ، لكـن حلقـة الحاوي بدت مغرية بالوقوف .

- هنا السرقة حقيقية . نصف الواقفين لصوص حقيقيـون يعـرفهم الحاوي .

قال دميان ورد مجد الدين :

- في جيبي نصف جنيه إذا أرادوا فليسرقوه .

ابتسم دميان وقال :

- أنت واعي يا شيخ مجد ، أنا أوعى منك . ليس في جيبي شيء

وانطلقا يضحكان ويقتربان من الحلقة .

في الوسط كان الرجل الذي في حوالي الخمسين ، يقف مرتدياً بنطلوناً قديماً ضيقاً وسترة ضيقة أيضاً تحتها بلوفر برقبة أبيض وحذاؤه رخيص أسود ، كبير الحجم بلا رباط ، تباعدت أذنا كل فردة منه ، وبدا أنـه لم يسـبق للرجل أن مسحه بالورنيش ، وساعد على كبر الحذاء ضيق نهاية البنطلون ، وارتفاعه عن قدمه قليلاً ، ودفة الساق ونحولها ، فكان الجـورب القـديم يسترخى فوق الحذاء .

- انظر ، جزمة شارلي شابلن ، وشاربه أيضاً !

هتف دميان ، وكان للرجل شارب شارلي حقاً ولا يزال يحتفظ بالشعر الأسود . لم يكن مجد الدين يعرف شارلي شابلن وسأله دميان :

- ألم تشاهد السينما من قبل ؟

- نعم .

- سآخذك يوماً لفيلم من أفلام شارلي شابلن .

كان الحاوي يشرح ما سيقوم به . المعجزة التي لا يعرفها أي ساحر في العالم .ولا " هودينى " الكافر ! لم يكن أحد يعرف من " هودينى " هذا . قال الحاوي إنه يستخدم احد الأشخاص كطلمبة مياه . وسيجعل المياه تنزل من فمه وأنفه حقاً . وأشار إلى فلاح شاب حاف ، يرتدي جلباباً غير نظيف وشعره منكوش أن يتقدم منه , أمره أن ينحنى فانحنى . وحين رفع الفلاح رأسه قليلاً وهو منحن إلى لجمهور ، نهره الحاوي أن لا يفعل ذلك ، حتى لا يعطل سير المياه . " المية ما تطلعش العالي يا حمار ! " وضحك الجمهور . وقف الحاوي خلف الرجل عند عجيزته تماماً ، وراح بيده يدير ذراعات وهمياً كذراع طلمبة المياه والكل في صمت ، وفجأة فرد الرجل المنحنى كفيه تحت فمه ،وانهمر الماءمنه دفعة واحدة على كفيه ، ونهض وقد اختنق ، فراح يسعل بقوة ، والحاوي يضربه على ظهره بقوة لمساعدته على التنفس ، ثم يدور سعيداً بين الجمهور الذي استغرق في الضحك والدهشة .. " شفتو العملية الجبارة . أتحدى أى ساحر . ولا هتلر نفسه ... هتلر اللي هيعلم الإنجليز الأدب ، ويعمل فيهم حاجات وحشة ، يعنى .. " وارتفع ضحك الجمهور أكثر بعد أن قال اللفظ القبيح ، وكان في يده " دف " صغير راح يتلقي به القروش والملاليم والبرونزات والنكلات ، التي يجود بها الجمهور . كان الفلاح الذي شاركه في العرض قد عاد إلى الجمهور ، ثم بدأ الحاوي يتحدث عن لعبة أخرى سيقوم بها ، لكن دميان هتف له طالباً أن يعيد الطلمبة . بدا الحاوي لم يسمعه أو يتجاهله ، فاستمر دميان يهتف طالباً ذلك ، وانضم إليه عدد من الجمهور فوقف الحاوي حائراً . كان قد أخرج

شرائطه الملونة التي سيقدم بها عرضاً جديداً من شنطة قماش على الأرض ، فأعادها إليه ونظر إلى ديمان في تحد :

- تريد عرض الطلمبة ، طيب تعال أنت .

كان ديمان قد تابع بعينيه الشخص الذى سبق وشـارك في العـرض ورآه قد ابتعد حتى اختفى . وترك نفسه للحاوي الذي أمسك به من ذراعه وقال للجمهور :

- لو مانزلش منه ميه يبقى مسدود .

انطلق الجمهور يضحك ، وتضايق ديمان ، وردد بعـض الجمهـور الهتاف مؤكداً أن المياه ستنزل منه ، أمره الساحر أن ينحني قـائلاً كلمـة قبيحة أخرى ، فامتثل ديمان ، بعد أن فكر للحظة في خطأ الأمر كله ، لقد أراد أن " يحرج " الحاوي المسكين أمام الناس ، لكنه ليس في ذكائه ، فربما يجعله الرجل مسخرة للمشاهدين ، لكنه لم ينسحب . انحـنى ، وتراجـع الحاوي إلى الخلف قليلاً ، مثلاً أنه يدقق النظر إلى مركز إلـيتي ديمـان ، والجمهور يضحك ، ثم بدأ الحاوي يدير إصبعه السبابة في الفضـاء أمـام الإليتين ، والجمهور يضحك ، والحاوي يقول " لازم ننظفها " والجمهـور يضحك ، ديمان يرتفع الدم في وجهه ومجد الدين يتأسف على الوضع الذي وضع صديقه نفسه فيه ، ثم هتف الحاوي " هـوب "وأدار ذراع الطلمبـة الوهمي ، ولكن لا مياه تنزل من فم ديمان ، والحـاوي يقـول " انتظـروا المفاجأة . لا يأس مع الحياة . النداء العظيم الخالد للزعيم سعد زغلـول " ! ثم تراجع إلى الخلف ، وبأقصى ما استطاع من قوة ، ركل ديمان فى إليتيه

، فألقاه أرضاً على بطنه ، وكاد وجهه يصطدم بالأرض ، لولا أنه اسـتند على ذراعيه . ووقف الحاوي يقول للجمهور " طلمبته فاضية عذبت الجان علي الفاضي علشان كدة ضربته فيها ! " .

وكان مجد الدين قد تقدم يساعد دميان على الوقـوف ، والجمهـور انطلق في ضحك صاخب ، حين قفز دميان فجأة على ظهر الرجل جالسـاً فوقه مما جعل الرجل ينحني إلى الأرض من قوة اندفاع دميان الـذي صـار يجلس على ظهره فعلاً ، وراح بيديه يضرب الرجل ضربات سريعة علـى قفاه ، ثم قفز من فوقه إلى الأرض واقفاً مستعداً لأي شجار . لكن الحـاوي نظر إليه ثم جرى إلى أشيائه المكومة على الأرض ، وجمعها فى شنطته القماش ، وجرى تاركاً المكان كله .

لقد تناثرت النقود التي سبق أن جمعها واندفع إليها الجمهور من كـل الأعمار يجمعها ، وانصرف مجد الدين ودميان صامتين تاركين المكان كلـه داخلين في شارع النبي دانيال آخذين طريقهما إلى محطة الرمل . لم يسـتطع مجد الدين بعد أن ابتعد بدرجة كافية ، أن يمنع نفسه من سؤال دميان :

- ما الذي جعلك تفعل ذلك ؟ كلنا يعرف أن الحاوي نصاب لكنها فرجة وأكل عيش .

- أنا لا أعرف لماذا فعلت ذلك حقاً يا شيخ مجد ، المؤكد أنني كنت أقصد الضحك معه .

لم يكن مجد الدين قد رأي من قبل الدنيا ملونة كما هي اليوم . العيد في القرية يتسع لألعاب الأطفال والصبية والفرافـوز وصـندوق الـدنيا ، وملابس الأطفال الجديدة أيضاً لكن شيئاً ما يجعل الملابس تبدو قديمة. ربمـا رداءة أنواع الأقمشة وطريقة التفصيل ، لكن المؤكد أن لون البيوت الكابي ، والغبار الذي تثيره الحمير التي يركبها الأطفال ، لهما أثر فى أن يظهر كل شيء كأنه قديم ، هو على أى حال لا يريد أن يتذكر القرية الآن . فلتأخذه الإسكندرية إلى جوفها . الفضاء الأبيض الآن أشد بياضـاً منـه في غـيط العنب . زرقة البحر الممتدة تمنح الإنسان الإحساس بالراحـة والوداعـة ، انجلت الغيوم عن المدينة اليوم وخفت الرياح الباردة ، وقيل للناس اخرحوا للمرح .

- بوارح لحد بحري والمكس ، إنجليزي وفرنساوي واسترالي وغيرها

قال دميان لمجد الدين حين رآه يحملق في السفن الحربية ، التي تملأ المينا الشرقية من بعيد عليها أعلام أجنبية ، وعلى سقفها مدافع كبيرة وصـغير ونود يتحركون بأعداد قليلة ،وتتحرك ظلالها إلى جانبها صاعدة نازلة مـع الموج . هل يمكن حقاً أن يصل هتلر إلى الإسكندرية ؟ كل شـيء حولـه يوحي بذلك منذ وصوله .

وكان الوقت ظهراً ، وبدا تمثال سعد زغلول عالياً مهيباً وهو ينظرإلى البحر ، مشيراً إلى أسفل . بالحديقة تحته الأطفـال يمرحـون ، والشـباب والشابات في جلسات وادعة . هذا يوم خريفي بديع ، حبس فيه حـارس المطر مياهه عن الشعب السعيد .

- هؤلاء جنود أستراليا .

كان مجد الدين يتأمل عدداً من الجنود الطـوال ، علـى رءوسـهم بيريهات زرقاء . استطرد دميان .

- إنهم يتحدثون الإنجليزية كالإنجليز لكنهم أطول ، إذا وجدت اثنين من الجنود فالأطول عادة هو الاسترالي، بلادهم واسعة .

أراد مجد الدين أن يعابث صديقه فقال :

- وماذا يفيدني من تمييز الاسترالي عن الإنجليزي ؟

تأمله دميان قليلاً ثم ابتسم وقال :

- صحيح . ماذا يفيدك أو يفيدني ؟ ربما يكون للكلام أي فائـدة لا نعرفها.

ضحكا وانطلقا يمشيان ، وقابلا اعداداً من الجنود الأفارقة يمرحـون وغيرهم من الهنود . فقال دميان:

- جنود من كل الدنيا . الأفريكان لهم ذيول صغيرة . كـل النـاس تقول ذلك ، الهنود يمشون واثقين فى أنفسهم كأنهم في عزبـة يمتلكونهـا . تعرف أنني اتمنى لو ضربت أى واحد منهم على قفاه وجريت .

- هؤلاء مساكين يا دميان تركوا بلادهم غصباً ، ولا أحد منهم يعلم إذا كان سيعود أم لا .

وسكت دميان متأثراً بحق ، لكن أعداداً من الجنود الإنجليز ظهـروا يمشون على الكورنيش بينهم عدد من المجندات الجميلات . كان كل جندى

فد أحاط زميلته بذراعه ، مشى يقبلها قبلات لذيذة سريعة وسـط الجـو المنعش ، وعلى غير موعد أقبلت من الخلف أعداد من عربـات الحنطـور تجرى في سباق مجنون ، حاملة الأحباء من أولاد البلد ، ومـن الأجانـب والسكارى من الجنود والمجندات ، فرفع المشاة قبعـاتهم ويبريهـاتهم تحيـة للراكبين ، وامتلأ الفضاء بالصخب المجنون .

- الآن نحن في المنشية . هذا تمثال إسماعيل باشا.

قال دميان وأشار إلى النصب نصـف الـدائري الأبـيض يتوسـطه التمثال .

- إسماعيل باشا جد الملك فاروق . واحد من أهله يعنى . هو الـذي بنى دار إسماعيل للنسوان تولد . ويقولون إنه هو الذي بنى مدينة الإسماعيلية ، وإنه الذي علم البنات .

كان مجد الدين في غير حاجة الآن لسماع أي كلام . أسـلم نفسـه لدميان حقاً لكنه كان يريد أن يشرب من الهواء الخفيف المنعش . ومن مياه البحر فصدره يتسع بالنشوة ، وسيؤجل صـلاة الظهـر إلى العصـر ، أو يؤجلهما معاً حتى يعود إلى منزله في المغرب . لقد أخـبره دميـان انهمـا سيمشيان حتى الأنفوشي، وهو سعيد بذلك . لابد أن دميان أدرك رغبـة صديقه الخفية فقد سكت فجأة عن الكلام ، ومشى صامتاً .

حين أمطرت الدنيا بعض أيام في رمضان صرت الشوارع موحلـة ، والأرصفة التي بلا بلاط أيضاً ، في الصباح الباكر يخرج الناس إلى أعمالهم ،

والطلاب إلى مدارسهم ، يمشون أقرب ما يستطيعون إلى الجـدران . ورأي مجد الدين عند دوران سيدى كريم ، المياه وقد تراكمـت بكثافـة جـوار الأرصفة . حتى إن الواحد يضطر للخوض فيها ليعبر الدوران ، أو ليصـل إلى الترام . المنطقة مسفلتة وهي نهاية منحدر يبدأ عنـد كـوبري راغـب والمجاري ضيقة لا تستوعب كل هذه المياه .

وجد مجد الدين ثلاثة شبان يقفون على الرصيف ، حفاة رفعوا أرجل بنطلوناتهم حتى أعلى ركبهم ، وارتدوا بلوفرات قديمة ممزقة عنـد المرافـق والأكناف ، كانوا يعرضون خدماتهم لحمل المارة من الرصيف إلى الرصيف الآخر ، أو إلى الترام مقابل مليمين للفرد الواحد . كان بعض المـارة قـد وضعوا صفاً من الأحجار بمثابة جسر للعبور عليه ، فرفعها هؤلاء الشـباب الثلاثة وجعلوا من أنفسهم جسراً وحيداً . كانت النساء والفتيات تضـطر للمشي حتى كوبري راغب ، والعبور إلى الناحيـة الاخـرى ، حيـث لا تتراكم هناك المياه ، ثم العودة إلى الترام .

من بين هؤلاء الشباب كان (حميدو)، الابن الوحيد لأمه التي تبيـع الخضار في مدخل البيت المقابل لبيت ديمتري ، والتي كلما اشـترت منـها زهرة شيئاً عادت بحكاية مدهشة من حكاياتها التي لا تنتهي . في وجه حميدو آثار جرح طويل يشق الخد من أعلى إلى أسفل ، وفي جسده قوة حقيقية ، وهو بعد أن ينتهي من هذا العمل العجيب يسحب عدته ، عـدة ماسـح الأحذية ، ويعلقها على كتفه ، ويمضي إلى الميادين العامة أو المقاهي ،كـان حميدو دائماً منكوش الشعر رؤيته للوهلة الأول تعطى انطباعاً بأنه مجنون ، فهو لا يحادث أحداً في الشارع ، ولايرى إلا وفي يده رشة التلميـع ، وفي

يده الاخرى ساندويتش طعمية يقضمه بشراهة ، ثم يضع ما يتبقى منـه ،في أي شق يقابله في أى حائط .

رأى مجد الدين حميدو يحمل الناس يعبر بهم بين الأرصفة نظير الملاليم ، ولما سأل دميان هل هذا العمل العجيب أمر عادي في الإسـكندرية ، قـال دميان " ذلك يحدث أيام الجوع فقط " .

اليوم ألحت صورة حميدو على مجد الدين ، وهو يمشي مع دميان على شاطئ البحر ، في بحري والأنفوشي . كان الهواء يلعب بـرؤوس النخيـل الهندي الأخضر السعف ، الزاهي الخضرة الطويل السامق الرقيـق ، أمـام العمارات الكلاسيكية الباروكية الشرفات والواجهات . للهواء هنا طعـم الماء العذب السلسبيل ، والكورنيش يستدير في ليونـة وفلائـك الصـيد مركونة إلى الشاطئ فوقها وأمامها الشباك مكومة أو مفردة ، ولا أحد مـن الصيادين ، فاليوم عيد وكل شيء في حراسة الله .

زحام الفتيات والفتيان ، ورائحة اليود والعشب تسـرى منعشـة في الفضاء ، وباعة اللب والفل السوداني والبطاطا المشوية ، والحنـاطير الـتي كانت قد أسرعت من قبل ولا تزال تأتي مسرعة تتوقف بالعشاق أمام باعة السمك المقلي وفواكه البحر ، بلح البحر والجمبري والجندوفلي والكابوريا ، لكن مجد الدين وجد الموقف كله لا يليق به . كيف وهو الشيخ الـورع يشاهد كل هذه المشاهد من العشق والدلال والعبث ؟ لذلك طلـب مـن دميان العودة بأسرع ما يمكن خاصة وقد اقتربا من العصر ، والمسافة مـن العصر إلى المغرب في الشتاء تمر كملح البصر . قال دميان :

- تحتاج إلى كوب من الشاي في أى مقهى ، ما رأيك ؟

فكر مجد الدين أن الجلوس بالمقهى أكثر مناسبة له من هذا الصخب . أخذه دميان بعيداً عن الشاطئ ، من شارع التتويج ، بين حركـة التـرام والمحلات المزينة والأطفال . لابد أنه أدرك ما يدور بذهن صديقه . بسـرعة وصلا إلى المنشية ، التي انفتحت أمامهما واسعة نظيفة تجلو البصر بالضـوء الساقط بين عماراتها القصيرة العريضة ، المفتوحة والبـازارات والصـيارفة الذين يجلسون على الرصيف أمامهم " البنك وشرفاتها الكبيرة الواسعة ذات الأسياخ الحديدية ومحلاتها المغلقة في العيد سوى المطاعم " الزجـاجي بـه العملات الورقية والفضية من كل بلاد العالم . يجلس كثيرون منهم اليـوم رغم العيد يرتدون نظاراتهم التي لا تفارق عيونهم ، وتمثال محمد على باشـا يقف شامخاً فى وسط الميدان . جلسا فى مقهى النيل ، وقال دميان :

- هذه قهوة السماسرة . أمامك البورصة – وأشار إلى المبنى الأبيض الفخم ، ذى النوافذ الطويلة المرتفعة ، والشرفة الفسيحة ، الذي يتوسـط الميدان ـ وهذا شارع توفيق . البورصة مغلقة اليوم ، هذه البورصـة مـا أكثرما فتحت من بيوت ، وخربت أيضاً بيوتاً كثيرة .,

علق مجد الدين بسرعة على حديث دميان ، وكان يدور ، بـلا إرادة منه ، بعينيه على الجالسين يتفرس سحناتهم المتخمة بالنعمة ونظاراتهم البيضاء السمكية أو القاتمة ، ذهبية الشنابر . الذين كانوا لا يرتـدون النظـارات، كانت عيونهم مسلطة على شيء بعيد غير موجود . وكانت رائحة " التبغ " ترتفع جذابة في الجو ، فأشعل لنفسه سيجارة وأخرى لـدميان ،ووجـد "

حميدو " يدخل المقهى حاملاً " كرسي الورنيش " . رآه يقف بدوره يتفرس الجالسين ، ويدق بظهر الفرشاه على الكرسي دقات خفيفة ، مسموعة ، ورآه بسرعة يتقدم ناحية ضابط إنجليزي ، يرتدي زيه العسكري ، وقد خلع " الكاب " الصوف الأخضر ووضعه جواره فوق المنضدة ، وكان للضابط وجه أحمرقوى ، وكان في حوالي الثلاثين من عمره .

جلس حميدو أمام قدميه واضعاً تحتهما كرسي الورنيش ، وبدأ يمسح الحذاء الأسود ، ذا الرقبة والكبسولات البيضاء، انشغل الضابط بقراءة جريدة أجنبية .

لم يرفع مجد الدين عينيه عن حميدو ، الذي رآه بعد أن انتهى من تلميع الحذاء الأسود يتحسسه بأصابعه . لم يدرك ماذا يفعل بالضبط . سحب حميدو كرسي الورنيش من تحت القدمين ، وأراحهما بهدوء إلى الأرض ووقف . أعطاه الضابط ورقة نقدية من فئة الجنيه رآها مجد الدين جيداً . أخذها حميدو ، ومد يده وأخذ العصا التي كان الضابط يضعها فوق المنضدة والضابط مندهش العينين .

هى لحظة ، قبل أن يتكلم الضابط أو يحتج ، كان حميدو فيها قد جرى من أمامه بالعصا والجنيه . حاول الضابط اللحاق به . وقف وما كاد يتقدم مسرعاً ، حتى سقط سقطة فظيعة على الأرض كاد رأسه يشج فيها ووجهه يتشوه . لقد افاده وجود أكثر من كرسي أمامه استند عليها . فسقطت به ولم تصطدم بوجهه . في النهاية صار ملقى على ظهره فى ألم رافعاً رأسه متطلعاً إلى قدميه . حين تحسس حميدو الحذاء كان قد ربط الفردتين كل

منهما في الأخرة برباط الحذاء نفسه ، لذلك أراح قدمى الضابط بيديـه إلى الأرض . لقد حدث هرج بالمقهى .ووقف أحد الضـباط الإنجليـز بعيـدا وأخرج مسدسه ، بينما وقف جندي هندي ذاهلاً يتابع بعينيه حميدو الـذي يجرى في شارع توفيق ، وضحك رواد المقهى للحظة ثم دخلوا في الصمت ، إشفاقاً على الضابط الشاب المتألم فوق الأرض . وتقدم إليه الجرسون بسرعة ، وفك قدميه ، وساعده على النهوض ، والعودة إلى مقعده ، صـار كـل رواد المقهى ينظرون إليه في صمت ينتظرون رد فعله ، وكان هـو صـامتاً بدوره ، ثم قال بالعربية " ابن خرام " فضحك الجميع ، ونهضـهوا تاركـاً المقهي في خجل .

تقدمت الأيام الأخيرة من العام بسرعة . تزايد فيها المطر حتى كـاد يغرق المدينة .هذه المدينة في الشتاء تصبح كالذي ركبه عفريت . المطـر لا ينقطع لعدة أيام ، ثم يغيب أياماً ليعود متصلاً . كثيراً ما ينزل الـبرد مـن السماء بللورات ثلجية صغيرة . قلت فرص العمل وتم توفير مجـد الـدين ودميان من شركة الغزل ، وعليهما العودة للهروا ـة مـن جديـد علـى الشركات . قلت السفن القادمة إلى المحمودية . قالت الست مريم لزهرة إن الإسكندرية في هذه الأسابيع الأخيرة من العام تهب عليها نوات متعاقبة شبه متصلة حتى عيد الغطاس ، وسوف تزداد هذه النوات مع الشهر القادم آخر شهور العام ، وقالت كاميليا ضاحكة إن أصوات الرعد ستكون كالقنابـل وسوف تهز البيوت ، وإن البرق سيخطف الأبصار وراحت زهرة تنظر إليها بإعجاب ، وقالت كاميليا إن أحسن مشاهد الإسكندرية، تكون في الشـتاء

على الكورنيش ، عندما يندفع الموج عابراً الشارع ، ضارباً العمارات بالمياه ، وأن الشتاء يمنعها من الذهاب لمشاهدة فيلم عبد الوهاب الجديد " يحيـا الحب " ، وصار ظهور عم محمود بائع نشرات الحوادث قلـيلاً ، بسـبب الظلام والبرد والمطر ، لكن أخبار الحوادث كانت تنتقل بين الناس ، فعرفوا حادثة الشاب الذي قتله زميله بالليل في حى اللبان ،والشاب الثاني الـذي عثروا على جثته داخل كشك مغلق بحي الفراهدة ، وثاني حادثـة لفتـاة تتزوج من رجل وهى متزوجة من رجل آخر ، والشاب الذي قتل والـده منذ وقت طويل. وارتفعت الراية السوداء فوق سجن الحضرة يوم إعدامه ، وكان مجد الدين يمضى أكثر نهاره بالمقهى عند الكوبري في الأيام الصـحو التي لا يحصل فيها على عمل ، يؤانسه في الجلسة دميان يطلب منه قـراءة الصحيفة التي اندهش كثيراً لأصرار مجد الدين على شرائها كلما تعطـل . كيف تدفع خمسة مليمات في كلام لا يفيد أغلبه كذب ؟ ومجد الدين صـار مغرماً بمعرفة شئون الدنيا ، وكان يكتفي بقراءة المانشتات عن حالة الحرب في العالم ، ثم صفحات الحوادث والوفيات لا يعرف لماذا .

كان هتلر قد قام بتصفية خصومه من الأرستقراطية الألمانيـة وبقايـا الإمبراطورية وسائر معارضيه بعد حادث ميـونيخ واحتفلـت المفوضـية الإيطالية بعيد ميلاد الملك فيكتور عمانويل ، ومنعت الحكومـة المصـرية الاتجار بأعقاب السجائر وهي التجارة التي راجت بين أطفال الشـوارع ، الذين يبيعون الأعقاب في المقاهي والنوادي ، ووسائل النقـل ومحطاتهـا ، ويجمعونها بسرعة كما تلتقط العصافير حبوبها ، أجل ، وإن كانوا يلتقطونها باليد ، لكن في سرعة العصافير ، ثم يبيعونها لمحـلات الأدخنـة الشـعبية ،

وخطب المستر تشرشل وزير البحرية الإنجليزية الداهية ، متحدثاً عن خسائر الحلفاء في البحر في الأسابيع العشرة الفائتة منذ اندلاع الحرب وكيف ان انجلترا لا تعبأ بالتهديد ، وزارت الهيئة الوفدية ضريح سعد زغلول في يوم الجهاد الذي لم تحتفل به الدولة، وعرضت سينما الأهلى فيلم على الكسار (سلفني ثلاثة جنيه) .

وتم إنشاء معسكرات جديدة لتدريب الجيش المرابط الذي استعرض فوانه وزير الأوقاف في معسكرات سيدى بشر ودمنهور وظهر الجنود في العرض وهم يرتدون البنطلونات الكاكي النصف في عز البرد والبلوفرات الصوف بنصف الكم فوق القمصان الكاكي ذات الأكمام الطويلة ، والطواقي على رؤوسهم ، والبنطلونات معلقة فى أبدانهم بحمالات عريضة وعلى أكتافهم بنادق " اللى آن فيلد " الطويلة . وافتتح المونسنيور الموسم الشتوى بالإسكندرية بعزف موسيقى أرجنتينية وغناء إسباني ، وتم توزيع استمارات على سكان كرموز مينا البصل والجمرك ، لكى يحددوا رغبتهم في الترحيل من الإسكندرية ، إذا وصلت الحرب ، والأماكن التي يرغبون في الترحيل إليها ، ولم يتم توزيع الاستمارات على منطقة غيط العنب ، وهى إدارياً تابعة لكرموز ، وإن كانت ترعة المحمودية تفصل بينهما ، وافتتح الملك الدورة البرلمانية الجديدة وقتل ضابط كان يقوم بالحراسة أمام المحافظ بالإسكندرية برصاصة انطلقت من أحد الجنود وشيعت جنازة الضباط في موكب رسمي ،ثم نقل إلى بلده فوبسنا حيث دفن في موكب رسمى آخر ، وأعدم الجندي ، وطعن محام بالإسكندرية في الحكم حيث لم تعط المحكمة الفرصة كاملة للجندي الذي أصر على أن الرصاص انطلق من بندقيته دون

فصد ، ورفعت الراية السوداء فوق سجن الحضرة للمرة الثانية فى أقل من شهر .

وغرقت الباخرة الهولندية سيمون بوليفار فلاح في الأفق أن الحـرب قادمة مع ألمانيا ، وتراجعت محاولة الصلح التي قام بها ملك بلجيكا وملكـة هولندا ، وأعلن ان انجلترا تنفق على الحرب ستة ملايين جنيه يوميـاً حـتى الآن ، وصارت بولندا خراباً كاملاً ، وتم حصر اليهود في حـي واحـد ، تحيطه الأسلاك الشائكة ، وما كاد صباح الأول من ديسمبر يصعد إلى الدنيا ، حتى جاءت الأنباء بالهجوم الروسي على فنلندا ، وازداد إغـراق سـفن الحلفاء بالألغام الألمانية ، وارتبك العالم من عنف الهجوم الروسي وضـرب هلسنكي بالطائرات ، وكانت الطرادات الإنجليزية قد أعدت خطة لإغراق البارجة الألمانية المخيفة : " جراف شبي " ، واستدرجها الطـراد أشـيل ، والطرد أكستر في معركة يتابعها الناس كل يوم . مباراة دامية بين الـذئاب استمرت عدة أيام ، دخلت بعدها جراف شبي إلى ميناء مونتيفيدو المحايـد بالأرجنتين فتربص بها الطرادان خارج المياه الإقليمية. ماذا ستفعل جـراف شبي وكيف تخرج من هذا الحصار ؟ كان هناك جرحى وقتلى من رجالهـا وأسرى من البريطانيين الذين ألتقطتهم جراف شبي بعد إغـراق سـفنهم ، لكنها الآن لا تستطيع الخروج إلى المحيط الأطلنطي. جـاءت التعليمـات لقائدها بإغراق السفينة خارج المياه الإقليمية ، و إغرقها القائد وجنوده أمام المتابعين من كل مكان في الأرجنين ، الذين انتقلوا إلى مونتيفيديو يشاهدون المباراة المميتة ويسجلونها . وعاد لوربل وهاردي إلى العمـل معـا فسـعد جمهورهما الكبير ، وصدمت سيارة جيش بريطاني مواطناً مصرياً في شـارع

المكس فتوفى على الفور، ولم يعثر على أهله ، وألقى محمد موسى نفسه من نافذة المستشفى الأميري فمات ، ولم يعرف أحد هل قتل أم انتحر أم انتابته نوبة هستيريا مفاجئة ، واستمر القتال بين روسيا وفنلندا، التي ثبت جنودها وحققوا انتصارات مذهلة ، وانتحر الجنرال " لنجسدورف " قائد البـاخرة جراف شبي بعد أن عقد مؤتمراً صحفياً قال فيه للصحفيين إنه لا يملك شيئاً يقدمه لهم لكن في الغد سيعطيهم شيئاً كبيراً وبر بوعده وأعطاهم انتحاره ، وهدد هتلر انجلترا بأنه سيقضي عليها بألف طائرة كل يوم ، واشـتعلت في الشرق الأقصى الحرب بين الصين واليابان فبدا العالم كله كتلـة نـار ، في مكان مجهول منها يجرى مجد الدين ودميان وعشرات مثلهما للبحث عـن عمل . وكان مجد الدين متحيراً للغاية في أمر ذلك الفتي الصغير شبه المجنون الذي يفاجأ به دائماً يقف جواره أمام أبواب الشـركات ، أو يهـرول إلى جنبه من مكان إلى مكان . لم يكن أحد يعطيه عملاً أبداً ، وتعود مجد الدين على لهجته الخنفاء و أشفق دائماً عليه ، وأعطاه أكثر من مرة خمسة قروش كاملة ، ورآه أكثر من مرة يتابعه حتى إذا رآه قد دخل إلى المقهى وجلس ، دخل خلفه وجلس بعيداً ينظر إليه فاغر الفم ، فيأمر له مجد الدين بكـوب ساخن من الشاى، ويقول له دميان هذا قرينك يا مجد الدين خرج لك مـن تحت الأرض ويتأمل مجد الدين الفتي المعتوه ويرى فيه واحداً من أبنـاء الله الصغار ، الضائعين المباركين أيضاً .. من يدري .

وافترب العام من نهائيته فأحست زهرة بالفعل بالخوف مـن صـوت الرعد وقوة الأمطار ، وكثيراً ما أظلمت الدنيا نهاراً كاملاً ، لكن جلسـاتها مع الست مريم والبنتين اللتين كثيراً ما تخلفتا عن المدرسة بسبب المطر كانت

تشعرها بدفء حميم خاصة حين تنضم لوللا إليهن بنكاتها التي تطلقها على الناس في الشارع ، الباعة وأصحاب المحلات ، والتي صار زوجها يضربها كثيراً في الأيام الاخيرة ، ويسمعون صوت صراخها قادماً من أسفل ، لكنها عادة ما تهدأ وينقطع كل صوت ثم يرتفع صوت ضحكها . صارت هذه عادة ليلية ولم يتحدث أحداً إليها عن شيء ولم يسألها عن الأسباب .

وكانت آخر حكايات أم حميدو لزهرة عن الكونت زيزينيا ، الذي يقاضي الآن بلدية إسكندرية لأنها استولت على أملاكه بالرمل . كانت هناك بالفعل قضية مرفوعة من الكونت على بلدية الإسكندرية يتهمها فيها بالاستيلاء على أراض مملوكة له على البحر ، من جليمو نوبلو إلى سابا باشا ، وقالت لها إنها عملت خادمة فى بداية حياتها في سراى الكونت بالرمل ، وهى تعرف أنه على حق فخط الرمل كله ملكه . غير أنه بخيل . هكذا قالت . لذلك رزقه الله بمن أخذ منه كل شيء .

وسألتها أم حميدو فجأة هل تعرف المرأة المسكينة التي كانت تمشي دائماً وراء البهي في الطرقات . قالت زهرة إنها لا تعرفها لكن أم حميدو ابتسمت وقالت إن في غيط العنب " ناس كتير من بلدكم يعرفونها وقالوا إنها كانت فى شبابها تحب البهي وأنه سبب جنونها " سكتت زهرة ولم ترد ولكن أم حميدو عادت تقول إنها تعرف " نسوان كتير " همن عشقاً بالبهي . إن في وجهه جاذبية قاتلة للنساء ، وهى تصدق أن تلك المرأة ضحية من ضحاياه . قالت زهرة بهدوء " هذا تاريخ قديم يا أم حميدو " . في ذلك الوقت كان الحانوتي قد عثر على " البهية " جوار قبر البهي ، ممددة في الوحل غارقة في مياه الأمطار ممسكة بعصاها بكلتا يديها تشد عليها شداً .

كان يراها منذ أيام جالسة لا تتحرك أمام قبر البهي ، غير آبهـة بالأمطـار والبرد ، وحاول كثيراً أن يبعدها ، لكنها كانت تنظر إليـه نظـرة تخيفـه فيبتعد . الليلة دخل المقابر يسرق كفنا جديداً ، لسيدة موسرة دفنـت في الصباح ، فرأى البهية ميتة في عودته ، فكر قليلاً فيما يمكن عملـه ، ورق قلبه لحال المرأة المنكوبة . وفكر أنه لو أبلغ البوليس سينتهي الأمر بدفنها في مدافن الصدقة إذ لا يبدو أن ثمة أهلاً لها ، فضلاً عما يسببه البـوليس مـن إزعاج . نظر للكفن الذي سرقه ملفوفاً ومكوماً تحت إبطه وإلى المرأة التي تحت المطر واستغفر الله ولفها بالكفن المسروق ثم دفنها داخل مقبرة البهي !

انتهي العام بلا هدنة بين المتحاربين ، بل زيارات للجبهات العسكرية من قبل القادة والملوك والرؤساء ، ورسالة من الملك جـورج الخـامس إلى الشعب والجيش بمناسبة عيد الميلاد ، ورسالة للجيش من الجنرال جاملان في فرنسا وذهب هتلر بنفسه يمضي عيد الميلاد مع جنوده في الميدان الغـربي ، والجميع تمنوا النصر لشعوبهم وجيوشهم ، ومازال الفنلنـديون يسـجلون انتصارات مذهلة ، وطردت عصبة الأمم روسيا من عضـويتها ، وعـرض يوسف وهبي فيلمه " أولاد الشوارع " في القاهرة ، التي ظهر بها كثير مـن إصابات التيفويد ، وبيعت عشرات من زجاجات الكونيـاك والشـمبانيا والويسكي في الإسكندرية وسهرت ملاهيها على ضوء الشـموع في وداع العام القديم ، ورقص جنود العالم مع نساء العالم ، وبكى بعضهم ، راجين أن يأتي عام جديد أفضل ، وقبل انتهاء العام بيومين حدث زلزال رهيب دمـر قرى عديدة في تركيا ، وأخفى مدينة أرزنجان من الوجود ، وكانت زهـرة تتمنى انتهاء شهر كيهك البارد هذا ، ومجد الدين ودميان يجدان عملاً يوماً

ويجلسان بالمقهى أسبوعاً ، وفي صباح اليوم الأخير من العام جلـس الفـتى المعتوه بالمقهى أمام مجد الدين الذي أمر له بكوب الشاي لكن الفتى بكـى فجأة ، فقام مجد الدين وجلس جواره ،وسأله لماذا يبكـي ، فقـال وقـد اختلطت دموعه بمخاطه .

- أبويا فتن أمى بنين إمبانح .

" صلوا من أجل خلاص العالم
ومدينتنا هذه وسائر المدن "

"كيريباليسون "

-10-

دفت أجراس كنيسة مار جرجس بشارع الرند في المساء . الليلة يقام فداس الميلاد ، وغداً يبدأ العيد بذكرى ميلاد السيد المسيح ، وخرج الشباب والفتيات في أبهى زينتهم ، وكذلك فعل الرجال والنساء ، وسرت

في الجو رائحة العطور الرخيصة من البارة ، ومن الذاهبين إلى الكنيسة ، ومن نوافذ كثيرة في البيوت . صارت في الجو حالة من المرح والغبطة جعلت الفتيات والصبية والشباب من المسلمين يشعرون أيضاً بالانتشاء والفرح ، وخرج كثير من الأسر المسلمة تبارك العيد لجيرانها الأقباط ، ورأت زهرة كاميليا وإيفون وأمهما ، ثلاث وردات ملائكية تشع وجوهها البهجة التي لم تر مثلها من قبل . قالت لهن .

- كل سنة وأنتم طيبين .

هكذا أوصاها مجد الدين بالليل أمس . لقد عرف من دميان بالعيـد حين سمعه يقول :

- غداً ينتهي صوم الميلاد ، ثلاثة وأربعون يوماً من الصوم عن الروح باستثناء السمك ، وكل طعامنا بالزيت يا شيخ مجد حـتى أن المعـدة ضجت وثارت وكادت تقفز من الحلق .

وسأله مجد الدين :

- إذن تصومون ثلاثة وأربعين يوماً كاملة في العام .

ضحك دميان وقال :

- يا شيخ مجد ، العام كله تقريباً صيام ،أنتم لديكم شـهر واحـد ، ونحن لدينا أصوام ، عذاب يا رجل يخفف منه الفقر الذي يجعلنا في صـوم طبيعي .

وسكت لحظة ثم قال :

- أحياناً يخيل لى أن الصوم من أيام الاضطهاد ، خذ مـثلاً الصـوم الكبير ، هذا الصو مدته خمسة وخمسون يوماً ، هذا أهم الأصوام لأن السيد المسيح صامه . السيد المسيح صام أربعين يوماً فقط ، لكننا أضـفنا إليهـا أسبوعين ، واحدا قبل الأربعين يوماً لإعداد النفس للصوم . والثـاني بعـد الأربعين يوماً كرمز لأسبوع الآلام الأخير للسيد المسيح .

ابتسم مجد الدين وقال :

- دميان أنت شيطان .

وسكتنا وقال دميان :

- هل ستزورني بعد غد ؟ إن لدينا عيداً ، عيد ميلاد السيد المسيح .

تأثر مجد الدين بحق ، وقرر أن يزوره أكثر من مرة خلال العيد ، وسمع دميان يتمتم قائلاً :

" المجد لله فى الأعالي وعلى الأرض السلام ،وفي الناس المسرة " فابتسم وبالليل أخبر زهرة بالحديث كله ، فأدركت لماذا تتغير رائحة طبيخ القـبط عن المسلمين : " صيامهم كثير وطبيخهم بالزيت ، وحياتهم كرب ، استغفر الله العظيم " .

وقالت كاميليا وهي تكاد تقفز من السعادة :

- رايحين القداس يا زهرة، الصلاة يعنى ، نسـبح ونهلـل ونقابـل أصحابنا .

دهشت زهرة من كلام كاميليا الذي لم تفهمه ، ولكن لابد أنه أمـر حقيقي وجميل ، لأن الأم ابتسمت كوردة وإيفون أيضاً . ولا تعرف زهـرة كيف واتاها هذا الإحساس المفاجئ بالرغبة في الذهاب معهن إلى الـدير ، لكن شحب وجهها للحظة من الفكرة العجيبة فصـافحتهن مـرة ثانيـة ، وسمعت صوت الست لوللا قادمة ، فقررت أن تقضي معها بعض الوقت . لقد تأخر مجد الدين في الخارج اليوم ، ولعله وجد عملاً جديداً ، فالأعمال هنا تبدأ في الصباح الباكر ولا تنتهى قبل السابعة مساء .

تواصلت أعياد المسيحيين ، وهطلت الأمطـار بشـدة في الغطـاس ،وتحولت السماء إلى أفواه قِرب تطرد المياه إلى الأرض ، وبالليل جلسـت زهرة مع الست مريم وبنتيها ولوللا يمصمن القصب معاً ، اكتشفت زهرة أن المسحيين يفعلون ذلك أيضاً مثل المسلمين ، وقالت إيفون بثقة : هـذه عادة فرعونية ، ليست مسيحية ولا إسلامية، أجدادنا الفراعنة كانوا يفعلون ذلك ، توافق اليوم مع عمادة السيد المسيح بنهر الأردن ، عمـده يوحنـا تعرفينه يا زهرة ؟

- لا أنا مش فاهمة .

ضحكت كاميليا وقالت :

- يوحنا هو سيدنا يحيي بن زكريا ، أنا كل يوم أسمع عم مجد الـدين وهو يقرأ القرآن ويقول " يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى "

بدت زهرة ذاهلة من هذه البنت التي تنصت لتسمع مجد الدين الذي عادة يرتل القرآن في المساء بصوت خفيض للغاية ، لكن لابد أنه يصـلهم

واضحاً ، وقالت لوللا : " خلونا في القصب أحسن ، إحنا مـش فـاهمين حاجة " ، وضحكت ، وكان الخواجة ديمتري يعمل ليلاً في جراج البلديـة هذا الأسبوع فهو يعمل بنظام الورديات ، وكان عيـد الأضـحى علـى الأبواب ، فقالت لوللا مبتهجة " يارب اجعل حياتنا كلها أعياد " وبدأ المطر يخف من فوق سماء المدينة والسحب السوداء تقف بعيداً وانتهي يوسف بك وهبي من عرض دراما القاتل على مسرح برنتانيا بالقـاهرة ، وتم ضـبط عصابة كبرى لتزييف النقود وفي حوزتها ثلاثون ألف ورقة من فئة الجنيـه ، وعرضت سينما الكوزمو فيلم المطربة ملك الجديد " العودة إلى الريـف" . وأرسلت الحكومة المصرية لضحايا زلزال تركيا ألفين وأربعمائة بطانية مـن الصوف وأمصالاً لحقن خمسين ألف شخص ضد الأوبئة وقال دميان لمجـد الدين : هل لابد من زلزال هنا كي يعطونا أيضاً بطاطين ؟ ثم ابتسم وقال : الموت من البرد أفضل من الموت بالزلزال على أى حال ! وتم الانتهاء مـن بناء مستشـفى الصـدر بالعباسـية ،وأعلـن عـن تشـكيل الجـيش التشيكوسلوفاكي بفرنسا ، ومر عيد الأضحى ولم يصل أحد مـن القريـة ليزور مجد الدين ، لقد كان في اليوم التالي عيد الغطاس ، وسرت بين بعض المسلمين همهمة غامضة ، هذه الأمطار المباركـة بالنسـبة للمسـيحيين في الغطاس ، إذا استمرت لا تكون مباركة بالنسبة للمسـلمين في عيـدهم ، وفوجئ الناس بيوم العيد يأتي صحواً ترتفع فيه الشمس مبكرة ، وتشـرب الأرض ماءها الذي ظلت تستقبله حتى منتصف الليـل الفائـت ، وقـال الخواجة ديمتري لمجد الدين وهو يباركـه بالعيـد " لقـد وزع الله رحمتـه بالتساوي على الناس يا شيخ مجد " شرح له ديمتري أن الماء ظل ينسـكب

أمس وأول أمس ليل نهار ، يوم الغطاس وقبله ، وكان يمكن أن يفسد فرحة المسلمين بالعيد فيظلون في بيوتهم فلا يخرجون للصلاة ولا التهنئة ، لكن الله سلم ، قال مجد الدين " ونعم بالله ، كل ما يأتي من عنده فرج " قال ديمتري ضاحكاً : أردت فقط مداعبتك ، أنا أعرف إنك رجل صالح لا تفرق بين مسلم وقبطي ، وهذه الدولة يا شيخ مجد شعارها من أيام سعد باشا " الدين لله والوطن للجميع " ، ولكن أولاد الحرام يحبون أن يشعلوا نار الفتنة وخصوصاً فى الأحياء الفقيرة مثل حينا . سكت مجد الدين طويلاً ، تذكر البهي حين قال إن الفتنة بين المسلمين والمسيحيين تراجعت كثيراً وقال لديمتري :

- الفتنة موجودة في كل وقت وبين كل طائفة وأختها ، بلدنا محسودة يا خواجة ديمتري ، ونحمد الله إن الحرب لاهية الناس .

وانتهى عيد الأضحى ، ولا تزال لجنة مشروع القرش ، تجمع التبرعات من أجل الصناعة الوطنية المصرية في القاهرة والأقاليم ، وهجم على الإسكندرية نوع من الناموس لم يعرف من قبل جاء من ناحية بحيرة مريوط ، فقام معمل تحليل الأوبئة بالمدينة بتحليله ، وانتهى إلى أنه ليس ناموساً لكنه نوع من الذباب الضعيف ، الذي يقضى عليه البرد ولا خطر منه ، وتكفلت الأيام الباقية من شهر طوبة بالقضاء عليه ، وأقامت جمعية المواساة سحبها السنوي على ورق اليانصيب ، وخصصت دار الأوبرا عروضها لجنود الكومنولث ، وكانت الملكة فريدة والملكة نازلي ، تحرصان على حضور هذه العروض وجاءت الأخبار أن شارلي شابلن انتهى من إخراج فيلم الدكتاتور العظيم ،وانتهى عرض فيلم يوم سعيد بالإسكندرية

ولحقت به كاميليا وإيفون في آخر حفلة ، وراحتا تحكيان لزهرة عن عبـد الوهاب وهو مفلس ، وعن الممثلة الجديدة الطفلة " الأمورة " التي اسمهـا فاتن حمامة ، وقدمت السيدة عزيزة أمير الشكر للشـعب المصـري علـى صفحات الصحف لتشجيعه لفيلمها " الورشة " وخصت بالشكر رجـال الجيش ونقاد الفن ، وأقيمت مناورات مصرية بريطانية شرقاً هذا المرة عند الكيلو ثمانين بطريق السويس واختيرت الفتاة ريتاهيوارث ملكة جمال للعام الحالي ألف تسعمائة وأربعين واكتشفت مقبرة جديدة بناحية سقارة ، يرجع تاريخها إلى أربعة آلاف وخمسمائة سنة قبل الميلاد ، وتبرع الملك فاروق بآلة تشغيل سينمائية ، للترفيه عن الجنود وأهالى مرسى مطروح ، لفظت ترعـة المحمودية ثلاث جثث في شهر واحد هو شهر مارس ، من بينها كانت جثة " الفتى الأخنف " وتوصل البوليس إلى الجاني ، الذي كان أباه ، الذي أصابته لوثة فاعترف بقتله الأم من قبل ، وانفرد مجد الدين ثلاثة أيام في غرفتـه لا يبارحها ، معتبراً نفسه سبباً في قتل الفتى المعتوه ، لأنه لم يصدقه يوم بكـى وأعلن قتل أبيه لأمه ، لقد نصحه دميان أن لا يذهب إلى نقطة البوليس وإذا كانت هناك جريمة حقاً فسوف تظهر ، وها هي قد ظهـرت ولكـن راح ضحيتها الفتى المسكين ، أنقذه من حزنه دميان الذي صار يأخذه كل مساء إلى مقهى بعيداً على شاطئ المحمودية بين كوبري راغب وكوبري كره ـوز حيث يعيش " باعة الترمس " في بعض البيوت المتناثرة على الشارع الموازي للترعة يضعون الترمس في أجولة من الخيش يربطونها بإحكام ، ويتركونها في ماء المحمودية الجارية عدة أيام فتضيع مرارة التـرمس في المـاء العـذب ، فيسحب الباعة الأجولة إلى الشاطئ ويبدأون في بيعه على " عربات يـد "

صغيرة ، يطوفون بها مع الصباح الباكر ، في أحياء راغب وكرموز ومحطـة مصر ومحرم بك وغيرها مما يقع شرق المدينة ، والقباري وكفر عشري غرب المدينة ، ويعودون مع المساء فيصلون مع الليل مرهقين ، يتركون عرباتهم في أمان على شاطئ المحمودية ، ومع الصباح يبدأون جولتهم . قليلون منـهم يسهرون في المقهي المنعزل . منطقة خالية تصلح للقتل وللحب وللصـلاة أيضاً والخشوع .

بالمقهى الصغير جداً ، الذي هو عبارة عن عدة مناضد خشبية ومقاعد من القش وكشك من الصفيح به يتم صنع الطلبات ، بهذا المقهـى كانـا يجلسان كل مساء تهب عليهما ريح طيبة من المحمودية محملة بالبخر الأبيض ، حاملة نسمة شتوية متأخرة كأنها النفس الأخير للشتاء وأمامها تمر السفن فاردة أشرعتها يشدها على الشاطئ رجال أشداء ربطوا الحبال بصـواريها ولفوها حول صدورهم ،وحول السفن الكبيرة فلائك ملونة عليها شـباب وشابات ونساء وأطفال يمرحون ويغنون ، ويأتون من كل ناحية وينتـهون عند النزهة ثم يعودون ويشعر مجد الدين أن كل شيء حوله حر إلا هو لقد تم تقييده في الإسكندرية إلى أجل غير معلوم . الإسكندرية التي رأي " غفارة " بائع النشارة يقف أمس أمام عربته وحماره ويهتف "يارب اجمع شمل إيطاليا على ألمانيا علشان إسكندرية تولع بالأجانب والنسوان " وضـحك المـارة وأصحاب المحلات ، الذين يشترون منه النشارة ، يرشونها على الأرض قبل كنس الدكان آخر النهار ، لغفارة عربة خشبية ، ذات صـندوق خشـبي يرتفع لحوالي المتر، ويمتد طوله مع طول العربة ، أى حوالي المتر ،ويجر العربة حمار منهك دائماً وعجوز ، ولقد كتب غفارة على جانبي العربة " الحمولـة

أربعة أطنان ، والنقل لعموم القطر ، ومستعدون لتوصيل النشارة بالتليفون " ويظل الناس يقرأون هذا الإعلان ويضحكون ، فالعربة كلها من الخشب والحمار والنشارة وغفارة نفسه لا تزن ربع طن .. لقد ظهر غفارة أمـس وقد وضع على وجهه طربوشاً نزع عنه الزر وربطه من نـاحيتين بأسـتك يشده على رأسه من الخلف ، وجعل للطربوش فتحتين صغيرتين ثبت فيهما قطعتين من الزجاج راح يطل من خلفهما ، وفتح دائرة في الطربوش ثبـت فيها " فلتر " مياه ،وقال للناس إنه سمع أحد المتعلمين يقرأ فى الصحيفة عن اقتراح تقدم به أحد الأطباء لوزارة الصحة باستخدام الطـرابيش كأقنعـة واقية من الغازات ، ما دامت الأقنعة غير متوافرة في الأسواق ،ولأن محـيط الرأس يساوي محيط الوجه ، فالطربوش يمكن إحكامه على الوجه بأستك ، ويكون على كل شخص بعد ذلك أن يجعل للطربوش عينين من مادة " السيكا "، ولم يعرف غفارة من أين يشترى السيكا فوضع زجاجاً ، كما يمكن تثبيت فلتر تنقية الهواء ويتم التنفس من خلاله وغفارة لم يجد فى محلات العطـارين فلتراً لتنقية الهواء فاشترى فلتراً صغيراً لتنقية المياه ، لكن لا توجد غـازات يا غفارة ولم تحدث غارات في مصر ولا في إسكندرية ولاغيرها .

يعرف غفارة ذلك ويقول إن الجو بشكل عام ملوث وفيـه سمـوم ، وليس مهماً أن ينتظر غارات عسكرية تلقى على الناس الغازات ، وكانـت المدافع قد انطلقت فى الإسكندرية وسائر مدن القطر ولكن لإعلان بشـرى انتظام التاج الملكي لدرة جديدة كريمة ، إذ أنجبت الأميرة فوزية طفلـة في الثامن من إبرايل وأذيع الخبر فانطلق عدد كبير من أفراد الشعب إلى القصر الملكي بالقاهرة يهنئون ، وعلى غير ما هو منتظر ، لم يهاجم هتلر هولنـدا

ولا بلجيكا ولا فرنسا ، هاجم النرويج والدنمارك ، وكانت روسـيا قـد انتهت من فنلندا ، وشهدت البحار الشمالية أكبر المعارك حتى النـرويج ، بينما استسلم ملك الدنمارك بسرعة ودعا الشعب إلى الهدوء والسـكينة ، واشتد ضغط الألمان على قوات الحلفاء فى النرويج ، ووصـلت إلى مصـر قوات من روديسيا استقبلها في ميناء السويس أحمد راسـم بـك محـافظ السويس ، الذي لم تذكر الصحف أنه شاعر كبير يكتب بالفرنسية وعاشق النساء من كل أنواع العالم ومعبود فتيات الطبقة الأرستراطية ، وكان معـه في الاستقبال ، وزير انجلترا المفوض في السفارة البريطانية ، الذي خطب في الجنود مرحباً بهم باسم جنود الأمبراطورية ، لا في مصر فقط ، ولكن في كل " الوطن الأكبر من نيوزيلنده إلى الهند " وانتابت دميان نوبات سعال جاف متكرر وقال لمجد الدين إنه استخدم كل الوصفات الشعبية الممكنـة وإنـه يخشى أن يكون قد أصيب بربو ، في هذه الحالة سيموت ، لأن ثمن زجاجة حبوب منداكو ثلاثون قرشاً وهو دواء نادر يأتي من انجلترا التي انقطعـت بيننا وبينها المواصلات .

ثم صعد الحزن إلى وجهه ، وقال لمجد الدين إنه قـرر أن يـذهب إلى الكنسية ويعترف بعصيانه ويواظب على الصلاة في الآحاد . كان مولد النبي قد مر بالناس في صمت ، سمع القرآن من الراديو ، لم تقـم أي سـرادقات ليلية ، لكن بيعت كميات رهيبة من حلاوة المولد ومن الأحصنة والعرائس الحلاوة ، وكان دميان صائماً الصوم الكبير الذي رأي فيه أسبوعين زيـادة وذهب شارد اللب إلى الكنسية وعاد زائغ العينين : " بكيت كثيراً يا شيخ مجد وباركني أبونا وطلبت من القديس مارى جرجس أن يجد لى عملاً دائماً

ولك معي ، وكما ترى لم أعد أسعل ، أعطاني أبونا زينا ذهب بكل سعال ، الهداية حلوة يا شيخ مجد . أنت صاحب الفضل في هـدايتي حـتى لـو لم تقصد . أنا كنت نسيت أن هناك إيماناً ومؤمنين ".

وأهدت الست مريم لزهرة علبة من " ثلـج هيـزلين " Hazelin Snow وعلبة بودرة وعلمتها كيف تستخدمها كأساس للبودرة ، وأهدتها فلم روج ، وقالت لها " أنت ما زلت صغيرة فلماذا لا تفعلين ذلـك لمجـد الدين ؟ " ورآها مجد الدين فقطن للأمر ولم يتكلم ، هذه المدنية سـتتعلمها زوجته أراد أو لم يرد عليه أن يسكت حتى لا تمضي إلى المدينة أكثر ، لقـد علمته الحكمة أن النهي عن شيء يدعو للتهافت عليه ، وزاد على ذلك بأن قال لزهرة " لقد صرت جميلة كما لم تكوني " وفي نفسه لم يكن يكـذب ، كان يعود متعباً من جولاته على المصانع بطول ترعة المحمودية ، لقد وصـل إلى مخازن بنك التسليف في كفر عشري ، وحمل على ظهره الأجولة طـوال النهار ، وعمل بمحالج القطن بمينا البصل وسط مئات من النسـاء الـلاتي يعملن في حمل القطن قبل حلجه وعزل البـذرة ، ورأى صـدور الرجـال مشفوطة للداخل مما يعتورها من أمراض صدرية بسبب غبار المحالج وخاصة الذين يقفون على ماكينات " الفرفرة " التي تقوم بأهم مراحـل الحلـج ، ورغم ذلك لم يكن العمل دائماً فالقطن الموجود ، من الموسم الماضي وهـو قليل ، فكان ينتقل بين المراكب الراسية بالمحموديـة لتفريـغ شـحناتها أو تحميلها من الميناء ويمسك بنفسه يتلفت باحثاً عن أحد فيجد دميان لا يفارقه لكنه لم يكن يبحث عن دميان ، بل عن الفتى الأبله المقتول الـذي تخايلـه صورته في الفضاء كثيراً ، وهكذا مع الأيام ، العمل أو الانقطاع، صـارت

هذه المنطقة الشاسعة جنوب الإسكندرية ميدان مجد الدين ودميان ، وميدان مؤلم يعود منه مشتاقاً لشيء جميل ، ولم يكن كاذباً حين قـال لزهـرة إنهـا صارت أجمل .

وبدأت بابا عز الدين موسمها الصيفي مبكرة عن موعده بتياترو ديانـا بمحطة الرمل كما تفعل كل عام ، وعرضت سينما مترو القاهرة فيلم ساحر أوز الذي صارت موسيقاه هى موسيقى الجنود في الخنادق وميادين القتال في أوروبا ، وبدأت نذر الخماسين تهب على الإسكندرية من الصحراء الغربية ، وأصفر الجو يوما كاملاً وامتلأ بالعاصفة الترابية ، ومع حلول شـهر مـايو كانت جمعية المواساة قد أتمت بناء مستوصفها في مينا البصل ، وقررت بلدية الإسكندرية منع الاستحمام بالأنفوشي هذا العـام والأعـوام القادمـة إذا استمرت الحرب ، واحتفل المسيحيون بيوم القيامة وبدوا أكثر فرحة من يوم الميلاد ، وكانت امتحانات نهاية العام الدراسي قد بدأت ، ولاحظت زهرة أن شحوباً بدأ يظهر على كاميليا ، وأنها لم تعد بالبهجـة المعتـادة لهـا ، الامتحانات وبداية الأجازة الكبيرة ، واندهشت زهرة من هـذا الكـلام ، وراحت تتابع شحوب كاميليا ورأتها أكثر من مرة تجاهد لتخفي دموعهـا وأدهشها أن الشحوب انتقل إلى إيفون أيضاً ،وتحدثت مع الست مريم التي بدت متحيرة ، ودخلت لوللا في النقاش وقالت لو بنت واحدة كنـا قلنـا الحب . نظرت زهرة إليها بغيظ ، وارتفعت حمرة الخجل إلى وجه السـت مريم ، وبالليل فكرت زهرة كثيراً في البنتين وقالت لنفسها إن واحدة منهما فى ورطة والثانية تعرف ، وعلى الفور أضافت لنفسها إنها كاميليا الشـاحبة أكثر ، الملائكية الوجه مثل ستنا العذراء مريم هي التي فى ورطة ، إنها مثـل

جذوة نار لن تخمد إلا إذا انتهت، واستغفرت ربها وطلبت منـه السـلامة للبنتين والعائلة الطيبة . امتلات الشوارع والحدائق بأوراق الخس والملانـة وفروع البصل وبقايا الرنجة والسردين وقشور البصل ، في صناديق القمامة حقاً ، لكن الرائحة كانت تصعد للمارة والسكان ، وخرجت زهـرة لأول مرة تركب فلوكة فى المحمودية مع كاميليا وإيفون والست مريم ، وذهبن إلى حديقة الحيوان . كان كل شيء حولها ضاحكاً حتى البنتين ، لكـن لـيس كضحكهما المعتاد ، كما أن كاميليا تركتهن واختفت لأكثر من سـاعة ثم عادت ولمحت زهرة في وجنتيها دماً جديداً وفرحة سرعان ما اختفت بعـد جلوسها بدقائق ، كاميليا الآن لا ترى في البيـت إلا وفي يـدها كتـاب بالإنجليزية ، إنها وأختها في البكالوريا في مدرسة نبوية موسى أشهر مدارس الإسكندرية .

وانتهى شم النسيم وأيام الأعياد ، واستسلمت النـرويج في النهايـة وهزم فيها الحلفاء وحبس العالم أنفاسه منتظراً الضربة القادمة لألمانيا وهاجم الطرادان الألمانيان " شارنهورست " " جيزناو " حاملة الطائرات البريطانيـة جلوريوس وأغرقاها في أقل من ساعة ونصف الساعة ، وأصدر وزير الدفاع الوطني قراراً بحظر الزواج على ضباط الجيش المصري الذين هـم في رتبـة الملازم ثان ، حتى لا تشغلهم الأعباء العائلية عن الشـئون العسـكرية وتم تأجيل فكرة الاصطياف في مرسى مطروح هذا العام ، إلى أجل غير مسمى ، نظراً لظروف الحرب ، ولعدم وجود أماكن إقامـة أصـلا للمصـيفين ، وبدأت الولايات المتحدة تصدر الطائرة" بل إير كوبرا " المطاردة السريعة ، التى تطير بسرعة سبعمائة كيلو متر فى الساعة إلى الحلفاء بسعر عشرين ألف

جنيه للواحدة ، ومنع الصيد بالميناء العربي ، كما منعت من قبل السـباحة بالأنفوشي وأصدر اللواء بيكر باشا ، حكمدار بوليس الإسكندرية ، أوامره باعتبار الثامن من مايو يوماً للطوارئ فجرت غارات تجريبية وعمليات إنقاذ تمثيلية ، وأعلن عن طلب متطوعين ومتطوعات لتدريبهم . وأذيعت أمـاكن المخابئ العامة وسعتها بأحياء الجمرك والسنشية واللبان والعطـارين ومينـا البصل ومحرم بك والرمل ، وأعلن خمسون من كبار شخصيات مدينة سيدني في استراليا موافقتهم على الاقتراح بمنح مساحات من الأراضـي في شمـال غرب القارة مجاناً لجمعية الاستعمار اليهودية لإسكان اليهود الفـارين مـن أوروبا، وألفت حكمدارية العاصمة في مصر فرقة مـن رجـال البـوليس والجيش قوامها نحو ستمائة شخص من ضـباط وجنـود وكونسـتبلات ، ووضعت هذه الفرقة تحت تصرف القلم السياسي ، وجاء فجر العاشر مـن مايو بالأنباء التي خاف العالم أن تحدث يوماً ، إذ ضرب الألمـان ضـربتهم الكبرى ، وغزت جيوشهم هولندا وبلجيكا ، والأراضي الواطئة في فرنسا ، لقد انتهى الهجوم على النرويج وظهر للعام أن في ألمانيا أعظم بعث عسكري مرعب عرفته البشرية ، وها هي ألمانيا تنشر الرعب في كل أوروبا ، استقال المسيو تشامبرلين وألف ونستون تشرشل الوزارة ، ووقف في مجلس العموم يقول إن سياسته هى " الحرب من البحر والبر والجو وهدفه كلمة واحـدة هي النصر " وأزاح الملك فاروق الستار عن تمثال مصطفي كامل ، ملـك شاب يزيح الستار عن الزعيم الشاب ، ونشرت الصحف كلماتـه الـتي صارت مضرب الأمثال " أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا وإن لى روحاً من نور الوطنية الساطع لا تستطيع الحياة في ظلمات الظلم والاستبداد " وبـدأ

في إعداد أماكن بمحافظة البحيرة لترحيل سكان الإسكندرية عند اللزوم وظهر للعالم أن ألمانيا غزت فرنسا بمائة وست وعشرين فرقة ، واستسلمت هولندا لأنه لا فائدة من المقاومة ، وأذاعت الملكة ولهلمينا رسالتها بالإنجليزية ، قالت فيها أنه تبين اليوم أن كل صلواتنا من أجل الوفاق والتفاهم ذهبت عبثاً ، لقد غلبت أمتى بفضل تفوق العدو وقواته لكنها لن تغلب أدبياً ولا معنوياً ، وستظل روحنا قوية سليمة واعلنت الصحف في مصر عن خط دفاع جديد يشمل الدلتا من الإسكندرية حتى بورسعيد ثم القاهرة ، واتضح أنه خط دفاع تقدمه بوليصة التأمين على الحياة ، لشركة (الصن لايف) ، واعتبرت قناطر محمد علي الخيرية منطقة محرمة على الجهور منذ منتصف مايو ، واجتمعت لجنة الأسعار بالإسكندرية بدار البلدية لتحديد أسعار السلع ، وتقرر العمل بالأسعار السارية فيما عدا الكبريت فقد تقرر زيادة سعره .

وأصدرت مصلحة البريد طابعاً تذكارياً يحمل صورة الأميرة فريال التي بلغ عمرها عاماً ونصف العام ، وحددت قيمة الطابع بخمسة مليمات ، واستطاع الألمان فتح ثغرة في الخطوط الفرنسية عرضها خمسون ميلاً اندفعوا منها ، وصارت قواتهم المدرعة خلف خطوط الجيش الفرنسي بستين ميلاً ، وهكذا تم تطويق قرابة نصف المليون جندى فرنسي خلف خط " ماجينو " درع فرنسا الذي لم يشن عليه الألمان هجوماً مباشراً ، بل فتحوا فيه ثغرتين والتفوا حوله ، وألقى الجيش البلجيكى سلاحه بعد أن خسر ثلاثة أرباع المليون من جنوده ، وفي الإسكندرية تم ترحيل فنيات الملاهي الأجنبيات فئة (الأرتيست) على إحدى البواخر وأعلن أنه سيتم التخلص من كل فينات

الملاهي الأجنبيات خشية عملـهن بالتجسـس ، لكـن فتيـات الترفيـه الإنجليزيات الـ A.S.T يزددن في الإسكندرية والقاهرة ، وأقـيم لهـن معسكر في منطقة مصطفى كامل على البحر مباشرة وبوسع من يشـاء أن يقترب ليراهن بلباس البحر ، وقال بعض الكذابين الخبثاء إنهن أحياناً ينزلن بدونه ، وحدث أول ترحيل في الإسكندرية لكن لأطفال الملاجئ إلى المحلـة الكبرى والمنصورة ، وبلغ مجموعهم ألف طفل وطفلة واعتقل شخص معـه أوراق بها كتابات رمزية ، وتم ترحيله مخفوراً إلى حكمـدار القـاهرة ،ولم يخالف التموين الإسكندرية هذا الشهر غير تاجر واحد ولم تقع غير حادثـة سرقة واحدة لمحل مجوهرات بالصاغة ، ومخالفات النظام بلغت خمسين مخالفة لكن كلها خاصة بالسرور وحدثت واقعة شروع في قتل واحدة ، وصـارت بريطانيا مثل رجل وفور سقط عنه سرواله فجأة فراح يرفعه إلى مكانـه ولا يستطيع ، إذ يعود ويسقط ، حتى نجح في النهاية ، بعد أن كاد قلبه يتوقف ، إذ صار على بريطانيا سحب قواتها من فرنسا بأقـل خسـائر ونجحـت في إجلائها من دنكرك وكاليه وغيرهما ، مستخدمة كل ما تملك مـن سـفن صغيرة وكبيرة وزوارق المتطوعين ، وتمت أكبر عملية هروب عـن طريـق البحر في التاريخ ، حيث نقل قرابة اربعمائة ألف جندي إلى جزيرتهم ، تحت القصف الألماني في البحر ، وكان مجد الدين يقرأ الأخبار لدميان فلا يصدق أن الإنسان يمكن أن يصنع كل هذا الدمار ويسأله دميان هل في اوروبا ناس مثلنا أم شياطين ؟ وكيف تتحمل الأرض هذا ولا تنفجر ؟ ولما رأى دميـان صورة لوريل وهاردي ، سأل مجد الدين عن اسم الفيلم فقال " عفاريـت

الجو " فاقترح عليه أن يشاهداه معها ، يتنازلان عن وجبة عشاء أو غداء ، وبريانه مادامت السينما لا تعرض شيئاً لشارلي الآن .

اندهش مجد الدين من الفكرة فسأله دميان هـل السـينما حـرام ، فأجاب مجد الدين بأنه لا يقصد هذا ، ولكن يخيل إليه أنه إذا دخل السينما لن يعرف كيف يخرج منها ، وضحك دميان الذي صار مثل طفل وديع منذ ذهب إلى الكنيسة واعترف وتوسل للشهيد ماري جرجس !

كانت الغارات قد اشتدت على باريس وبدأ العالم يحبس أنفاسه . هل يدخل هتلر باريس ، هل تسقط أجمل مدن العالم ؟ ونشرت الصحف قصيدة شوقي التي كتبها عن باريس بعد انتهاء الحرب الأولى " العصر أنت جمالـه وجلاله والركن من بنيانه السموك ، أخذت لواء الحـق عنـك شـعوبه ، ومشت حضارته بنور بنيك " . بدا الوضع في فرنسا سـيئاً ومخيفـاً ، إذا أسرت الفرقة المدرعة الألمانية ثمانية آلاف جندي بريطـاني وأربعـة آلاف جندي فرنسي ، كان يقود الفرقة المدرعة مقاتل ألماني ذكى اسمـه إيـروين روميل سيحفظ اسمه المصريون فيما بعد . كانت فرقته المدرعة تسمى فرقة " الأشباح " و كانت بمثابة رأس الرمح الذي اخترق مناطق السوم ، متقـدماً نحو نهر السين ، آسرا كل من في طريقه من الإنجليز والفرنسيين ، حتى احتل " شربورج " واستسلمت له بقواتها البالغة ثلاثين ألفاً . وكانت الطـرق في فرنسا تفيض باللاجئين الذين تطاردهم رشاشات الطائرات الألمانيـة، لقـد تفكك الجيش وعين ديجول وكيلاً لوزارة الدفاع الوطني ، واستولى الاتحـاد السوفيتي على جمهوريات البلطيق ، لكن من لديه الوقت ليقف أمام ذلك ، لقد سقطت باريس فانخلعت القلوب من فظاعة الحرب ، بكـت كاميليـا

حقيقة ورأتها زهرة ففكرت أن باريس هذه لابد أن تكون شيئاً كـبيراً إلى الدرجة التي جعلت كاميليا تبكي ، فالت كاميليا إن حلم حياتها كـان أن تسافر إلى باريس يوماً ، وأنها لا تصدق أن عاصمة الجمال يمكن أن تسقط .

ألف المارشال بيتان حكومة جديدة ألفت سلاحها وعقدت الهدنة مع ألمانيا ، وهرب ديجول فجأة من "بوردو " إلى بريطانيا حاملاً شرف الأمـة الفرنسية ، وفي المساء دخل الخواجة ديمترى غرفة مجد الدين وقال إنه عرف من قريب له ، يعمل ملاحظاً للعمال بالسكك الحديدية ، بأن المصـلحة في حاجة إلى عمال دائمين ، لمواجهة ضغط العمل هذه الأيام ، التي تصل فيها عشرات القطارات كل يوم ، محملة بالمؤن والسلاح والجنـود ،وأن مجـد الدين يستطيع أن يذهب في الغد إلى مبنى إدارة السكك الحديدية بالقباري لتقديم الطلب .

كان دميان هو أول من فكر فيه مجد الدين . لم يسأل الخواجة ديمتري عن ذلك ، لابد أنهم يحتاجون لأكثر من عامل . بسرعة أخذ طريقه إلى بيت دميان . في الصباح كانا يتقدمان بطلب العمل . قُبلاً على الفور ، وكـان عليهما إجراء الكشف الطبي المعتاد . هذا هو العمـل " الهـيري " الـذي سيضمن لهما حياة كريمة .

من حولهما كانت حالة الطوارئ القصوى قد أعلنت ، ذلك أنه منـذ أيام قليلة ، بالضبط في العاشر من يونيه ، وفي الساعة الرابعـة والدقيقـة الخامسة والأربعين ، أعلنت إيطاليا الحرب على إنجلترا وفرنسا . اهتز العالم ،وانتحبت الأمهات الإيطاليات ، وهن يرين أبناءهن يسـتدعون للقتـال .

وأعلن وزير خارجية أمريكا ،أن دخول إيطاليا الحرب كارثة إنسانية كبرى وقطعت مصر علاقاتها بإيطاليا على الفور ، وبدا الرحيل الحقيقي لعـائلات كثيرة من الإسكندرية إلى الريف ، وتم توزع آلاف من الأقنعة الواقية مـن الغازات ، فاستخدمها بائعو الطعمية ، للوقاية من بخار الزيـت والقلـي ، وكذلك استخدمها الخبازون أمام الأفران ، ورفض غفارة أن يغـير قناعـه الذي صنعه بنفسه من الطربوش ، فهو لا يثق في شيء توزعه الحكومة وقال دميان لمجد الدين وهو يتسلم خطاب العمل :

- لقد أهدانا الشهيد جورجيوس هذا العمل يا شـيخ مجـد ، لقـد توسلت إليه كثيراً .

- أنا أيضاً ظللت ليالي طويلة أذكر أسماء الله حتى جاءني الرسـول في المنام فاطمأن قلبي .

وبالليل ، ومجد الدين سهران ، مسدداً جوار زهرة النائمة ، يفكـر في عمله الجديد ، فكر أنه لا أحد في العالم يعرف عنه أي شيء . ماذا لو مات ؟ هل يهم ذلك أحد . لقد دخلت إيطاليا الحرب ، وبدأ الناس يهجـرون الإسكندرية وهو مضطر للبقاء ، إنها رحلة قهرية أرادها الله ، وعليه أن ينام الآن ، في المدينة التي صارت عيونها مفتوحة على السماء .

" الدببة المتوحشة الفاتنة

المولودة يوم الحرب بالذات

تنطق بأمنيات بريئة "

-11-

لهذا النهار طعم مختلف ، وهو أبيض من أي يوم ، هكذا أحس مجـد الدين والضوء يسقط على وجهه إذ يغادر البيت في الصباح .

توقف قليلاً فوق العتبة ... نظر يميناً ويساراً . الشارع خال إلا مـن ثلاثة أشخاص . واحد عند نهاية الشارع من ناحيـة الـيمين ، والآخـران يتجهان إلى " سيدي كريم " . الناس نيام لا يزالون أو استيقظوا ولم يغادروا بيوتهم بعد ..شمس الصيف تفاجئ الدنيا كل يوم بالصباح قبـل موعـده ، أمس ، في مقر إدارة هندسة السكك الحديد وصفوا لهما الطريق إلى العمل . يغادران غيط العنبط مشياً على شاطئ قناة المحمودية . في منتصف المسـافة بين كوبري كرموز وكوبري كفر عشري سيجدان سكناً كـبيراً لعمـال السكة الحديد ، جواره سكن صغير لعمال الحركة بالسكة الحديد أيضا، بين السكنين طريق صغير ينتهى ببوابة على خط السكك الحديدية ، الشـبكة الكبيرة المعقدة لمنطقة " الزيتون " كما سمعا اسمها ، عليهما بعد عبور البوابة ، العودة إلى اليسار لمسافة طويلة لا تقل عن كيلو مترين ليصـلا إلى مقـر عملهما ، البوسطة رقم 3 لم يفهما بالطبع لمـاذا يسـمى مقـر عملـهما "بالبوستة " رغم أنهما لم يعملا في البريد ، لم يشأ أى منها أن يسـأل عـن ذلك .

في طريق عودتهما قال دميان :

- ناس مجانين ، نمشي من غيط العنب حتى سكن السكة الحديد على المحمودية ، ثم نعود المسافة من وسط السكة الحديد .

سأله مجد الدين :

- ماذا يمكن أن نفعل ؟

- مكان العمل على هذا النحو يكون في مقابل غيط العنب . أمـام شارع اللبان بعد زقاقين تجد السور الذي يفصل السكة الحديد عن غـيط العنب سنجد في السور فتحة ، أو نفتحها نحن ، أو نقفز من فوقه . اليـوم سيفعلان ذلك ، وسيفعلانه كل صباح فهذا عمل دائـم وفي الحكومـة . ووقف مجد الدين أمام بيت دميان يناديه . بدا له البيت نائماً كلـه حـتى الجدران . باب البيت منخفض مظلم ، الصهد يخرج منه محمـلاً بأنفـاس مزدحمة للسكان . هواء الصباح منعش حقاً ، الندى الساقط على الشوارع والبيوت مع الفجر ، لا يزال يرسل طراوته إذا ابتعد المرء عـن فوهـات البيوت . رائحة صابون تصعد من بعض أركان الطريق .إنها مياه الاستحمام في الفجر ، ألقت بها النسوة المشبعات المرويات قبل أن يلحظهـن أحـد . البيوت فقط تبدو متعبة كالحة الواجهات ، أبوابها الرئيسـية بـلا ضـلف خشبية أو معدنية ، سلالمها ضيقة ، وفوهاتها مظلمة تنبعث منـها رائحـة التعب . لكن مجد الدين اليوم سعيد ، ويحس بطراوة الصباحات الشـتوية رغم أننا في الصيف . وظهر دميان خارجاً مضيئاً من الباب المتعم .

- ما أجملك يا شيخ مجد الـدين في البنطلـون الكـاكي والسـترة الكاكي .

ابتسم مجد الدين ولم يعلق ، فقط نظر إلى رأس دميان الذي وضع فوقه بيريه أزرق ، يشبه سائقي القطارات . وانطلقا كطفلين مرحين إلى السور في الجنوب .

أمام السور الحجري الذي يرتفع إلى حوالي المترين ونصف توقفـا . فكر مجد الدين أن القفز من فوق السور قد يكون عملاً محظوراً . ارتبـك للحظة . سمع دميان يقول :

- ليس عالياً كما ترى . سوف أشبك يدى وتطلع أنت عليهـا ، ثم تتعلق بالسور وتجلس فوقه . بعد ذلك تعطيني يدك لأصعد معك ، ثم نـنزل من الناحية الأخرى .

وشبك دميان يديه ، لكن مجد الدين تردد ، رفع قدمه عن الأرض ثم أعادها .

- صعب أن أدوس بالجزمة على يدى مخلوق كريم .

- ماذا ؟

-كيف أدوس بالجزمة على مخلوق كرمه الله .

تأمله دميان غير مصدق لما يسمع . ثم رأى مجد الدين يخلـع بالفعـل حذائيه ويلقي بهما خلف السور . ابتسم دميان وهز رأسه عجباً من وداعة صاحبه . وشبك يديه فداس عليهما مجد الدين بقدمه اليمنى ، ثم قفز مسكاً

بالسور . من أعلى أحس بخشونة أحجار السور التي لا يزيد عرضها علـى عشرين سنتيمتراً ، ودفعه دميان إلى أعلى أكثر واستطاع مجـد الـدين أن يجلس في النهاية فوق السور ، قال مفاجئاً :

- السور يهتز .

- لا تخف يا رجل . السور حديد ! .

ووقف دميان يفكر كيف سيصعد الآن . من الصعب أن يمسك بيـد مجد الدين ويقفز ، ذلك قد يجذب مجد الدين إلى أسفل ، ولابد أن مجد الدين فكر في ذلك ، قال :

- تستطيع أن تدوس على قدمى ، اعتبرها درجة سلم ، وأعطني يدك خلع دميان بدوره حذاءه ، وألقى به خلف السور ، وقفز بقوة مسكاً أعلى السور ، ضاغطاً إلى أسفل حتى ارتفع قليلاً ، مما ساعده على وضع قدمـه فوق قدم مجد الدين الذي أمسك به من سترته يساعده علـى الصـعود ، فارتفع دميان كثيراً أعلى من السور بجذعه . الله .. الله ماذا حدث ؟ تراك ، وانهارت كتلة كبيرة من السور بهما معاً . انهارت سليمة متماسكة وبهدوء ، فنزل مجد الدين على مقعدته ، بينما ارتطم صدر دميان بالسـور نفسـه ، وأحس كلاهما بألم شديد مكان سقوطه ، إلا أنهما بعد لحظات أحسا فيها أن الدنيا دارت بهما وجدا عيونهما متقابلة ،فانطلقا يضحكان بسعادة . وحدهما يضحكان في فضاء واسع ولا صدى لصوتهما. تحامل كل منهما على كفيـه ونهض يبحث عن حذائه . لم يكن أى منهما بعد قد نظر حوله ولا رأى مـا رأى .

- أول ما بدا لهما الفضاء ذاته الرائق الوسيع ، والشمس الصـاعدة قوية على يسارهما ، والسماء الصافية البعيدة لكن الأرض بدت قاحلـة . جير ورمال وصخور صغيرة ، فضيبان مهملان صدئان ، بعدهما فضاء مـن أرض حسكية سلوءة أيضاً بالصبار القصير ، ثم فضبان قليلة بينـها زلـط ومازوت ناشف بدا منفصلاً عن الأرض ، حال سواده إلى الرمادي بفعـل التراب السافي ، وعلى مسافات متباعدة نباتات شوكية مهوشة دائماً.

مشيا إلى اليمين . دميان في دهشة من اتساع الأرض ، بعـد أن رأى اتساع الفضاء. كيف حقاً لم ير كل هذا من قبل رغم أنه يعيش في غـيط العنب منذ سنين طويلة ؟ كيف حقاً لم يفكر من قبل فى تجاور السور القريب من شارع اللبان لا يفصلة عنه إلا زقاقان ؟ هذا الاتسـاع في الجنـوب لا يضاهيه إلا اتساع البحر في الشمال !!

كانت بعض خطوط السكك الحديدية تبدو منتهية عند عارضة تصادم جديدة مرفوعة على عمودين خرسانيين قصيرين ، وعربات كثيرة مصفوفة على أكثر من خط .بدت لهما قد صفت بعناية ، ففي كل خط نوع واحـد من العربات تقريباً . العربات المسطحة في خط، كذلك المغلقـة الكـبيرة والنصف مغلقة في خط ثالث . كل العربات لونها بنى حائل إلا المغلقة فلونها رمادي وتميل إلى السواد . أرضية العربات المسـطحة مكسـوة بعـوارض الخشب السميك ، والفلنكات الممسوكة إلى بعض بخوض الحديد العريضـة السميكة المثبتة بالمسامير القوية فى العوارض لكن المكان بدا مهجوراً رغـم العناية البشرية الواضحة فى تخزين العربات . فكر مجد الدين بحق أنه قد غُرر بهما وأن آدم عليه السلام حين هبط من السماء ، نزل فى مكان شبيه بهـذا

المكان ، وأن الله الذي أرسل عنايته مع آدم ، سوف يتخلى عنهما هنا ، فلا طير واحد في السماء ، لكنهما شاهدا بعيدا ماسورة ترتفـع عـن الأرض وتنحنى وينتدلى منها خرطوم من المشمع يكـاد يصـل إلى الأرض وجـوار الماسورة يجلس رجل تحت سقيفة صنعها من فروع الأشجار العارية وجـوار شجرة توت مورقة خضراء عريضة .

- إذن يوجد ناس هنا .

هتف دميان الذي لابد كان يفكر على طريقة مجد الدين .

- تعال نقترب منه نسأله .

الرجل في عمر كل منهما تقريباً ، لكن ثيابه ممزقة عند ركبتيه وكتفيه وحاف ، كان واجما وجوما كهفيا ، فبدا أنه لم يسمع اقتراب أقـدامهما ، عندما اقتربا منه تماماً فكر كلاهما أن يمضى في حال سبيله ويتركانه . فهـو يبدو شيئاً منسياً ، لكن لأن الإنسان كثيراً ما يفكر في شيء ويفعل ما كان قد فرر العدول عنه سأله مجد الدين :

- أين تجد البوسطة رقم ثلاثة ؟

أشار إليهما بالسبابة ، إشارات يفهمان منها أنهما في الإتجاه الصحيح لكن دميان الذي لم يعجبه صمت الرجل هتف :

- مالك يا رجل ؟ .. تكلم .. نحن في أول النهار .

نظر إليه الرجل ملياً حتى ارتبك دميان بحق ، بل وانكمش في نفسـه من الرعب ، كاد مجد الدين ينفجر ضاحكاً غير مصدق ما يحدث لصديقه

- امش .

هتف الرجل بصوت خفيض لدميان .؟

- حاضر .

قال دميان باستكانة ، ومشى صامتاً بلا روح ، ومجد الـدين يكـتم ضحكة . بعد أن ابتعدا بما يكفي قال دميان :

- هذا عفريت يا شيخ مجد .

لكن كشكاً خشبياً كبيراً ظهر لهما . كشك جدرانه من الفلنكـات المتجاورة المغروسة في الأرض، وفوقها صف ثان من الفلنكات القصـيرة ، متصل بالصف الأسفل بخوص معدنية عريضة ، وفوق الجميع سقف جمالوني من الصاج المتعرج .

كان هناك جوار الكشك شخص مقع جوار " راكية " نار ، يمسـك بيده " كوزا " كبيراً له يد طويلة من السلك المجدول .

- السلام عليكم ؟.

قالا معاً ، فرفع إليهما الرجل المقعى رأسه . كان يصنع شاياً يغلي في الكوز ، وصعدت رائحته الطيبة إليهما .

- لابد أنكما العاملان الجديدان ، مجد الدين ، ودميان ، ,أنا حمـزة ، نحن فى انتظاركما .

يستحق اليوم أن يكون عيداً . نزلت زهرة إلى السوق في سيدى كريم خلف نقطة البوليس واشترت زوج حمام بخمسة قروش ، ودجاجة بعشـرة قروش وذبحها لها السنوسي الجزار في شارع الفواكه ، ونظفتـها وسـلقت الدجاجة والحمام الذي حشته بالفريك الصعيدي ، الذي اشترته من بشرى العطار في شارع راغب ، فملأت الرائحة الذكية ردهـة الـدور الثـاني ، وصعدت إلى الفضاء ، ونزلت أيضاً إلى الدور الأرضي ، حيـث خرجـت لوللا مسرعة واشترت حماماً ودجاجاً وعادت تطهيه ، ولم يفتها أن تصـعد إلى الدور الثاني ، وتعلن لزهرة أنها لم تتحمل الرائحة الجميلة لطعامها ،ممـا اضطرها لتقليدها ، وتطلب من زهرة ـ التى اندهشت جداً ـ أن تسامحها ، مما يجعل زهرة تصمم أن تتذوق لوللا " فنصة " الدجاجة ، بينما السـت مريم تتابعهما باسمة فهى تدرك المعنى الملغز لأفعال النسوان !!

كانت الطفلة شوقية تروح وتجىء لاهية في الردهة بـين الحجـرتين ، وتعاكسها كاميليا من بعيد ، من خلف الباب المفتوح ، فتسمع ضـحكاتها وضحكات شوقية معاً ، لكن قطة صـغيرة صـعدت مـن الـدول الأول ،ووقفت أمام الردهة تنونو وتتلفت مما جعل شوقية تفزع إلى أمها . فتتعثـر بعتبة الحجرة المنخفضة ، إلا أن أمها تلقتها ورفعتها إلى حضنها تربت علـى ظهرها وتطمئنها .

كانت شوقية قد صرخت مما جعل كاميليا تخرج بسرعة من الحجرة . في وسط الردهة . أدركت الموقف . نهرت القطة وكانت الشمس تسـقط على جلبابها القصيرة الضيق الخفيف ، فبدا جسمها الصغير مدكوكاً وفوريـاً يتفجر بالأنوثة . جسد ضامر حقاً لكنه متعطش تواق للتمرد ، فيـه قـوة

المهرة . جسد يفرق نفسه على عينيك ويتقدم منك وأنت بعيد فـلا تـرى غيره أمامك ، وتشد رائحته – رائحة الخمر القديم – أنفك تستفزه وتحرك الروح .

إن أى شخص يتحدث مع كاميليا يغالب رغبة حقيقية في احتضـانها بغتة وبلا مقدمات ، فصفحة بطنها الضامر ، وصـدرها النـاهز المبشـر ، تبدوان مرفأ طبيعياً لكل جوعان ، كاميليا الصغيرة الرقيقة ، تمتلك جسـداً مقدساً بهالة من الفتنة الحارة . لقد رأت زهرة كاميليا تحت الشمس فهتفت لنفسها " سبحان الخالق .. ولا الغزال " ... سمعتها كاميليا فابتسـمت ولم تعلق . لأن صوت دقات الطبول ارتفع قوياً في الفضاء ، مع موسيقى نحاسية وآلات نفخ تؤدي مارشاً عسكرياً .

- السينما .

هتفت كاميليا وجرت إلى شباك حجرتها . تبعتها زهـرة مبتسـمة . تراجعت إيفون الهادئة عن إفريز الشباك ، وتركت الغرفة لزهرة ،ودخلـت هي إلى الغرفة الداخلية تتفرج من شباكها . ظلت الست مريم مكانهـا وراء ماكينة الخياطة وإن صارت تعمل بهدوء.

عربة السينما صندوق خشبي كبير عليه أفيشات من الجوانب الأربعة ، يدفعها رجل يرتدي زيا عسكرياً هو في الحقيقـة زي الفـرق الموسـيقية الشعبية ، وحوله وأمامه فريق موسيقى أبرز أعضائه يحمل طبلة مسـتديرة ضخمة قطرها حوالي متر على بطنه من الأمام ، ومعلقة فى عنقه بحزام مـن الجلد وفي يديه مطرقتان من قماش يضرب بهما الطبلة من الناحيتين وحولـه

بقية الفريق يضربون طبولاً أصغر بالعصى أو يدفون الكفوف النحاسـية أو ينفخون في الساكسافونات نفس المارش العسكري ، وحول الجميع أطفـال يضحكون ويرقصون .

- الله عليه كلارك جيبل .

فالت كاميليا لزهرة :

- من ؟

- كلارك جيبل.

- الرجل أم الست ؟

ضحكت كاميليا وقالت :

- الرجل طبعاً : الست أسمها جوان كراوفورد .

سكتت زهرة لحظات وقالت نافضة يدها من الأمر كله .

- أسماء صعبة .

لكن كاميليا قالت :

-الفيلم اسمه الرغبة الآثمة .

هتفت الست مريم من الخلف .

- بنت .. عيب .

وسكت الجميع . فكرت زهرة في أمر هذه الفتاة الجامحة التى كانـت حزينة طوال الشهور السابقة والتي بكت عندما دخل الألمان باريس ، مـا الذي أعادها للمرح من جديد ؟ لابد أنها تخلصت من ورطتها . وأدركـت زهرة فجأة أنه ما كان عليها أن تتفرج على السينما هذه المرة . لقد قررت ذلك المرة السابقة حينما شاهدت امرأة شبه عاريـة تقفـز إلى البحـر في الصورة . هذه المرة رأت الممثل ذي الشارب المحفوف يحتضن الممثلة وينحنى عليها بطريقة جريئة ويكاد يقبلها . كيف حقاً يدورون فى الشوارع بهـذه الصور الخليعة أمام البنات والنسوان ؟ تراجعت وقالت :

- تعالى يا كاميليا معايا .

دخلت كاميليا خلفها إلى الحجرة ..كانت زهرة كل هـذا الوقـت تمسك بنتها في يدها ، تركت البنت وكشفت غطاء الحلـة ، وأخرجـت بالملعقة الكبيرة كبدة الدجاجة ، ووضعتها في طبق صغير قدمته لكاميليـا . اندهشت كاميليا من هذا السلوك ولم تعترض فقالت لها زهرة :

- عمك مجد الدين استلم شغل جديد .

- مبروك . لذلك تحتفلين به – وسكتت كاميليا لحظات ثم قالـت – هل كل واحدة تحب زوجها مثلك يا ست زهرة ؟

- مثلي .والست ليس لها في الدنيا غير زوجها . هل تتعلمـون غـير ذلك في المدرسة ؟

- نتعلم هذا بالضبط في المدرسة ، وأكثر .

وسألتها زهرة فجأة :

- ما الذي يعجبك في الممثل أبو اسم صعب هذا ؟

كانت كاميليا تمضغ الكبدة الساخنة بسرعة أرنب وتنفخ في يديها .

قالت بعد أن انتهت :

- عيناه ، عيناه عميقتان يا ست زهرة.

وسكتت. فكرت زهرة في فارق السن بينهما ، مجرد خمس سـنوات زهرة في الواحدة والعشرين لكن كاميليا جريئة أكثر مما ينبغـي لفتـاة في السادسة عشرة . ماذا يمكن أن يفعلوا ببنت كهذه في البلد ؟

- أنا خائفة عليك يا كاميليا ؟

- من ماذا ؟

- لا اعرف . خائفة وخلاص .

ضحكت كاميليا وقالت وهى تترك الغرفة :

- لا تخافي . عمر الشقي بقي .

كان انتهاء العام الدراسي هو سبب عودة كاميليا إلى بهجتها . لقـد مرت المحنة بسلام .ربما لم تكن على في حاجة إلى أكثر من لقاء آخر وتسقط إلى الأبد . كيف سمحت لنفسها بالانزلاق في هذه العلاقة المحكومـة سـلفاً بالفشل . بالموت على أقل تقدير . ومتى سمعت أن " الهزل " ممكن في الحب

؟ لكنها كانت أياماً حلوة رغم كل شيء . كان البداية مسابقة بين طلبـة العباسية الثانوية وطالبات نبوية موسى ، والمباراة في مدرسة رأس التين . من كان صاحب هذه الفكرة الجهنمية ؟ ناظرة مدرسة نبوية موسـى تتحـدى الجميع . صاحبة آراء حرة ، وإن كانت متشددة في التعامل مع الفتيـات. وهى تطلب المستحيل وتثق في قدرتها عليه ، تطلق الفتيات علـى الفتيـان وتثق في قدرة فتياتها على ضبط النفس . الذي حدث أنه كان أمامها هـي بالذات وكانت الأسئلة صعبة في الآداب والعلوم لكنه أبدى قدرة مذهلة . قرأ أبياناً من شعر كيتس الإنجليزي ، وشعر بودلير الفرنسي . قرأ بالفرنسية ، كان منقذاً لزملائه في كل ما تعثروا فيه . وكان سبب فوز فريق العباسية فوزاً ساحقاً ، حتى إن فتيات نبوية موسى بكين بحرقة لا تسـتطيع أن تنكر أنها فكرت فيه بالليل للحظات . تجسد لها وجهه الشاحب الحـزين . وثيابه البسيطة ، نظيفة لكنها تنم عن فقر ، كما ينم الاصفرار البسـيط في بشرة وجهه . لكن له عينين نديتين دائماً ، على وشـك البكـاء طـوال الوقت . عينان حزينتان راضيتان . هذا هو مصدر الجذب فيه إنه حقاً شاب آسر .

نامت ولم تفكر أنها ستلقاه مرة ثانية ، لكنها في اليوم التالي رأته يقف أمام باب مدرستها على الطوار الآخر . تجمدت للحظة . أدركت أنه جـاء يقابلها هي وأمسكت بذراع إيفون ولم تتركها . عندما نزلت من الترام عند كوبرى كرموز رأته ينزل معها من العربة الأخرى . يقف قليلاً يتابعهما وهما تنزلان المنزل المؤدي إلى شارع اللبان بغيط العنب ، ثم يمشى هو على ترعة المحمودية فى اتجاه كفر عشري .

صار يتردد على المدرسة كل يوم ، يكتفي بالنظر إليها ، وكلما غيرت طريق عودتها رأته يتبعها . وفي النهاية وقفت بعيداً عن المدرسة تنظر إليـه . كانت إيفون مريضة ذلك اليوم . وكأنه كان قد أعد كل شيء . تقدم إليها وفي يده عقد من الفل الأبيض ، وفي قلب الشارع ، وأمام المارة ، أدخله من حول رأسها إلى عنقها ، وهى وقفت مستسلمة تماماً، ثم أخذها مـن يـدها ومشياً إلى حدائق الشلالات .

- كيف واتتك الشجاعة أن تفعل ذلك بالشارع ؟

- الشعر . أنا أحب كل الشعراء المجانين .هل تعرفين قصـة حـب يسينين مع إيزادورا .

- لا .. أنا لا أعرف يسينين ، أعرف أن إيزادورا كانت رافصة غـير عادية .

- هل تعرفين شيئاً عن السيرياليين الفرنسيين ؟

- قليلاً .

- هؤلاء السيرياليون يفعلون ما يريدون دون خوف .

وجلسا تحت أشجار الغار المعمرة العالية الكثيفة . قالت :

- أنا لا أعرف كيف استسلمت لك .

كان هو يتأمل هذه الدجاجة الوديعة ذات العيـنين الواسـعتين ولا يصدق ما حدث وما يقوله .

وقالت :

- ولكن :

- أنا أعرف إنك مسيحية ، صليب في عنقك . أنا مسلم . هذا مـا حدث.. إلى أين ينتهي ؟ لا أعرف .

وفي ذلك اليوم قرأ لها بعض أشعار بودلير ورامبو وإيلـوار الـذي سمعت عنه لأول مرة .

وقال لها " يا جميلتي يجب أن نرى وردة حليبك البيضاء تزدهر ، يـا جميلتي سارعي بأن تكوني أما واصنعي طفلاً على شاكلتي " . ولما وجدها قد خجلت قال لها " كل أزهار الثمار تضيء حديقتي ، أشجار الجمال وأشجار الثمار. وأعمل وحيداً في حديقتي والشمس تحترق ناراً فاتنة على يـدى " . وأخبرها أن ما قاله أجزاء من قصيدة بعنوان قصائد للسلام ، كتبها إيلـوار بعد الحرب العالمية الماضية ، يغنى فيها لعودة الجنـود إلى البيـوت ، وأنهـا ليست قصائد غزل .. كانت هي مندهشة من نفسها كيف تسـتمع إليـه عاشق الشعر الحزين هذا ، وهى المرحة المنطلقة ، وهو المسلم وهي المسيحية ، لكنها تعرف أن النهاية ستكون قريبة ، وأفضل أن تنهيها بيديها ..

واستسلمت أكثر . وذهبا معاً إلى حدائق النزهة وأنطونيادس وسـط الزهور الشتوية . وصارت إيفون تعرف القصة وتطلب من أختها أن ترحمها وترحم نفسها . وتتعمد كاميليا الاختفاء فترة ثم تجد نفسها تبحث عنه عند خروجها من المدرسة . قال لها وهما يمشيان وسط أشجار الكافور والسنديان والنخيل الهندي السامق والأكاسيا العارية التي ستشتعل مع مقدم الربيـع :
- كم عمرك ؟ قالت : ستة عشر ، وقال إنه في السابعة عشـرة ، وحلـم

حياته أن ينتهي من التوجيهية ثم الجامعة ثم يسافر إلى السوربون . إن رحلة طه حسين في التعليم هى أمله ، وليس مهماً أن يعود بالدكتوراه ،وإنما المهم هو أن يمشي في الحي اللاتيني ويزور اللوفر والأورسيه والبـانتيون ويـرج إيفيل والبونمارتر ، ويقرأ على ضفاف السين أشعاراً تطـير في الهـواء . في الحديقة ذلك اليوم تركته يقبلها قبلة سريعة . طلبت أن يعودا بسرعة بعـد ذلك . لم يفهم العاشق الساذج أن جسدها كاد ينفجر ويحتويه ، كاد يخونها ويهزم قدرتها على إخضاعه .

لأسبوع بعد ذلك لم تذهب إلى المدرسة .مرضت بحق وعافت الحركة والطعام ، وبكت أمامها إيفون في اللحظات القليلة التي انفردت فيها معها . قالت إنها ، إيفون ، توسلت إليه أن لا يعود إلى علاقته بكاميليا ، أن يختفي ، قالت له أنت فلاح يا رشدى لا تعرف طبع الصـعايدة . المشـكلة هنـا مضاعفة. اختلاف في الديانة وخروج على أعراف الصعيد . وطلبت مـن كاميليا أن تغفر لها تصرفها اليائس هذا .واختفى رشدى ،ولم يعد يقف امام المدرسة ينتظركاميليا ، التي صارت تتردد على مكتبة المدرسة أكثر من ذي قبل تستعير كتب الشعراء الفرنسيين المترجمة إلى الإنجليزية ، وقرأت بؤساء فيكتور هوجو ثلاث مرات وحفظت شوارع باريس ، ونسيت أن ذلك كان منذ قرن ونصف من الزمان . لقد شفيت بسرعة ، ضحكت وهى تتـذكر اندفاعها المجنون مع رشدى ، ووجدت أنها تخلصت من كل أحساس يقربهـا منه بسهولة بمجرد اختفائه . هل هو اختلاف الديانة الذي سـاعدها علـى النسيان ؟ . ولقد ظهر أثناء الامتحانات . . رأته ينتظرها مسـكاً بقرنفلـة حمراء . قال لها أنه سيسافر بعد الامتحان إلى البلد ، قريتـه ، فأسـرته في

الأصل من الريف ، وإنه حزين لأن الألمان يهاجمون فرنسا بضراوة إنه يخاف أن تسقط باريس فيدمرها هتلر كما دمر وارسو . ثم قال ، كأنـه يحـدث نفسه ، لكن هتلر لا يستطيع أن يدمر باريس . لا أحد في الدنيا يقدر على ذلك حتى لو احتلها . في باريس قوة روحية توقف أكبر شر ممكن في العالم . فيها قوة الجمال . وقال إنه جاء يودعها . فقط يصافحها وبسرعة. فـإيفون تقف بعيداً في توتر ، ويعتذر عن أي إرباك سببه لهما .

صافحته كاميليا بسهولة ، تذكرته فقط يوم سقطت باريس . وبكت لأنها تصورته يبكى في قرينه على المدينة التي يحبها وقالت إنها تتمنى أن تزور باريس لأنه قال لها ذلك عن نفسه ، ثم سرعان ما نسيت كل شيء . ولكنها طلبت من أمها أن تسمح لها بدراسة اللغة الفرنسـية في مـدارس برليتـز بشارع سعد زغلول . وقالت أمها إنها لا تمانع لكن الدراسة يجب ان تكون صباحية ، في صحبة إيفون التي رغبت هي الأخرى في الدراسة .

عندما شرحت المدرسة الأجنبية الأفعال الفرنسـية ، كتبـت علـى السبورة فعل Aimer ، وقالت مخاطبة إحدى التلميـذات Je t'aime فالت كاميليا دون قصد Je l'aime وكررته لنفسها أكثر من مرة .

" وقال اقعد فوق العرش
أعرض عليك كل شيء
فقعدت فعرض على "

-12-

عاد مجد الدين كما يعود منذ التحق الجديد ، متسخ اليـدين وآثـار المازوت ، متعب الظهر والساقين والذراعين ، متعـب الجسـد ، وجلـس كالعادة فوق السرير مدلياً قدميه إلى زهرة التي وقعت تحتهما تخلع حذاءيهما ثم تضعهما في طشت صغير به ماء ساخن مالح .

- هل ستستحم الآن ؟

- أجل ، أعطني قليلاً من الجاز أنظف يدي أيضاً .

سكبت بعض الجاز من " الجركن " في كوز صغير وناولتـه إيـاه . ناولته الصابونة ووضعت فوق كتفه المنشفة ، والشبشب أمام عتبة الحجرة في الخارج . الحمام في الردهة ، هو مشترك بين الجميع، وصوت مياه الدش التي تصطدم بالبلاط يصل إلى الجميع لكن لا مفر من الاستحمام . إنه يعود متعباً متسخاً إلى درجة لا يتحمل فيها جلده ، وهو لا يستطيع أن يأكل أو ينام إلا إذا تخلص من كل آثار العمل ، التعب والقذارة ،

كان عليه اليوم ، مثل كل يوم ، أن يحفر أرضاً صلبة تحت العـوارض القديمة .

يرفع القضبان ويرفع العوارض القديمة ، ثم يضع مع زملائه القضـبان والعوارض الجديدة أيضاً لأكثر من خط حديدي تحتاج إلى صيانة أو تبديل ، القطارات الوافدة إلى الميناء كثيرة تعود محملة بالعتاد والجنـود ، كـذلك القطارات القادمة من السويس تحمل جنود الإمبراطورية القادمين من أفريقيا واستراليا والهند تذهب بهم إلى الصحراء . القطارات تتوقف أمام الماسـورة التي رآها أول يوم متصلة بخرطوم ويجلس جوارها الرجل الصامت . هنـا خزان ماء تحت الأرض يمون القطارات البخارية ، والماسـورة والخرطـوم يتصلان بخزان ومفتاح دائري ضخم يفصل بينهما ، يفتحه العامل فترتفـع المياه إلى الماسورة والخرطوم لتنزل من أعلى القطار . هذا الجهـاز اسمـه " الغراب " لا يعرف لماذا . والرجل الجالس قال عنه حمزة أحد زملائه : إنه " رجل مجنون " زرع شجرة التوت من زمان ، ولا يزال ينتظر العصافير التى لا تأتي أبداً .

رأة مجد الدين ودميان زملاءهما يتركون عملهم ، ويتقدمون ناحية كل قطار يتوقف للتزويد بالوقود ، ويعودون بصناديق كرتونيـة صـغيرة بهـا شيكولاتة وشاي وبسكويت . كان الجنود الهنـود ذوو العمـائم العاليـة والبنادق الطويلة أكثر سخاءً في العطاء من غيرهم ، كان حمزة يعلّق عليهم قائلاً :

- العسكرى الهندي هندى صحيح لكنه ذكي ، أقول له إنجلـيش إذ جود يقول إنديان إذ فيري جود ويعطيني بسكويت أكثر .

يضحك العمال على طريقة حمزة فى نطق اللغة الإنجليزية ويندهشـون كيف يعرف هذه الكلمات الكثيرة التي يتحدث بها مع الجنود ، الـذين لا يكادون يبتعدون ويبتعد قطارهم حتى يقف حمزة وسط الخلاء هاتفاً :

" العقاب مـش مـن شـوية
اللـــى نـــازل عالبريـــة
كـــام لنـــا ذنـــب وأســـية
الملايكـــــة بيكتبوهـــــا"

ثم ينظر إلى البسكويت والشيكلاتة أو غيرها مما فاز به هاتفاً :

لوكان هم واحد كنت روقتلـوا بـــــــــــــــــــــــالي
إلا تلاتـــة غـــيروا أحـــوالي
هـــم جـــواني ، وهـــم بـــراني
وهـــم عالبـــاب يســـتناني

القضيب الحديدي الذي يمتد طويلاً ينخلع بهدوء ، يرتفع متلكئاً ببطء ظاهرا عن الفلكنات مزفاً نسيجها الخشبي ، رافعاً معه المسامير الحلزونيـة تاركاً مكانها حفراً عميقة شائكة بشظيات الخشب العالقة بجدارها الـدائرى الفورسفوري ، ويعلو القضيب فوق الأرض لمسافة ثم يتمـدد ويتمـدد ، وتخرج منه قضبان أخرى أقل سمكاً منه إلى ناحية ، تتمدد بدورها في الفضاء بنية لامعة ، وتستدير فى دوائر واسعة لا تلبث أن تضيق ، وتزداد عـدداً ، والقضيب الأول ينكمش ويستدير في دوائر صغيرة متتابعة ، ويرفع رأسـاً عالياً ، ويمد لساناً مشقوقاً إلى ساق مجد الدين ، الذي يقفز في الفضاء فـلا ينزل ، ويستقر على سقف قطار مجنون والهواء يطير شعر مجد الدين ،ويخلع عنه سترته ، وفانلته وسرواله وهو يتشبث بقوة ، وليس فوق جسمه غـير السروال الداخلي في سقف القطار اللامع ، ولكنه ينزلق إلى جانب القطـار فيتشبث من جديد بالإفريز العالي ، ويصرخ ولا مجيب ، فيتهادى القطـار ويبطئ من سرعته شيئاً فشيئاً ، حتى يقف في النهاية وسط طـابورين مـن الناس غريبي الملامح ، لا يكفون عن الضحك الهيستيري ، ولا تكف عيونهم الجاحظة عن الدوران ، ويسقط بينهم فيتلقفه بعضهم يتأملون بشراسة ، ولا يكفون عن الضحك من جديد ، ويمضي القطار نافثاً دخانه الأزرق ، ويرى زهرة في هلع خلف القطار تناديه . مجد الدين . يا مجد الدين . يا شيخ مجد . وهو مرفوع خلفها فوق أيدي الناس غريبى الوجوه والعيون الذين لا يكفون عن الضحك بشراسة ، يصرخ فيضيع بين مئات الضحكات ، حـتى تقـع زهرة فوق الفلنكات والمازوت ، وتعود مثقلة بالألم تمشي على مهل تعرج ، الشمس الراحلة تسرع في الابتعاد والإظلام القـادم يسـرع إلى الـدنيا ،

ويتركه الرجال غريبو الملامح مفعماً وسط الظلام ، يئن أنينا خافتاً طـويلاً ، بأقصى درجات الإحساس باليتم ، ثم يهطل مطر شديد متتابع من السماء ، ويطلق الرعد ضرباته متتابعة وهو يهتز بعنف .

- مجد الدين . مجد الدين . انهض . فيه غارة .

كانت زهرة تهزه بسرعة ، ونهض فزعاً يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . أنقذتينى يا زهرة من كابوس فظيع ، والحقيقة أنها لم تستمع إلي أنينه ، بل أيقظتها طرقات الست مريم على الباب وإبلاغها مـن خلفه بوجود غارة وأن عليهم النزول إلى أسفل بسرعة .

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، هذا صوت مدافع حقيقية .

في الأيام السابقة كانت بلدية الإسكندرية قد أتمت عدداً من الخنادق المكشوفة فى أكثر من حي شعبي ، لكن السكان راحـوا يتبولـون فيهـا ويبرزون ، مما أضطر البلدية إلى توزيع رجال الشرطة لحراسـة الخنـادق ، وتوقفت عن التوسع في المشـروع ، وعقـدت المحكمـة العسـكرية في الإسكندرية حسب قانون الطوارئ ، جلسة لنظر الحكم في شأن فتاة فقيرة تمارس الدعارة بدون ترخيص ، وأوقعت عليها غرامة ثلاثة جنيهات ، كما تمت مداهمة بيت في كرموز يدار للدعارة بدون ترخيص أيضـاً ، وحـين حاصر رجال البوليس صاحب البيت يصرخ قائلاً : " فين جلـوبلز ، فـين الجستابو.. أنا هتلر " لكن رجال البوليس الشجعان لم تنطل عليهم اللعبة ، وأمسكوا به وأوسعوه ضرباً على‌قفاه ، ووصلت الصحف فجاة كمية كبيرة

من الأسئلة عن " نورماشيرر " ممثلة هوليوود الجميلة ، هل سـتتزوج بعـد وفات زوجها ، وكانت الإجابة بالإيجاب ، والزوج المرشح هـو الممثـل " جورج رافت " الذي كانت علاقتها به متينة في حياة زوجها . لكن الحـذر والترقب كان أيضاً في عيون الناس ، فالإيطاليون على مرمى حجـر مـن بالإسكندرية ، لذلك حينما ارتفعت أصوات صفارات الإنذار أكثر من مرة بالنهار ، أدركوا على الفور أنها ليست غارة تجريبية ، وحينما رأوا المـدافع المضادة تتبعها بالقذائف أيقنوا أن زمن الغارات التجريبية انتهى .

كانت الأوامر قد صدرت بالتشديد على سائقي السـيارات بطـلاء مصابيحهم بالأزرق الفاتم بعد التراخي ، الذي لوحظ فى الشهور السابقة ، والتشديد على السكان بطلاء نوافذ البيوت ، ولصق قطع شـاش طويلـة وعرضية على الزجاج من الداخل حتى إذا تهشم لا يتطاير ، وأن لا يجتمـع الناس فى الطرقات ساعة الغارة ، وأن تتوقف المواصلات ويغادرها ركابهـا، وأن تخلى أصحاب البيوت الأدوار الأولى ويجعلوها بمثابة ملاجـئ للنـاس البعيدين عن الملاجئ العمومية ، ,أن يتقدم كل مضار من الغارات بسـرعة إلى البلدية لاستلام أدوات بناء جديدة من خشب وحديد وأسمنت لإصلاح الضرر الذي وقع ببيته ، أو لتدعيم البيوت القديمة ، وحين سمـع النـاس صوت صفارة الإنذار المتقطع هذه الليلة أحسوا به مختلفاً عن كل مرة . فيه هرولة غير مألوفة . فيه فزع . تمدد القلق في نفـوس النـاس . الغـارات النهارية الأسبوع الماضي كانت سريعة ، ولم تتـرك إصـابات أو خسـائر واضحة . الليلة يبدو أن الحرب الحقيقة ستنتقل إلى سماء الإسكندرية .

كانت الساعة الثانية عشرة ، الحرارة شديدة ، وعدد قليل يمشـي في شارع اللبان . بسرعة دخلوا إلى البيوت القديمة ، ووقفـوا في مداخلـها . كما توقفت سيارات التاكسي لكن سائق إحداها لم يبرحها ، نظر إليه أحد الواقفين بمدخل البيت القريب ، ودعاه للدخول حرصاً على روحه فقال :

- يعنى البيت لو قع على حاعيش ؟!

بدا للكلام معنى .. نظر الواقفون في المدخل إلى بعضـهم لكنـهم لا يستطيعون مخالفة تعليمات الوقاية . الوقوف في مدخل البيت أكثر أمناً حقاً من الشارع المكشوف ! .

لم يكن القمر بدراً تلك الليلة ، كان أكثر من هلال ، لكنه اسـتطاع أن يضىء الشوارع ويخون الجميع .

كان ديمتري أفندي وزوجته وابنتاه قد نزلوا إلى الـدور الأرضـي ، دخلوا غرفة البهي الخالية ، وأطفأوا النور بعد دخولهم ، كانت لوللا قـد انضمت إليهم . لم تفكر أن تلبس شيئاً يخفي كتفيهـا وذراعيهـا بسـبب الارتباك .انضمت إليهم وحدها ولم ينضم زوجهـا .وهـو عاجـة قليـل الاختلاط بالآخرين ، ثم إنه يسكن بالدور الأرضي فما جدوى الانتقال إلى الغرفة المقابلة ، والحقيقة كانت غير ذلك . ما كاد صوت صفارة الإنـذار يرتفع ، وطلقات المدافع تدوى في الفضاء حتى ارتعشت " لوللا " ودخلت في حضنه فضمها إليه أكثر ، ومد يديه يخلع سروالها وسمعت هى وفع أقدام ديمتري وأسرته وأصواتهم ، فحاولت التخلص من زوجها الـذي عانـدها وهجم عليها يريد معاشرتها فذلك في رأيه أحسن وسيلة لطـرد لخـوف .

وفاومنه هى ، وفاوت أيضاً رغبتها التى تشتعل بمجرد أن يلمسها . كانـت تفكر ماذا يحدث لو وصلت أصواتها وأصواته إلى ديمتري وبناتـه . لـذلك حين نجحت في التخلص من زوجها خرجت بسرعة والتحقت بهم ، وهـي بقميص النوم الطويل الأبيض فأضاءت كتفيها وذراعيها في الظلام عيـون الواقفين ! .

اهتدى مجد الدين في الظلام بصوت ديمترى لم يترك يد زهرة التي مـا إن دخلت الحجرة حتى هتفت صارخة : " يالهوى . البنت شوفية فـوق " ، وأصبح على مجد الدين أن يصعد هو لإحضار البنت بعد أن وقفت زهرة في حجرة البهي مع الواقفين .

انقطع صوت المدافع ولم يرتفع صوت صفارة الأمان ، طال الصـمت والصبر معاً ، وأرهف الجميع السمع لصوت طنين هادئ بطىء عريض مثل شتاء يأتي من بعيد ، ويزداد الطنين العريض كأنما قوافل من النحل القاتـل تقترب من المدينة ، ومثل عاصفة تنهض من الأفق لتجتاح الصحراء ، مثـل جيوش الجراد وهي تقترب من الزرع الأخضر ، زززززززز ، إنها الطائرات الألمانية والإيطالية تأتي قاصدة أهدافها ، تأتي متجاورة فى تشيكلات كبيرة ، وتقترب من الأرض ، أصوات القنابل والانفجارات وأضواء البرق تمرق من أمام النوافذ المغلقة في السماء من خلف الشيش المغلق والزجاج .

- افتحوا النوافذ نعرف ماذا يحدث .

هتف ديمتري . كان مجد الدين بجوار النافذة ففتحها وبان الليل أمامهم مثل نهار أبيض ، وبان أمامهم نهار أحمر ، وبان مثل نهر من الدخان الأزرق

، صفحة السماء تشتعل شمالاً ، وسكان الصف المقابل من المباني يصـرخون وهم يرون الدخان ، ومجد الدين وديمتري والنساء يرون الضوء القادم مـن الشمال مشتعلاً جنوبا في السماء كسيف أبرزه محارب سماوى .

(يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون * لقد حـق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون * إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهـي إلى الإذقان فهم مقمحون * وجعلنا من بين أيديهم سداً ومـن خلفهـم سـداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) صدق الله العظيم . قال الشيخ مجد الـدين وأعاد (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهـم لا يبصرون) ، ويعيد ويرتفع صوته ويهتز وضوء القمر يكشفه للجميع ، بينما هو ذاهل عنهم تماماً ، (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومـن خلفهـم سـداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) ، وبدأت زهرة تردد خلفه وصوته يعلـو ، و الست مريم تردد ، " نعم نسألك يا الله الآب ضابط الكـل لا تـدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير " ، وديمتري يردد معها : " نعم نسـألك أيهـا الرب إلهنا لا تدخل أحداً منا في تجربة . هذه التي لا نستطيع أن نحتملها من أجل ضعفنا ، بل أعطنا أن نخرج من التجربة أيضاً لكي نستطيع أن نطفـئ جميع السهام المتقدة ناراً التي لإبليس " ، ويرتفع صوته وترفع الست مـريم صوتها ، ونجنا من الشرير إبليس بالمسيح يسوع ربنا ، آمين . ومجد الـدين يرفع صوته أكثر يا ربي لا تترك بيني وبين أقصى مرادك مـنى حجابـاً إلا كشفته ولا حاجزاً إلا رفعته ولا وعراً إلا سهلته ولا باباً إلا فتحته يا مـن ألجا إليه في شدتي ورخائي ، ارحم غربتي ، آمين يارب العالمين . ويبدأ مجـد

الدين قراءة القرآن الكريم بعد الدعاء ولا يزال يهتز ويعيد ديمتـري معـه ابتهالاته ، ويختلط الكلام فتسمعه فلا تدرك منه إلا إنه حالة روح صـادقة ضارعة متبتلة بكل الجوارح لله المخلص . (يس * والقرآن الحكيم) إيهـا الرب إلهنا (على صراط مستقيم) لا تدخل أحداً منا في تجربـة (تنزيـل العزيز) نجنا من الشرير (ما أنذر آباؤهم) من أجل ضعفنا (على أكثـرهم فهم لا يؤمنون) نخرج من التجربة (وجعلنا من بين أيديهم سـداً) الـتي لإبليس (فهم لا يبصرون) آمين آمين .

وتأتي الأصوات من الشارع ، رجال وشـباب ونسـاء مـذعورات وأطفال يبكون .

- من أين ترتفع النيران ؟

- الكشافات أم القنابل ؟

- القنابل.

- من مينا البصل وباب سدرة وكرموز ، الضرب كله على كرمـوز يا عم ، البيوت تهتز .

الكشافات لا تتوقف ،مدافع كوم الناضورة وكوم الدكـة والمكـس والقباري وسيدى بشر كلها بتضرب في وقت واحد ، أكثر من مائة طيارة .

- السماء كلها ذباب أزرق .

- جاء الصوت من الخارج .

- باخواجة ديمتري . يا عم اطلع من عندك البيوت ستقع .

- من يتكلم .

- أنا غفارة .

كان الصوت غريباً ومكتوماً . أطل غفارة عليهم من الشباك . كان النساء قد تكومن في ركن ملتصقات . وما إن رأته كاميليا وإيفـون حـتى صرختا (ماما) ، لقد رأنا صوناً مخنوقاً يأتي من خلف الطربـوش القنـاع الذي يربطه فوق وجهه .

- لا تخفن يا سيدات ، هذا قناع غفارة الوافي من الغـارات . يـا خواجة ديمتري ، ويا شيخ مجد الدين لا تؤاخذني ، أنا أعرفك وكنت صديق المرحوم البهي ، يا جماعة البيوت تنهار فى كرموز وتهتز هنا ، أفضـل لكـم الخروج والوقوف في الشارع .

كان ينظر من خلف العينين الزجاجيتين إلى ذراعي لـوللا ، وكتفهـا اللامعة في الغبش كما لو كانت هناك غلالة سوداء فوقها والوقـت نهـار وخرج ديمتري ومجد الدين ، ولم تخرج النسوة .

قالت زهرة :

- العمر واحد .. إذا متنا نموت مستورين .

وأعجب الكلام الخواجة ديمتري الذي طلب من زوجته أن تبقى مـع زهرة وكذلك البنتان ، بالطبع بقيت معهن لوللا .

- يا لطيف . يا أرحم الراحمين . النار تشتعل إلى السماء .

كانت صفحة السماء فوق المباني شمالاً حمراء ، وكانت سحب الدخان كثيفة ، والطائرات تئز وتدور كالزنابير فوق المدينة ، وكشافات الوقاية تتابعها من باب الكراستة وكوم الناضورة والبيناء والمنشية والفباري وكل مكان ، وألسنة طلقات النار متتابعة خلفها . " يا ستار " كان المجتمعون على الرصيفين ، يصرخون وهم يرون عدداً من الطائرات تلقى بقنابلها ، ويسدون آذانهم وترتفع أصوات الانفجار البعيدة قريبة ! ويصيحون " الله أكبر " عندما تصيب الطلقات طائرات تهوى بسرعة بعيدا .مالئة صفحة السماء دخاناً أسود .كانت رائحة الفضاء كله رائحة حريق هائل .؟

كان زوج لوللا ذو الشعر المنكوش قد انضم إلى الناس في الشارع وفي يده سيجارة ، فهجم عليه الشبان وضرب يده لتسقط السيجارة على الأرض ، ونظرا إليه شذرا ، فاعتذر زوج لوللا وهرش رأسه ، وقال :

- الواحد من لخمته نسى أوامر الوقاية .

وفجأة ارتفعت بهم الأرض ، وارتفعوا عنها ، وانخفضوا ، فانزلقت قلوبهم ، وكانت البيوت قد ارتفعت ، وانخفضت أيضاً ، أو خيل إليهم ذلك ، ولكنها لقصرها وصغر حجمها لم تسقط ، وصلتهم أصوات سقوط البيوت في كرموز .

- هذا طوربيد الذي سقط على كرموز الآن .

صرخ رجل وارتفعت الأرض مرة أخرة بهم ، وانخفضت فصرخ رجل آخر " طربيد ثاني . الرحمة " وارتفعت الصرخات في مداخل البيوت ثم فجأة ارتعش الفضاء بأصوات النساء ، وخرج النساء والرجال والأطفال إلى

الشارع . الأرض لا تتوقف عن الاهتزاز ، والمدافع المضادة للطـائرات لا تتوقف عن سيل حممها تقذفه على السماء ، ألقـت الطـائرات السـوداء العريضة شرائط فوسفورية فوق المدينة ، فصار الجو احتفالياً ليليـاً . كـل شيء واضح الآن والطائرات تدور فوق المدينة في مناورات محسوبة يبدو أنها لن تنتهي ، إذ كلما سقطت طائرة انضمت أخرى جديدة ، وكثير منها كان يقترب جداً من الأرض يصيب هدفه بوضوح ، وامتلأ الفضـاء بالرعـب وامتلأ شارع اللبان بالسكان الذين صاروا يجرون بلا هدف على سـيدي كريم ثم يعودون هرولة ، ويجرون حتى كوبرى كرموز ، وفي الناحيتين كلما اقتربوا من نهاية الشارع ورأوا الفضاء الممتد أمام شارع راغب أو كـوبرى كرموز روعهم حجم النار شمال المحمودية فوق الحي الشهير ، لقد امتـدت النيران إلى راغب ومحطة مصر ، وصارت الدنيا مصيدة مليئـة بالصـراخ والخوف والدموع ، وكانت رباطة جأش زهرة هي السبب الوحيد لبقـاء الست مريم وكاميليا وإيفون ولوللا في الحجرة ، في بيت لا يكـف عـن الاهتزاز ، وفوق أرض لا تكف عن الحركة ، لكن إيفون كانـت تنتحـب بأنين خفيض ، أما كاميليا فقد غشى عليها فوق حجر أمها ، تمددت علـى الأرض ووضعت رأسها على حجر أمها ونامت . وهكذا ظنت الست مريم ، والحقيقة أنها كانت في إغماءة طويلة ، لم تفق منها إلا في الصباح ، بعد أن انتهت الغارة ، كان هناك عشرات النساء والأطفال قد أغمـى علـيهم في الشوراع والأزقة ، وانشغل الجيران بأمر الجيران حتى مرت الليلة الطويلـة التي لم تكن أحد يتصورأنها يمكن أن تمر .

في تلك الليلة ، عند الفجر ظهر " حميدو " ماسح الأحذية ، ووقف وسط الشارع عملاقاً حافياً يصرخ " يا أولاد الكلب " موجهها شتائمه إلى الطائرات البعيدة ، طالباً أن يذهب معه الشباب إلى كرموز لإنقاذ الناس ، وجرى في الشارع وخلفه عشرات من الشباب وكان غفارة يهرول خلفهم ، ولا يلحق بهم لكنه لم يتوقف ، فقط كان يسند الطربوش بيده اليسرى حتى لا ينخلع ويسقط . لقد فكر مجد الدين أن يذهب معهم ، لكن خاف أن يترك زهرة وحدها . ماذا يحدث حقاً لو مات أو ماتت هى هنا ؟ ورأى دميان قادماً إليه زائغ العينين أصفر الوجه ، ما إن رآه دميان حتى جلس فوق الرصيف ووضع رأسه بين كفيه ، واندفع في البكاء .

- لا تبك يا دميان ، هذا أمر الله .

- الناس ستترك الإسكندرية بالآلاف غدا . أين أذهب يا شيخ مجد ؟

- أبق معي ، أنا لن أتركها .

- ستبقى ؟

- هل أترك عملاً كالذي حصلنا عليه يا دميان ؟ ثم إن الموت بيد الخالق يا رجل . أين عائلتك ؟

- في الدير . الدير فتح أبوابه ودخل فيه ناس كثير . وجامع سيدى كريم أيضاً . القنابل سقطت خلفنا في مياه المحمودية على بعد خطوات .

- وقل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا يا دميان . اطلب الرحمة .

- كيرياليسون .. كرياليسون .. كيرياليسون .

" إذا امتلأت بالنور نافذة أو دار
فكن على يقين أنه ليس من
مضىء سوى الشمس " ..

انشغل الناس بالغارة الطويلة التي استغرقت ست ساعات ، طلع الصباح والجثث نائمة في شارع الرحمة متجاورة كأنما قام أحد برصها على الأرض بالليل . وظلت الحرائق في باب سدرة يوماً كاملاً ، تكاتفت عليها وسائل الإطفاء والإنقاذ من المحافظة ، لكن الوقت طال لاستخراج الجثث من تحت الأنقاض . امتلأ شارع كرموز والشوارع الجانبية بالناس من جميع أنحاء المدينة أتوا يشاركون في الإنقاذ ، أو يتفرجون على ما يمكن أن يتكرر أو يحدث لهم . وبدأت عمليات الهجرة الجماعية بالإسكندرية ، وتبرع الملك و الأمراء بالأموال للضحايا ، وخصصت المستشفيات للجرحى ، ومدرسة " دون بوسكو " للذين صاروا بلا مأوى ، ونزل على المدينة وجوم إذ لم تنقطع الغارات النهارية ولا الليلية . وشيئاً فشيئاً دخلت المدينة في مجرى العادة والألفة وبدأت حكايات أخرى تطير فوقها ، وفي أزقتها ، وتنزل بين السهارى بالمقاهي القليلة التي تفتح أبوابها في المساء ، أو البيوت . فالمراهقون يتحدثون عن قصص الحب في المخابئ العامة ، وعن النساء اللاتئ تفاجئهن الغارات عراة فبي الحمامات ، أو في أحضان رجالهن ، وفي أحسن الأحوال بقمصان النوم . والرجال يتحدثون عن استقالة على ماهر باشا ، وتكليف حسن صبري باشا بالوزارة الجديدة ، وعن طريقة شرب الشاي الثلج بالليمون أو اللبن أو سادة في هذا الحر ، وكيف اعترفت إنجلترا بالجنرال ديجول مثلاً لجميع الفرنسيين الأحرار في كل بقاع الأرض ، والنساء والفتيات يتحدثن عن التطوع في الهلال الأحمر والهجرة من المدينة . ولم يكن الصيف بعد غارة الست ساعات هذه عادياً أبدا . في " غربال " اشتهى سماك امرأة تاجر صعيدى في الوكالة ، امرأة بيضاء باهرة الحسن ، لا

يعرف السماك كيف عاشت من قبل في الصعيد ، ولما لم يجد طريقاً لنيلها ، أشاع أنها على علاقة ، بمدرس شاب يسكن في الشقة المقابلة ، أنها تـتحين فرصة الغارات ، لتمارس الحب مع الشاب المـدرس في المخبـأ المظلـم ، وتنفست البيوت الإشاعة الكريهة ، فإذا بالزوج يمسك بزوجته الجميلة من شعرها ، ويجرها إلى الزقاق الصغير المسمى بشارع القمر ، المجاور لشـارع النجوم ، والموازي لشارع الشمس ، في المنطقة الهادئة الـتي اختـار لهـا مؤسسها هذه الأسماء الجميلة ، وفي وسط الناس المذهولين طعـن الرجـل زوجته ، ووقف فوق جثتها . لم يمر أسبوع إلا والسماك ، يعود ليلة في حالة سكر ، ويحكى للناس كيف كان هو وراء الإشاعة . لم يعـد محـل ازدراء الناس ، ظهر والد المرأة وأخواتها ،وأمام الناس جميعاً ، وفي المكان نفسه التي قتلت فيه ابنتهم ، قتلوه وشربوا دماءه . لقد بكت النساء في المدينة مرتين ، يوم قتل الزوجة الجميلة ، التي بعدها جفلن من النزول إلى المخابئ ، ويـوم قتل السماك الكريه حيث أدركن مدى الظلم الذي وقع على المرأة الجميلة ، وصرن ينزلن إلى المخابئ ، وإن على استحياء ، وعلى شاطئ المحمودية عثر الناس أكثر من مرة على طفل لقيط ، وأخرجوا جثتين موضوعتين في جوالين ، انتفخت الجثتان ، وحملهما الماء من الجنوب ، الجثتان لفتاتين ، ولم يكن بين اكتشاف الجثة والأخرى أكثر من أسبوع . ركنت الأولى تحـت كـوبري راغب ، والأخرى تحت كوبري كرموز بعد ذلك . وفي العالم بـدأ الألمـان معركتهم الجوية الكبرى فوق انجلترا . لقد بدأت معركة بريطانيا منذ العاشر من يوليو . كانت الطائرات المغيرة تخرج بالمئات من الشـواطئ الفرنسـية

والأراضي البلجيكية القريبة تضرب القوافل البريطانية في المانش ، والـوا
الجوية بين دوفر وبلايموث .

لقد بلغ من عنف الغارات ، أن وصل عدد الطـائرات الألمانيـة في
إحداها ، إلى ثمانمئة طائرة مغيرة في وقت واحد ، أعلن هتلر أنـه سـيزيل
بريطانيا من الوجود ، وأصبح مصير بريطانيا حقيقة في يد طياريها الشجعان
الذين خطب تشرشل يحييهم في مجلس العموم قائلاً " أنه لم يحدث في تاريخ
الصراع الإنساني ، أن أحس مثل هذا العدد الضخم مـن النـاس بمـا في
أعناقهم من دين جسيم ، نحو عدد قليل من الناس ، مثلما نحس به جميعاً نحو
طياريا "

وحضرت أم زهرة من البلد ، حاملة لها سمناً وزبداً وجبنـاً فريشـاً
وخبزاً أيضاً ، وأغرت بنتها أكثر من مرة ، أن تترك مجد الدين وتعود معها
إلى البلد ، فالناس الذين لابلد لهم يهاجرون فكيف تتردد هى ؟ قالت أمها :
إن العمدة أقسم لو عاد مجد الدين سيقتله ، لا دية له أثناء الحرب ، فقالت
زهرة : إن مجد الدين بعد عمله الجديد لن يعود، ثم سألت أمها هـل فعـل
العمدة بهم ذلك بسبب البهي حقاً ، فقالت أمها : إن الزوجة الأولى لمجـد
الدين ، التي ماتت قبل أن تنجب له ، كان العمدة يميل إليها مـن قبـل .
ولكن زهرة لم ترتح لهذا التفسير فتلك الزوجة ماتت بعد الزواج بعام واحد
، ولم يعد أحد يذكرها ، البهي هو السبب الوحيد المعقول ، وأخبرتها أمهـا
أن هادية ، أم مجد الدين أوشكت أن تموت ، بعد أن وصلها نبأ موت البهي
، وعجز مجد الدين عن العودة ، وطلبت منها زهرة ألا تخبر مجد الـدين إلا

بما هو عادي أو حسن ، وإن كان مجد الدين لن يصـدق أن هنـاك أمـراً حسناً .

خففت زيارة الأم ، كثيراً من وحشة زهرة ، التي بكت بحرقـة يـوم سفر أمها ، وأخذت الست مريم وكاميليا وإيفون معهن إلى شاطئ الشاطبي لتتفرج على المصطافين . كانوا قليلين ، وأكثرهم من النسـاء والفتيـات ، وخلعت كاميليا ثم إيفون فستانيهما ، ووقفت كلاهما بشورت وبلوزة مـن القطن أمام زهرة ، بلوزة واسعة الصدر (جيبونيز) تكشف معظم الظهر . كان هناك عدد قليل من الفتيات قد نزلن إلى الماء ، وعدد قليل من النساء نزلن بجلابيبهن ،وقالت مريم : إنها لا تحب النزول ، وكذلك أعلنت زهرة ، بل إنها لا تستطيع ، ظلت تنظر للفتاتين اللتين جرتا على الشاطئ كـثيراً ، ولعبتا في الماء كثيراً ، وبعد الظهر بوقت قليل طلبت زهرة العودة، لقد رأت في نهاية الشاطئ فتاة أجنبية شبه عارية ، يقبلها شاب أجنبي شبه عار .

كان الأجانب من الجنود يزدادون في المدينة ، أفواج منهم تذهب إلى الصحراء ، وأفواج تأتي للراحة والاسترخاء بعض الوقـت ، وخصصـت المدرسة الإيطالية بالشاطبي كمعسكر للأسرى الطليان ، ثم ازداد الأسـرى فخصص لهم معسكر آخر خارج المدينة ، فضلاً عن أكثـر مـن معسـكر بالقاهرة . كانت الحرب البرية قد بدأت على الحدود ، وبـدأت قـوات الحلفاء تشن غارات هجومية على القوات الإيطالية في ليبيا ، فضـلاً عـن الغارات بالطائرات ، فمنذ الرابع عشر من يونيو ، بعد إعلان إيطاليا الحرب مباشرة بأربعة أيام ، أغارت القوات البريطانية ، وقوات الكومنولث ، على القوات الإيطالية في كابوتزو، ومادالينا ، وأسرت أكثر من مائتي أسير ، وفي

الثالث عشر من أغسطس ، بدأت القوات الإيطالية الزحف الكبير إلى مصر بأوامر من الدوتشي شخصياً ، بدا القصف الإيطالي عنيفاً على الحدود قرب السلوم ، حتى إذا انكشف الغبار والدخان ، تجلت القوات الإيطالية مصطفة في نظام بديع ، في المقدمة راكبو الدراجات النارية في تنظيمـات متقنـة ، تليهم الدبابات الخفيفة ، ثم السيارات المصفحة ، فغير البريطانيون خطتهم ، وبدلاً من الانسحاب أمام الإيطاليين صبوا عليهم مدفعيتهم فأصابوا منـهم الكثير مما جعل جرازياني يغير شكل الهجوم المباشر هذا ، ويقـوم بحركـة تطويق للبريطانيين وحلفائهم ، الذين انسحبوا ، ولم يتجـاوز الإيطـاليون سيدى براني ، ستين ميلاً خلف الحدود المصرية ، وظلوا هناك لوقت طويل عرضة للغارات البريطانية بين حين وآخر ، من البر ومن الجو ، حتى بلـغ عدد القتلى الإيطاليين ثلاثة آلاف وخمسمائة قتيل في ثلاثة أشـهر بينـهم سبعمائة أسير . كان السؤال في الإسكندرية لماذ يحارب الإيطـاليون وهـم شعب مسالم إلى هذا الحد ؟ وحتى طائراتهم يمكن تمييزها فى السـماء عـن الطائرات الألمانية ، فالطائرات الإيطالية لا تظهر طويلاً فوق المدينة ، تلقـى بحمولتها عشوائياً فى أى مكان وتعود ، بينما يبدو الألمـاني يعـرف هدفـه ويبحث عنه ، والطائرات الإيطالية تسقط بأعداد كبيرة وبسرعة ، بينمـا تراوغ الطائرات الألمانية القذائف فى السماء . لقد بدا للناس أن الإيطاليين لا يريدون الحرب حقاً ، وأنهم دفعوا إليها دفعاً خاصة وهم يسمعون عـن عدد الأسرى - في الحروب البرية - الذي يصل المدينة كل يوم . اطمـأن الناس أن الإيطاليين لا يمكن أن يحتلوا المدينة ، لكن لابد من هزيمة ألمانيا حتى يكون الاطمئنان كبيراً ، لكن ظل قسم كبير من الناس أيضاً يتمنى هزيمـة

الجيوش البريطانية في الصحراء ، وأن تدخل إيطاليا الإسكندرية أو ألمانيـا ، المهم أن يخرج الإنجليز ..

رأت زهرة كاميليا وإيفون في الصباح الباكر تقفان وسـط الردهـة بالزى المدرسة الجميل ، لقد انتهت الإجازة الصيفية إذن ، وها هما البنتـان مثل فراشتين مرحتين : الجوب الرمادي والقميص الأبيض وربـاط العنـق الأزرق ، تضفي عليهما براءة طفولية فوق براءتهما العذبة .

كان مجد الدين قد غادر المنزل إلى العمل منذ قليل . إنه أول من يخرج ، ومعه الخواجة ديمتري ، في الأسابيع التي يعمل فيها نهاراً .

- هل المدرسة جميلة هكذا يا بنات .

- طبعاً يا زهرة . خصوصاً أول يـوم ، عيـد ، نقابـل زميلاتنـا ومدرساتنا ، ونحكى عن الإجازة والصيف . أجمل شيء في الدنيا هـو أول يوم في المدرسة يا زهرة ، بعد كده المدرسة وحشة .

وضحكتا ببراءة الحمام الوديع . ولأنه لم يكن لزهرة أن تعيد الأيام ، فتدخل المدرسة وتسكن المدينة ، تمنـت أن تـرى " شـوقية " ، في مثـل سعادتهما يوماً .؟ كانت إيفون قد فتحت الراديو علـى صـوت لنـدن ، وكانت تنساب منه موسيقى جميلة لم تسمعها زهرة من قبل . موسيقى تبعث على الطيران والسباحة في الفضاء مع الملائكة .كيف حقاً لم تسمع موسيقى دون أغانٍ من قبل ، وهل يمكن أن تكـون الموسـيقى دون أغـانٍ جميلـة هكذا؟ .

وغادرت البنتان المنزل إلى المدرسة ، وحملت نسمة الصباح الطريـة زهرة إلى سماوات من سعادة . لن تعود للنوم مرة أخرى ، استلقت جـوار طفلتها فوق السرير ، ورفعت عينيها إلى السقف الخشبي الأبيض . هل يمكن أن تكون الإسكندرية جميلة وهى لا تدري ؟ بالأمس خرجت إلى الأنفوشي مرة أخرى بعد وقت طويل في صحبة الست مريم . رأت الناس في الترام أكثر نضارة من المرة السابقة ، رغم الغارات الـتي لا تنقطـع ، وعنـدما شاهدت تمثال محمد على باشا لم تفكر أن تشكو له ، خافت عليه أن تهدمـه الغارات ، وضحكت من فكرة أنه يمكن أن يهرب على حصانه ، اندهشت للعمارات العريضة المهيبة ذات الشرفات المزخرفة على جانبي ميدان المنشية ، كيف حقاً لم ترها من قبل بهذه العظمة .. وحين اقترب الترام مـن نهايـة لسان بحري ، بدأت تسمع صوت الموج نغمات وادعة وتشم رائحة اليـود منعشة ، ولما خرج الترام إلى الهواء الطلق من الشارع الطويل البارد ، رأت زهرة البحر أزرق بلا نهاية ، تتهادى أمواجه زبدية الـذري إلى الشـاطئ ، وعلى الشاطئ علقت الشباك البنية لمسافات طويلة تتدلى من حافتها السفلية قطع الرصاص الفضية الثقلية ، وجوارها سفن ذات أشرعة ملمومة ، فلائك صغيرة بلا أشرعة ، متوقفة أو مركونة فوق الرمال ، وبعيداً السفن الرمادية الضخمة ، ذات المدافع الطويلة والقصيرة ، تـنعكس ظلالهـا ، وظـلال صواريها وأعلامها ، تترافص فوق الماء ، وعلى الشـاطئ زحـام النسـاء الشديد السبهج أيضاً على باعة السمك ، لقد جاءت هنا مرة ، ولم تر مـا تراه الآن كان ذلك في العيد الصغير الماضي ، حقاً يختلف الصيف هنا عـن الشتاء ، وها هى ترى بعيون جديدة . أى طاقة أعطتها المدينة التى يهجرها

أهلها لتبقى فيها وتحبها ؟ هذا زحام حقاً لكنه مبهج . نسوة ملفوفـات في الملاءات تركنها تسقط من على رءوسهن وأكتافهن فتأبطن أطرافها العليا ، وكشفن عن أكتاف حمراء غضة وأذرع لامعة ، وبان شعرهن تحت أغطيـة رءوسهن أحمر أو أصفر أو أسود الحواف ، وكلهن يـدخلن في أحاديـث طويلة مع الباعة ، وينطلقن في الضحك العفوي ، والباعة ارتفعت أصواتهم ، وبانت السعادة في عيونهم فتهللت أساريرهم ، لكن كثيراً من النساء كن يتحركن حركات مقصودة ، تترك الواحدة منهن الملاءة يقسط طرفها على رأسها لتظهركتفها العارية ، وترفع الملاءة ، متعمدة فرد ذراعهـا البيضـاء المغربة ، إلى أقصى ارتفاع ، بحيث يرى البائع إبطها المنتوف بالأمس فقط ، ناعماً حريرياً يكاد يشد فم البائع الملهوف . نسـاء كـثيرات يشـربن دم الترسة الذي يقدمه الباعة في الأكواب ، وقد صحبن معهن فتيات صغيرات مشرفات الوجوه ، بناتهن اللاتي يردن لهن أن يكن مشرفات للأبد .

- لا تفزعي يا زهرة ، دم الترسة كله غذاء ، ويسمن أيضاً

- ماهي الترسة ؟

- إنها السلاحف المائية ، يأتي بها الصيادون يذبحونها ، جسدها يقطـع ويباع لحما بالأقة ، ودمها يشرب ، إنها أرخص أنواع السمك .

ورأت زهرة الأسماك الأخرى أكثر رونقاً مما رأت من قبل ، راحـت تتذكر أسماءها وتسأل عما لا تعرفه . ولاحظت أن الأنواع الآن أكثر مـن المرة السابقة ، جمبري أحمر وكابوريا برتقالية ودنيس فضي ومرجـان أحمـر مرقط ، وبوري أبيض وأحمر ، وفاروص فضي سيوف طويلة بيضاء ملتفـة

كالأحزمة وموزة صغيرة بيضاء مكتنزة ، ثعابين خضراء طويلة قوية وبربون أحمر قاتم " وسبارس " تميل إلى الرمادي قصيرة شبه بيضاوية ثقيلة وبطاطـا بيضاء وبطاطا سوداء ومغازل مليئة باللحم طويلة سميكة وسردين فضـي شاهق البياض لامع ينتشر بكثرة في عشرات الطاولات الخشبية عليه زحام شديد ، فهو من أرخص الأسماك ، وهذا موسمه ، والكثير من النساء يذهبن لشراء كميات كبيرة لتمليحه واستخدامه في الشتاء .

لقد اشترت أمس كابوريا وجمبري وثعابين ، أكثر من أقة مـن كـل صنف . أنفقت نصف جنيه كاملاً من الجنيهات العشرة التي تركتها لها أمها ، اشترت خمس أقات من السردين أيضاً لتمليحه . مالذي جعلها تسـرف هذا الإسراف ، وهى تعلم أن راتب زوجها لا يتجاوز ثلاثة جنيهات كـل شهر ، من المؤكد أنها العشرة جنيهات التي تركتها أمها هى التي شـجعتها على التبذير ، لكن الأكثر تأكيداً أنها فطمت البنت أمس ، وهى تعرف أنها لا تحمل طوال أيام الرضاعة ، ورثت ذلك عن أمها . اليوم ستحمل . قالت لنفسها . ارتعش جسدها ، وبرتعش اليوم وهي تستلقى فوق السرير يقظة . هل يمكن للمرأة أن تعرف بوقوع الحمل لحظة وقوعه ؟ يمكن . هى أحست بذلك الليلة المنتهية . أحست بشيء صغير داخلها يعلـق بشـيء آخـر . أحست بتوتر داخلها ينتهي لسكون عميق حتى أن أحساساً عارماً بالراحـة مشى في دمها . سيسعد بها مجد الدين لأنها ستنجب ولداً هذه المرة . هو لا يوضح أبداً حبه للذكور عن الإناث ، لكنه نشأ مثل كل الفلاحين ، وربمـا كل الناس ، يحب الذكور ، ويتمناهم . ستحقق له ذلك ، وستساعدها هذه

المدينة البيضاء الواسعة التي تسع كل هؤلاء الناس مـن كـل الـدنيا ولا تشتكي .

ما كاد مجد الدين يتناول غداءه متأخراً كعادته ، إذ يؤجل الغداء حتى العودة من العمل ، حتى سمعت صرخة نسائية عالية قادمة من أسفل .إنهـا لوللا . هذا صوتها . هتفت زهرة وأردفت :

- إننى أعرف صوتها .

- إننى أعرف صوتها.

وعندما ارتفعت الصرخة مرة أخرى بسرعة ، خرجت زهـرة مـن الحجرة لتقابل الست مريم في الردهة . سبقتها الست مريم إلى أسـفل إذ لم تنقطع صرخات لوللا . لحقت بها زهرة وكاميليا وإيفون . لحظة وهتفـت الست مريم وزهرة معاً يناديان مجد الدين المتعب . لم يكن الخواجة ديمتـري قد عاد بعد ، وكان مجد الدين قد ارتدى جلبابه ، استعداداً لأى موقـف ، بعد أن كان يأكل مرتدياً ملابسه الداخلية !

في طريقه للنزول رأى مجد الدين كاميليا وإيفون تصعدان السـلم . لم تكلماه , كانتا تهرولان ، وسمع أصوات رجال أسفل السـلم ، وأصـوات حشد هائل من الناس ، رجال وشباب وأطفال ونساء ، يقفون في الشـارع أمام البيت ، وسمع لوللا تصرخ في غرفتها " حرام عليكم ، حرام علـيكم " .

كانت الست مريم وزهرة تقفان أمام الباب , ما الحكاية ؟ تساءل مجد الدين فلم تردا عليه . أشار إليه إن يدخل الغرفة . ما كاد يـدخل حـتى أغمض عينيه . كانت لولا في قميص نوم أبيض شفاف شبه عارية ، شعرها منكوش حقاً ، عيناها متورمتان من البكاء ، لكنها في النهاية امـرأة شـبه عارية . " ولولا " ما إن رأته حتى انهارت أمام قدميه وأمسكت بإحـدى سافيه .

-أبوس رجلك يا شيخ مجد الدين – وباستها بالفعل إذ كان حافياً ـ استرني ، استرني من أولاد الكلب .,

قالت الجملة الأخيرة بحرفة حقيقية . ونظر هـو للرجـال الـواقفين بالحجرة . زوجها وشرطي ورجل هزيل شبه مريض . كانت زهـرة قـد اقتربت من الباب مع الست ، فطلب منهما إحضار شيء يستران به الست ، لكن الشرطي هتف :

- لا

وتابعه الرجل الهزيل :

- تأتي كما هى .

- ما الحكاية بالضبط ؟

تساءل مجد الدين ، ولا تزال لولا ملقية على الأرض جوار قدميـه ، لكنها تبكى بهدوء ، بألم حقيقي . قال الشرطي :

- هذا الرجل ليس زوجها ؟ هذا هو زوجها .

كانت زهرة قد صعدت وأحضرت شالاً أبيض ، ودخلـت وضـعته فوق كتفي لوللا ، ما إن سمعت كلام الشرطي حتى خرجت فزعة لتقـف مع الست مريم تحت السلم ترتعش .

- صحيح يا ست .. ؟

تساءل مجد الدين ولم يستطع أن ينطق اسمها . صرخت :

- يا أولاد الكلب .

كان بالباب الخارجي شرطيان ، يمنعان دخول الناس المتجمهـرين في غضب ، اندفع الرجل الهزيل إلى " لوللا " الجالسة ، يحاول أن يرفعها لتقف وتمشي معها ، بينما وقف عشيقها فاغراً فاه بلا مبالاة بالأمر كله ، وقامت لوللا وبدأت الحركة معهم ، فهتف مجد الدين للشرطي :

- انتظر.

ونظر مجد الدين إلى عشيق لوللا وسأل الشرطي :

- لماذا لا تجر هذا النطع إلى القسم ؟

- سوف يأتي معنا كشاهد على جريمة الزنى .

قال مجد الدين بسخرية :

- لا حول ولا قوة إلا بالله . وهل الزنى تقوم به المرأة وحدها ؟

- القانون يحتم ذلك .

لم يجد مجد الدين أمامه إلا أن يتقدم ، وبأقصى قوة يهوى بكفه على صدغ العشيق ، الذي أدهش الجميع ، لم يبد مقاومة ، لم يحتج ، لم يرد الضربة لمجد الدين .

رأت لوللا الزحام الشديد خارج الباب ، فتعلقت بيديها فى درابزين السلم الخشبي .

- سيقتلوني يا شيخ مجد ، استرني الله يسترك

راح الرجل النحيف الذي هو زوجها الحقيقي ، يشدها ويحاول تخليص يديها من الدرابزين ولا يستطيع ، سقط الشال الذي سترت به نفسها على الأرض فتركت الدرابزين واستدرات إلى الرجل النحيف الذي هو زوجها الحقيقي ، وصرخت فيه " كله منك يا ابن الكلب " ، وبأقصى قرتها ضربته بيديها على صدره ، فتراجع ليصطدم بالحائط ، ويسقط على الأرض , ثم استدارت إلى الشرطي تضربه أيضاً ، لكنه بسرعة كان قد أخرج مسدسه من جرابه ، وصوب نحوها ، فزعت وتراجعت ، وسقطت فوق الأرض جالسة تبكي .

- أرجوك انتظر نحل المشكلة بهدوء .

قال مجد الدين الذي فكر فى زحام الناس الذين قد يقتلونها بالفعل ، ثم خاطب زوج لوللا الحقيقي :

خذ مراتك يا ابنى وروح طلقها عند مأذون بعيداً عن القسم ، القسم سيطلقها ويسجنها أيضاً.. ماذا تستفيد من سجنها ؟ اتركها لحالها .

لكن الرجل لم يرد . كانت " لوللا " خلال ذلك قد اندفعت داخلـة حجرتها ، وأغلقت الباب خلفها بسرعة من الداخل . حاول الشرطي تحطيم الباب لكن مجد الدين أمسك بيديه .

- أين ستذهب .. ستفتح بعد قليل ؟

جاء الصوت من الداخل :

- أنا خارجة يا أولاد الكلب .

وفتح الباب ، وظهرت لوللا في فستان جميل تنظر إلى الجميع في تحد ، انحنت على يد مجد الدين تقبلها وتبكي . قالت " لا تصدقهم يا شيخ مجـد الدين " ثم نظرت إلى زهرة و الست مريم ، وقالت الكلام نفسه . كانـت زهرة تبكى بحق ، كانت الست مريم تغالب دمعهـا، وهتفـت " لـوللا " للشرطي .

- هيا بنا ، ولو حتى إلى جهنم .

بدا واضحاً أنها لم تعد تخشى شيئاً الآن بعـد أن سـترت نفسـها ، وارتدت الفستان ، بدا الأمر عجيباً للغاية لمجد الدين ، كيف حقاً وهى المرأة الزانية تخاف المشي في الشارع بقميص النوم ؟ حتى إذا سترت جسـمها لم تخش الموت نفسه ؟ وقال في نفسه من يدرى قد تكون هذه المرأة في طهارة أى ولي أو قديس .

" أين الحديد وإن أصبح أحمر اللون،
فليست الحمرة لونه،
وما شعاعه إلا من
نار تصليه ..."

-14-

الوقت من الثانية عشرة إلى الثانية ظهراً ، مخصص للغداء كل يـوم . تعود العمال الذهاب إلى بيتهم ، في سكن المصلحة الذي يبعد حوالى الميل ، لتناول الغداء والاسترخاء ، ثم العودة إلى العمل . في أيام كثيرة كان مجـد الدين لا يعود للغداء في بيته ، رغم أن بيته أقرب من بيوت زملائه . لقـد تعود ، هو الفلاح ، الغداء في الحقل ، وهو الآن يأخذ معه غداءه في معظم الأيام . يظل هو وحده بالبوستة ، التي يجعلها موقعها وجدرانها الخشـبية ، مكاناً يبعث على الراحة فى الصيف والشتاء ، يعتبر هاتين الساعتين فرصة ، لقراءة القرآن من المصحف الصغير ، الذي لا يفارق جيب صداره فوق قلبه ، وينام أيضاً لبضع دقائق قد تصل إلى نصف ساعة على المقعـد الطويـل المرتفع فوق الأرض بقليل . لم يكن دميان في الأيام الأولى من العمل يحـب البقاء ظهراً . كان مثل بقية العمال ، يحب الغداء والراحة في البيت ، لكنه وجد الطريق دون مجد الدين بلا طعم ، بل يزداد إقفاراً على قفره ، فضل أن يبقى معه ، يتغديان ويسترخيان ، ويقطعان الوقت بالحديث ، الذي كثيرا ما يكون قصيراً ، بسبب قراءة مجد الدين للقرآن .

كان للبوستة رائحة التراب والشاي . التراب الذي هو فوق الأرض ، رطب ، حيث لا نوافذ إلا الباب المفتوح ، ومنافـذ النـور الرفيـع بـين الفلنكات التي تشكل الجدران ، ولأن المساحة تزيد على خمسين متراً مربعاً ، لا يبدو أن الضوء المنسكب من الباب المفتوح ، كاف لطرد الرطوبـة ، ولأشعة الضوء الرفيعة ، الهاربة من بين الفلنكات . أمـا الشـاي فهـم لا يكفون عن صنعه ، حين يأتون في الصباح ، وحين يأتون بعد الظهـر ، وفي أوقات الراحة يصنعونه على نار يوقدونها في " كانون " خـارج البوسـتة ، ويشربونه ثم يلقون ما يتبقى في الكوب من شاي وتفـل ، أمـام أرجلـهم ليشربه تراب الأرض على مهل ، اليوم قال دميان الذي كان يسـترخى فى مواجهة مجد الدين :

- وماذا بعد يا شيخ مجد الدين ؟

- فيم يا دميان ؟

- في الشغلة السوداء التي نشغلها . أنا ظهري انكسر أو أوشك .

- تشتكي الآن يا دميان لقد تعودنا يا رجل .

- لكن الجنيهات الثلاثة التي نحصل عليها كراتب لا تكفي شـيئاً في هذا الغلاء .

- لكنها أفضل من الملطشة ، وقضاء الوقت في قسم البوليس .

قال مجد الدين ذلك بلا مبالاة . كان يتحـدث إلى دميـان بطريقـة أوتوماتيكية . الحقيقة أن هذا الحديث تكرر بينهما كثيراً . لذلك مد مجـد

الدين يده إلى جيب صداره ، وأخرج المصحف الصغير ، واعتدل بعـد أن كان مسترخياً على ظهره ، وقام واستند بظهره إلى الجدار ، ومد سـاقيه ، وفتح المصحف ، وبدأ يقرأ بلا صوت فقال دميان :

- يارجل أسمعني . أنا كلما كلمتك فتحت المصحف وبدأت تقـرأ ، ألا تقرأ ما يكفي في البيت ؟ أنت هكذا ستجعلني أحضر الإنجيل أنا أيضاً ، أقرأ فيه أمامك كلما كلمتني .

انطلق مجد الدين يضحك من غيظ دميان وطريقته في الكلام ، ومـن كلام دميان عن قراءة الإنجيل وهو في الأصل لا يعرف القـراءة والكتابـة وحين تم تعيينه ، كان هناك شرط أن يمحو أميته قبل مرور عام ، وقد مضت الآن أربعة شهور ، ولم يلتحق دميان بمدرسة لمحو الأمية إلا منـذ أسـبوع فقط .

أغلق مجد الدين المصحف بعد أن كف عن الضحك وسأل :

- ماذا تريد مني يا دميان ؟

- أموت وأعرف الحكاية الحقيقية للرجل الجالس عند الغراب ، كلما مررت من أمامه نظر إلى شذراً ، هل أنا الذي قال للعصافير أن لا تـأتي إلى الشجرة ؟ يبدو لي أنه يريد قتلي .

- إنه ينظر إلى أيضاً النظرة نفسها كلما مررت أمامه .

- لابد أنه يريد أن يقتلنا معاً يا شيخ مجد .

فكر مجد الدين قليلاً ثم قال :

- يا دميان سيب الملك للمالك .

وسكتاً طويلاً . قرأ مجد الدين عدة صفحات من القرآن وبدأ صـوته يرتفع قليلاً وهم يختم سورة " المؤمنون " (قال كم لبثتم في الأرض عـدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسال العادين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون * أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاًوأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم * ومن يدع مـع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون * وقـل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) ، وقال دميـان في صـوت غـير مسموع : " كيرباليسون . كيرباليسون . كيرليسون " ثم سأل مجد الدين :

- لماذا يا شيخ كلما دخلت معك في نقاش تقول لي " سيب الملـك للمالك " ؟ أولاً أنا لا أمسك شيئاً – ضحك مجد الدين واستمر دميان – ولا أنت تمسك شيئاً يا شيخ مجد . تعرف فيم أفكر الآن ؟

- لا. لا أعرف .

هذا الباب المفتوح ، لو جاء شخص ما و أغلقه علينا في هذا المكـان المقطوع ، هل سيعلم بنا أحد ؟ هل سيصل إلينا أحد ؟ ممكن أن يحدث ذلك وأنت نائم بعد الغداء ، وأنا نائم أيضاً ، يأتي أى شـخص ويغلـق البـاب ويمضي ، ولا يأتي أحد بعد ذلك أو يمر علينا ، فنموت . يا شيخ مجد الدين ، أنت فعلت شيئاً كبيراً في البلد ، وهربت منه ، أنت مطمئن للدنيا جداً ، راض بأي شيء يحصل ، كأنك تريد أن تموت .

علت الدهشة وجه مجد الدين من هذا الحديث العجيـب لصـديقه وأحس بارتفاع الحزن ، وتمدده في صدره ، وانتقال الشـجن إلى عينيـه ، فكاد يبكي لولا صفارة قطار عالية جعلت دميان يقفز من مكانـه خارجـاً ينظر ، بينما يرقبه مجد الدين . عاد دميان يهتف :

- قطار لا نهاية له يا شيخ مجد مشحون أفريكان ، قطار أسود كله .

العفريتة سوداء والجنود ، لا أبيض فيه غير العربات ، وبياضها ، حائل جربان .

نهض مجد الدين ، وخرج مع دميان ، فرأى أمامه بالفعـل ، قطـاراً طويلاً عديد العربات ، تطل من نوافذه عشرات الوجوه السـوداء ، ذوى الأنوف العريضة المفلطحة . وقال دميان بصوت منخفض كأنه يتأمل :

- الدنيا كلها مع لإنجليز ، هتلر لن يكسب الحرب أبداً .

كان القطار قد توقف قليلاً للتزود بالمياه عند الغراب ، ثم تحرك بطيئاً وسط شبكة القضبان المزدحمة أمام البوستة حيث توجد عدة تحويلات وكان من الممكن لأى جندي أن ينزل من القطار ثم يركبه مـن جديـد ، ولأى شخص أن يركب القطار ثم ينزل بسهولة قافزاً فالسرعة ليست بالخطيرة .

- هؤلاء لهم ذيول يا شيخ مجد ، لو نزل أحد منهم سترى ذيله يطل من الشورت .

ضحك مجد الدين ، ولوح للجنود الذين كانوا يلوحون له من النوافذ ، ويرفعون أكفهم بعلامة النصر، التي اخترعها تشرشل وذاعت في الدنيا ثم

ظهر أحدهم يقف بباب إحدى العربات حاملاً صندوقاً صغيراً من الكرتون ، ويشير إلى مجد الدين ودميان .

- اجر أنت يا شيخ مجد خذ منه الصندوق ، أنا لـو رأيـت ذيلـه أموت .

ضحك مجد وهرول حتى لحق بالقطار ، ومد يده يمسك بالصندوق ، الذي تركه الجندي باسماً . الحق أن مجد الدين تردد للحظة خاصة أن الجندي نزل درجة في سلم العربة ، وأمسك بالصندوق في يده ، وبالأخرى أمسك بالعامود المعدني اللامع لباب العربة ، كان من السهل على مجـد الـدين أن يرى ساقي الجندى العاريتين تحت الشورت ، وأن يرى ما إذا كـان هنـاك ذيل أم لا ، لكنه لم يفعل . ركز بصره على الصندوق وعلى اليد السـوداء التي تحمله ، والتي بان سوادها أكثر حين مد هو يـده البيضـاء ليسـتلم الصندوق . على أن الذي أفزعه ، هو فكرة غريبة قفزت إلى ذهنه ، وهو يمد يده يتناول الصندوق ، ماذا يمنع الجندى أن يمسك بذراعه ويجذبـه إلى العربة ، التي تحمله مع الجنود إلى ميادين القتال ؟ . لقد خطـف البـهي في الحرب السابقة من الطريق ، ويمكن جداً أن يخطف هو رغم انقضاء زمـن السخرة في الجيش الآن . ولم ينقذه من أفكاره وخوفه ، إلا إحساسه بخفـة الصندوق . قال لدميان :

- يبدو أنه صندوق بسكويت .

سكت دميان قليلاً ، وفتح مجد الـدين الصـندوق ، فـرآه ممتلئـاً بالبسكويت .

قال دميان :

- تعرف يا شيخ مجد أنا نفسي في ايه ؟

- لا .

- في صندوق بلوبيف استرالي

ضحك العمال حتى استلقي بعضهم على قفاه ، من خوف دميان من التقدم إلى الجندي الأفريقي . كانوا يتناولون شاي الفيلولة بعد عـودتهم إلى العمل الساعة الثانية ، ولم يكن هناك عمل مهم بعد ظهر ذلك اليوم .

كان " الأسطى غبربال " دائماً لا يشـاركهم الضـحك ، يكتفـي بابتسامة .. هو ملاحظ العمال ، فريب ديمتري الذي أخبره بوجود فـرص عمل بالسكة الحديد ، ضئيل الجسم ، رشيق ودقيق التكوين . دائماً يأخـذ ركناً بعيداً ويتكوم حول نفسه ، ناظراً في نوتة صـغيرة لا تفارقـه طـوال الوقت ، يكتب فيها بالقلم الكوبيا أشياء غامضة ، وبين الحين يشد البيربـه الذي فوق رأسه ، والذي لا يخلعه حتى في جلوسه ، يشده إلى عينيه قليلاً ، أو يرفعه إلى أعلى أكثر ، ويحرص أن يضع القلم الكوبيا ذا اللبيسة البيضاء ، في الجيب الأعلى لسترته الخضراء ، بحيث تبرز اللبيسة من أعلـى حافـة الجيب ، كأنما يشير إلى استعداد القلم في أى وقت للانطـلاق للكتابـة ، ورغم أن العمال يعرفون أنه يكتب في النوتة ، ملاحظته على سير العمـل اليومي ، تمهيداً لنقلها آخر الأسبوع ، في تقرير رسمـي إلى الإدارة ، رغـم ذلك ، فإنهم لا يكفون عن الدهشة مما يكتب ، ويتخيلون أنه عمـل مـن

أعمال الأسرار أو السحر ، خاصة أنه يبدو يتأنق في الكتابة ، حتى إن حمزة علق على ذلك يوماً فقال : " إن الأسطى غبريال يحب الكتابة بخط منمن ، وبالليل لا يجد شيئاً يفعله فيروح يمسح ما كتبه بالنهار ، يؤكـد ذلـك أن النوتة لا تتغير أبداً " .

اليوم كان حمزة أكثرهم ضحكاً من خوف دميان ، ولم يستلق علـى قفاه لأنه كان قصيراً أكثر ما ينبغي .

لحمزة طريقة غريبة في المشي . فهو دائماً متباعد الساقين كمن يمشي على أطراف أصابعه ، ورغم أن عمره لم يتجاوز الأربعين بعد ، يبدو دائمـاً أكبر من ذلك ، وهو ذو وجه أحمر وعينين زرقاوين ، مثل كثير مـن أهـل رشيد ، ويتسم بالأدب الشديد ، إلى درجة تصيبك بالارتباك فهـو دائـم السلام على كل من يقابله ، ولو حدث وترك البوستة ، ثم عاد بعد دقائق ، يلقي السلام على زملائه ، كأنه لم يكن موجوداً معهم منذ قليل ، فضلاً عن كونه دائم الاعتذار ، عن أي خطأ مهما كان تافهاً ، حتى لو نهض قبلك من مكانه ! . لقد كان سلوك حمزة في البداية ، مفاجئاً لمجد الـدين ودميـان ، وشيئاً فشيئاً لم يعد يدهشهما ، إذ رأى فيه مجد الدين إنساناً طيباً بينما رأى فيه دميان شخصاً نصف معتوه .

لكن في حمزة كانت عادة سيئة ، كثيراً ما سببت سخرية زملائه منه ، وهو إنه كلما تحدث أحدهم حديثاً أو روى حكاية ، لا يكاد ينتهي حـتى يقول حمزة ، أن ذلك حدث له بالضبط ، بالطريقة نفسها التى حدثت لزميله ، وفي الزمن نفسه ، صار ذلك معروفاً لهم ، حتى إن بعضهم كـان يؤلـف

الحكايات خصيصاً ، ليعيدها حمزة باعتبارها وقائع جرت له ، فينطلقـون في الضحك ، ويعلنون أنهم ألفوا الحكاية ، فيقول لهـم حكـايتي حقيقيـة ، ويضحك معهم ، شاعراً بالزهو ، إذ انتصر عليهم . وهكذا ظل بطلاً لكل الحكايات الخرافية والحقيقية طول الوقت ، فإذا هرب القاتل في الصعيد في زمام زراعة الأذرة ، ما اضطر رجال البوليس إلى حرق كل الذرة للقـبض عليه ، فقد حدث له مثل ذلك لكن في الدقهلية ، وليس الصـعيد ، أمـا الرجل الذي خرج ليلاً يتغوط على شاطئ المحمودية فخرجـت لـه جنيـة سحبته من " صرمه " إلى الماء ولم يخرج ، فقد رأي مثله تسبحه الجنية أمامه ، وهويصرخ مستنجداً به ، لكنه تسمر في الأرض ، غير قادر على الحركة لإنقاذه ، ولم تتركه الأرض إلا بعد أن استقر الرجل إلى قاع الترعة ، أمـا الحمار الأبيض الذي قابله أكثر من واحد منهم في قريته بالليل ، حـتى إذا اقترب منه اختفى ، فقد قابل حمزة عدداً لا يحصى من الحمـير البـيض ، وركبها جميعاً ,

كات أغرب الحكايات حقاً حكاية الرجل الذي ذهب عنـد الفجـر يتوضأ من مياه المحمودية . لقد انتهى الوضوء ، ووقف يرفـع سـرواله إلى وسطه ، ثم مشى ، فشعر بشيء يتحرك بين ساقيه ، وأسفل مؤخرته ، شيء يعبث بأصابعه فيه ، رفع جلبابه ، وشد تكة السروال ليرى مـا بداخلـه ، فوجد عدداً من الأرانب البيضاء الصغيرة . عشرات من الأرانب البيضـاء الصغيرة كالفئران الضئيلة تلهو في " لباس " الرجل ، الذي جرى إلى بيتـه لكنه لم يستطع الوقوف مرة أخرى فى مكان ثابت ، بسبب حركة الأرانب العجيبة هذه ، ثم لم يستطع النوم ، أين يذهب بهذه الأرانب الـتي تعلقـت

داخل سرواله ؟ لقد اضطر إلى النزول إلى الشارع مرة أخرى ، ولم يجعله يكف عن الصياح إلا الصمت من حوله ، وظل غير قادر على التماسك ، حتى سقط مغشياً عليه ، فرأى الناس عشرات من الأرانب تخرج من بين سافيه ، بيضاء تجري إلى كل ناحية ، ومات الرجل من الرعب . ويقسم حمزة بأغلظ الإيمان أن ذلك حدث في قريته أيضاً ، حتى انحنى دميان على مجد الدين يوماً .

- حمزة هذا أكيد رجل هجاص .

- وأنت ماذا يضايقك ؟ دع الملك للديان يا دميان .

لكن دميان لم يستطع السكوت .

- لا يغيظني شيء قدر صبرك وحلمك يا شيخ مجد .

ابتسم مجد الدين ، وقال :

- لن تستطيع أن تغير طباعه ، لقد تعود الرجل وتعود الرجال عليه .

اليوم ، وحمزة يضحك من خوف دميان بدا وجهه شديد الحمرة ، لأنه كان قد قام على الفور من إعداد الشاي فوق النار ، كما كاد يختنق أثناء الضحك ، فتجمعت في وجهه دماء كثيرة ، من الضحك النار والاختناق فكاد يشتعل ، وقال حمزة بعد أن زال عنه الاختناق :

- أنا أيضاً أول مرة رأيت الأفريكي خفت من ذيله ، كان يناولني كرتونة بلوبيف استرالي محترم لكني خفت . ابتعدت وقلت له : ارميها لي ،

فلم يهتم ، فلت " ثروا إت " فرماها ، فهم الإنجليزي ولم يفهـم العـربي . عجيب !

تأمله دميان في غيظ مكتوم وقال :

- وشفت ديله يا حمزة .

- شفته لكن خفت أمسكه . أى الله .

انطلق العمال في الضحك ، وقال دميان :

- تلاقيك خفت تمسكه يطلع حاجة ثانية !!

وهنا صار الضحك توحشاً ، وشارك معهم حمزة ، الذي عاد يختنق من جديد مما يزيد غيظ دميان ، ولم يزد الأسطى غبريال على ابتسامته الشاحبة والاستمرار فى الكتابة السحرية . سأل حمزة مجد الدين :

- ما رأيك يا شيخ مجد ، هل صحيح الأفريكان أصلهم قرود ؟

فكر مجد الدين قليلاً ، وانتظر العمال كلامه فقال بهدوء :

- العلم عند الله . ما سمعته أن القرد أصله بني أدم مسح إليته برغيف فسخطه الله قرداً . هذا ما نسمعه من الصغر ، وأنا لا أصدق ذلـك ، لأن الإنسان كرمه الله أحسن تكريم فلا يمكن أن يحوله إلى قرد ، كما لا يمكـن أن يكون أصله قرداً .

بدا الارتياح على العمال ، بمن فهم الأسطى غبريال الذي قال :

- كلامك حكم يا شيخ مجد ، ما رأيك يا حمزة ، أم أنك شفت واحداً انسخط فرداً ؟

ضحك العمال ضحكاً مضاعفاً ، لأن المتحدث هـذه المـرة ، هـو الأسطى غبريال الصامت .

واستجمع حمزة نفسه ، وقال :

- والله خائف أقول إنى شفت لا يصدقني أحد ، الأفضل أسكت بـا أسطى .

وسكت الجميع ، على الطريقة الغريبة التى تحدث للمصريين بعد كل ضحك ، ذلك السكوت المفاجئ الذي يشمل كل شيء حـتى الـدنيا في الخارج ، وقال أحد العمال : " اللهم اجعله خيراً " . وقال مجد الدين .

- أنا عندى حكاية طريفة أحب أحكيها لكم .

نظروا إليه متلهفين ، اهتم حمزة للغاية ، أرهف السمع ، بل سـبقهم وقال :

- أحك يا شيخ مجد ، لعلك تحكى لنا شيئاً جديداً لم أعرفه ، أو أراه .

ابتسم مجد الدين ، وغمز لدميان بعينيه أن يتابع الموقف ، وانـدهش دميان من صديقه الذي قال :

- ذات مرة وأنا صغير في الغيط ، أمسك بي فلاح شاب ، عمـل فى حاجة وحشة .

وسكت الجميع سكوت الصدمة . ما الذي يقوله الشيخ مجد الدين ؟ ولماذا ؟ وماذا يقصد ؟ وهنا قام حمزة مسكاً بكوز الشاي الفارغ ، متجهـاً للخروج كأنما سيعد شاياً جديداً فسأله مجد الدين :

- لماذا سكت يا حمزة . لماذا لم تقل : إن ذلك حدث معك أيضاً ؟

سمعوا صوت الأسطى غبريال يضحك عالياً لأول مرة ، وقفز دميـان قائلاً : " الله . الله . الله أكبر . الله " أما حمزة ، فقد تحول وجهه الأحمـر إلى الأصفر المائل إلى الزرقة ، أما الشيخ مجد الـدين فقـد قـام إلى حمـزة ، واحتضنه وقبل رأسه قائلاً :

- لم أكن أعرف أنها مزحة ثقيلة يا رجل .

عندما كفوا عن الضحك عاد الأسطى غبريال إلى النوتـة يكتـب ، ولاحظوا أن النبرات كانت عالية للغاية فلم تصب بسوء ، لم ينم مجد الدين ولا دميان تلك الليلة لإعداد الشاي لا يريده أحد .

بعد قليل خرج إليه مجد الدين فرآه يجلس بعيداً عن " راكيه النار " ولم يضع الكوز فوقها .جلس فتأمله حمزة باسماً وقال :

" ومن عادة المرء مش مكن يعـادي جميـل"
" والحر مهما افتقر ما يضيعش عنده جميـل "

أحس مجد الدين براحة كبيرة تتمدد في صدره ، وقال :

- أنا لا أعرف كيف اندفعت فى الهزار هكـذا ، وحينمـا رأيتـك خجلان تضايقت من نفسي جداً .

قال حمزة :

- يا شيخ مجد نحن نقول ، ما هو أكثر من ذلك كل يوم ، انظـر إلى هذا القطار .

كان قطار بضاعة ، عرباته مسطحة محملة بالمعدات العسـكرية ، لـه صوت ثقيل فوق القضبان حتى إن العمال جميعاً خرجوا يشاهدونه . كـان فوق كل عربة ، دبابة أو عربة مصفحة ، ومغطاة بالشبابيك ، وفوقهـا أو جوارها جندي أو جنديان ، كان القطار قادماً من السويس أو القـاهرة ، متجهاً إلى الصحراء حيث توجد تجمعات كبيرة لقوات الحلفاء ، في العلمين وفوكة ومرسى مطروح ، الجنود لم يكونوا " أفريكان " هذه المرة ، إنجليز أو استراليين يرتدون الشورت الأصفر الكاكي رغم أن الجو شتاء . ولكنـهم قادمون من الجنود ، ربما من جنوب أفريقيا ، وفوق الشـورت القمصـان الصفراء بنص الكم ، والسترات المشغولة التي بلا أكمام ، إن حمرة وجـوه الجنود ، وبياض بشرة أذرعهم ، وسيقانهم ، تدل على أنهم جنود لم يـروا الصحراء من قبل ، وحداثة سنهم تدل على أنهم حديثو العهد بالجندية .

كان القطار سريعاً أكثر مما ينبغي ، ورفع العمـال أيـديهم بالتحيـة للجنود ، وارتفعت أصواتهم : هالو , ويلكم ، إنجلش إذ جود ، جيرمان إذ نو جود ، تشرشل إذ رايت ، هتلر نو رايت .

وهكذا مما يقولون في مثل هذه الحالات ، من كلمات قد لا يعـرف أكثرهم معناها ، لكن فوائدها مضمونة ! . وبدأ الجنود يقـذفون إلـيهم ، بعلب السجائر لاكى سترايك ، والبسكويت المغلف ، والشيكولاتة ، علب

البلوبيف الاسترالي والنيوزيلاندي والجين الشيدر ، وحـذرهم الأسـطى غبريال من التقدم حتى يمر القطار ، لقد تعود على ذلك وتعودوا ! ، وبعـد أن يمر القطار يجرون هم يجمعون ما فوق الأرض ، ثم يدخلون به إلى البوستة ويبدأون في تقسيمه بينه بالعدل ، حسب الرغبة ، عادة يكـون المحصـول كافياً لهم وزيادة ، فهم لا يزيدون على عشرة عمال . وصار كـل واحـد يعرف ما يريده الآخر أو يحبه ، فالأسطى غبريال مثلا يحب الشاي السيلاني ، بينما حمزة يحب البسكويت والشيكولاته لأنه يوزعها علـى الأطفـال ، أطفاله الثلاثة ، أطفال جيرانه ، الذين هم أبناء العمال زملائه أنفسهم لأنهم جميعاً يسكنون في سكن المصلحة من عمال البوستة رقم "1" ، "2" ، "3" ، "4" ،"5" ، "6" ، الذين لا يبعدون في العمل عنهم كـثيراً ، وغالبـاً مـا يلتقون معهم فى الأعمال الكبيرة ، أو حين تقع حوادث ، وفي هذه الحالـة أيضاً لا يختلفون على توزيع ما يلقي لهم به الجنود ، القطارات تمر أكثر من مرة في اليوم ، الجنود يلقون لهم الحلوى والطعام والشاي المعلب بسـخاء ، والحرب فيما يبدو ستطول .

في الطريق قال دميان لمجد الدين :

- ماذا كل هذه الأسلحة اليوم ؟

- ألا ترى قطارات الأسرى الطلاينة القادمة كل يوم من الصحراء ؟ الحرب شديدة هناك .

- يبدو أن الحرب ستطول يا شيخ مجد .

- الأسلحة تأتي من السويس ، ومن الميناء بالإسكندرية ، والجنـود يأتون من كل الدنيا يا دميان . يخيل لى أنها ليست الحرب ولكن القيامة .

- صحيح هل يختلف شكل القمامة عن حال الدنيا الآن يا شيخ مجد ؟

سكتا طويلاً . وانتقل مجد الدين بذهنه إلى حمزة الذي تندر عليه اليوم ، وكيف بدا له شخصاً نبيلاً ، ثم ابتعد عن تذكر حمزة ليـدخل في تـذكر لوللا وما حدث منذ أيام ، وازداد توتره ، ليس بالأمر السهل ، أن تتعرف زهرة ، بامرأة يتضح بعد ذلك أنها زانية . وليس بالأمر السهل أن يسـكن في بيت ديمترى ، الذي بدأ منذ ذلك اليوم ، يشعر بالخجل كلما رآه ، لأنه لم يدقق في اختيار السكان . ماذا يقول الناس عن ديمتري الطيـب وأولاده الآن ؟ وهل كان بوسع ديمتري أن يرفض ساكناً للحجرة سيدفع له سـتين فرشاً في الشهر ؟ . والبهي ، أخوه ، هل كان يعرف بأمر لوللا ، وإذا كان ذلك فكيف اختار له أن يسكن في البيت نفسه . لكنه ابتسم ساخراً مـن تساؤله الأخير ، وسمع دميان يقول :

- انظر ، المخبر وحيد ،

كان المخبر "وحيد " يقترب منهما ، في جلبابه الأزرق ذي الخطـوط البيضاء الطولية ، فوقه البالطو الكاكي الاصفر ، على رأسه الطاقية البيضاء ، والكوفية الرمادي حول عنقه ، وفي يده خيزرانته الطويلة ، يطوح بهـا في الهواء بين الحين والآخر ، إنهما يعرفانه جيداً ، يقابلانه كل يوم تقريباً يعطيانه شيئاً مما أعطاهما الجنود . لقد تعود علىذلك ، والحقيقة أنه يفعل ذلك مـع

كل من يقابله في الطريق من العمال . رغم مظهره الأنيق ، إذ تبدو دائمـاً ثيابه نظيفة ، ورغم وجهه المشرق ذي السمات الهادئة ، فإنه حين يـتكلم يبدو متوحشاً سمجاً جاهلاً جهل أبى جهل ، كما يقول عنه الشـيخ مجـد الدين دائماً . ووحيد مشهور فبي المنطقة كلها ، بأنه " يرمى بلاه " علـى الناس ، ولا يتورع عن تدبير مصيبة لأى شخص . رآهما كما يراهما كـل يوم فهتف كأنه يراهما لأول مرة :

- ماذا تحمل يا رجل أنت وهو ؟

- كما ترى . معلبات إنجليزية ؟

أجاب دميان باسماً فقال وحيد :

- من المخازن الإنجليزي تقصد .

لا يعرف أى منهما أين تقع المخازن الإنجليزية ، وفهما أنه يريد سـا معهما اليوم أكثر من كل يوم . قال دميان وهو يزداد ابتساماً :

- ولا مخازن ولا غيره ، خذ لك باكوبن شاي وخلاص يا وحيد .

لكن هذا صرخ فيهما :

- قدامي على النقطة .هذه سرقة .

ورفع خيزرانته في الهواء يهددهما ، فنظر إليه مجد الدين نظرة شرسـة طويلة ، وكان قبل ذلك قد نظر حوله ، فرأى الخلاء واسـعاً ، والشـمس تنسحب عن الدنيا في هدوء ، والنسمة الباردة تزداد ، والظلام يتهادى إلى

الأرض ، حتى إنه لا يكاد يميز شكل القضبان فوق العـوارض ، إذ أخـذ الجميع لون التراب وقال :

- تعرف يا وحيد أننى أستطيع الآن أن أمددك على الأرض ، وأذبحك على القضيب ، ولا أحد يراك ؟

- ماذا تقول يا شيخ مجد ! تذبحنى ؟

اعتدلت نبرة وحيد وخفض خيزرانته ، فقال له مجد الدين :

- أجل، ومع القطار فيعرف الناس في الصباح ، إنه هو الذي فصـل رأسك عن جسدك .

كان دميان يرتعد حقيقة من كلام صديقه الذي لم يتوقف .

- إن معنا كرتونتين كما ترى ، في كل واحدة شـاي وبسـكويت وبلوبيف وجبن ، سنعطيك واحدة كاملة ، وسنقتسم نحن الثانيـة ، لكـن بشرط ألا تعترض طريقنا أبداً بعد ذلك ، وتذكر في كل مرة تنـوى فيهـا ذلك أننى أستطيع أن أذبحك ولا يراك أحد ، خذ هذه الكرتونـة واهـض بأمان .

أخذ وحيد الكرتونة شبه مخدر ، ومشى ومجد الدين صامتين ، ثم سأله دميان :

- هل كنت حقاً ستذبحه يا شيخ مجد ؟

- أجل ... اليوم يمكن أن أذبح أى أحد .

واستمرا في طريقهما إلى البيت دون كلام .

" لم أكبح جماح نفسي.
تركتها على مطلق سجيتها ،
ومضيت إلى المتع التي تتأرجح
بين الواقع والخيال.
مشيت في الليل المضيء
وشربت النبيذ القوي ،
لمحبي المتع الشجعان .."

-15-

هجمت اليابان على الهند الصينية ، واتسع نطاق حربها مـع سـكان قارة آسيا على طول الساحل الغربي وجنوبه ، فالحرب مستعرة بينها وبـين الصين من قبل . لقد تململ المارد الياباني وبدأ يتمطى وينفخ نـاره ، ورأت أمريكا في قوة اليابان العسكرية ، ونشاطها الحربي ، تهديداً لها فبدأت ترتاب ، لكن الأهم هو أن الناس بدأت تدرك أن الكرة الأرضية تشتعل من كـل الجوانب ، وأن الحرب ستسرى كالنار في كان مكان .

في مصر أغارت الطائرات البريطانية لمدة أربع ساعات كاملة على مواقع الإيطاليين الجديدة في سيدى براني ، وتجاوزتها إلى بنغازي لإصابة خطوط مواصلاتها ، وقللت وزارة التموين حصة الفحم المنصرفة للكوائين بسبب انقطاع استيراده من انجلترا وبسبب تشغيل عدد كبير من القطارات في النقل العسكري فضج الكواؤون بالشكوى ، وبدأ بعض الشباب العابث يخرج ليلاً بالقناع الواقي على وجه لمفاجأة البنات والنساء في الطرقات المظلمة ، والحقيقة فإن مشهد الشخص والقناع يغطى وجهه بالليل أمر مخيف ، وصارت جماعات من الشباب العابث ترى معاً وفي وقت واحد وهى تمشى بالقناع وكأنها ثيران تمضي إلى حظائرها أو خارجة منها إلى المراعي البعيدة . وكان الإيطاليون قد بدأوا استخدام نوع جديد من القنابل يشبه " التورموس " لا ينفجر عند سقوطه فوق الأرض ، بل بعد ذلك إذ يتفاعل عند تحريكه ثم ينفجر ، فبدأت حملة تحذير للجمهور السكندري منه ، خاصة أنها قنابل ذات سطح لامع ، إذا سقطت فوقها أشعة الشمس تلمع وتنعكس ، فلا يراها الإنسان العادي إلا بعد تدقيق . وازداد الهم على الناس لدخول رمضان للسنة الثانية بلا أنوار ولا سهر ، لقد ارتفعت أسعار كثير من السلع ، ودخل الجاز البطاقة ، وارتفعت أسعار البطاطس فبلغ سعر الأفة الإنجليزي سبعة وعشرين مليماً بعد أن كان خمسة عشر ، وسعر الأفة من النوع البلدى عشرين مليماً بعد أن كان عشرة ، وتهدم جزء كبير من حائط كورنيش الإسكندرية عند سيدى بشر بسبب تسرب مياه البحر ، والولائم الملكية لم تعد تكفي لإسعاد الفقراء ، ففي الإسكندرية لا توجد إلا وليمة واحدة أمام جامع المرسى أبو العباس ، بينما هى منتشرة في القاهرة كما

يقول الناس . وفي الوليمة يقدمون للشعب القلقاس واللحم والأرز والفول والخضار والحلوى ولقد افتتحها وكيل المحافظة بنفسه وأكل مع الفقـراء ، واعتذر لهم عن عدم حضور المحافظ لسفره إلى القاهرة ، ليبـارك للملـك السعيد بحلول شهر رمضان ، وعقدت وزارة الشـئون الاجتماعيـة لجنـة لمناقشة ازدياد تبرج النساء الزائد الآن ، بسبب ازدياد أعـداد الأجانـب وحاجتهم إلى الترفيه وحاجة كثير من فئات الشعب إلى المال .

ولم يختلف " رمضان " عند مجد الدين عن العام الماضي ، فقط كانـت السهرة الآن بين النساء دون لوللا ، ولاحظت زهرة أن كاميليا عادت إلى صمتها القديم ، وذهولها عن الآخرين ، تكلمت مرة وقالت : إنـه لم يعـد مسموحاً البقاء في السينما أثناء الغارات لا بالليل ولا بالنهار ، وسألت مريم زهرة لماذا حقاً لا تترك الإسكندرية والجميع يرحلون عنها الآن خاصة أنهـا حامل ومن الأفضل أن تلد في قريتها .؟ وقالت زهرة إنه يتبقى وقت طويل حتى تلد ، وإنها لابد ستفعل ذلك ، كانت تكذب فهي لا تستطيع أبداً أن تترك مجد الدين ، ولكن لم يكن أمامها غير ذلـك ، فهـي لا تسـتطيع أن توضح كيف أن زوجها مطرود من القرية ، ومع اقتراب عيد الفطر حـبس العالم أنفاسه من التحرش الإيطالي باليونان حتى جاء الثامن والعشرون مـن أكتوبر ، الذي وافق عيد الفطر فى الإسكندرية، فهاجم الإيطاليون اليونانيين من ناحية ألبانيا ، وتجلت شجاعة الجنرال ميتاكياس رئـيس وزراء اليونـان الذي رفض كل طلب إيطالي ، بل وشنت اليونان هجوماً مضـاداً ، وثـار اليونانيون في الإسكندرية وتجمع شبابهم أمام القنصلية اليونانيـة يطلبـون التطوع للدفاع عن بلاد أخيل وأجا ممنـون وهرقـل ، وزيـوس وهـيرا

وأفروديت ، وأبوللو والموسيات وفايدروس ، وأوديب وإلكترا وبيجماليون عن اليونان التي لا يكرهها أحد ، ولا يستطيع ، وأعجب المصريون بشجاعة اليونانيين في القتال ، وصاروا يحيون اليونانيين جيرانهم بإعجاب وتقـدير ، واليونانيون كانوا لا يكفون عن التفاؤل " خبيبى دوتشي واخـد غلبـان " يقولون لجيرانهم المصريين ، ويعقدون الأمسيات الشعرية والحماسية ويغنون ويرقصون بابتهاج .

كان هتلر قد اجتمع مع فرانكو منذ أيام علـى الحـدود الفرنسـية الإسبانية لكن لم يبد أن إسبانيا ستدخل الحـرب ، وصـدرت التعليمـات الجديدة في فرنسا باستبعاد اليهود من العمل في المصالح الإدارية والمناصـب الحكومية ، والصحافة والسينما والإذاعة باستثناء من أدوا خدمات عمليـة ممتازة من قبل أو كانوا ممن أبلوا بلاء حسناء في الحرب العالميـة السـابقة وحصلوا على نياشين وأنواط ، وفي الإسكندرية وصل قطـار قادمـاً مـن السويس يحمل جنوداً قادمين من جنوب أفريقيا قيل أنهم يهود من الشباب الهارب من جحيم النازي ، وأن من سيبقى منهم سيذهب إلى فلسطين بعـد الحرب ، وقابلهم في الإسكندرية عند محطة سيدى جـابر أعيـان الجاليـة اليهودية ، صيدناوى وشيكوريل ، وسلفاجو وغيرهم ، ونشـرت علـيهم الفتيات اليهوديات الورود وتعلقن بهم يقبلنهم من النوافذ وحياهم كثير من المصريين الواقفين في المحطة وصفقوا لهم ، وأخذ القطار طريقه إلى الصحراء في المساء فلم يتوقف في المحطات ولم يصادف عمالاً حتى وصل إلى مرسـى مطروح بعد يومين حيث أنزل الجنود وعاد بفوج من الجنـود الاسـتراليين للاستجمام وخصصت عربة للأسرى الإيطاليين الذين كان بينهم عدد مـن

الليبيين العرب أطلق سراحهم في الإسكندرية لأنه ثبت للسـلطات أنهـم يقاتلون في صفوف الإيطاليين غصباً وبالقوة ، وأنهم يشتاقون ليوم دخـول الحلفاء ليبيا لتخلصهم من جوازباني مثـل الدوتشـي المجنـون ، وذاع في الإسكندرية صيت الراقصة الجديدة لوللا وزوجها عازف الأكورديون الهائم بها الذي يعزف لها الألحان اليونانية وهو معلق البصر بها نشـوان والطبـال يغني أيضاً لها " بص بص عالطعامة بص ، تعال بص بص أنا واحدة وأنـت نص " لقد احتكرها الباشوات فهي لا ترقص إلا في سهراتهم وقصـورهم ، وأن الحرب قامت بين الفرق النسائية بسبب لوللا ، فهى من قبل كانـت تعمل مع الأسطى نعيمة الصغير ببحري والسيالة ، لكنـها اختفـت مـع عشيقها حتى وجدها زوجها الذي كان قد ترك الفرقة ، والتحق بفرقة بائعة السلاموني التى يشمل نشاطها كرموز وكوم الشقافة والقباري أيضاً . والآن دخلت الأسطى سومة النجيلي من الفراهدة واللبان المعركـة ، وكـذلك الأسطى فوزية المسيري منافسة نعيمة اللدود في بحـرى . لكـن متعهـدى الحفلات الذين صاروا الآن بلا عمل بسبب عدم السهر ، ولم يبق لهـم إلا تنظيم سهرات الباشوات ، جمعوا بين الأسطوات وأوقفوا الحرب ، " مـش كفاية الحرب اللي في الدنيا " ودفعت بائعة السلاموني عشرين جنيهاً تعويضاً لنعيمة الصغير ، واتفقت بقية الفرق أن تحيي لهم لوللا ليلة واحدة كل شهر في أى مكان يختارونه ، وكذلك الحال مع متعهدى الحفلات الرجال ، حمامة العطار من بحري وسعيد الخضراوي من الحضرة ، وأنور سلامة من كرموز ، والسيد الحلواني من باكوس ، وهكذا صارت لوللا نعمة على فرق الغنـاء والرقص في الإسكندرية ، لم يعد ينقصها غير الرقص في أتينوس أو الوندسور

أو غيرهما من ملاهى الكورنيش التي تضج بزحام الجنـود وفتيـات الـ A.T.S .

وصلت قصة لوللا إلى الست مريم وزهرة ، واندهشتا من كيد النساء ، والرجال أيضاً ، فزوجها الذي بدا غيوراً يوم ضبطها ، هو نفسه الـذي يقود حفلاتها في البيوت ، وسرعان ما نسيتا الأمر من جديد حتى جاء يـوم خرجتا فيه معاً إلى البياصة بكرموز ، ووسط باعـة الأسـاك الرخيصـة ، والخضر واللحوم ، ورائحة السوق المكتومة شاهدتا تاكسي يقف بعيـداً في فم شارع السلطان حسين وامرأة تشير إليهما من داخل التاكسي . نظرت كل منهما إلى الأخرى وترددتا ، فجاءهما الصوت " ست أم كاميليا . ست أم إيفون " إنه صوت لوللا لا تخطئه الست مريم ولا زهرة . تقدمتا بعد أن تلفتت كل منهما . ماذا في لوللا يشدهما حتى تستجيبا لندائها رغم خوفهما أن يراهما أحد .

- ادخلوا التاكسى . ماتخافوش .

كانت تجلس فى الخلف فجلستا جوراها . وقالت :

- سوق يا اسطى

- على فين ؟

- البيت فدامك أهه ؟

- سوق يا ابن الخايبة لحد الباب دول هوانم عايزاهم يبانوا معايا ؟

سكت التاكسي وسكت الجميع ، واقتربت زهرة من الســت مــريم ولصقت به ، وأحست الست مريم بالأسف لركوبها التاكســي . لابــد أن زهرة ركبت بسببها ، وقال السائق الذي دخل جانبيا ووقف .

- اتفضلوا.

نزلن . نظرت إليه لوللا وضحكت بينما ابتسمت الســت مــريم في الوقت الذي بان فيه الذعر على وجه زهرة . وجاءهن صوت السائق :

- يا ست لوللا ، هو احنا مش هوانم والا إيه .

- امشى يا ابن العرجا .

زعقت لوللا فمشى سائق التاكس ضاحكاً .

- لا تواخذوني يا جماعة ، أنا عازماكم عندي علــى فنجــان قهــوة وتشوفوا شقتي ، علشان خاطري يا ست مريم ، ما تكسفنيش يا ست مريم أنا صحيح مش كويسة لكن مجوزة ، والنبي وكويسة كمان .

ودخلنا معها مسحورتين من باب المنزل المواجه المعتم ، وصعدنا على سلم بالكاد ترى درجاته في الظلام في الدور الأول فقط ، ووضعت لــوللا المفتاح في الباب الخشبي فانفتحت ضلفتا الباب ، وسبقتهما تفتح النوافــذ فدخل قليل من الضوء ، قليل لكنه يكفى للرؤية والحديث على كل حال .

جلست الست مريم وزهرة على أول مقعدين قابلاهمــا فى الصــالة وعادت لوللا بعد قليل ومعها " السبرتاية " والكنكة وثلاثة فناجين للقهــوة

وإبريق ماء وجلست أمامهما على الأرض . بدت لولا أجمل مما كانـت في بيت ديمتري .

- أنا حاسة أني سرقتكما من الشارع ، أليس كذلك ؟

لم ترد زهرة وقالت الست مريم لنفسها : إن السكوت افضل .

وتساءلت لولا :

- كيف حال الشيخ مجد الدين ، والخواجة ديمتري ؟ والله أنا كنـت أسمع صوت الشيخ مجد وهو يقرأ القرآن بالليل ، كان الصوت يتسلل مـن الجدران ويصل إلى . صوت جميل مريح طيب . أنا قبل أن يكتشفني زوجي بيومين كنت نويت أعود إليه وأتوب بسبب صوت الشيخ مجد الدين رغـم إني لا أفهم شيئاً من القرآن ، لكن كان كلما قـال " فبـأي آلاء ربكمـا تكذبان " أبكى . أبكى صحيح .

قالت زهرة في نفسها : " أستغفر الله العظيم " . لقد شعرت أنه ليس من الطبيعي أن يأتي كلام الله على لسان هذه المرأة أبدا . طالـت الجلسـة قليلاً وحكت فيها لولا عن الصراع بين الفرق النسائية عليها وكيف انتهى على يد المتعهدين الرجال : " يا أختى الرجال في أى مكان ، لا تأخذي من النسوان إلا الكذب والكهن " ، وحديثهما عن ليالي الباشوات التي هي ولا ألف ليلة وليلة ، " مثل مين يا لولا ، طبعاً عبود باشا منهم " ، " وحياتـك كلهم . عبود وفرغلي باشا وسباهي والطويل ، الطويل مرة رفصت عنـده في حضور النحاس باشا شخصياً . أبوه كان طالع من عملية خراج في مصر ، وجاء إسكندرية يومين يستريح يا عيني . لكن الحقيقة كانت عينه دائماً في

الأرض . يمكن مرة أو مرتين رفع عينه على .كنت حاسة إنه خايف ، خايف مني مش من الأحزاب التانية . يا اختي هو فيه كام حزب في مصر ، علـى أى حال كل الباشوات فنجرية حتى سلفاتور شيكوريل وسـلفاجو بتـاع التروماي اشترالي التروماى " .وضحكن . ضحكن جمعياً لأول مرة ، لم يعد هناك حذر ولا ندم . استمرت لوللا .

- " لم يبق إلا الملك السعيد . أنا رفصت عند الأمراء . هو البـافي . لو رفصت عنده اشتغل في السينما مع عبد الوهاب وأروح مصر وأسـيب إسكندرية وغاراتها . هناك أمل الصيف القادم أن أرفص في المنتزه . ستكون الحرب انتهت لابد . أنا من الآن مكلفة الست " ديدي " الساكنة هنـا في شارع السلطان ،وهى أحسن واحدة تفصل بدل الرفص ، قلت لها تفصـل بدلة مفتوحة من كل ناحية . من ورا ومن قدام ومن الوسط . وتحط لي فيها من الترتر والخرز خرج النجف وألماظ حقيقى . تعرفي يا سـت مـريم أنـا ساعات أشتاق لكم خالص ".

وشربن القهوة ولاحظت زهرة أن الصالة نظيفة ، والمقاعد وثـيرة ، ليست جديدة لكنها لامعة ، وأن هناك بعض الآلات الموسيقية ، عود ، طبلة ، ورق ، صاجات ، أكورديون ، مبعثرة في أكثر من ركن ، بعضها لامـع وبعضها قديم مترب ، لكن بشكل عام مريح ويجلو البصر .

قامت لوللا بعد أن شربن القهوة لتحضر بعض بدل الرفص تطلعهما عليها ونظرت زهرة إلى الست مريم في هلع . لكن هذه قالت بهدوء :

- نرى البدل ونمشي لا نلتفت ، ولا نأتي للبياصة أبداً .

وهما تهرعان نازلتين السلم هتفت لوللا :

- السلام أمانة للخواجة ديمتري والشيخ مجـد الـدين ، وكاميليـا وإيفون لابد سأرقص في فرح كل منهما . لابد .

كانت قد حدثتهما أيضاً عن " الأمبريزاريـو " . متعهـد الحفـلات الأجنبي ، الذي وعدها برحلة إلى أوروبا بعد الحرب ، وقالت " إنها هناك " هتأبج كوبس " ولما رأتهما مندهشتين قالت ضاحكة : " أه يأبج يعنى يقبض أجرة ، والأبيج هو الأجرة " واهتزت وهى تضحك قائلة : " أصل العـوالم لهم لغة . يعنى مثلاً يقولك النهاردة مجممة ، يعنى خالي شغل " وأبريـز " لا مؤاخذة يعنى رايح التواليت ، وأرخي يعنى آكل ، وعايمة يعنى المكسب كبير ،وفيه حاجات أصعب جداً لا يمكن أن يفهمها أحد خارج كـار العـوالم ، لكن لا مؤاخذة كله كلام أصله تحشيش أى والنبي " .

ظل هذا اللقاء العجيب عالقاً في ذهن زهرة لعدة أيام ، تنظر دائماً إلى الست مريم وفي عينيها ارتباك ورعب . لقد ارتكبت جريمة في حـق مجـد الدين ، حتى فأجاتها الست مريم أمام بنتيها قائلة :

- يا زهرة أنت محيرة نفسك ، ممكن تخبري الشيخ مجد بلقائنا بلوللا . لا توجد مشكلة ، أنا حدثت ديمتري عن ذلك وضحك ، لكنه قـال أن لا تذهب إلى البياصة تماماً كما قلت لك . نشتري كل حاجتنا من هنا . ومن سيدي كريم أو من بعيد ، ومن بحري .

الأمر إذن ليس خطيراً للغاية ، ويمكن لها أن تخبر مجد الدين ، لكنها لم تخبره أبداً . لقد بدا لها مجد الدين دائماً فى حالة صمت ، ماذا يشغل بالـه

هذه الأيام . إنه لا يختلف عن البنت كاميليا ، التي عادت لحالتها السـابقة من الصمت والهيام . إنها لا تكلم زهرة إلا بكلمة أو اثنتين . إزيك . صباح الخير . مساء الخير . ولا شيء آخر ، وزهرة تلمح في عينيها بدايات بكاء ، والحقيقة أن كاميليا كانت قد أيقنت أنه لا رجعة في طريقهـا الجديـد ، إذ تقدمت في اللغة الفرنسية في مدرسة بيرليتز طوال الصيف ، وعندما بـدأت الدراسة الثانوية لم تنقطع عن الفرنسية ، فقط حولت نفسها من الـدروس الصباحية إلى دورس بعد الظهر ، حيث كانت دروس المساء قد ألغيت منذ بداية الحرب . كان هناك يومان تخرج فيهما من مدرسة نبويـة موسـى ، فتذهب إلى مدرسة بيرليتز لتعود إلى المنزل في حوالي الرابعة . اكتفت إيفون بما تعلمته في الصيف من فرنسية ، وقررت أن تستكمل دراستها في الصيف القادم . لكن كاميليا التي سألت نفسها كثيراً عن سر دأبها علـى دراسـة الفرنسية ، وتشوقها لقراءة شعراء فرنسا الكبار ، بودلير ، وفيرلين ، ورامبو وإيلوار وأندريه بريتون وأراجون ، لم تجد إجابة ولم تعرف . وجدت نفسها مرة أثناء الدرس تكرر الجملة التي قالتـها دون قصـد في الـدرس الأول Je l'aime واكتشفت أنها دائماً ما تكررها لنفسها ، ثم أضـافت بـلا قصد et il m aime aussi فتفتحت عيناها كزهرتين وارتعش ثـدياها الصغيران الكوران ومشت النار في جسدها الرفيق وأحست بأنفها يحمـر ويشتعل . وبعد يومين ، بعد أن خرجت من المدرسة ومشت حتى دخلـت شارع فؤاد ، ومشت بين ظل العمارات البارد في اليوم الخريفي السكندري البديع ، أحست أن هناك من يمشي قبالتها على الطريق الآخر لا يتأخر عنها ولا يتقدم ، أشعة تخرج منه تعبر الشارع تضرب خدها الأيمن ، توقظ الدم

في روحها . والتفتت ورأته ولم يكن الإغماء حلاً كافياً ، لقـد أوشـكت فدماها أن تخذلاها وتسقط في الطريق لولا أنها استندت إلى جدار إحـدى العمارات للحظات ورأته أمامها باسماً سعيداً .

- ماأخبار اللغة الفرنسية ؟

مشت القوة فيها . أجابت بسؤال ؟

- كيف عرفت ؟

- لن تصدقيني إذا قلت لك أني رأيت فى عينيك قبل أن أتركك رغبة في عمل كل ما أحبه أنا .

ومشيا . تركت يدها ليده . لقد عاد معه الكلام الغريـب الـذي لا تفهمه . يبدو لها كقوس قزح يقطع الفضاء . إنها لا تفهم أي معـنى لهـذا الإحساس ، ولا تعرف هل سبق وفكرت فيه أم لا ، لكن هكذا بدا لها بحق ، قوس قزح يقطع الفضاء ، عربة نارية تجري في السماء بخيول قزحية . " يا ويلك يا كاميليا يا ويلك " قالت لنفسها بعد أن خيم عليهمـا الصـمت قليلاً :

- ماذا تقولين ؟

- هل ستنتظر حتى انتهي من الدرس ؟

- سأنتظر حتى نهاية العمر .

ضحكت .

- أنت كلامك غريب جداً يا رشدي ، أنا لا أفهمك بالمرة .

- ما رأيك لو غيرنا الدرس هذه المرة ومشينا معاً بعض الوقت ؟

مشيا إلى محطة الرمل . وقفا على الكورنيش ينتعشان بالهواء البـارد ورذاذ البحر ، وخاف عليها من عيون الجنود الشرهة ، البيض من الإنجليز والاستراليين والسود من كل مكان في الدنيا فمشى معها بسـرعة علـى الرصيف حيث المقاهي السكندرية العتيقة مليئة باليونانيين والبحارة والجنود أيضاً ، ومن الوندسور يخرج عدد من الجنود السكاري مهرولين ومعهم عدد من الفتيات يرتدين جوبات كاكية قصيرة فوق ركبهن رغم بـرودة الجـو يتأبط كل جندي فتاة ومشيان يغنيان على الطريقة الأوبرالية.. فـال لهـا ضاحكاً إن الطلاب الآن يتحدثون عن ضرورة جلاء الإنجليز بعد الحـرب لكن بدون فتيات الـ A.T.S ولم تكن هى تعرف إلا أنهن مجندات لكنه قال : إن عملهن الرسمي هو أعمال السكرتيرية والتليفونات بالمعسـكرات والمنشآت الإنجليزية ، وأنهن على رتب عسكرية مختلفة مثل الرجال تمامـا ، لكن عملهن الحقيقي هو الترفيه عن الجنود ، وأنهن لسن انجليزيات فقط بل فيهن فرنسيات ويونانيات ومن قبرص ونيوزيلانده والهند وجنوب أفريقيـا وسائر دول الإمبراطورية البريطانية . لم يكن يدور في ذهن كاميليـا شـيء أبعد من المعنى الحقيقي للمسمى الإنجليزي لهاته الفتيات الجميلات المجندات Auxillary territorial service وهو المعـنى الـذي اختصـرته الصحافة إلى A.T.S واختصره أولاد البلد إلى " الآتسا " .

وأمام تمثال إسماعيل باشا في المنشية توقفا . وقال :

- نقف هنا قليلاً مثل اثنين من السياح الأوربيين .

- أنت سافرت أوروبا قبل اليوم ؟

كان قد أحاطها بذراعه . أحست بضلوعه تحت قميصـه والبلـوفر الخفيف الذى فوق القميص ، وأحس هو باكتنازها ودفئها .

- لابد أن أسافر في يوم ما .

- وتأخذني معك ؟

كانت قد دخلت فيه أكثر .فال :

- سنجد أن هذا هو الحل الوحيد أمامنا .

هكذا أعادها إلى ما تحاول أن تنساه . لقـد حاولـت في الصـيف ، ونجحت ، لكن ليتها ما درست اللغة الفرنسية .

ومشيا وظهرت حركة الطرابيش كبيرة فى الميدان ، حيـث مقـاهي السماسرة والتجار وخبراء البورصة والباحثين عن الشهرة والمـال والمجـد والسعادة أيضاً ، وأنصاف الباشوات والبكوات القادمين من الريف للتجارة ، والبحارة الذين ملّوا خمارات بحري الرخيصة ونساء شـارع الحجـارى والأرخص فجاءوا هنا بحثاً عن خمارات أفضل ونسـاء أجمـل ، وعربـات الحنطور التي تتسابق بزبائنها ومحمد على باشا يطل على الجميع على أهبـة الانطلاق والهواء يمرح في الفضاء ، وفوق الأرض يدحرج الأوراق الصغيرة المهملة الساقطة من الأشجار التىتتوسط الطرقات وسألته :

- أين تسكن ؟

- قريب منكم .. أنت تسكنين في غيط العنب . لقد تبعتك مرة حتى باب البيت من بعيد – باتت الدهشة الشديدة على وجهها واسـتمر هـو يتحدث – أنا أسكن في المسافة بين كوبري كرموز وكوبري كفر عشري ، هناك سكن لعمال السكة الحديد ، وحيد ، في مكان هادئ ، أمامه ترعـة المحمودية ومساحة كبيرة خالية من الأرض ، أمان كامل .

فالت :

- أنا أعرف هذا المكان جيداً ، إنه مكان جميل بحق ، أجمل ما فيه أنه لا أحد يلتفت إليه أو يدركه بسهولة .

أوقفها ، ونظر إليها يتأملها مسكاً بكتفيها بلا خوف أو خجل .

- لقد صرت تقولين كلاماً جميلاً .

ضحكت . ومشت بعد أن أبعدت يديه برفة . فالت :

- رحت كثيراً مع ماما هناك نشتري سمك من الملا ، بالإمارة فيه فبو مظلم وطويل تعدى منه فتصل إلى الملاحة مباشرة .

-بالضبط.

ولم تشأ أن تقول له إنها ذهبت إلى السكن نفسه مع أبيهـا وأمهـا وإيفون أكثر من مرة لزيارة قريبهم الأسطى غبريال ،الذي لابد أن يعرفـه رشدى ولابد أن يكون رئيساً لأبيه في العمل ، فالت :

- في يتنا يسكن رجل يعمل بالسكة الحديد .

- لا أعرفه . لا يسكن عندنا!!

رد عليها فانطلقا يضحكان إلا أنها أحست بالأسف لكنها سرعان ما أشرقت ، فهي لم تذكر لا اسمه ، ولا اسم غبريال على أي حال .

لقد دخلت كاميليا البيت ذلك اليوم كعصفور طليق في فضاء بديع ، لكنها ما إن أحست حتى نزل عليها وجوم لم تخرج منه . لم تفهم الأم شـيئاً ولا أحد غير إيفون التي أدركت أن أختها عادت للمحظور . وصار علـى كاميليا كل يوم أن تقرر ليلاً قطع علاقتها للأبد مع رشدى ، وفي الصـباح تنتظر الظهيرة حيث موعد حضوره . لقد كان مهذباً للغاية إذ طلب منها أن تتركه يمشى خلفها أربعة أيام ، وتخرج معه يومين إلى أى مكان بعيد . وظهر القسيس في المنزل بوجهه الأحمر وذقنه السوداء وعباءته . رأته زهرة يدخل المنزل لأول مرة ، الحقيقة أنه أتى كثيراً من قبل ، لكنها لم تره إلا هذه المرة ، وصارت تسمع كلاماً متصلاً لا تفهم منه شيئاً ، وأدعية وغناء لا تفهـم منها شيئاً . في كل مرة يأتي القسيس يحط الصمت على المـنزل , وتغلـق الست مريم باب الغرفة دون حتى النظر لأى شخص قد يكون أمامها ، ولا يختلف الأمر حين يتواجد الخواجة ديمتري ، وبعد سـاعة أو أكثـر يخـرج القسيس وتسمع أصواتاً عالية تودعه " مع السلامة يا أبونا مع السـلامة ، في حراسة العذراء " وتسمع نحيبا لا تميز ما إذا كان كاميليـا أو إيفـون ، وبدأت لا تري كاميليا أو إيفون إلا قليلاً ، فهما لم تعودا تجلسان مع أمهما ، بل تظلان بالحجرة الداخلية بعد عودتهما من المدرسة ، حتى دوت صفارة الإنذار بشكل ينذر بخطر جسيم ، صفارة الإنذار تنطلق متقطعة مـع كـل غارة وكل يوم ، وصوتها هو هو في الغارة الصغيرة أو الكـبيرة ، لكـن حدساً تكون عند الناس بتوقع الغارات الصعبة ، والإحساس بها من صوت

صفارة الإنذار . هل يتغير صوت الصفارة فعلاً ؟ أم هي الحرب وحدت من مشاعر الناس ، ورفقت منها فصاروا أنبياء أو على الأقل من أهل الطريقة المستبصرين ؟ كان العيد الصغير قد انتهى منذ عشرة أيـام بغـارة كـبيرة استمرت من السادسة مساءً حتى العاشرة ، ولكنها كانت متفرقـة علـى أحياء عدة في المدينة فلم تترك خلفها إصابات مركزة ، أما اليـوم فالنـاس يشعرون في كرموز وغيط العنب ، وراغب ومحطة مصـر والعطـارين أن الغارة تستهدفهم ، قلب الإسكندرية ونبضها .

كانت في ذلك اليوم قد سألت مجد الدين كثيراً عن القسيس ، عـن حضوره المتكرر لأكثر من مرتين في الأسبوع ، وعـن الصـمت والبكـاء والهمهمة وغيرها ، فقال لها " دعى الملك للمالك يا زهرة ، انتبهي للذي في بطنك " . وحين دوت صفارة الإنذار التصقت به ، وصرخت البنت شوفية التي صارت تعرف خطورة الصفارة المتقطعة من ذعر الآخـرين ، وأمـان الصفارة المتصلة فكانت تصفق بيديها الصغيرتين . ووضعت زهرة بسـرعة شالاً على كتفيها ، فالدور الأرضي بارد رطب ، ونزل خلفها مجد الـدين يحمل الطفلة شوفية . رأت أمامها الست مريم والبنتين صامتتين ، وكـذلك الخواجة ديمتري ، نزل الجميع إلى أسفل ، الرعب الذي سيطر على زهرة لم يمنعها من رؤية كيف ذبلت كاميليا ، وصارت مثل سنبلة تركت في الشمس كثيراً . دخلوا غرفة البهي المفتوحة دائماً ، والتي لم يسكنها أحد ، كمـا لم يسكن أحد غرفة لوللا المفتوحة بدورها ، هجرة الناس من المدينة تركـت كثيراً من الشقق والغرف الخالية . وما إن دخلوا غرفة البهي حت قالـت الست مريم :

- اطفي النور يا ديمتري .

بدا لزهرة أن المرأة لا تريد لأحد أن يرى ابنتها في حالتها السيئة هذه ، وليس السبب هو الغارة ، رغم أن تعليمات الوقاية ، تؤكد ضرورة إطفاء الأنوار ..كانوا في نصف الشهر الأخير من شوال ، والقمر يتضاءل ليكون هلالا لكن كان ضوؤه كافياً للناس . فتح مجد الدين شباك الحجرة ليسمع تعليقات الناس في الشارع وبراهم ثم قال لديمتري :

- ما رأيك أن نخرج من البداية إلى الشارع مع الرجال ؟

- فكرة جيدة .؟

وخرجا . رأى مجد الدين أشعة الكشافات المنبعثة من ناحية الميناء وكوم الشقافة تملأ السماء ، ثم بدأ الطنين العريض العال للطائرات التي تقترب ، ثم تدخل في مرامى النيران التي تنطلق من كل المواقع العالية بالإسكندرية خطاً متصلاً من القذائف الحمراء . لقد ترددت أصوات المدافع المضادة بشكل كثيف ، ومن كل الآفاق ، وصفق الصبيبة والشباب في الشارع ، وهم يرون النار تشتعل في بعض الطائرات ، ولكن سرعان ما سمعت أصوات الانفجارات ، وارتفعت أعمدة الدخان في أماكن متفرقة من المدينة ، في الغرب والشرق والشمال , تركزت الانفجارات في وسط المدينة ، وارتفعت أصوات بكاء الأطفال في أكثر من بيت ، وأصوات تلاوة القرآن من أكثر من مكان ، ثم شق الليل صوت غفارة من خلف الطربوش عريضاً رناناً وهو يقول :

- جرازياني ابن الهرمة لا يحبنا ، الذي يغيظني ويكاد يفجرني هو كيف تأتي الطائرات من إيطالياً لتضربنا ، ولا تذهب إلى انجلترا الأفرب ..أليست إنجلترا أفرب .؟

وجاء صوت من أحد التجمعات الشبابية يقول :

- الطائرات تأتي من ليبيا يا عبيط .

وفجأة ظهر دميان . بدا قادماً من سباق عنيف . قال متهدجاً .

- يا شيخ مجد أنا لم آت للاختباء , النار مولعة في البياصة وكره ـوز وباب سدرة ، نار لحد السماء أكثر من غارة الست سـاعات لازم نجـري نساعد إخواننا .

سكت مجد الدين قليلاً يفكر أنه تفاعس مرة من قبل ، فهل يتفـاعس هذه المرة. وجد ذلك لا يليق ، ثم سمع غفارة يقول :

- هذه ليلة سوداء . يا شباب - وخاطب تجمعات الشباب – هيا إلى كرموز ، البيوت وقعت والناس ماتت .

كانت ليلة فوق حدود العقل ، وفي الظلام صارت الأقدام تخب خبب الخيول ، وتتعلق عيونها بالسماء المشتعلة بالقذائف الصـاعدة والقـذائف الهابطة ، حتى افتربوا من ترعة المحمودية رأوا الظلام شديداً فـوق المينـاء وصنادل الشحن قليلة يقف فوقها بعض النوتية يتابعون المعركة الـدائرة في السماء ، وفي وقت قياسي كانوا قد قطعوا مسافة كبيرة في شارع كرموز ، ودخلوال البياصة من ناحية " الساعة " ، ورأي مجد الدين حرائق لم يسبق له

رؤيتها . صفحة حمراء في الفضاء أعلى من المباني والبيوت ، فوقف عـاجزاً يتأمل .

- يا أرحم الراحمين .

- كيريااليسون . كيرياليسون

كذلك ردد دميان . هتف غفارة :

- يارب ارحم عبيدك ؟

لقد رأى مجد الدين حرائق من قبل كثيرة في الريف شم فيها رائحـة الروث والقش والحطب .

لكن هذه المرة يشم رائحة لحم محترق مختلطة بصرخات من كل ناحية والنساء يجرين بملابس النوم في الطرقات ، والرجـال يحملـون الأطفـال ويتركون بيوتهم ويقفون بعيداً ، والكل ينتحب وأصـوات الطـائرات لا تنقطع من فوق المينا والمدافع المضادة تطاردها ، والكشافات تمسح السماء ، وأصوات عربات الإطفاء قادمة من كوم الدكة تقف بعيداً أمـام البيـوت المحترقة ، ويهرول من عليها من الجنود بخوذاتهم ، ويعرفون أماكن الحنفيات المعدة لإطفاء الحرائق وسط الأرصفة فيسرعون يوصلون إليهـا الخـراطيم الجبارة ، ويبدأون في الإطفاء . لقد انتقل ضرب الطائرات إلى منطقة مينـا البصل و الآن مجد الدين يرى دميان واقفاً بلا حول أمامه ، وغفارة كما هو يرتدي القناع المصنوع من الطربوش ، وحميدو والشباب يجرون إلى بيـوت تهدمت جدرانها ، ينزلون من تعلق أو ظل بها من سكان ، كانت في الأرض آلات موسيقية كثيرة متناثرة , أعـواد وطبـل ودفـوف وأكورديونـات

وساكسافونات ونايات كالحيات والثعابين في كل مكان ، وكانـت هنـاك تجمعات النساء أشباه العاريات اللاتي فأجاتهن الغارة ، والتدمير والحرائـق فبدأت بعض النساء من البيوت غير المصابة تناولهن أرواباً وجلابيب يسترن أنفسهن ، وبدأت اللعنات تنصب على الألمان والطليان والإنجليـز الـذين تسببوا في هذا كله ، وشاعت في الجو رائحة العـرق البشـري المخـتلط بالتراب والغبار ، وبدأ الجميع يرفعون الجثث من تحـت الأنقـاض . دوت صفارة الأمان وابتعدت الطائرات والحرائق لم تزل تضيء المكان . وسلطت عليه كشافات سيارات الإطفاء . أصوات صراخ تأتي من تحـت الأنقـاض وأصوات استغاثة وأصوات ألم . أنين خافت مثل النزع الأخـير ، وكلمـا أخرج الرجال شخصاً حياً من تحت الأنقاض ارتفعت الصيحات" الله أكـبر الله أكبر ". ولم يكن مجد الدين يتوقع أن يقابل هنا أحداً يعرفه ، فما بالـك أن يجده بين الأنقاض .لقد شاهد ثلاثة يحملون امرأة فوق محفة ويجرون بها . اثنان من الأمام وواحد من الخلف ، وسمع الصوت يناديه :

- شيخ مجد الدين .

كانوا يضعون المصابين بعيداً على الرصيف متجاورين حتى تحمـلهم عربات الإسعاف بنظام .

وكان الذي يحمل المرأة على المحفة من الخلف صديق دميان الذي عاد إليه وقال له :

- أخرجنا امرأة من تحت الأنقاض رأتك فنادتك ألم تسمعها ؟

- سمعتها ولم أصدق . أنا لا أعرف أحداً هنا .

- إنها هناك بين المصابين على أي حال يمكن أن تذهب إليها .

وجري دميان من أمامه يساعد في إنقاذ الآخرين ، بينما أخـذ مجـد الدين طريقه إلى المصابين ، حتى إذا اقترب رآها تنظر إليه ، والفرح الذابل يطل من عينيها " لوللا " هى ولا أحد آخر . يا أرحم الراحمين ، أشارت إليه أن يجلس جوارها فجلس .

- سامحني يا شيخ مجد . لقد حاولت إغراء أخيك البهي لكنه رفض . عشرات المرات أعترض طريقه وأخرج له بالليل وبرفض .

- هو الذي يسامحك يا ست لوللا .

- هو سامحنى . لكني أحتاج أن تسامحني أنت أيضاً ، لقد فكرت فيك كثيراً .

- أستغفر الله العظيم .؟

- إذن سامحني .

- الذي يسامحك هو الله . أنا مسامح في كل شيء مـع أني لا أراك فعلت شيئاً يغضبني .

- حتى خيانتي لزوجي .

- مكتوب يا ست لوللا .ما هى إصابتك ؟

- سافاي مكسورتان .

ولاحظ أن سافيها تنضخمان جداً تحت قميص نومها ، لابد أن الـدم ينسكب داخلها . لابد أن هناك نزيفاً حاداً داخل السافين , ما إن ظهرت عربة الإسعاف حتى حمل المحفة من ناحية واحدة ، ورآه دميان فأسرع إليـه يساعده ، ونقلا لوللا داخل الإسعاف ، ثم نقلا ثلاث مصابات أخريـات وهرولت بهن العربة إلى مستشفى المواساة .

فالت لوللا تهذي قبل أن تأتي الإسعاف مباشرة :

- لم أحب أحداً مثل الملك فاروق ، لم أتمن أحدا مثلما تمنيته ،والآن لن أرقص أمامه ، لا أظن أني سأعود للرقص مرة أخرى .

وانسكبت من عينيها دموع وأمسكت بيده فقبلتها ، وهـو بـدوره تركها لها .

فى الصباح قابل مجد الدين الخواجة ديمتري فى الردهة . مجـد الـدين خرج يغتسل وديمتري انتهى من الاغتسال .

- هل ستذهب إلى العمل اليوم ؟

تساءل مجد الدين فأجاب ديمتري .

- لا أظن أحداً سيذهب إلى العمل اليوم . سأذهب إلى المقهـي . إلى الناس , أعرف أحوال المدينة بعد هذه الغارة . هل تأتي معى ؟

وذهب معه , منذ عمل بالسكة الحديد لم يجلس بالمقهى في الصـباح ، وبالمقهي حدثه ديمتري عن كوموز ، " رافودة " التي وصـل الإسـكندرية بينها وبين " فاروس " بحري ، وأن رافودة منطقة خطرة مليئة بالمخـدرات

والمجرمين ، لكنها في التاريخ منطقة العـذاب للمسـيحيين ، وأن عمـود السواري مبنى على تل باب سدرة الذي كانت فوقة قديماً معابد وملاعـب رومانية تقام فيها مباريات المصارعة حتى الموت ، أو إطلاق الأسود علـى الداخلين في الدين الجديد ، وقال ديمتري : أنها منطقة استشـهادية قديمـة وبسبب شهدائها بدأ التقويم القبطي في السنة نفسـها الـتى قتـل فيهـا دقلديانوس مئات الآلاف من المسيحيين . إنها منطقة دم منذ قديم الأزل لن يمحوه منها عمود السواري الذي أقامه السكندريون تخليداً لحاكم ظالم .

" لا أحد ينام في السماء
لا أحد ينام في العالم
لا أحد ينام .
لا أحـد.
لا أحـد.

-16-

اقترب العام من نهايته ، وانفتحت فوق الإسكندرية أبواب المطـر . لم يبد أن الإسكندرية ستحتفل بنهاية العام ، ستسهر الليلة الأخيرة من ديسمبر دون أن تنطفئ الأنوار المضاءة ، فالأنوار مطفأة !

لن يلقي أحد بالزجاجات الفارغة ، وقطع الخزف والفخار القديم من النافذة وداعاً للعام الغائب ، وأملاً في عام قادم أن يكون أجمل . لن يسـهر المونسنيور لا الأكسلسيور ولا اللوفر ، ولا كازينو الشـاطبي أو الميرامـار والوندسور وهوليوود والكيت كات ولا غيرها . وربما يقضي الناس الليلة الأخيرة من العام في المخابئ ، لقد كان الشهر الماضي ، نـوفمبر ، عصـيباً بحق . لقد حدثت فيه غارتان كبيرتان في أسبوع واحد ، في الثامن عشر وفي التاسع عشر ، وفي السادسة مساءً ، وفي الثامنة ، فازدادت حركة الناس إلى محطة السكك الحديد . تدافعت مواكب السيارات والحنطـور والكـارو والتاكسيات القديمة حاملة الناس والمتاع القليل . امتلأت أرصـفة المحطـة بالمنتظرين ، جالسين ونائمين يملؤهم الصبر والخوف وعدم يقـين عميـق . رائحة العرق البشري اختلطت مع رائحة المـازوت ، وأبخـرة القطـارات

فملأت هواء المحطة فنقل وانكتم ، وكاد يظهر له قوام !! حركة القطارات قليلة ، أكثر القطارات تم سحبها لنقل الجنود والعتاد .

لكن دائماً في المحطة ترى المهرولين بسبب وبلا سبب ، والزاعقين الآن يضافون إليهم ، أولئك الصارخين بسبب الزحام ونكد العيش الباكين من المرض والإملاق والفزع ، وقد مازجت أصواتهم أصواتهن وأصوات الأطفال وباعة السميط والجبن والفول السوداني والبرتقال الذي انتشر فشره مع فشر الفول وبقايا الأطعمة فى الأركان وبين البلاط وفوقه وحول الجالسين وتحت أقدام الماشين والمهرولين وفي عيون الصارخين واللاهين والشاردين . إنها أيام " الهجار " التي لن تنسى في الإسكندرية ، والتي سيؤرخ بها الناس لحياتهم بعد ذلك .

كان مجد الدين يلمح السؤال في عينى زهرة ولا يعطيها الفرصة.. يهرب من ذلك الخوف المطل من العينين العسليتين ، وهى كلما أشاح بوجهه بعيداً أحست بالراحة . قليل من الراحة . ماذا يحدث حقاً لو سألته وأجابها بالإيجاب ؟! لو طلبت السفر سيسافر معها ولو سافر سيقتله العمدة ، سيترك الحرب إلى الموت. الإسكندرية هى دار الأمان رغم الغارات الثقيلة الآن والظلام المقيم ، وهذه الرغبة التي تستيقظ ناعمة للسفر ، يجب عليه أن تقمعها وتظل كما هى المرأة التي لا تترك زوجها أبداً . لكن بالليل وكان البرد قد اشتد آخر العام ، ودخلت هى صدره أكثر من كل وقت ، وأحس بها أصغر من كل وقت رغم ارتفاع بطنها ، طفلة هى لا تزال تحبو على صدره .

فالت وقد نسيت كل شيء :

- أنا خائفة يا مجد الدين .

- لا تخافي . الغارات صارت بعيدة الآن . أكثرها يكون فوق الدخيلة والميناء ومعسكرات الجيش الإنجليزي في الضواحي .

- أنا لا أقصد الغارات . أنا خائفة أن ألد هنا وحـدى ، وخائفـة أرجع للبلد .

- إذا اضطررنا للسفر سأسافر معك .

.....

- ألا تزال الست مريم قليلة الكلام ؟

- جداً . وتبدو مهمومة دائماً ، والقسيس لا يكف عن الحضـور ، والبنت كاميليا صارت مثل شعاع نور اللمبة السهاري .

- اشغلى نفسك مع الست مريم . لا تتركيها . اختلقـي الفـرص لتخرجي معها إلى الأسواق .

ولكن زهرة التي كانت قد عرفت كيف تخرج إلى الأسواق وحـدها بعد أن مضي عليها بالإسكندرية اكثر من عام ، وجـدت أن الخـروج إلى السوق لم تعد له البهجة القديمة نفسها ، البضائع شحيحة والشوارع تخلـو يوماً بعد يوم من الناس ، والبائعون والمشترون قليلون ، وأم حميدو فقط هي التي صارت تؤنس وحدتها ، لا تزال تفرش خضارها في مدخل البيت المواجه وتحب زهرة أن تجلس معها بعض الوقت كلما اشترت منـها شـيئاً ، وأم

حميدو بدورها أعجبت بهذه الفلاحة الصغيرة الشاطرة التي لا تكـف عـن الأسئلة ، فكانت تستبقيها كثيراً ، تقدم لكرسي حمام خشبياً صغيراً لتجلس عليه ، لكن زهرة في أغلب الأحوال كانت تجلس على الأرض . تسـألها أم حميدو عن أحوال زوجها مجد الدين الذي لا يكاد يعرفـه أحـد في الحـي ،وكيف لا يرى إلا برفقة دميان المسيحي ، كيف حقاً يصـاحب زوجهـا دميان المسيحى ؟ . تتساءل أم حميدو ثم تتذكر أن زهرة وزوجها يسـكنان في بيت الخواجة ديمتري فتقول في نفس طويل " آه " وتقول زهرة دائماً : " كلنا أولاد تسعة يا أم حميدو " أو تقول " أهو اللي خلق المسلمين هو برضه اللي خلق القبط " فتقول : أم حميدو شبه مقتنعة : " صحيح والنبي " لكنها غالباً ما تعود للتساؤل في يوم آخر ، وتستمر فى أحاديثها عمـا لا تعرفـه زهرة في الإسكندرية . سألت زهرة هل شاهدت تمثال محمد علـى باشـا , وتمثال سعد زغلول بمحطة الرمل ، وهل شاهدت المجنـدات الإنجليزيـات يركبن البسكليتات الملونة على الكورنيش ، أو شاهدت العساكر الإنجليـز السكارى يعاكسون البنات علـى الكـورنيش وفي بحـري والعطـارين ، ويخطفونهن في بعض الأحيان ؟ وكثيراً ما تقص عليها أنبـاءً عجيبـة عـن عائلات ضاعت أموالها في بورصة القطن ، وناس معفنة في الأصل ، اغتنت بسرعة مذهلة من التجارة في معسكرات الإنجليز أو كسـبت في يانصـيب مستشفى المواساة الذي كسبه هذه المرة الوجيه عفت " عشرة الآف جنيـه كاملة راحت لواحد مش محتاج ، ودائماً يكون اسمه عفت ، همت ، طلعت ، دولت ، بهجت ولا مرة يكون أسمه بهلول أو شحات أو حتى مصطفى أو على وليس من الضروري أن يكون حميدو " . كذلك حدثتها كـثيراً عـن

الملك فاروق الذي يحب الصلاة في جامع المرسى أبـو العبـاس بالنـهار ، وبالليل يسمع الناس صوت الرقص والجرى في حديقة قصر المنتـزه طـول الصيف ، وقالت لها : إنها إذا كانت رأت قصر رأس التين في بحري فقصـر المنتزه في الناحية الأخرى من الإسكندرية ، في أقصى الشرق ، آخر حدود الرمل ، قصر حواليه خمسمائة فدان فيها كل شيء من أشجار الدنيا الجميلة بناه إسماعيل باشا جد فاروق الصغير هذا . كل شيء جميـل فى إسـكندرية يقولون بناه إسماعيل باشا . يقولون عنه : إنه كان " فنجري " ويحب الـدنيا وعمل قنال السويس علشان تيجي واحدة ملكة من فرنسا اسمها " أوجين " تفتحها . يعنى عمل القنال علشان يشوف الملكـة ، بيحبـها ، وعطاهـا القنال .

تفتح زهرة فاها وعينيها عند سماع هذه الحكايات وتستمر السـت أم حميدو تقول ، بني لها الأوبرا في مصر " مرسح " كبير علشان تسـمع فيـه غناوي سي عبده ، ست أمظ ، إسماعيل باشا كان ابن عز بصحيح !.

لكن الحديث أيضاً كان ينتقل إلى الجثث الجديدة التي طفت وظهرت بترعة المحمودية . عادة تكون لفتاة صغيرة ، وحديث عن اللفطـاء الـذين يوجدون هذه الأيام بكثرة ملفوفين في خرق قديمة على الشاطئ بين كوبري راغب وكوبري كرموز يبكون بأصوات تصل بالكاد إلى أحد المـارة أو إلى ركاب الفلائك الصغيرة الذين يتنزهون بالترعة ، والعادة أن يـتم تسـليم اللقيط للحكومة ، بدورها تدخله ملجأ أيتام . قليل من يستمر حياً منهم . يموتون من الإهمال لكن قادر ربنا أن يحميهم ويمكن يطلـع منـهم واحـد مشهور . مغنى ولا زعيم يحكم البلاد . ماهي بلادنا ياما حكمهـا نـاس

مالهمش أصل زمان كانوا يسموهم " المملوكين " ويمكن كـانوا بيلاقـوهم على الترع كده مرميين ، ونسأل أم حميدو زهرة ضاحكة عما إذا كانـت رأت عساكر الجيش المرابط الواقفين حول وابور الطحين ، وعلى الكوبري وحول النقطة للحراسة . المساكين العرجان والبرصان والعور أحسن واحد فيهم مثل أبو رجل مسلوخة . يأتي الواحد منهم إليها ويحاورها ويـداورها ليشترى بمليم يوسنفدى ! ": " يصعبوا على قوى . فيهم واحـد ظريـف بيجي يغنى لي " وتضحك أم حميدو ويهتز لحمها المترهل ، يعـنى بصـحيح وبهز كتفه زى الغوازي .

" يـــا بتـــاع اليوســـفندي
مـــا تقـــوللى العشـــرة بكـــام "

أبص له وأضحك وأعطيه واحدة مجانا ، يأتي في اليوم الثاني ويـرقص ويغنى وهكذا حتى جئت يوما وقلت له وأنا بأهز كتفي :

" العشـــــر اليوســـــفندي
يـــا حبـــيبي بـــنص ربـــال "

ضحك وضحكنى معه ، ولأنه صاحبي يسألني كل يوم عـن حـالي ، وقال لي إنه لا يريد العودة لبلده بعد الحرب ، وبنمنى يعيش في إسكندرية ، وطلب منى الزواج . أى والله . قلت له تتجوز ست لا تتحرك عن الأرض وليه تدفن نفسك بالحيا ..؟ ولم يقتنع . يأتي كل يوم يغنى لى ويقـول إنـه صابر وسوف ينال ، وتندهش أم حميدو من الغارات الألمانية الإيطالية علـى

الإسكندرية التى يحرسها الجيش المرابط الذي لا يستطيع أن يحارب نملة . " والواجب يصعب عليهم ويبيعتوا له أكل " . ولا يفوت أم حميدو أبـدا أن تتحدث عن مسخرة البوليس فى " كوم بكير " والعطارين ومينا البصـل ، والهماميل ، وشارع مارسيليا . كانت ترى ازورارا من زهرة حين تصل إلى هذه السيرة خصوصاً بعد أن عرفت فحواها أول مرة ، لكـن أم حميـدو كانت تهوى العودة إليها ولو بسرعة . وتقول لها ما أكثر العائلات المحترمـة التي تذهب بناتها إلى هذه الأماكن بالنهار ، ويعـدن إلى بيـوتهن عفيفـات شريفات أمام الناس وما أكثر الفقيرات اللاتي يرسلهن رجـالهن إلى هنـاك أيضاً " رجالة وسخة " . وهناك أيضاً نسوان أرامل تبيع نفسها ولا تتجـوز على عيالها ، هذا طبعاً غير المطلقات والهاربات من الأرياف . " يعنى البلـد بتحدف " على إسكندرية الممتلئة هذه الأيام السوداء بالعسكر مـن كـل الدنيا البيضاء والسوداء أيضاً ، وقالت لها أم حميدو أن ابنها الـذي يعمـل بمسح الأحذية في محطة الرمل والمنشية وبحري والعطارين دائماً يـأتي إليهـا بحكايات تشيب عن النسوان والعساكر والأجانب كلهم . حميـدو دائمـاً " كربان " من المناظر التي يراها ، ويقوم بأعمال مؤذية للإنجليز ، وآخرتـه ستكون الموت أو النفي إلى جبل الطور ، وتسأل زهرة أين جبل الطـور ؟ تقول أم حميدو : " هناك بعيد في الحتة التي بينفوا فيها المجـرمين " تسـكت زهرة التي لم تعرف أين جبل الطور وسألتها أم حميدو مرة هل لاحظت شيئاً على عائلة الرشيدي في البيت المجاور لبيت الخواجة ديمتري ؟ الرجال قصار جداً والنساء طويلات جداً تحتاج الواحدة منهن إلى رجلين فوق بعضهما ، يبوسها واحد والثاني ... " يا أختى مابتضحكيش ليه ؟ " .تسأل زهرة الـتى

تندهش دائماً من جرأة هذه المرأة البدينة التي تبدو وهـى جالسـة كأنمـا اندلقت على الأرض ولا سبيل لقيامها إذ ينغرز وسطها في عجيزتها المترهلة في محيط واسع ! وتندهس زهرة أكثر من إقبالها هي ذاتها علىسماع أحاديث أم حميدو. وقالت لها زهرة حكاية واحدة فقط عن الغارة الـتي حـدثت الشهر الماضي . وهى أن زوجها مجد الدين وصديقه دميان عندما جريا مـع الناس إلى كرموز للمساعدة في الإنقاذ عثرا على لوللا مصابة تحت الأنقاض إصابة شديدة ، وبدا الأسف حقيقياً على وجه أم حميدو والـتي قالـت إن لوللا مسكينة لم تهرب من زوجها مع عشـيقها ولكـن زوجهـا عـازف الأكورديون هو الفواد ، وإنها سمعت عن شهرتها الشهور الماضية في بيـوت الباشوات ، وتمنت أن تراها لكن هذا ما أراده الله . وقالت : إنهـا كانـت تعمل فترة في فرقة نعيمة الصغير ببحري (رقاصـة؟!) تسـاءلت زهـرة مندهشة ، فأدركت أم حميدو سر دهشتها ، فأين هي الراقصة السمينة التي لا تبرح الأرض طول النهار . أجابت لا .(لبيسة) وشرحت لهـا كيـف كانت هي تقوم بتلبيس الست نعيمة الصغير ملابسها . ملابسها في الغنـاء وملابسها في الرقص ، البدلة يعني ، وملابسها في حفلات الباشوات . لكن الست نعيمة عصبية ، وكلما قابلت منتج سينما طلبت منه أن يجد لها دوراً في فيلم ، وبعدها ويخلف فتقوم " ببهدلة " العاملين معها ، فتركتها .

وحدثتها عن دنيا العوالم . قالت : إن البياصة حيث ماتت لوللا هى مركـز العوالم في إسكندرية ، هناك فهاوي الفنانين ، وبيوت المتعهدين والمعلمـات وورش تعليم البنات . كل واحدة هربانة تأتي إلى البياصة فالرقص أهون من عمل الحرام ! والمثل يقول كل فولة ولها كيال ، وعند العوالم " كل رقاصـة

ولها طبال " دايماً الرقاصة يجوزها طبال أو رقاق ، فليل التى يتزوجها عازف مثل لوللا ، العازف يحب المغنية ، وكل معلمة لها بناتها ولها منطقتها . يعـنى نعيمة الصغير لا تستطيع أن تدخل كرموز ، باتعة السـلاموني تأكلـها ! . وهكذا والآن بعد السينما كل رقاصة تريد أن تصبح حكمت فهمى . وكل رقاصة بعد أن كانت تحلم بالرقص في ملاهي الكورنيش تحلم بالرقص أمـام الملك . الملك فاروق شاب صغير وسيم وجهه مثل البدر تحبه كل الراقصات والنسوان تتوحم عليه ! وتقول أم حميدو موشكة علـى إنهـاء الحـديث إسكندريا ماريا وترابها زعفران ، يقولون إن الذي بنى الإسكندرية واحـد مجنون اسمه الإسكندر ، وملأها مصانع خمور فكانت الناس تـرقص وتغـني طول النهار والليل وتتبغدد مع النسوان ، وإنهم حتى الآن يجـدون آثـار الإسكندر ، والإسكندرية القديمة ، تماماً مثلما يجدون كنوزاً تحت أنقـاض البيوت بعد الغارات . عمال الإنقاذ بعد كل غارة يجدون أمـوالاً ذهبيـة مختومة بخاتم الملكة ناعسة اليونانية التي حكمت الإسكندرية زمان (أيـوه) أمال الحتة اسمها جبل ناعسة ليه . كانت الملكة تسكن فيها " يقولون : إنها كانت جبارة لذلك فسكان جبل ناعسة جبارين .تجار مخدرات ولصوص لا تقدر عليهم الحكومة .فدام جبل ناعسة من ناحية ، البياصة ، ومن ناحية ، عمود السواري . البياصة حي قديم وعمود السواري أقدم . حول عمـود السواري كوم الشقافة فيه مغارات تحت الأرض يعـيش فيهـا النوبيـون والسودانيون الذين يدورون يبيعون اللب والفول السوداني بالنهار وبالليل ينامون في المغارات كالخفافيش . المغارات كلها آثار " محدش يعرف دروبها

غير البرابرة دول والغجر " . الغجر أيضاً يعيشون هناك ، ولكن منذ قيـام الحرب لا أحد يراهم في الشوارع " راحوا فين ؟ .. الله أعلم " .

هكذا دخلت زهرة العالم المسحور لمدينة الإسكندرية بعد أن شاهدت منها البحر والميادين الكبيرة مع الست مريم من قبل . حكايات أم حميـدو أعطت المدينة التي تخلو من أهلها الآن روحاً دافئة في شتاء يبدو قارساً بحق . لكن المطر بعد ما ينزل يشيع الدفء أيضاً في الفضاء . يتسع الفضاء وتبتعد السماء وتصفو وتزرق وتبتهج . الإسكندرية مدينة تبعث علـى السـعادة دائماً رغم ما يبدو عليها من كدر الآن بسـبب ارتحـال النـاس عنـها . وحكايات أم حميدو تجعلها تبعث على السعادة مرتين .

وهذا المطر المستمر منذ أيام سينقطع مع بداية العام الجديـد . لابـد حيث ستدخل الأعياد في بعضها لأول مرة منذ سنين طويلة ، أعياد الميلاد الأرثوذكسية مع عيد الأضحى ، أو سينزل على المسلمين والمسيحيين معاً . ستكون البهجة للجميع ، سيكون المطر للجميع أيضاً حتى الغطاس الذي هو كما قالت إيفون العام الماضي عيد مصري قديم .

والذي حدث أنه صدرت الأوامر في البلاد بالاحتفال بنهايـة العـام الميلادي دون أن تضاء الشوارع وليحذر الجميع من الغـارات المفاجئـة ، فبرغم أن المحاربين في أوروبا أعلنوا عن توقف الغارات المتبادلـة بينـهم في الليلة الأخيرة من العام إلا أن أحدا لا يضمن تصرفات هتلر وموسـوليني ، خصوصاً " أن بلادنا لا علاقة لها باحتفالات ميلاد المسيح الأوروبية فهـي

بدعة أتت مع الاحتلال " . على أى حال كانت الغارات قد توقفت في أوروبا في اليوم الأخير من ديسمبر رداءة الجو فنعمت الشعوب هناك بليلتين وبومين بلا غارات وبصفة خاصة أهالى بريطانيا الذي أعلن هتلر ضرورة إبادة مدنهم ، وبالطبع إبادتهم . لكن الليلة قبل الأخيرة من العام شهدت غارات بريطانية مكثفة على مطاري " الغزالة " و " طبرق " في ليبيا ، كما أغارات الطائرات الإيطالية بدورها على القواعد البريطانية في مالطة ، وكان العالم لا يزال يتابع تقدم اليونانيين المدهش على حساب الإيطاليين في ألبانيا وسط حيرة الألبانيين أنفسهم الذين لم يستقروا على محتل واحد للبلاد حتى الآن ، ووجه الهر هتلر رسالة إلى الجيش الألماني أحصى فيها انتصارات ألمانيا في السنة الماضية ، ووعد بانتصارها النهائي في العام الجديد " إن جيش الإشتراكية الوطنية الألماني قد أحرز انتصارات باهرة عام 1940 ، وهذا الجيش وهو على أعتاب عام جديد قد استعد بتسليح لم تعرفه البشرية " لكن في القاهرة كانت بيا عز الدين قد أعلنت أنها ستبدأ برنامجها الجديد على مسرح الماجستيك برواية " اطلع يا نمس " التي سيكون بينها مونولجات لمحمد عبد المطلب وفتحية محمود وثريا حلمي وسيد فوزي ، كما أعلن كازينو الشاطبى في الإسكندرية عن استعداده لاستقبال المحتفلين بالعام الجديد ، ورقص المحتفلون وأكثرهم من جنود الكومنولث فى المونسنيور على الأضواء الخافتة التي لا يتسرب نورها من الزجاج المعتم والستائر الثقيلة ، وعلى سيرانادات الغرام ، ولم يفهم مجد الدين أو زهرة للمرة الثانية لماذا يلقي الناس بأشيائهم القديمة من النوافذ آخر العام ! هذا رغم ندرة من فعلوا ذلك هذا العام ، فأكثر السكان قد أخذهم الهجار " ! .

في القاهرة حضر الملك فاروق حفلاً بعيد رأس السنة ، بدار الأوبـرا للترفيه عن الجنود الإنجليز بالشرق الأوسط ، وتقدم إليـه حـزب الوفـد بعريضة عن موقف مصر الداخلي والخارجي انتقد فيها الوضعين معاً ، كما عاود سلاح الطيران الملكي في الشرق الأوسط غاراته على الغزالة والبردية في ليبيا ، حيث كان شهر ديسمبر قد شهد زحف القوات المدرعة البريطانية ، وحلفائهم الذين لوحت الشمس جلود جنودهم ، على سيدى براني فجأة ، وبقوة هائلة فأسروا " ما يملأ خمسة أفدنة من الضباط وما يملأ مائتي فدان من الجنود الإيطاليين " وعاد الناس يتساءلون وهم يرون قطارات الأسـرى القادمة من الصحراء هل يحارب الإيطاليون حقاً أم يحارب الدوتشي وحده وجرازياني ؟ وما كاد ينتصف الشهر حتى كان الإيطاليون خارج الحـدود المصرية والحلفاء يتابعونهم حتى " البربة " التي اخترقها الجنود الإسـتراليون بمعاطفهم الطويلة الثقيلة ، وأسروا من الإيطاليين خمسـة آلاف ، عـادت الغارات مع العام الجديد في أوروبا ، واستخدم الألمان نوعاً جديـداً مـن القنابل فوق لندن ، قنابل حارقة تشعل النار الجهنمية في كل مكان وتتـرك وراءها بعد كل غارة ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف أو أكثـر مـن القتلـى والجرحى ، وسقطت إحدى قنابل الغارات على مجلس العمـوم البريطـاني نفسه الذى لم يكن هناك أحد من الساسة بقاعاته لكنها أتلفت جانباً منه تلفاً شديداً ، بينما صارت مدينة بريمن الألمانية أثراً بعد عين كما يقـال ، مـن جراء الغارات البريطانية ، وكان الإستراليون ، قد حاصروا طـبرق مـع الإنجليز في ليبيا فسقطت سقوطاً مدوياً واستسلم فيها ثلاثون ألف أسـير ، وبلغ مجموع الأسرى الإيطاليين أكثر من مائة ألف فتهاوى الجيش الضخم ،

وسقط من الحساب كقوة عسكرية وانتشرت قوات الحلفاء على طول الساحل من السلوم حتى بقيق ،وعرض يوسف وهبى مسرحية " صفارة الإنذار " كما عرضت سينما أوليمبيا فيلم " دنانير " لأم كلثوم وسينما مصر " فتاة متمردة " لماري كوينى وسينما الكوزمو " مليون سنة قبل الميلاد " للوجه الجديد فيكتور ماتيور ، وشاهدته كاميليا مع رشدي ورأت الحزن الذي في عيني رشدي ، هو نفسه الحزن الذي في عيني فيكتور ماتيور ، وصدر قرار من فومندان قلم المرور " محمد شكرى بك " بتوحيد زي سائقي الأجرة بأن يرتدي كل منهم معطفهم من التيل الكاكي فوق ملابسه أسوة بسائقي البلاد الأفرنجية ، وفي الإسكندرية أقام الاتحاد الرياضي الإسرائيلي حفلاً لإعانة منكوبي الغارات حضره سلفانور شيكوريل ووجهاء كثيرون ، وذاع اسم الجنرال ويفل ، وراقب الناس تطور الهجوم البريطاني الكاسح على ليبيا غير مصدقين الهزائم التي تنزل بإيطاليا كالمطر ، لكن مجد الدين كان يصدق فهو يرى الأسلجة الذاهبة بالقطارات إلى جوف الصحراء كل يوم ، وهى أسلحة لا يصنعها إلا " الجنون الحمر" ولا يحارب بها الشياطين والمردة ، وكان حمزة يضرب كفاً بكف وهو يرى الأسرى الإيطاليين الشباب حليقي الرؤوس حفاة مشحونين في عربات قطارات البضاعة المغلقة والمفتوحة . كانوا يبدون في كل وقت كالأطفال المشردين مستسلمين نائمين في دعة غير آبهين ، وبعضم كان ينظر إليهم ويبتسم ويلوح بيديه يحييهم ، وحمزة يعلق على أعدادهم الهائلة قائلاً صحيح " إن جار عليك الزمن يا بن الكرام طاطي ، وعف نفسك ولا تمشيش وراء الواطي " ويضحك زملاؤه الذين لا يجدون علاقة بين ما يقول وما يحدث ،

ويعلق دميان قائلاً هم الذين حاربوا فيقول حمزة " والله قلبي يقول لي أنهـم طيبين لا عارفين يحاربوا في مصر ولا اليونان وإنه هو موسيليني الشيطان " ، وكان روزفلت قد خطب وأعلن أن أمريكا ستصبح مصنعاً للسلاح للدول الديمقراطية ، واشتكت عاهرات الإسكندرية المرخصات من قلة الزبائن بعد الهجرة الواسعة لأهل المدينة ، وطالبن الدولة بأن تسخدمهن في الترفيه عـن الجنود الإنجليز في معسكراتهم نظير دخل ثابت ، لأن جنـود الكومنوالـث الذي يذهبون إلى المواخير ، يكونوا سكاري ولا يدفعون للعاهرات ، كمـا أن الزبائن المحليين يعرفون أنهم صاروا مثل العملة النادرة لذلك لم يعـودوا يذهبون إلى المواخير الفقيرة في الفراهدة وكوم بكير ولكـن إلى المـواخير الفاخرة في الهمامبل ويدفعون في الأولى ، وأعلنت الصحف عـن إعـدام المتخلفين عقلياً في ألمانيا التي احتلتها إذ " سيقتل هذه الأيام مائة ألف مـن المخلوقات التعسة ، بلهاء ومجانين لا يرجى شفاؤهم في ألمانيا وحـدها " . وضحك العمال وحمزة يقول : إنه اليوم فقط لا يحب أن يدخل الإيطـاليون مصر لأن ذلك يعنى دخول الألمان وإعدام كل عمال السـكك الحديديـة أمثالنا ، ولما رأى النظرة الثعلبية لغبريال فال على الفور " ماعدا الأسطوات "فضحكوا أكثر ، وبدأ دميان يشعر بالتقارب الروحي مع حمزة ونسى مجـد الدين إهانته السابقة له ، وخطب تشرسل مشيداً بالتعاون الأنجلو أمريكـي قائلاً " نحن الآن فوق البرج القائم على حراسة التاريخ " وأحصيت الغارات التي نالت من الإسكندرية منذ دخول إيطاليا الحرب فوصـلت إلى المائـة أعنفها كانت غارة الست ساعات ، وغارتى نوفمبر الماضي ، ولكن لم يأت الإيطاليون للشرب من ماء النيل ، أنوا أسرى ضائعى الأوراح يمشون على

أقدامهم مئات الأميال من ليبيا حتى مرسى مطروح ، يموت منهم كـثيرون في الطريق تحت الشمس والمطر والريح القارية ، ومن مرسى مطروح يـتم شحنهم في القطارات أو السفن إلى الإسكندرية ، وأعلنت الصحف المصرية عن استمرار محكمة المتهمين في قضية الخـوذ المقلـدة للجـيش المصـري والبريطاني وهي القضية الكبيرة التي شغلت الصـحف كـثيراً والنـاس ، خصوصاً في المقاهي والبارات ، وحيث أعلن الجـيش الملكـي البريطـاني والجيش الملكي المصري منذ بداية الحرب عن مناقصة لتوريد خمسين ألـف خوذة لجنود الكومنولث وعشرين ألفاً للجنود المصريين ، وفـاز بالمناقصـة مقاولون مصريون ويونانيون معاً ، وقدموا الخوذ في الموعد المقرر للتسليم ، ولكن ظهر بعد ذلك أن الخوذ مقلدة وليست حقيقية ، حيث صنعت كلها من الصفيح وليس من الصلب كما هي العادة وقال أحد المتهمين في معرض الدفاع عن نفسه : ماذا تفيد الخوذة ، صلباً كانت أم صفيحاً ، أمام قنابـل الطائرات والمدافع ، وهل تمنع الخوذة الموت عن الجندي إذا كـان الله قـد قدره له في الكتاب ؟! . لقد صارت القضية وأخبارها مثل نسـيم رقـراق يهب على المصريين بين وفت و آخر أثناء الحرب . وتأجلت المحاكمة كمـا تمنى المتهمون وكما تمنى المصريون أيضاً ، وسقطت كسلا في الحبشة في يـد القوات الإنجليزية والحبشية وتقهقـر الإيطـاليون إلى أريتريـا ، واسـتعد النجاشي ، هيلاسيلاسي لدخول الحبشة على رأس جيشه الوطني ، واحتفل الأزهر بالسنة الهجرية ، ولا يزال غفارة يضع الطربوش الوافي من الغارات على وجهه ، ولم يعد يعمل في نقل النشارة ، فمعظم مصـانع الأخشـاب توقفت بعد انقطاع الخطوط الملاحية مع أوروبا ، والمستهلكون من أصحاب

المحلات صاروا قليلين بعد الهجار ، فخلع صندوق العربة الخشبي ، وتـرك جانباً واحداً فقط كتب عليه ، الحمولة عشرة طـن ، مسـتعدون لنقـل المهاجرين إلى المحطة " بالعفش " وبدونه ، لكنه راح يحيي الناس الآن علـى طريقة جوبلز كما يقول ، فيرفع ذراعه أمامه قائلاً " هايل يا هتلـر " لأى شخص .

ومع نهاية شهر يناير مات في مصر محمد محمود باشاً رئيس وزراء مصر الأسبق المشهور بصاحب اليد الحديدية ، وافتتحت مطربة العواطف ملـك مسرحهاً برواية " بترفلاى " على مسرح برنتانيا بعماد الدين ، وتـوفى فى اليونان زعيمها العظيم الجنرال متاكياس ، فأقيم الحداد بالقنصلية اليونانية فى الإسكندرية وجميع أندية اليونانيين ، وصدر قرار بمنع ركـوب الـدراجات ببعض شوارع العاصمة ، وتقهقر الإيطاليون إلى بنغازي وخطب تشرشل في مجلس العموم قائلاً إن مصر نجت والسويس ، وعرضت سينما مصر فـيلم " سلامة فى خير " وبدأ زحف الإنجليز إلى طـرابلس فتفحمـت دبابـات الإيطاليين وآلياتهم وبلغ قتلاهم وأسراهم مائة وخمسين ألفا منذ بدء الهجوم البريطاني ، وعم الحزن إيطاليا والسخط المكتوم من زعيمها الجبار ، وأقيمت في مصر الزينات بمناسبة عيد البلاد الملكي ، فعزفت الموسيقى فى الميـادين ،وأقيمت الحفلات في قصر الزعفرانة ، ونوادي ضباط البوليس ، والـدار البطريركية ، وفتحت مطاعم الشعب للفقراء ،وغنى التلاميذ لمليكنا السعيد ، وانتهت أحلام جرازياني أن يكون حاكماً على مصر ، نائبـاً للملـك ، وأعلن التوجيه الملكي السامي مشروع مقاومة الحفاء " إن الحفاء ليس علة ولكن نتيجة ومن الخير للمواطن أن يشتري هو من ماله الحذاء الذي يستر

فدميه " أما إعطاؤه حذاء على سبيل الإحسان فإنه يغض من كرامته ويزيد شعور المهانة في نفسه " وفي نفس الوقت أهدى الملك حديقة حيوان الجيزة " حيوان الوبر " البري الذي اصطاده ، فنشرت جريدة الأهـرام تعريفـاً لحيوان الوبر قالت فيه :

" تلقينا من حضرة القس بولس رومان بأسيوط كلمة قال فيها إن هذا الحيوان يشبه الأرنب ، وهو يجتر ولكن لا يشق له ظلـف ، وهـو مـن الحيوانات التي أمر الله بني إسرائيل ، بألا يأكلوها لأنها نجسة ، وهو معروف في بعض الأماكن بغنم بني اسرائيل ، وسكنه في الصخور لذلك كـان مـن الحيوانات التي اشتهرت بالحكمة .. وقد ذكره سليمان في سـفر الأمثـال قائلاً : " أربعة هي الأصغر فى الأرض لكنها حكيمة جداً : النمل طائفة غير قوية لكنه يعد طعامه في الصيف ، الوبار طائفة ضعفية لكنها تصنع بيوتها في الصخرة ، الجراد ليس له ملك لكنه يخرج كله فرقاً فرقاً ، العنكبوت تمسك بيديها وهي في قصور الملوك ، وعندما عدد النبي داود مراحم الرب وعنايته بالإنسان والحيوان والطير ذكر أنه خلق الصخور وجعلها للوبر ملجأ ، وفي بعض الترجمات ذكر أنه الأرنب ، وإنه كان شبيها له في شكله لأنه ذكر هو و الأرنب كل منهما على حدة في الكتاب المقدس " الوبـار " أولا وبعـده " الأرنب " ومن ذكره في الكتاب المقدس نفهم أنه يوجد بكثرة فى فلسطين ".

" جنس البشر ، ومهما كثرت أعداد الناس،
ومن منهم يعرف شيئاً عن نفسه ؟ "

-17-

كان العمل كثيراً في الأيام الأخيرة للشتاء . والهواء البارد يلفح الوجه في الصباح الباكر .

الريح تشتد خاصة بعد أن يعبر مجد الدين ودميان السور إلى الفضاء الواسع فوق خطوط السكك الحديدية . مكان تتجلى فيه السمات الإمشيرية بأجلى صورها ، حيث تطوف الزوبعة حاملة تراب الأرض فجأة ، تاركة المجال للهواء البارد ، الذي يندفع بعده المطر المجنون من سحابة هرولت من مكانها البعيد .

في طريقهما اليومي المعتاد في الصباح ، لم يعد يثيرهما عامل الغراب الصامت الذي لايكف عن التحديق فيهما ، إلا أن دميان لاحظ أن الرجل أطلق لحيته ، ونادراً ما ظهر جالساً ، بل دائماً يمشي إلى الإمام ، وإلى الخلف ، مما جعله يسأل مجد الدين ما إذا كان الرجل قد أصيب بالجنون بحق ،

فكان رد مجد الدين المغيظ له دائماً إذ قال " يا دميان دع الملك للمالـك ! " .

كان على العمال تركيب خط حديدي جديد يمتد لحوالي الكيلو مترين ، ذلك أن العربات الواقفة تنتظر دورها في الدخول إلى الميناء كثيرة ،لم تعد تكفيها الخطوط الحالية ، فضلاً عن ضرورة ترك الخطين " الطولي " الذاهبين إلى الصحراء والقادمين منها حاليين دائماً إلا من القطارات المسافرة .

كانت المنطقة الواسعة الممتدة خلف الإسكندرية ، من محرم بك حـتى القباري ، مروراً بغيط العنب وكفر عشري ، مزدحمة بمئـات العربـات ، وعشرات القطارات البخارية السوداء ، وفي حركـة لا تنقطـع لتحميـل السلاح من الميناء ، والانطلاق به إلى الصحراء ، أو نقل السلاح والجنـود القادمين من السويس ، أو الذين أنفقوا وقتاً للترويح في الإسكندرية كذلك نقل الأسرى .

جاء أكثر من قطار من مخازن القاهرة يجر عشرات العربات المسطحة تحمل الفلنكات والقضبان وآلاف المسامير والقواعد الحديدية المربعة الـتي توضع بين الفلنكات والقضبان ، كذلك حملت القطارات تلالاً من الـزلط قادمة من الصحراء الغربية ، وامتلات المنطقة فجأة برجال شرطة السـكة الحديد بزيهم الأصفر المميز يتوزعون على هذه المعدات التي شغلت حيـزاً كبيراً من الفراغ . بعد أن أنزلها العمال والأوناش المتحركة على القضبان . واجتمع العمال من كل بوستة فبلغوا أكثر من مائة يشتركون في هذا العمل الجبار الذي يجب إنجازه في وقت قياسي حتى لو وصلوا الليل بالنهار .

كان البرد يتسلل إلى العمال ، رغم ثيابهم الصوفية ، من الرقبة ومـن تحت الأكمام ونهايات البنطلونات فوق الأقدام . وحرارة العمل لـن تعـد تكفى وحدها للدفء فالريح لا تكف عن حمل البرد ، المكان فضاء واسع ، ولم يعد مسموحاً لأحد بالغداء في بيته ، وصارت الراحة سـاعة واحـدة ، وكانوا يتحملون ذلك العنت كله برضا لا يضايقهم إلا زخات المطر المتقطع التي تضطرهم للجري إلى أقرب عربات للاحتماء جوارها أو تحتـها ، ولا يكادون يعودون للعمل بعد انقطاع المطر الذي لا يستمر طويلاً حتى يعـود مرة أخرى ،وكثيراً ما استهانوا به وظلوا فى مواقع عملهم فإذا به يفـاجئهم بالاستمرار وقتاً أطول مع حدة وكثافة ، أجل . هكذا صارت بينهم وبـين المطر مباراة وعناد .

لقد قسموا أنفسهم ، بواسطة أسطواتهم الذي هم خبراء تقليـديون بالعمل ، إلى فرق ، فرق لتسوية الأرض عدتها الفـؤوس والكوريكـات ، وفرقة لفرش الزلط فوق الأرض في الأماكن التي ستوضع فوقها الفلنكـات وعدتها المقاطف والفؤوس ، وفرقة لصف العوارض ، وعدتها أكتافهم الـتي يحملون العوارض فوقها وفرقة لحمل القضبان ووضعها فـوق الفلنكـات والقواعد وفرقة لتثبيت القضبان بالفلنكات بواسطة المسامير الـتي تخترق القواعد الحديدية تحت القضبان وفرق الفلنكات وتضـغط علـى جـانبي القضيب من أسفل ، ثم الفريق الأخير الذي يقوم بدك الزلط تحت العوارض بعد ذلك ، الأسطوات يكون عليهم ضبط المسافة بين وصلات القضـيب نفسه أفقياً وضبط المنحنيات والتأكد من المسافة المتروكة بين كل وصلتين من القضيب الواحد . المليمترات المتروكة لتمدد القضيب صيفاً وانكماشه

شتاء بحيث إذا تمدد لا تتصادم كل وصلة بالأخرى ، وإذا انكمش لا تلتوى القضبان أو تترك مكانها . ومثل كل عمال الدنيا ، لم يكن مكناً تحمل مشاق العمل دون عناء . هيلا هيوب هيلا . هوب هيلا . يا مهون هون يا مهون . خاصة أولئك الذين يحملون القضبان فالقضيب الواحد لا يزيد على ثمانيـة أمتار يحمله عادة عشرة رجال يغنون وهم ينقلونه ثم ينزلون به برفق حـتى أقدامهم . ثم هوب ، يتركونه معاً في وقت واحد فوق الفواعد والفلنكات . ويتراجعون إلى الخلف تاركين المكان لفريق " الرباط " الذى بسرعة يضـع المسامير في فتحات الفواعد الأربع . فتحنان على كل جانب من القضيب ، ثم يبدأون في إدارة المسامير التي تخترق الفلنكات ، بمفتاح طويل على شكل ماسورة في أسفلها تجويف مربع بحجم رأس المسمار، مدد .. مدد .. يـا أم العواجز يا طاهرة . يا سيدي المرسي . يا أبو العباس . يا شيخ العرب . يـا سيد . يا ظهري اللى انكسر . أمتى الفرج أمتى . ونشوف الشام . مـدد . وعيالي تكبر . مدد يبقوا باشوات . مدد . كله على الله . مدد . والإنجليز . مدد . خطفوا النسوان . مدد .

وينطلقون ضاحكين ، وحمزة يتأمل ، فهو دائماً من حملـة القضـبان برغم قصر طوله عن بقية زملائه ، يتأمل عمال الرباط المنتشـرين حـول القضبان بكثرة فيبدون له كالزنابير الصحراوية لتقاربهم وحركة أذرعهـم التي لا تنقطع ، ويتخيل أحياناً أن أجنحة ظهرت لهم ، فطاروا في السـماء مسكين بالقضيب ثم ركبوا البساط السحري ، ويضحك ، ودميـان بـين الحين والحين يتوقف عن دك الزلط تحت الفلنكات وينظر إلى حمـزة الـذى يتوسط الطابور حامل القضيب ، ويفكر في دهشة وإعجاب أن هذا القصير

لئيم لا يحمل شيئاً ، فالقضيب فوق أكتاف زملائه الطوال ، ولا يكاد هـو يصل بكتفه إليه ، ولابد أن حمزة كان يدرك مغزى نظرات دميان بين وقت وآخر إليه فكان ينطلق بالغناء .

أنـــا جمـــل صـــلب لكـــني علّـــتي الجَمـــال
جمـــال مـــآوح ولا هـــوش في الحمـــول جمـــال

أو يزعق قائلاً :

" مـــن كـــان يتـــيم ضـــاعت أهلـــه
في البلـــــد دي أهـــــو ضـــــاع "

ثم يلحق الكلام بصوت أقل ارتفاعاً ملىء بالحسرة :

لـــو كـــان أســـير كـــان علـــى مهلـــه
للـــــــــــذوات ينبـــــــــــاع ،
لكـــــن أهـــــالى بـــــلاد حـــــرة
شـــــــــــغلوه خـــــــــــدم "

" أيوه يا حمزة . الله يفتح عليك " يرتفع صوت العمـال ، الـذي لا يسكته إلا هطول المطر السريع المفاجئ وجريهم للاحتماء بالعربات .

لم يكن عملهم هذا ثابتاً . فهم يتبادلون المواقع كل يومين . كان رأى الأسطى غبريال أن يحدث التبادل كل يوم ، فذلك أكثر راحـة للجسـم

وأكثر اتساقاً مع قدرات العمال لكن " البياع " أسطى عمال البوستة رقم (2) ، قال إن التبادل يكون أوفق كل يومين ! . والبياع أسطى قديم ، مشهور بتهوره حتى لقبه العمال " بالمجنون " فلم يكن لأحد أن ينافشه .. فال البياع : "كل يومين أفضل للعمال ، صحتهم عال زي الحمير " ، وكان حين يتحدث " يتفتف " مما يجعل محدثه ينهى الحديث بأسرع ما يكون . والحقيقة طبعاً أن الأعمال كلها في المشقة متساوية رغم ما يبدو من تفاوت ظاهرى . ورأى دميان فيها أنها كلها طين حتى أنه هتف في سره داعياً الشهيد ماري جرجس الذي ألحقه بهذا العمل الصعب أن يملأ السماء بالسحب السوداء . وألا ينقطع المطر عن الأرض حتى تخرج القضبات من أماكنها وتنقلب القطارات ويكف الحلفاء عن الحرب مع المحور ويجد هو وقتاً لنعلم الكتابة التي لم يتقدم فيها كثيراً إذ عليه أن يمر باختبار بعد اسابيع وإلا لن يزيد راتبه العام القادم . ويقول في نفسه " قدوس قدوس بالحقيقة أيها الرب الذي خلقنا ووضعنا في الفردوس لكنا خالفناك بوصاية الحية فسقطنا من الحياة الأبدية ظن لكنك لم تتركنا بل أوكلتنا إلى الأنبياء والقدسيين ، وفي أحد الأيام ظهرت لنا نحن الجلوس في الظلمة بابنك الوحيد الجنس مخلصنا يسوع المسيح الذي أسلم ذاته فداء عنا إلى الموت . اجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نتناول من مقدساتك طهارة لأنفسنا وأجسادنا ارحمنا يا الله الأب ضابط العمل . كيرياليسون .. كيرياليسون " على أن الرضا قديم عند بقية العمال الذين تعودوا على هذه البقعة الواسعة . فردوس هى أو أشبه باتساعها وانقطاعها عن العالم . العمل مهما كان متعباً فلحظات قليلة من الراحة يتمددون فيها فوق الأرض ، ويتأملون هذا

الاتساع الغامض لا يفكرون فيها أبداً هناك حول هذا المكان عالماً آخر قد يكون أفضل ، إنهم ينسون حتى بيوتهم وأسرهم ،والقطارات المارة بالجنود والسلاح وغيرها تظهر كأنها نزلت من السماء وعادت إليها ، ولحظات الانفعال بها والحديث عن الجنود وتلقى عطاياهم . لا تلبث بعد بعد قليل أن تغيب وتنتمى لزمن آخر غير مدرك ، زمن برزخي ، أبعد غموضاً من الأثير ، لا يفكرون حتى في العالم ،وأن العالم هو الفضاء الواسع الذي يهبهم هذا الرضا الأبدي المثير .

وأقبلت بحق السحب السوداء منخفضة ثقيلة مثل الطائرات الألمانية حين تهجم على المدينة في الليل . ابتعدت الشمس الواهنة اختفت خلف السحاب الأسود العريش الذي ينذر بأنهار المطر ، وفي لحظة واحدة انفتحت القرب من السماء وهطل السيل فتركوا كل شيء وأسرعوا إلى العربات . لم يكن منجياً لأحد الاختباء بجانب أى عربة ، فالمطر لا يأتي من اتجاه واحد ، لذلك بحثوا جماعات متفرقة عن عربات مغلقة بجانب أى عربة خالية أو سبنسات ، وقال دميان لنفسه إلى هذا صار الود بيني وبين الشهيد مارى جرجس ، ودمعت عيناه وهو يشعر بالسكينة تسرى في روحه . هل أحبه الرب حقاً كل هذا الحب ؟

دخل دميان إلى سبنسة قريبة سبقه إليها البياع وحمزة والأسطى غبريال ومجد الدين وعدد آخر من العمال ، في السبنسة جلس غبريال على المقعد الجانبي ، وعلى الفور وبرشاقة أخرج النوتة من جيبه العلوي والقلم الكوبيا وراح يكتب فيها بخطه المنمنم ولم يخلع البيريه عن رأسه ، وبينما خلع البياع الكوفية من فوق عنقه والطاقية من فوق رأسه الذى بان أصلع

تماماً شديد الاحمرار مثل وجهه بالضبط ، وزادته الهرولة اشتعالاً . في اللحظة نفسها سمع صوت قطار يقترب من بعيد وصوت غناء الجنود الإنجليز ، وموسيقى القرب الأسكتلندية . لم يكن ممكناً لأى من العمال ترك العربة أو السبنسة التي اختبأ فيها ، فالمطر ينهمر شديداً مرعباً يملأ الأرض الترابية بالمياه في ثوان معدودة فنظروا من فتحات العربات ونوافذ السبنسات وأبوابها إلى الجنود الذين كان بعضهم ينظر أيضاً من خلف زجاج القطار .

قال حمزة وهو يضحك ضارباً كفاً على كف .

- يسكرون في القطار والله العظيم .

ولكن لا أحد انتبه لكلامه .لقد نزل على الدنيا ظلام شديد وبرقت السماء ثم توالى الرعد بلا انقطاع وبدا أن السموات السبع ستقع فوق الأرض الجرداء وسرى الخوف قليلا في القلوب ، إذْ نزل بينهم الصمت للحظات حتى قال البياع :

- يبدو أن الإنجليز يدبرون شيئاً يا أسطى غبريال .

رفع هذا رأسه عن النوتة وكف عن الكتابة .

- الإنجليز طول عمرهم أهل تدبير يا أسطى بياع .

وتدخل حمزة قائلاً :

- الإنجليز كسروا جرازياني واطمأنوا . التدبير أنهم لن يخرجوا مـن مصر . كنت أتمنى أن يكسرهم جرازياني . طلع أهبل . كسفني الله يخـرب بيته .

نظر إليه البياع شذرا وقال :

- إذن أنت تفضل إيطالياً على إنجلترا يا بهلوان ؟

ضحك دميان والعمال على بهلوان هذه التي لا يسـمعونها إلا مـن البياع ويجدونها منطبقة تماماً على حمزة لكن مجد الدين الذي كان قد أخرج المصحف الصغير يقرأ فيه في صمت ابتسم ، ورأى في عيني البيـاع غيظـاً وشراً . عينان عجيبتان ، تنظران إليك وإلى بعيد في وقت واحد وزرقتـهما تساعد على ذلك ، وقال البياع :

- لماذا لا ترد ؟ أجبني.

انقلب الظلام في الخارج إلى عواصف ترابية ، والمطر لا يزال ينـهمر وصوت الحصى والرمال الطائرة وهى تضرب السبنسـة صـار مسـموعاً وأسرع مجد الدين بإغلاق النوافذ لكن التراب كان يدخل إليهم مع الـريح من الأبواب المفتوحة والتي هي بلا ضلف . وهتف حمزة وهو يسعل :

- أنا عارف أن هذا اليوم أسود و أغبر من أوله .

فضحك الجميع بمن فيهم البياع ، أما مجد الدين فلم يعد قادراً علـى النظر إلى المصحف ، فأدخله إلى جيبه وتذكر زهرة كيف يقتـرب موعـد وضعها ، هل يعطيه الله الولد هذه المرة ، وقرر أن تلد في القرية حتى لـو لم

يسافر معها ، فقط هو لا يقدر على فرافها الآن لكنه سيقدر حين يقترب أكثر موعد الوضع . وسكت الجميع وقال البياع :

- يا حمزة . أنا أيضاً كنت أتمنى أن ينتصر جرازياني مثلك ، أنا أكره تشرشل ..كانوا نسوا الحديث الذي جرى منذ قليل فأعاده البياع من جديد ، وإذا بحمزة يقول في انبساط واطمئنان لجانب البياع .

- أنا أيضاً أكرهه . تشرشل بالذات . أنا اعرف أنك قابلته يا أسطى حين زار مصر سنة ستة وثلاثين ، أنا أيضاً قابلته ولم يعجبني كلامه , هجاص . ضحك على النحاس باشاً وخلاه مضى على معاهدة فالصو .

وحط الصمت الحذر فوفهم جميعاً ، فما يقوله حمزة لا أساس له من الصحة لكنهم فوجئوا بالبياع يقول :

-كلامك صحيح يا بهلوان .

ولم يستطع دميان أن يكتم ضحكه ، فانطلق بعده العمال يضحكون أما الأسطى غبريال فقد ابتسم لنفسه وكذلك فعل مجد الدين . وقال حمزة للبياع :

- شوف يا أسطى بياع ، بيرم التونسي قال إيه عن تشرشل والنحاس سنة ستة وتلاتين :

" إن كان سير أوستن تشامبرلين راجل طماع
عايز يضيع لنا ثروت في لعبة ، ضاع
يكون في علم الفخامة إننا فاعدين

فاضـــيين لجـــر المشـــاكل كلنـــا صـــياع"

ونظر الجميع إلى بعضهم في ذهول . يريـدون أن ينطلقـوا في الضحك ولا يستطيعون . لكن دميان انفجر مغتاظاً وقال : وهو يكتم الضحكة :

- شامبرلين إيه وثروت مين يا راجل يا بكاش أنت . الكلام دا كـان واحنا شباب . وإيش جاب تشرشل لشامبرلين وثروت للنحاس

لكن حمزة لم يرد ، لم يكلف نفسه عناء النظر إليه . نظر إلى البياع وفي عينيه انكسار ، وانتظر الجميع رد البياع الذي قال بهدوء :

- كلامك صحيح كله يا بهلوان ، كانت أيام .

ولم يسمع بعد ذلك غير صوت الرعد وصوت زخات المطـر الـذي استمر حتى المساء . لقد كف المطر كأنما ليمنحهم الفرصـة في العـودة إلى بيوتهم ، وخرجوا من العربات والسبنسات كأفراخ صغيرة تـرتعش مـن البرد .. وقرورا أن يتركوا كل شيء في مكانه حتى الصباح لكـن ظهـر قطاران طويلان محملاً بالجنود البيض والسود والهنود يتحركان على مهـل خلف بعضهما .اصطف العمال على الجانبين ، وارتفعت الأصوات المعتادة . ويلكم جوني . ويلكم إنديان ، جود إنجليش ، نوجود جيرماني . وسمعـت ضحكات الجنود من خلف النوافذ المفتوحة ومن أبواب العربات . لقد ألقى الجنود كثيراً من معلبات التونة والسلمون والبلوبيف والجبن وكـثيراً مـن الشيكولاتة وعلب الشاي وكراتين البسكويت تلك الليلة ، وانفرط نظـام

العمال فصاروا يجرون جوار القطار بلا نظام . كان مجد الدين قد قنع بما ألقاه الجنود جواره فلم يجر ، وكذلك فعل دميان الذي كانت عيناه على حمزة الذى كان قصره يجعل شكله مضحكا ،وهو يقترب من سلم عربات القطار رافعاً ذراعه إلى الجندي الأفريقي أو الهندي أو الإنجليزي فلا يطول ما يقدمه له من معلبات مما يضطر الجندي للنزول درجة بالسلم . يتناول حمزة ما يعطيه له ويضعه على الأرض وبسرعة يتابع عربة أخرى وجندياً آخر . حمزة يعرف أن لا اعتداء لأحد منهم على ما يفوز به الآخر ، وأنهم لولا الظلام الهابط لكانوا اقتسموا غنائمهم بالعدل . لقد كان حمزة نشيطاً للغاية ذلك المساء . ورآه دميان يمد يده لجندي أفريقي يترك فجأة علبة البسكويت التي في يده ويمسك بيد حمزة . ولم يسمعه أحد . انتهى مرور القطارين وراح العمال يجمعون غنائمهم وبقيت غنائم حمزة ملقاة فوق الأرض . وهتف دميان :

- لقد رأيت الجندي الأفريكي يحمل حمزة إلى العربة .

ضحك العمال وقال البياع :

- حمزة بهلوان سينزل أمام سكن المصلحة بالتأكيد ، اجمعوا حاجاته واحملوها إلى بيته .

لكن دميان الذي اقترب جداً من مجد الدين كان يشعر بشيء آخر فهمه مجد الدين ولا يريد أن يصدقه

" قلوب العاشقين لها عيون
ترى مالا يراه الناظرون "

– 18 -

ترعة المحمودية هى التي خلقت الإسكندرية في العصـور الحديثـة ، أصدر محمد على باشا أوامره السنية بحفرها عام ألف وثمانمائة وتسعة عشر ، وأمر حكام الجهات المختلفة بجمع الفلاحين للعمل ، فكان الحكام يربطونهم فطارات بالحبال وينزلون بهم من المراكب فيموت منهم كثيرون من التعـب والجوع ، فيدفن من يموت مكانه ، يهيلون عليه التراب ويمشون ..كثيرون منهم دفنوا وهم أحياء ،أصابهم الإعياء فأمر حكام الجهات بدفنهم ، فوارت الأرض أجساداً تركت أرواحها وأجساداً بها أرواح ، وبلغ الموتى والقتلـى في العام الواحد عشرة آلاف . لقد استمر حفر الترعة واحداً وعشرين سنة ، فمات وقتل أكثر من مائتي ألف ولم يقل العدد المستخدم في حفرها دائماً عن أربعمائة ألف ، وجرت السفن في الترعة فوق مائتي ألف حكاية ، بعدد الموتى ، وربما حكايات أكثر ، وانتقلت هذه الحكايات كلها إلى الإسكندرية

حيث مصب الترعة في الميناء . هل تحتاج أمة من الأمم الى أكثر من مـائتي ألف قتيل ليتكون عندها تـاريخ مـن الأسـاطير والأشـباح والجنـون والعفاريت . لقد ازدهرت الإسكندرية بحركة النقل بـين الميناء والـدلتا والصعيد ، وازداد سكان المدينة إلى ستين ألفـاً ، واسـتمرت المدينـة في الازدهار والناس في الازدياد والمحمودية مستودع الأسرار .

المحمودية بالنهار طريق السفن والبضائع ومراس للعمل ، في الأصائل نهر للفسحة والمرح فوق الفلائك الشراعية الصـغيرة وغـير الشـراعية ، وبالليل لصوص ومهربون يهاجمون السفن خلسة يسرقون ما يستطيعون حمله ، و حملات بوليسية عليهم فيدوى الرصاص ليلة وأخـرى ، والآن ازدادت حوادث السرقة بسبب الظلام الذي شمل البلاد . والمحمودية أيضاً بالليـل مثوى للجثث ، والقتلى بحق وبدون حق يأتون في أجولة مغلقة من الريـف ولا يصلون إلى الميناء أبدا . دائماً الأجولة تصطدم بالقواعد الأسمنتية تحـت الكباري وتتوقف . عادة لا يفطن إليها أحد إلا عند الظهيرة وفي العصـر ، في الصباح يكون ذهن المارة مركزاً في العمل ، وفي العصر يبدأ المرح فـوق المياه وتزداد حركة الفلائك الصغيرة . وكذا لا يمر شهر إلا ويتم اكتشاف جثة . لكن من النادر اكتشاف ثلاث جثث متتابعة كما حدث هذه الأيام . دائماً هي جثث نساء وفتيات .

لم يكن شيء من ذلك في ذهن رشدى حين قابل كاميليا ، واقتـراح عليها أن يقطعا معاً نزهة بالمحمودية في الصباح على عكس كل العشـاق . تحب منه دائماً هذه المخالفة لكنها انكمشت خوفاً من أن يطلب منها بـدء الرحلة من كرموز ، ورأته يبتسم ويقول : سنبدأ من النزهة بعيداً بعيداً عن

كل العمران . عادة تكون النزهة هى آخر إبحار الفلائك ومنها يعود الجميع إلى الغرب ، لكنهما سيستأجران زورقاً صغيراً ، ويستمران في الرحلـة إلى الشرق حيث لا يوجد أحد ، لا يوجد غير أراض زراعيـة وفلاحـين في الحقول . لا مباني ولا عمال ، ولا أحد يمكن أن يكون قريبـاً لأهلـها أو لأهله .

كان الجو صحواً كما يريده العشاق ، هطل مطر خفيف وهما ينزلان من الترام في محطته الأخيرة ، هناك لم يستمر غير ثوان . مشياً بين أشـجار الكافور الضخمة المتعانقة في الفضاء ، والتي يترافص ظل أوراقهـا دوائـر صغيرة بسرعة فوق الأرض . أخذ بيدها نازلاً الدرجات الثلاث إلى مرسى الفلائك الملونة . شباب كثير وبنات كانوا قد فكروا التفكير نفسـه فيمـا يبدو ذلك اليوم .

- أرأيت ها نحن لسنا وحدنا ، أغلبـهم أكثـر شـجاعة منـا ، إذ سيأخذون الطريق إلى راغب وكرموز .

فالت بسمة :

- فلنكن جبناء اليوم . اليوم فقط .

جلست أمامه في الفلوكة الضيقة الإنسانية وجلس أمامهـا مسـكاً بالمجدافين ، وبدأ يجدف . ومن جديد هطل المطر الذي أربكهما لكنه كـان خفيفاً ومنعشاً وسرعان ما انتهى .

- ما رأيك أن نسبق الجميع؟ نريد أن نكون لوحدنا ... جدفي معي .

مدت يدها وأمسكت بالمجدافين معاً . وضع كفيه على كفيها فانتقلت إليه حرارتها وراحا يجدفان بسرعة . تألمت من ضغطه وتململـت أصـابعها فأبعد يديه قليلاً عن يديها لكنهما ظلا معاً يجدفان ويضحكان .

المحمودية بعد " النزهة " يرتفع الهيش والحشيش على جوانبـها مـن الإهمال . كانت العصافير تطير من الهيش وهما يضربان بالمجدافين .لقد صارا وحدهما الآن حقاً . تترامي على الناحيتين حقول واسعة مزروعة بالخضـر وعلى حواف الترعة بدأت تظهر أشـجار كـافور وكازورينـا وخـروع وصفصاف منسدلة جدائلها . شعر العروسة . قال لها رشدي : إنه هكـذا تسمى هذه الشجرة التي قرأت عنها كاميليا ولم يسبق لها أن رأتها .

بالحقول كان فلاحون قليلون . رجال ونساء وأطفال يتفرقون علـى مساحات واسعة . وسافية واحدة هى التي صادفتهم حتى الآن وأشجار جميز متفرقة وسنديانة شامخة تقف وسط الحقول .

- لقد ابتعدنا كثيراً يا رشدى

ونظرت في ساعتها وقالت :

- مضى ساعتان الآن ، ونحن نجدف ، لقد استأجرنا الفلوكة سـاعة واحدة .

- لا عليك ، معي خمسون قرشا هى مصروفي الشهري سأنفقها كلها اليوم .

كان قد توقفا عن التجديف ووقفت الفلوكة وسط المحمودية وحملـها تيار خفيف منحرفاً بها حتي اصطدمت بالشاطئ وركنت عليه .

- يمكن لنا أن ننزل ، لا تخافي فلن تتحرك الفلوكة .

قال ذلك ووقف فاهتزت الفلوكة تحته وكاد يقع لـولا أن تماسـك وضحكت هي ، لقد مضى وقت طويل حقاً حتى أنه فرد سافيه بصـعوبة ، وقفت هى أيضاً وقد ناولته يدها واهتزت الفلوكة من جديد لكنه يقف بالبر الآن فساعدها على ترك الفلوكة ، وجذبها إلى أعلى فوقفا على شفا مساحة هائلة من الحقول الخضراء فوقهما الشمس حانية .

- يا للروعة . ماذا يحتاج الإنسان من الآلهة أكثر من ذلك ؟

هتف وهو يفرد ذراعيه على اتساعهما ثم قال :

- هيا نجرى .

وجرى من أمامها وجرت خلفه ، ولم يتوقف عن الجري إلا بعـد أن أحس بأنفاسها متعبة ، فانهار فوق الأرض تحت جميزة كبيرة ومـد سـافيه مستنداً بظهره على جذع الشجرة وانهارت هي إلى جواره جالسة على نفس الطريقة .

كانا يتنفسان بسرعة وكانت سافاها تبدوان لامعتين فوق جوربيهـا الأبيضين القصيرين ، وظهر بدايات ركبتيها فوضـعت حقيبتـها الجلديـة عليهما . رفع ذراعه اليسرى وأحاطها وجذبها إليه فاختفت في صدره هـو النحيل الهش .

- هذا أصلح مكان في العالم للجنون .

جفلت إذ توجست من كلامه وابتعدت بصدرها عنه لكنه قال :

- لا تخافي مني أبداً ، فقط أحسست أنني سأموت بين يديك .

عاد للكلام العجيب ، وسمعت صوت غراب فانزعجت ، فقال لهـا : إن هذا الغراب مسكين ، هو الذي أرشد البشرية إلى أعظم سر ، سر الدفن ، وهو أكثر الطيور ، لعنة ، وسألها :

- هل قرأت مسرحية " انتيجون " لسوفوكليس ؟

- قرأتها في الصيف الماضي في برنامج القراءة بالإجازة .

هل فعلت أنتيجون غير أن وارت جسد أخيها التراب ، دفنتـه ، لا كرامة للإنسانية دون دفن موتاها .

سكتت لحظات وقالت :

- هل جئت بي لتحدثني عن الموت .

ضحك .وقال :

- المشكلة أن قراءاتي كلها في الأدب . لم أصادف القصة المضـحكة بعد . إذا صادفتيها أخبريني .

ونهض واقفاً .

- لا تتحركي . سأقرأ لك شعرا مجنوناً عبقرياً اليوم .

وأخرج من حقيبته كراسة صغيرة .

- لقد ترجمته لك هذا الأسبوع .

وراح يقرأ بصوت تمثيلي :

- " أيتها الساعة . يا إلها مشئوماً جباراً

يا من يهددنا ويقول لنا " تذكر

إن رانعاشات قلبك المرعب

بالجوى ،

ستغرز قريباً في هدف "

" ستهرب المتعة نحو الأفق

مثل طرفة ضيقة إلى الكواليس

فكل لحظة تفترس من متعتك

التي أعطيت لك طول عمرك "

(ثلاثة آلاف وستمائة مرة في الساعة تهمـس الثانيـة " تـذكر ! –

بصوتها الذي يشبه دبيب الحشرات

تقول اللحظة : أنا الماضي

رطبت حياتك بترياقي الكريه "

" عما قريب تحل الساعة التي فيها

يقول لك كل شيء . متى أيها

الجبان الهرم . فات الأوان " .

كانت معجبة بأدائه ورعونته . بعينيه المسـبلتين الحـزينتين دائمـاً . بهشاشته وسط الفراغ الأبيض الكبير ، والأرض الخضراء العظيمة . هـذا الكائن الرقيق جداً الذي يمكن أن يحمله الهواء مثل ريشة يطيره فلا يعـود ، هو نفسه الذي يخضع له كل هذا الفضاء وكل هذه الخضرة . إنه السـيد الذى صنعته الآلهة ، ولم تدر أنه سيكون عاصياً يفكر دائماً أن يعلب دورها ، وسيكون هذا أيضاً سر عذابه السرمدي .

مد يده آخذاً يدها فتركت حقيبتها جوار حقيبته ووقفت . أسـندها على جزع الشجرة التي كانت ثلاثة طيور من أبي فردان قد طـارت منـها حين ارتفع صوته بالشعر .. اقتربت منه وراح يقبل عنقها وهى تقاوم خفيفاً وهو يقول :

- معذرة ، أنا لا أعرف ما الذى يجعلني أتحدث عن الموت اليوم حقاً؟

- كفي

قالت بهدوء وهى تضع يدها على كتفه . لقد تعود ذلـك منـها . وتعودت هى أن يستجيب , قال وقد أخذت يدها في يده يمشـيان علـى هامش الحقول :

- أعجبني أن يكتب شاعر عن ساعة الحائط ، القصيدة لبودلير اسمها L'horlge ولم أعرف أنها سوداء إلا بعد أن مضيت فيها . لم أتراجع . في المرة القادمة سأترجم لك قصائد بيضاء ، بل سأترجم لك قصائد مجنونة من رامبو وفيرلين .

لم ترد .. ومشيأ صامتين . وظهر فلاح وزوجته وطفلان خارجان من كوخ راحوا ينظرون إليهما بدهشة ، لم يسبق لهـم أن رأوا أحـداً نظيفـاً وصغيراً وجميلاً هكذا .

- لا تخشى شيئاً ، لا تتحدثي إليهم .

قال ذلك وأمسك بيدها بقوة . وما إن وصل إلى الفلاح وأسرته حتى قال " السلام عليكم " فرد الجميع بسرعة "و عليكم السلام .. اتفضلوا " ابتسم وابتسمت هي وعادوا إلى الشجرة بينمـا ظـل الفـلاح وأسـرته يشبعونهما بنظرات الدهشة . كانت نظافة الجو أيضاً ورقة النسيم تضـيف إلى بهائهما بهاءً ، وسمعا صوت الفلاحة تقول : " يا حلاوة على أولاد البندر " ، فارتفعت ضحكاتهما ،وأسرعا إلى الشجرة . لابد أنهما ابتعدا بالفلوكـة كثيراً مما جعل المرأة تعتبرهما من البندر . لقد دخلا إذن في الريف العميق . أو هكذا خيل لهما ، ورفع رشدي وجهه إلى السماء فوجد الشـمس قـد تجاوزت منتصفها .

قال في نفسه " الساعة دائماً " . وأخذ بيدها إلى الفلوكة التي لم يبرح مكانها وجلسا قبالة بعضهما بينهما طرفا المجدافين ، وبدأ هو يجدف .

ما كاد ينتصف الترعة حتى مدت يديها فوق يديه قائلة :

- سأساعدك .

وابتسمت . اشتعلت الدنيا بالضياء أكثر ، اهتز الفضاء . أى سعادة حباه الله بها ، كيف تجرأ ذلك اليوم الذي تسابقت فيه المدرستان، وكيـف انتهت الجرأة إلى ما هو أكثر من الحقيقة . إن جسمه يـرتعش . يحتـاج أن

يدخل فيها دخولاً لا عودة منه . يحتاج أن يمزقها إلى كل ناحية .يفنيها فيـه ويفنى فيها . من يصدق أن هذه تجربة الحب الأول له ، بدأت بسـرعة لا معقولة مع فتاة لا معقولة . في بساطتها وجمالها وديانتها أيضاً . من يتـذكر الديانات الآن؟

إنها تضحك والشمس خلفها تضيء الدنيا حول جسدها الدفيق . في المرة القادمة سيختار مكاناً أبعد ... لن يستمع إلى ندائها الهادي وهى تقول مرتجفة " كفى " سيتوغل أكثر " إنها فتاة جميلة ثرية العنق تتـرك شـعرها يتسكع في خمرة بشرتها . إنها تمشي كالملوك وتجلس كالسـلاطين وتـدعو بعينيها الجنس البشري للانفجار ، للذوبان بين ذراعيها المفتوحتين ونهـديها المكتنزتين ، إن جمال جسمها هبة إلهية ؟

- ماذا تقول ؟

- أتذكر شعراً جميلاً ، لكن للأسف لا يبدو أنني سأرى فرنسا .

- كنت أتقدم في اللغة الفرنسية كثيراً فجئت أنت وعطلـت كـل شيء .

- هل كنت ستواصلين ؟

- أجل . لقد جعلتني أحب فرنسا .

- لكننا للأسف لن نراها .

- لاتكن متشائماً . الحرب لابد ستنتهي قريبـاً . ولـدينا الوقـت الكافي .

سكت قليلاً ثم قال :

- هل تظنين ذلك ؟

ابتسمت ولم ترد . كان هناك مركب شراعي قادم من بعيـد محمـل بالأجولة وفوقها بعض النوتية من الجنوب بجلابيبهم الزرقاء والرمادية . قال :

- إنهم يقطعون رحلة كبيرة من الجنوب إلى الشمال .

ابتسمت أكثر وقالت ..

- هل تعرف أنني صعيدية ؟

صعيدية بيضاء . لابد إنك صعيدية من الجنة . هل تعرفين الأغنية التي تقول : " في الأصل أنت حورية ، سهيتي رضوان وفتحتي الفردوس " .

- أسمعها كثيراً وأضحك . أستمع أيضاً إلى عبد الوهاب وأحبه وسيد دوريش وأحبه ، وأمس بالليل كانت هناك سهرة لسيد دروـش بكيـت فيها .

نظر إليها مليا وقال :

- لما غنى " والله تستاهل يا قلبي ، ليه تميل للحب ليه "

-كيف عرفت ؟

- استعمت إليها . اسمعى .

وراح يغني لها وهي تضحك من صوته الأجش ، وكان قد حـاذاهم مركب شراعي صغير يقف أحد على سطحه يرافبهما مبتسماً . سمع غنـاء رشدى فإذا به ينشد متوجهاً إليهما :

" يـا ريـس البحـر خـذني معـاك أحسـن لي
أتعلـم الكـار قبـل العـار مـا يحصـل لي
وأترك بـلادى وأعيش في الغربة أحسن لـى
أنـا بامسـي علـيكم صـبح وعصـاري
يـاللى هـواكم صـحن جسـمي وعصـاري
بـابص بعـيني لقيـت الـريح كالعصـاري
سـبت الـداري وفلـت الـبر أحسـن لي

ابتسم رشدي ، وهتفت له يسأله ما إذا كان يجب أن يسمع مـوالاً إسكندرانياً . فقال النوتي الصعيدي " ياريت " سكت قليلاً وكاميليا مبتسمة لا تصدق ما يحدث وتشعر بانتشاء جميل من جنون حبيبها الفائق .

وأنشد رشدي :

عـيني رأت غليـون في وسـط البحـور شـاحط
ريسـه جـدع يـا خسـارة دفتـه راحـت
قبطانه يا عـيني أتعمـى واليـه عليـه سـاحت

حتى الشراع انقطع ، فيـه حـتى طيبـة راحـت

مدت كاميليا يدها تلكزه في كتفه برفق مندهشة ، ثم صفقت في إعجاب فإذا بالنوتى ينشد :

غـزالين كـووتى بنـارهم والعقـول ألبـاب
راكـبين هجـين حلـو والهجـين البـاب
الأم شمـس الضـحى والبـدر هـو البـاب
والفلـ ـب دار المحبـ ـة والعيـ ـون ألبـ ـاب

انطلق رشدي ضاحكاً وبدأ يسرع بالفلوكة وقال للنوتي :

- لكن إحنا راكبين سفينة ؟

قال النوتي على الفور:

- والسفن ألباب !

ففهم رشدي وراح يشرح لكاميليا التي اندهشت جداً من المعاني العميقة للكلام ، وكان آخر ما هتف به النوتي إليهما : " أوعو تلوموا المجروح إذا لا لا " .

ثم فجأة أربد وجهها وأشارت إلى الماء وصرخت وافقة فـاهتزت الفلوكة وكادت تقع فوقف رشدي بسرعة وأمسك بـذراعيها وهـى تصرخ في هيستيرية شديدة .

- لاتخافي ... لا تخافي . أغمضي عينيك . أغمضي عينيك .

أغمضت عينيها وخطا إليها خطوة وأخذها في حضنه والفلوكة لا تكف عن الاهتزاز ، ثم جلس بحيث يكون هو من الداخل وهي مـن ناحية الشاطئ ، وأجلسها جواره ، وأمسك بالمجدافين ، وراح يجـدف بسرعة مذهلة .

- لا تنظري للترعة . انظرى إلى الشاطئ .

كان بالماء جوال منتفخ تخرج من فتحة صغيرة فيه يـد بشـرية زرقاء ضاربة إلى الحمرة ، بها خاتم يلمع تحت الشمس . يـد صـغيرة رقيقة لفتاة أو امرأة ..لم يستطع هو أيضا النظر إلى الجوال العائم وراح ينظر إلى الأمام مجدفاً بجنون ليبتعد أكثر ما يمكن . حين وصل إلى موقف الفلائك بالنزهة كان يتخيل أنها في وعيها ومرتكنة إلى جانبه تنظر ناحية الشاطئ ، وهو فى جنونه في التجديف لم ينظر إليها . عند الموقف مـا كاد يقف حتى سقطت على جانبها مكان جلوسه . كانت فاقدة الوعى طوال الطريق وهو لا يدري . لقد احتاجت دقائق كي تفيق إذ وجـد عشرات الفتيات يقدمن إليه زجاجات كولونيا وبارفانات رخصـية ، لكنها احتاجت لساعة من الراحة قبل أن تستطيع الوقوف والعـودة معه إلى البيت . لقد تجاوزت ذلك اليوم كل المواعيد الممكنة لفتاة مثلها ، وكانت في البيت نار تتقد في انتظارها .كانت المدرسة قد أرسـلت خطاباً إلى والدها تخبره بغيابها المتكرر ، وكانت إيفون قد وقفت عاجزة عن الكذب أمام والديها وحكت القصة كلها وهي تبكي وتنتفض .

" بالسر إن باحوا تباح دماؤهم
وكذا دماء العاشقين تباح "

-19-

ابتدأ هجوم الربيع في أوروبا . بدأ الجليد يذوب من فـوق الجبـال وانداح الضباب من فوق الأرض ، فاشتعلت النار وحط الـدمار بـبرلين وهامبورج من الغارات البريطانية ، واشتعلت المدن الإنجليزية بدورها مـن الغارات الألمانية التي أخذت تنفذ خطتها الجديدة (التجوال على المواني) ، فتعرضت مواني بريطانيا لغارات كثيفة استمر بعضها ثلاث ليال متوالية كما حدث فى بورتسماوث ومانشستر ، وقتل في كل غارة وجرح أكثر من ألفي مواطن ، وفي الوقت نفسه أخذت الغواصات الألمانية تطبق أسلوبها الجديـد (جماعات الذئاب) فصارت كل جماعة من الغواصات تشـترك في هجـوم واحد في وقت واحد على فريسة واحدة فتقضى عليها فى الحال ، لقد كان " برايان " أشهر قائدي الغواصات الألمان وغيره من القادة يطبقـون هـذا الأسلوب المرعب الذي اخترعه الألمان في البداية خلال الحـرب العالميـة السابقة . لكن برايان ورجال الغواصة (يو47) غرقـوا جميعـاً بواسـطة المدمرة البريطانية ، وكذلك تم تـدمير الغواصـة (يـو99) والغواصـة (يو100) الألمانيتين في قتال شديد ، وكان قائداها مـع برايـان السـابق يشكلون أهم قادة البحرية الألمانية فتأثر بذلك هجوم الغواصـات الألمـاني

وإن ظلت الطائرات (فوكاد ولف 200) أو (الكوندور) كما هو اسمها الشائع تقوم بدورها الأكثر فتكاً من الغواصـات إذ كانـت تـدخل إلى مسافات بعيدة بالمحيط بحثاً عن السفن البريطانية وتغرقها . وبدأت أمريكـا تصدر معدات حربية بالفعل إلى إنجلترا وفق قـانون الإعـارة والتـأجير ، فقدمت إليها خمساً وسبعين مدمرة وأسطولاً من الزوارق في وقت واحـد ، وخطب روزفلت في الشعب الأمريكي معلناً أنه ليس من حـق عنصـر أن يسود على عنصر آخر ، ولا أن تستبعد أمة أمة أخرى ، وحدثت غـارات ثقيلة على القاهرة والجيزة فلم يعد السكندريون ينفردون بالغارات الثقيلـة وحدهم ، وحملت القطارات أعداداً كبيرة من الجنود الهنود القـادمين مـن بلادهم بالسفن حتى ميناء السويس . كانوا في معظمهم شباباً تحت العشرين فرحين بملابس الحرب وعدة القتالين غير مدركين معنى الموت بعيـداً عـن بلادهم ، وعرضت سينما مترو بالقاهرة فيلم " ثورة على السفينة بـونتى " لكلارك جيبيل وتشارلز لوتون ، كما عرضت سينما ستوديو مصر بالقاهرة فيلم " انتصار الشباب " لفريد الأطرش وأخته الحسناء أسمهان ، واستمرت شكوى الناس بالإسكندرية من الدقيق المخلـوط واكتشـف الشـباب في كرموز وغيره من الأحياء الوطنية أن هناك عربات عسكرية صغيرة تجـوب الشوارع بالليل أثناء الغارات وتطلق قذائفها على الطائرات المغـيرة مـن مدافع مضادة مثبتة فوقها ، إن هذه العربات التي تجوب الأحيـاء الوطنيـة أثناء الغارات هي سبب تركز الغارات على هـذه الأحيـاء ، وأن هـدف العربات هكذا هو تشتيت انتباه الطائرات بعيداً عن المعسكرات الإنجليزيـة بالضواحي ، كذلك بعيداً عن الميناء حيث تقـف الـزوارق والمـدمرات

البريطانية وما كان موجوداً من الأسطول الفرنسي قبل استسلام حكومة فيشى واستولى عليه البريطانيون بعد ذلك بلا قتال ، تكونت جماعات وطنية من الشباب لمطاردة هذه العربات بقنابل المولوتوف في البداية ، ثم بالقنابل اليدوية مما أثر في ظهورها أثناء الغارات ثم اختفائها تماماً ، وبعدها قلت الغارات على قلب الإسكندرية ، وصارت هناك في ضاحية الدخيلة والمكس غرباً ، أو في سيدى بشر وباكوس شرقاً ، وساهم في ندرة الغارات الآن انكسار جرازياني الذي انهار جيشه تماماً والذي كان انهياره أكبرمن إمكانية إخفائه مما جعل الدوتشي يخطب معترفاً بالهزيمة " نحن لا نكذب مثل البريطانيين ، فقد أكتسح جيش برمته هو الجيش الخامس مع جميع وحداته تقريباً ومحيت القوة الخامسة الجوية محواً تاماً تقريباً ، ولكنا قاومنا ما استطعنا مقاومة شديدة ، وفي بعض الأحيان مقاومة عنيفة " .وسقطت مقديشيو عاصمة الصومال الإيطالي في يد البريطانيين ، ثم سقطت بربرة عاصمة الصومال البريطاني ، وأقيل جرازياني من جميع مناصبه ، كما أقيل الجنرال كالفيرو من القيادة العامة بألبانيا بعد انتصارات اليونانيين الكاسحة ، وتم تعيين الجنرال جاريبالدي بليبيا ، وهددت بريطانيا بلغاريا إذا ما تخلت عن حيادها ، والألمان يضغطون بالحشود على حدودها ، ونزل بعض المظليين البريطانيين جنوب إيطاليا ، كما تم ضرب جنوا من البحر لكن تم القبض على المظليين الإنجليز ، وزار الملك إدريس السنوسي في جبته الأزهرية وبلحيته التي تستدير حول وجهه معسكر الأورط الليبي المؤلف من اللاجئين الليبيين في مصر ، وأذيع في ليبيا منشور الحاكم العام الإنجليزي الجديد (أنا هنري مينلاند ولسون القائد العام للقوات البريطانية في ليبيا

أعلن بموجب هذا إنذار جميع السكان في المنطقة التي كانت تحـت الحكـم الإيطالي سابقاً أن يكفوا عن كل عمل يسبب تعكير الأمن العام) ، ودخل هيلاسيلاسي أثيوبيا وخطب في شعبه مهنئاً إياه على الانتصار ، واستضافت الباخرة النيلية (بيوريتان) الطيارين من سلاح الجـو الملكـي الإنجلـزي العائدين من ميادين القتال لمدة ليلة واحدة بمرساها بالجزيرة في القـاهرة ، ورقصت في السهرة رافصة مصر والشرق حكمت فهمي ، وغـنى عبـاس البليدى ، ومحمد أمين وعقيلة راتب ، وأقيمت حفلة خيرية بسينما استوديو مصر لتدعيم الهلال الأحمر والصليب الأحمر المصريين حضرتها سمو الملكـة نازلي وسمو الأميرة فايزة في المقصورة الملكية ، وكشف النقاب عن اسم قائد الفرقة المدرعة التى قامت بالهجوم الخاطف على سيدى بـراني في ديسـمبر الماضي فأوقع الاصطراب فى صفوف الإيطاليين وهـزمهم ، إنـه البجـور جنرال ميشيل أومور كريج ، انضمت يوغسلافيا إلى المحور لكن انـدلعت فيها المظاهرات وحدث بها انقلاب أودي بالنظام الملكي ، وأعلـن حيـاد يوغسلافيا من إحصاء عدد الطائرات الإيطالية التي فُقدت تبين أنه في شهر واحد هو فبراير الماضي فقدت إيطاليا ثلاثمائة وأربعا وستين طائرة واحتفل يوسف وهبى بافتتاح مسرح رمسيس بمسرحية (المجنون) بمناسـبة مـرور تسعة عشر عاماً على قيام مسرح رمسيس ، وشاركته التمثيـل السـيدة البارعة روز اليوسف وحضر إيدن وزير خارجية بريطانيا إلى مصر وقابـل الزعماء المصريين وكذلك قابل الجيش الثامن ، وأعلن الأسطى غبريـال في العمل عن حاجة المصلحة إلى عاملين يعملان على مزلقان العلمـين . لقـد استدعى إلى الإدارة صباح اليوم وتم تكليفه بإنجاز المهمة ، وسيكون ذلـك

خلال شهر من الآن " فعلى من يرغب في الذهاب أن يتقدم إليّ لأنقل اسمه إلى الإدارة " ثم قال " أنا أعرف أنكم جميعاً متزوجون ولـديكم أولاد ولا تحبون التغرب لأوقات طويلة لكن أمامكم وقتاً لتفكروا وأرجـو أن أجـد بينكم من يوافق طواعية لأني إذا لم يتحقق ذلك سأختار بنفسى واختيـاري نهائي كما أبلغت " وأحس مجد الدين ودميان أنه قد ينتهي الأمر إليهما ، إذا لم يتقدم أحد فلابد أن غبريال سيختارهما لتخفيف الضرر قدر الإمكـان ، فهما علىالأقل جديدان هنا . وبدأ غفارة يهجر غيط العنب وكرموز بعـد أن خلت معظم البيوت من سكانها ، وراح يعمل بعربته في أحيـاء غربـال وبوالينو ومحرم بك كل يوم منذ الصباح الباكر ، ولكنه يعود منتصف الليل يائساً منعباً فمحصوله ضئيل يكفي بالكاد نفقات عليقـة الحمـار ، كمـا سقطت قطعة زجاج من القطعتين اللتين تغطيان عينه ولم يضع بدلاً منها ، أما زهرة فقد ارتفع بطنها كثيراً ، فهذا هو شهرها السابع يكاد ينتهى ولم يعـد الجلوس مع أم حميدو مشجعاً كيف حقاً تجلس امراة حامل فى مدخل بيـت أمام الرصيف ، لذلك حرمت من حكاياتها في وقت هي أحوج مـا تكـون إليها ، فمن ناحية صار باب حجرة الست مريم لا يفتح إلا لدخول أحد أو خروجه ، وبدا أن الأسرة كلها لا ترغب في الحديث مع أحـد ، وصـار حضور الفسيس كثيراً ، كل يوم تقريباً الآن ، وزهرة تسمع دائماً همهمـة وشجارا مكتوماً وأنيناً خافتاً وأحياناً بكاء صامتاً ولا تعرف ماذا تفعل مـع الأسرة الطيبة التي بدا فجأة أنها لا تريد الحديث مع أحد . وأم حميدو أيضاً كانت حاجتها إلى زهرة أكثر هذه الأيام ، فحميدو ، ابنـها الوحيـد ، تم اعتقاله ونقل إلى جبل الطور مع المجرمين الذين يهددون الأم وسلامة البلاد

زمن الحرب ، والسكان القليلون البائون في الشارع شملهم الحـزن ، يـأتي الواحد أو الواحدة لشراء ما يريده من خضر أو فاكهة صامتاً ويمضي صامتاً لا يرفع عينيه عن الأرض كأنه يحمل جبلاً من العار ، والحقيقة أن الإحساس بالفراغ المحيط من ناحية ، وتوقع الموت تحت الغارات في أى لحظة يجعـلان الإنسان رفيقاً كشعاع من أثير ، ولم يبق لأم حميدو غير مورد الخضر الـذي يمر عليها عند الفجر كل يوم قادماً من الوكالة بعربته التي يجرهـا حصـان قوى ، أما جندي الجيش المرابط الذي كان يغنى لها ويعرض عليها الـزواج فقد نقل إلى دمنهور . وقالت زهرة لمجد الدين :

- عاد القسيس يظهر من جديد كل يـوم الآن . لا أرى أيـاً مـن البنتين . لا أعرف متى يخرجان في الصباح . إنهما تتسللان بلا صوت فيمـا يبدو حتى لا أراهما والست مريم لا تفتح بابها طوال النهار .

وفوجئت بمجد الدين يقول لها :

- أنا أيضاً قابلت ديمتري أكثر من مرة على السلم فلم يقف للحديث معى . اكتفى بالتحية ولم يبد إنه يريد الكلام . اليوم سألني بـأدب مـا إذا كنت أستطيع الانتقال إلى غرفة البهي أسفل ، لكنى أحسست أنه يطلـب منى مغادرة البيت .

- البيوت كثيرة وفاضية وألف من يتمنى أن يؤجر غرفة .

- لا . لن نترك البيت . سننزل أسفل . ديمتري في نكبـة حقيقيـة ، وهو اليوم لا يريدنا أن نعرف شيئاً عنه ، لكن غدا قد يحتاجنا .

واستعان بدميان يساعده على نقل الأثاث القليل إلى غرفة البهي . ما أن دخلتها زهرة وفتحت نافذتها المطلة على الشارع ورأت أم حميدو أمامها في حلق باب البيت المواجه حتى استأنست . لن تجد هنا الصـمت الـذي يعشش في الدور الثاني ، ستسمع حركـة المـارة في الشـارع وأصـوات الأطفال . وأخذ دميان مجد الدين بعد نقل المتاع ومشيا إلى المقهى البعيـد على المحمودية عند بائعي الترمس ، لقد انقطعا عنها كثيراً الآن . هناك بادره مجد الدين بالسؤال :

- لماذا جئت بي إلى هنا يا دميان . لقد كنا نسينا المكان ؟

- أولاً : أنا تقدمت كثيراً في الكتابة والقراءة ، . بعد أيـام سـأقرأ الجرنال .

- الحمد لله .

- ثانياً : أحببت أخبرك أن الخواجة ديمتري في أزمة كبيرة .

- أدر ذلك لكني لا أعرف ما هي الأزمة ولا هو يتحدث إليّ .

سكت دميات قليلاً ثم قال :

- أظن أنها أزمة لا يمكن إفشاؤها . إنها تشغل فساوسة الكنيسة أيضاً لقد سمعت لغطا في الكنيسة حول الموضوع لكن لم يتأكد لي مـا إذا كـان الحديث عن ديمتري أم غيره .

وسكتا طويلاً . مجد الدين لا يحب التطفل أو السعي لمعرفـة أخبـار الناس . حتى ما يأتي إليه من أسرار الناس لا يحمله ، وبالطبع لا يفشيه ، إنه يكره النميمة بكل أنواعها . وقال دميان :

- هناك كلام يقال عن حب بنت مسيحية لولد مسلم .

اتسعت عينا مجد الدين دهشة.. هذه أول مرة في حياته يسمع شـيئاً من ذلك ، واستمر دميان يتحدث .

- هذه مسألة تحدث نادراً يا شيخ مجد ، ودائماً تفشل ، لكنها تكون قد تسببت في أزمات بالكنيسة والبيت ، عندكم في الإسلام لا توجـد أي مشكلة في ذلك ، عندنا لا .

.....

- أنا طبعاً لا أعرف هل الموضوع يخص أسرة ديمتـري أو غيرهـا ، ولكن على أي حال ديمتري في أزمة ستنضح مع الأيام .

عاد مجد الدين إلى البيت واجماً . سألته زهرة عن سر وجومه فلم يجد إلا حمزة ينقذه . قال إنه لم يعد حتى الآن . وكان ذلك حقيقياً ، قالت له إنه سبق وقال لها ذلك . قال هناك كلام عن كونه صار أسيراً لدى الألمان . ولم تفكر هى كيف عرف ذلك وهو لم يدر أيضاً كيف ولماذا قال ذلك ، لقـد شغله اختفاء حمزة الأيام الماضية كما شغل زملاءه في العمل . لقـد أبلـغ الأسطى غبريال الإدارة التي أبلغت بدورها حكمدارية الإسـكندرية الـتي قالت إنها اتصلت بالقيادة العسكرية للجيش الثامن بمرسى مطـروح وإنهـا تنتظر ما يفيد في الموضوع . ولم ينقطع بكاء زوجة حمـزة وبناتـه الـثلاث

الصغيرات في بيته في مسكن المصلحة وجاء أهله من رشيد فظهر أنهم نـاس موسرون محترمون للغاية ، وله ابن عم من الوجهاء يشغل مركزاً في حـزب الوفد ويتولى هو كل الاتصالات من أجل الوصول إلى خـبر عـن حمـزة المسكين .

في العادة يحط الصمت الحزين على زملاء حمزة في البوسـتة بعـد أن يتحدثوا عما جرى باستنكار ودهشة ، ولكن الأمر أيضاً لم يعد يخـلُ مـن دعابة فيقول أحدهم أن حمزة سيعاني من الصمت أكثر من أي شيء آخـر لأنه لن يفهم الإنجليزية أو الهندية ، لن تسعفه الكلمات القليلة التي يعرفها ، ومن ثم لن يجد الفرصة ليقول عما يقوله الجنود من أنه رآه أو حدث لـه قبلهم ، ولن يفيده شعر بيرم أو غير بيرم ، لكنهم في النهاية يضربون كفـا بكف . ومن كان يصدق أن ذلك مكتوب ومقـدر لحمـزة ؟ وصـاروا حريصين في إقبالهم على قطارات الجنود . لم يعودوا يقتربون منها كـثيراً . وفي كثير من الأحيان لم يعودوا يتحدثون إلى الجنود أو يهتمون بالفوز بمـا كانوا يفوزون به من معلبات وغيره . لقد ظهر لهم أن كل ذلك لا قيمة له أمام اختفاء زميلهم الذي اختطف من بينهم في الظلام . وبالأمس انتحـب دميان بشدة ، إنه هو مجد الدين أكثر الناس تأثراً منذ تأكد غيـاب حمـزة صباح اليوم التالي لاختطافه . دميان يشعر بالأسف لأنه كان يعارضه دائماً ويسعد بكشف أكاذيبه اللذيذة ، ومجد الدين لأنه أهانه مرة ولأنه أيضاً فكر في إمكانية اختطافه هو ، حمله من يده إلى القطار ، والذهاب به إلى الجبهـة كما حدث للبهي أخيه في الحرب السابقة ، فهل كان يعرف بمصير حمـزة ولا يدري ، أم لعله السبب بتفكيره المجنون ذلك ؟! لقد كان حمزة مسالماً مع

دميان دائماً ورفيقاً مع مجد الدين ، وعطوفاً على الأطفال ومحباً للجميـع . إنه شخص جدير بالشفقة والحب معاً . وهذا ما يبدو على وجوه الجميـع الآن وخاصة شاهين ، أطولهم و أقواهم ، مفتول العضلات الـذي يحمـل الفلنكة الواحدة بيد واحدة ، وعادة في العمل يحمل الفلنكات اثنتين اثنتين بين ذراعيه . لقد كان أكثرهم وجوماً وغما ، لكنه في الحقيقة كان يعاني من هم آخر ، لذلك حين اقترب منه مجد الدين يقول " إن حمزة ذكى ولابـد سيعرف كيف يعود " فوجئ به وقد دمعت عيناه يقول بصوت خفيض :

- أنت رجل طيب يا شيخ مجد تحمل كتاب الله ، لينك تأتي معى تعالج ابنى بالقرآن أو تدله على الهداية .

فى ظهيرة اليوم نفسه ، كانت إيفون قد عادت ترتعش من المدرسـة . ما إن صعدت إلى الشقة حتى نزلت تجرى على السلم وأمها خلفها . كانت زهرة عائدة من الخارج . اصطدمت بها إيفون آخر السلم ، فتركت نفسها تسقط فى حضنها وتصرخ :

-كاميليا راحت يا نانت زهرة ، كاميليا مش راجعة تاني .

كان قلب البنت الرقيق يرتجف وعيناها تهميان دمعاً ، وجسدها كلـه ينتفض ، وظهرت الأم خلفها قوية تفتح عينيها في غيظ وأمسكت بابنتها من ذراعها تشدها .

كانت زهرة قد تركت ما اشترته ليسـقط مـن يـدها إلى الأرض ، وأحاطت إيفون بذراعيها تربت على ظهرها .

- اتركي البنت يا ست مريم إحنا بيننا عيش وملح .

- زهرة . لا تتدخلي بيننا .

هكذا قالت الست مريم بخشونة حتى إن ذراعي زهرة استرختا وسحبت الأم ابنتها إلى أعلى ودخلت زهرة ذاهلة عما اشترته وسقط منها ، وفي حجرتها جلست تبكي بشدة .

مشى دميان إلى اليمين ، ومجد الدين إلى اليسار في صحبة شاهين في اتجاه مسكن المصلحة مع بقية العمال .

كانت هناك غيوم خفيفة في السماء تنذر بمطر قد يتأخر في النزول إلى منتصف الليل . ذلك المطر الذي يفاجئ الإسكندرية بعد أسابيع من انقضاء الشتاء ولا يشغل من الوقت إلا قليلا ، ويتكرر مرة أو مرتين .

شاهين يمشي بهمة فهو قوى واسع الخطوات ، مجد الدين يحاربه في المشى بصعوبة . العمال جميعاً ، باستثناء دميان طبعاً ، كانوا يمشون في اتجاه السكن وبدأو السير معاً ، وبعد قليل انفرط عقدهم . أسرع من أسرع وتأخر من تأخر . كل وطاقته . قال شاهين لمجد الدين .وهما يتجاوزان البوابة التى تفصل السكن عن السكة الحديد :

- سكن قديم منذ الحرب الأولى مخازن ومأوى للقوات الإنجليزية . حقط تتقدم بطلب لتحصيل على بيت فيه . في الأيام القادمة سيصل أكثر من عامل إلى نهاية الخدمة .

- يحصل إن شاء الله .

قال مجد الدين ذلك بأمل حقيقي . لو فاز ببيت هنا يكون قـد أنجـز أفضل خطوة له في الإسكندرية . سيخبر دميان ليتقدم بطلب معه . يتفاءل بأن يفعلا كل شيء معاً .

خرجا من الطريق الترابي الضيق فظهرت أمامهما ترعـة المحموديـة والطريق الموازي لها .

يعرف مجد الدين هذا المكان جيداً منذ أيام البحث عن عمل . كـثيراً ما جاء ليعمل في شركة الزيوت والصابون على هذا الجانب بعد السـكن بقليل . انحرفا إلى اليسار ، جوارهما على اليسار أيضاً نوافذ البيوت الخشبية الصفراء مغلقة . البيوت منخفضة من دور واحد كلها . بعد خطوات دخلا من بوابة السكن ذاتها ، قديماً كانت ضلفتين من جذوع الأشـجار ، بـاب يغلق على الجنود في المساء ، الآن ضاعت الضلفتان .

أمام البيوت عشش من الصفيح تضيق مسافة الأزقة ، وتجعلها بالكاد تكفي لشخصين ، ومن العشش ترتفع رائحة ماعز وغنم وأصوات للمـاعز والغنم والدجاج أيضاً ، دخل به شاهين إلى شارع عريض قصـير يتوسـط صفين من البيوت على الجانبين لا يظهر غير نوافذها المغلقة ، إذ إن أبوابهـا من الناحيتين الآخريين . في نهاية الشارع توقف ، بعد أن انحرفا يميناً خطوات أمام إحدى العشش .

- هذا هو البيت يا شيخ مجد .

وطرق شاهين باب العشة الصفيح ، جاء من الداخل ضوء محمـول وصوت يسأل عن الطارق ، فتحت المرأة حاملة اللمبة السـهاري البـاب وانحرفت بحيث صارت خلف الضلفة ودخل شاهين وفي أثره مجد الـدين . تحرك الدجاج الكائن في ركن العشة ، وتحركت عنزة صغيرة في ركن آخر . رفست بأقدامها وهي نائمة على جانبها ودخل شاهين إلى صالة واسعة خالية إلا من حصير وبعض حشايا متفرقة بينها عدة كتب مبعثرة ومنضـدة مـن خشب قديم فوقها كتب بلا نظام وخلفها مقعد قش . ثم دلف شـاهين إلى حجرة داخلية كبيرة بها سرير متوسط الارتفاع وكنبة يتمدد فوقها " رشدي " الذي ما إن رأي والده وضيفه حتى اعتدل جالساً يرتدي جلباباً نظيفـاً وكانت الجدران مطلية باللون الأزرق السماوي ونظيفة ، وكان السـقف أبيض وتضيء الغرفة لمبة جاز كبيرة (نمرة 10) موضوعة فوق رف علـى الحائط . وقال شاهين :

- ابني رشدى يا شيخ مجد – ثم خاطب رشدى :عمك الشيخ مجـد الدين .

لم تدخل المرأة زوج شاهين و أم رشدي . ظلت بالصالة الخارجيـة تفكر في هذا الشيخ الذي يشع من وجهه النور والسكينة الذي كثيراً مـا تحدث شاهين عن تقواه ، هل يفلح في علاج ابنها مما دهمه فجأة هكذا.

كان مجد الدين قد جلس جوار رشدي ، وكان شاهين قد جلس أيضاً من الجانب الآخر على الكنبة ، ورأي مجد الدين كثيراً من الكتب الصغيرة

في أركان الحجرة ، ومكتبة خشبية قديمة هزيلة معلقة بالحائط فـأدرك أنـه أمام شاب مختلف عما توقع ، لكنه ابتدا الكلام . قال :

- مالك يا استاذ رشدي . ما هي وجيعتك بالضبط ؟

- هل جئت تعالجني يا سيدنا الشيخ ؟

كان رشدي شاحباً شحوب الموت ، سكن الحزن العميق عينيه وترك ذقنه لكنها لم تطل كثيراً ، فهي لا تزيد على بؤر متفوقة من الشعر لا تلتحم ولا تصل إلى سوالفه ، ووجهه خلفها يكاد يشف فيه الجلد عن العظم :

- الشافي هو الله يا استاذ رشدي .

هز رشدي رأسه بهدوء وقال :

- مهمتك مستحيلة يا سيدنا .

وانفجر في بكاء سرعان ما صار نحيبا فسمع صوت أمـه تنتحـب في الخارج واحتضنه أبوه وراح يقول :

- لا تقتلني يا ابني ، لا تقتل أمك ، قل لنا ما هي وجيعتك .

استدار رشدى ونظر إلى الشيخ مجد الدين نظرة طويلة ، وقال :

- القرآن لن يشفيني يا سيدنا . لا تؤاخذني . أنا لا أقصد الإهانة . أنا مؤمن شديد الإيمان ومشكلتي هي أن إيماني يتسع لكـل النـاس ، ولكـل الأديان ، لذلك أحببت فتاة مسيحية ؟ هذه محنتي يا مولانا الشيخ .

غمغم رشدى بحشرجة في محاولة لمنع البكاء . وتأكد لمجد الدين أنـه أمام شاب شديد الذكاء . ضرب الأب كفا بكف ، أم الأم في الخارج فقد سمع صوتها وهي تقول : " الشر برة وبعيد .. ليه يا ابني تضـيع نفسـك . تحب كافرة " ولم يستطع مجد الدين أن يقول لرشدي إنه لا يزال صغيراً على الحب ، فهو حقاً يبدو هشاً نحيلا لكنه أيضاً يبدو واسع المعارف صـعب أن يقتنع إلا بما يفهم لذلك ظل مجد الدين صامتاً واستمر رشدي يتكلم .

- أنا أعرف مقدار خوف أبي وأمي على . أنا لست مجنوناً ولن أترك الجنون ينال مني . أنا فقط لم أعد أراها منذ عشرة أيام . يخيل إلى أن أهلـها عرفوا القصة وقتلوها . لم تعد تذهب إلى المدرسة ، حتى أختها لا أعرف ما إذا كانت انقطعت هي الأخرى عن الدراسة أم لا ، لكني أيضاً لا أراهـا . لقد ذهبت إلى بيتهم ووقفت بالنهار وبالليل فلم أعرف شيئاً ولم يفدني أحد بشيء .

كانت شفتا الولد ترتعشان وهو يتحدث في الضوء الأصفر الشاحب وكانت عيناه تدمعان بلا توقف . هؤلاء الأشقياء بالحب يموتون سـريعاً . قال مجد الدين لنفسه وتذكر البهي وأيقن من العاقبة . ومن وجـه الغـلام الشاحب تشع هالة القداسة التي كانت للبهي . الفارق بينهما هو الفـارق بين القرية والمدينة . ابن المدينة يقدم على الحب بذاتـه . لا يتـرك نفسـه للريح .

- ما رأيك يا شيخ مجد ؟

تساءل الأب اليائس بعد أن وجد الشيخ مجد الدين يصمت طـويلاً . تأمل الشيخ مجد الدين الغلام ومد يده إلى كتفه يجذبه إلى صدره فترك الغلام نفسه يرتاح عليه ، بينما راح مجد الدين يتلو ما استطاع من القرآن ، سورة الإخلاص ، وألم نشرح لك صدرك ، والمعوذتين ، وآية الكرسي ، وسورة يس ، وأجزاء من سورة التوبة ، والأم تبكي في الخـارج وتنتحـب والأب يطلب الشفاء لابنه صامتاً ضارعاً بيديه ومجد الدين الوحيد الذي يـدرك أن الفتى منذور للعذاب سريع الذهاب ليس ندا لهذا الزمان . ورفع وجه الولد من على صدره وراح يجفف له دموعه بمنديله يقول :

- لوطلبت من الله شيئاً يا أستاذ رشدي لا يكون إلا غلاماً في عقلك ورجاحتك – ثم خاطب الأب – يا شاهين أسمع . الإسلام رخص للمسلمين الزواج من الذميات من المسيحيين واليهود ، والنبي أوصى على قبط مصر ، وهو زوج ماريا المصرية وأن إبراهيم – ثم عاد بالكلام إلى رشدي – لكن المشكلة يا أستاذ رشدي إنك في بداية حياتك وتحتاج إلى وقت . وأنت أيضاً اخترت أضيق السبل . لا أبوك ولا أمك سيمانعان زواجك من المسيحية . وسمعت همهمة لأمه في الخارج – لكن هل تعرف طبيعية أهل الفتاة . هناك مسيحيون طيبون وهناك مسيحيون غير طيبين ، تماماً مثل النـاس في كـل الدنيا ، وإذا كانت البنت اختفت كما تقول فواجبك أن تختفي أنت أيضـاً حتى تعطيها الفرصة لحياة طبيعية . يا أستاذ رشدي لقد عرفت من والـدك أنك في البكالوريا هذا العام , أنك شاعر تقتطع من قوتك لشراء الكتـب وتعلم اللغات ، وإنك تعد نفسك للسفر إلى أوروبا ، الـتي إن شـاء الله سينتهي فيها الحرب هذا العام ، لتكون مثل طه حسـين عبقريـاً. الحـب

والزواج الآن يعطل هذا كله . ثم يا أستاذ رشدي لا تخف علـى الفتـاة ، عندنا فى المثل " اكسر للبنت ضلع يطلع لها اثنين " . والنساء عادة ينسـين أسرع من الرجال فيندفعن فى الحب ويندفعن في النسيان .

- سكت الجميع طويلاً تلك الليلة حتى قال رشدي فجأة :

- سأذهب إلى أهلها أعلن لهم ابتعادي عنها .

دخلت الأم فزعة إلى الحجرة تقول :

- لا .. لا تذهب .. لا يذهب أحد .. كل شئ سينتهي مـن تلقـاء نفسه.

لكن مجد الدين الذي لمح عذاب الغلام على وجهه قال له :

- اجعلني بديلاً عنك . أعطني عنوانها واسمها وأطمئن لك عليها وأنهى المشكلة .

قال رشدي بعد تردد :

- اسمها كاميليا ، تسكن بشارع البان ، بيت نمرة ثمانية وثمانين . لقد قال لي مرة إن في بيتهم رجلاً يعمل بالسكة الحديد ولم تقل لى اسمه .

لم يعلق مجد الدين . نهض واقفاً بعد أن شحب لون وجهه . ارتعشت يده وهو يصافح الغلام يربت على ظهره ، خرج معه شاهين حتى المحمودية ، لكن مجد الدين لم يشعر بوجوده .

أسرع مجد الدين بعد ذلك كأن شيئاً يطارده . هل هو عينـا الغـلام الذابلتان ؟ أم وجهه الشاحب المعذب ؟

صار " يخب " وسط شارع قنال المحمودية المظلم ولا هـادي لـه في الطريق فلا مصابيح ، فقط ضوء واهن يتسرب من فجوات بين السـحب لقمر صغير ، وضوء عليل ينعكس على أسطح برك المياه الضـحلة فـوق الأسفلت غير المستوى فيقفز مجد الدين فوقها أو يـدور حولهـا، ووسـط المحمودية أضواء خافتة لمشاعل قليلة بالصنادل والسفن المتباعـدة وسـط الظلام . الأشرعة البيضاء للسفن ملفوفة حول صواريها ، والسفن تبـدو كتلا عملاقة من الظلمة ، والمصانع على الضفة الأخرى معتمة تتسرب من نوافذها الزجاجية العالية أشعة بنفسجية مقتولة ، لكن المداخن العالية تنفث دخاناً أبيض واضحاً في الظلام ، ورغم أنه منقطع وغير كثيف والترام الـتي تتحرك على الشاطئ الآخر أيضاً مضيئة بأضواء صـفراء شـاحبة لكنـها تكشف له رجلاً يزحف صاعداً سفح الشاطئ خارجاً من الماء . لابد أنـه كان يتبول أو يتغوط أو لعله من سكان هذا الخراب ... إنه لا يميزه لكنـه يراه كتلة من السواد تتدحرج إلى أعلى ، وعلى يمين مجد الدين كانت بناية مخازن بنك مصر الكبيرة الممتدة لمسافة طويلة رأى أمـام إحـدى بواباتهـا المفتوحة ،والتي ميز أنها مفتوحة لاشتداد الظلمة خلفها عما حولهـا ، رأى سيجارتين تشتعلان للحظات فتظهران وجهين غير واضحي الملامح ، إنهمـا وجها دركيين من الجيش المرابط بالتأكيد .

- السلام عليكم .

ولم يرد أحد . عادت السيجارتان للاشتعال للحظات . نقطتان ناريتان صغيرتان أمام دائرتين من الجلد الشفاف ! .. أسرع في الخطو حتى جـاوز بناية المخازن فدخل في خلاء وعماء مطلق . ولا بيوت ولا أضواء ، ولابـد أن سحباً كثيفة حجبت كل ضوء القمر ، وبالمحمودية لا توجد الآن سـفن وعلى الشاطئ الآخر لا مصانع ولا يتحرك أي ترام . ثم ارتفع عـن يمينـه جدار مشوه شديد الظلمة له رائحة الشحوم والصابون . إنها آلاف البراميل التي استطاع تمييزها ، وهي قريبة منه جداً ، مصفوفة إلى ارتفاعات عالية ، هل يمكن أن تقع الآن وتجري أمامه إلى مياه المحمودية ؟ وفي كل فضاء كـبير أو صغير بين هذه التلال أكوام من المعادن الخردة ، لها رائحة لحام المعادن ، وتلمع في وسطها شرائط من النحاس الأصفر والألمونيوم والصلب والكروم والنوتياء . إنه لا يميز هذه المعادن ، لكن لابد أنها هي التي تلمع أو بعضها ثم رأى كشكاً خشبياً مدهوناً بالأصفر اللامع تمكن شعاع هارب من بـين السحب أن يصل إليه . اقترب منه فسمع همهمة وغمغمـة وشـيئاً أشـبه بالحشرجة ، ثم صوت نسوي عصبي يقول " بالراحة " وصوت رجل يقول " ماهو بالراحة أهو . أكثر من كده راحة " ثم ضحك متقطع فأسرع مبتعـداً مستعيذاً من الشيطان ، ويبدو أن صوت قدميه كان مسـموعاً فلاحقتـه ضحكة طويلة اختلط فيها صوت المرأة بالرجل ثم وجد أمامه فجـأة شـيئاً ضخماً عملاقاً حقيقياً ، يقف مشعلاً سيجارة في فمه قاطعاً عليه الطريق .

من أي جب خرج له هذا العملاق وماذا يريـد ، تنـاول العمـلاق السيجارة من بين شفتيه ، وقال بصوت خشن " لا تخف يمكن تنضم إليه . السعر بسيط قرش صاغ واحد " وانت مجد الدين الشجاعة والقوة أن يمـد

ذراعه فينحني العملاق جانباً ، بل تعثر العملاق وكاد يسقط ، وسمعه يقول له " على مهلك يخرب بيتك . عنتر بن شداد "، وابتسم مجد الدين الـذي كان مرعوباً منذ لحظات لكنه أسرع يخب من جديد وإحساس مفاجئ بأنـه يتعثر في خيوط كثيرة ملونة متشابكة من المطاط وبالونات عديدة تدخل بين سافيه تربك خطواته ، وتذكر حكاية الرجل الذي نزل يتوضأ بالمحموديـة ، فعلقت في سرواله الأرانب وكاد قلبه ينخلع من مكانه ولولا سور أبـيض فصير مهمل يمتد لمسافة طويلة لا يخفي شيئاً وراءه أضاء له الطريق ببيـاض حجارته ، وذكره بأنه يمشي في شارع معروف له نهاية ، لولا هذا السـور لاستبد به الخوف وربما جرى صارخاً ، وأسرع جوار السور وظهر كوبري كرموز قريباً ، يقترب أكثر كلما أسرع ، كان على طرفي الكوبري أربعـة أعمدة معدنية ، عمود في كل ناحية ، أعلى كل منها لمبة وسط غطاء مـن الزجاج الأزرق القاتم لكنها تظهر له جيداً فجعل عينيه عليها لا تحيد حـتى وصل إلى الكوبري فأخذ أول نفس حقيقي هادئ . لاحظ جوار الكـوبري كثيراً من عربات اليد عليها بضائع ما تبقى من النهار مغطـاة بالمشـمع أو الكرتون ينام تحتها أطفال يتدثرون بقطع من البطاطين فأدرك أنه تأخر كثيراً لدى شاهين ، وأخذ طريقه عبر المنزل الموجود على اليمين الذي سيفضي به إلى شارع البان الذي سيأخذه بدوره إلى بيته . أين كان بالضبط ؟ يتمـدد فيه إحساس بأنه قادم من الجحيم ، أو العدم ! هل كان الوالد صادقاً حقـاً فيما قال أم راح يجاريه لينتهي من اللقاء . على أى حال ، لا ينسـى مجـد الدين الزوال الرابض في عيني الغلام ، إنه ابن لزمن غير زماننا ولن يطول في الدنيا مقامه . يا لأبيه المسكين . ومشى في شارع البـان يفكـر في هـذا

الشخص السعيد الذي أطلق هذا الاسم على الشارع ، وأطلق أسماء الزهور على كثير من الشوارع الموازية والمتقاطعة مع شارع البان . شارع النرجس والفل والريحان والرند والكروم والقرنفل وكلها شوارع رثة سقيمة متخمة بناس متعبين مشردين لا يدرك أحد أنهم ينتمون إلى المدينة الكـبيرة الـتى يتحرك فيها كل شيء إلا هذا المكان ، إنهم لا ينتمون إلى الإسكندرية أبـداً هؤلاء الذين يعيشون في هذا المكان الإسكندرية البيضاء المرحـة المسـتفزة لاهية عنهم لا تفطن إليهم . إنهم نفايات ألقتها المدن والقرى البعيدة .

متى كان هناك من يتوقف قليلاً من أجل النفايات ؟ ومن يصدق أنـه من بين هذه النفايات يخرج أحباء وشعراء ومجانين وأولياء لله صالحين ، فقط القتلة والمجرمون هم الجديرون بالبقاء في هذا الجنوب العفن .

- إذا تأخرت هكذا يا مجد الدين .

- غطينى يا زهرة . شدي الجزمة من قدمي وغطينى , لاتتركي جزءاً في جسمى إلا وتغطيه .

" الآن فإن الآلهة على دراية بما يحدث من
أمور ، والبشر على دراية بالأحداث التي
جرت ،أما الحكماء منهم فعلى دراية
بما هو وشيك الوقع "

-20-

- لقد اخترت مجد الدين ودميان للعلمين .

قال الأسطى غبريال فسكت الجميع ونظروا إلى الأرض . لم ينفقوا على ذلك حقاً ، لكن أحدا منهم لم يتقدم للانتقال إلى العلمين ، فكان العدل هو أن يختار الأسطى غبريال هذين العاملين الجديدين اللذين لم يمضياً عاما كاملاً بعد . كان مجد الدين ودميان يجلسان متجاورين ذلك الوقت . في الحقيقة كانا يتوقعان اختيارهما . قال مجد الدين في نفسه ، الآن وجب سفر زهرة إلى البلد ، لا مناص ، أما دميان فقد ابتسم ، لكن الشحوب الذي اعترى وجهه ظل قائماً ، وقال متظاهراً بالرضا : - العلمين : السلوم . كلها بلاد مصرية .

كانت هناك أنباء عن وصول قوات ألمانية كبيرة إلى ليبيا ، وأن جيش المحور يعيد ترتيب قواته ، بل وقد بدأ بالفعل يهاجم بنغازي ، وهكذا بدا أن حرب الصحراء لن تنتهي كما توقع الجميع بعد هزيمة جرازياني ..

بعد حديث الأسطى غبريال بدأ الجميع العمل بعد فترة الراحة . اقترب مجد الدين من شاهين وسأله عن ابنه فقال الرجل وقد تحجرت الدموع في عينيه :

- اختفي ثلاثة أيام وعاد يوماً ثم اختفي أمس ، لا أعرف أين يذهب ولا ماذا يفعل في نفسه .

- هل أبلغته بما قلته لك؟

- أبلغته فلم يعد يتكلم مع أحد .

كان مجد الدين قد غامر وصعد إلى الخواجة ديمترى الذي فـتح لـه الباب مضطرباً . طلب منه مجد الدين أن يخرجا إلى المقهي فلـيلاً ، رحـب الرجل بسرعة لكنه لم يستطع أن يخفي القلق الذي ظهر علـى وجهـه .. بالمقهى قال له مجد الدين :

- لا أحد يا خواجة ديمتري يختار دينه .. أليس كذلك ؟

- بلى يا شيخ مجد .

- لاتؤاخذني إذا قلت لك أني أعرف حكاية كاميليـا مـع الشـاب المسلم رشدى... سكت الخواجة ديمتري طويلاً ثم قال :

- وعرفت اسم الشاب أيضاً يا شيخ مجد ؟!

- أبوه يزاملني في العمل .

وسكت لحظات ثم قال ديمتري باندفاع لكن بصوت هادئ :

- اسمع يا شيخ مجد . لقد عاش أخوك المرحوم بيننا سنوات فلم يشعر مرة أننا نختلف عنه في شيء . وعشت أنت الآن عامين تقريباً فهل شـعرت أننا نتعصب ضد المسلمين في شيء ؟

- لا.

- بل وكثيراً ما ندفع ثمن أخطاء المسلمين من السـكان . " لـوللا " مثلاً كانت مسلمة وكذبت علينا وألحقت بنا العار .

- معك حق يا خواجة ديمتري.

- أنا عارف إنه لا أحد يختار دينه . وأنا لا اندهش أن تحـب ابـنتي شاباً مسلماً في سنها . هى طائشة وهو طائش مثلها ، وبقليل من الحكمـة يعود كل شيء إلى مكانه .

- هذا هو ما أريد أن أتحدث معك فيه .

- لقد حاولنا أن نعيد البنت إلى صوابها وفشلنا ، أنا و زوجتي " أبونا " ولم نجد مانعاً من نقلها إلى البلد . أى قطع الطريق بينهما فترة من الوقت ، سوف تخسر البنت سنة دراسية ولكن هذا أفضل أن تخسر عمرها . إنهـا ابنتي يا شيخ مجد .

- هل توافق أنت أن تتزوج ابنتك من مسيحي ؟

سكت الشيخ مجد الدين قليلاً مباغتاً ثم قال بهدوء .

- إذا أسلم لا أمانع .

- وإذا استنصر الشاب لا أمانع أنا وغيرى . هل يمكن أن يستنصر ؟

- يقتل يا خواجة . هذه ردة في الدين .

- هل أخطأنا لأنا لا نقتل من يترك ديننا ؟

وعادا الصمت ثم قال ديمتري :

-كيف أنجب ابنتي وأربيها ثم بعد ذلك يأخذها شاب يقطع كل طريق بيننا وبينها . زواج البنت يحرمها من عطف أهلها ويحرم أهلها من حنانها .

فما بالك بزواجها من شخص له دين آخر ، لماذا يكون على أن أحرم من ابنتي إلى الأبد يا شيخ مجد ؟

طامن مجد الدين رأسه يفكر في صدق إحساس ديمتري الذي استمر في الحديث ..

- أظنك فهمتني الآن .. أنا لا يهمني أن يكون مسلماً أو مسيحياً . لكن ما هي الطريقة التي تجعل ابنتي بعد زواجها ابنتي أيضاً ؟ إما أن يستنصر وإما أن ندخل كلنا في الإسلام ، وهذا مستحيل وذاك . إذن هو العذاب لبعض الوقت يا شيخ مجد ، فقط لبعض الوقت وتحل المشكلة ، أم لابد أن نتعذب جميعاً وإلى الأبد ؟

وظل مجد الدين صامتاً .

- أرجوك ساعدني . هل تستطيع ؟

- أستطيع .. سأساعدك يا أخي ديمتري .

- ولا يكون في نفسك منا شيء . لقد طلبت منكم النزول إلى أسفل لنتحدث في مصيبتنا بحرية ، حتى إذا ارتفع صوتنا بشيء في الدين لا تسئ فهمنا . ليدخل " أبونا " ويخرج دون خجل لقد كان خجلان من دخوله إلينا وخروجه وأمامنا جار مسلم لابد يعرف سبب مجيئه وقال لي بالحرف

الواحد قد يظن الجار أني أكره المسلمين بينما أنا أحاول شفاء البنـت مـن طيشها .

- أنا أيضا لم أترك البيت استعداداً ليوم تحتاجني فيه ، لقـد أمضـينا بينكم أياماً جميلة في زمن صعب يا أخي ديمتري .

وقفا وعادا إلى البيت معاً ، وصعد الخواجة ديمتري وهو يقول لمجـد الدين بصوت عال :

- يمكن لزهرة أن تصعد أى وقت تجلس مع مـريم وإيفـون كمـا تعودت ..

كان ما فعله ديمتري هو نفسه الذي اقترحه مجد الدين على رشدي . أن يبتعدا لبعض الوقت .

ها هي قد ابتعدت قبله ، أو أبعدت ، فلا فرق ، المهم أن لا يلتقيـا فيندمل الجرح الطائش .

في اليوم التالي لهذا اللقاء مع ديمتري نقل مجد الدين الخبر إلى شـاهين الذي نقله بدوره إلى ابنه ، ووجد مجد الدين أن هذه النهاية مريحة وطبيعية ، وان المشكلة على هذا النحو ستنتهي تلقائياً دون أن يكلف رشدي نفسـه عناء الذهاب إلى أهل كاميليا . لم يعد هناك جدوى لأن يعلن لهم ابتعاده عن البيت ، وزهرة صعدت مرة واحدة إلى أعلى فوجدت إيفون تبكي وأمهـا تعمل على الماكينة في صمت . حاولت الأم وابنتها الظهور بمظهر أفضـل ، وسألت الأم زهرة عن أحوال حملها ، وأحوال الشيخ مجد في العمل ، وعن موعد ولادتها ، وفي كل الوقت كانت إيفون كلما توقفت عن البكاء عادت

إليه حتى اضطرت لدخول الغرفة الأخرى ، الغرفة التي كانت بها زهرة ومجد الدين من قبل ، وهناك أيضاً لم ينقطع نحيبها . قالت زهرة للست مريم .

- إلى هذا الحد تحب إيفون أختها ولا تصبر على فرافها ؟

فالت الأم :

- إنها تخشى أن لا تعود .. لا أعرف من أين تأتيها هذه الأفكار ؟

لكن زهرة رأت الأم أيضاً تغالب دموعها .

عاد الزحام إلى المحطة من جديد بعد الأخبار بنزول الجيوش الألمانية إلى ليبيا .لقد بدا في وفت أنه لم يعد في الإسكندرية سكان . لذلك بدا الزحـام مفاجئاً لمجد الدين وزهرة معاً . لقد جلس مجد الدين على الأرض جوارهـا بين رائحة العرق المكتومة التي تملأ فضاء المحطة الكبيرة ، حولهما وفي كـل مكان المئات من الجالسين متشحي السواد من النساء وبالجلابيب والملابس الأفرنجية من الرجال والأطفال في كل مكان يجرون بين الجالسين والقفـف والحقائب والصناديق أو يبكون أو ينامون على أفخاذ أمهاتهم .. حالة مـن الكدر تستولى على وجوه الجميع . لكن كانت هناك بين الحـين والحـين ضحكة طويلة لامرأة أو رجل ترتفع من مكان ما . وكذا هذا السكون كان يهتز حين يدخل المحطة قطار ، فالمحطة الكبيرة خالية والقطار الذي يـدخل يهرع إليه الجميع ، ويقف الجميع أيضاً في حيرة يسألون عمال المحطة عـن وجهة هذا القطار ، والجميع يدخلون إلى عرباته ، والجميع يعودون وينزلون فليس هو القطار المناسب لهم .

وهكذا يبدو دائماً ان " الجميع " هم الذين يفعلون كل هذه الأفعـال المتضادة في وقت واحد من شركة الحركة والزحام .

كانت زهرة قد صعدت تودع الست مريم التي بـدت متماسـكة : قبلت زهرة قبلتين على خديها وتمنت لها السلامة في السـفر والسـلامة في الوضع ، لكن إيفون لم تتمالك نفسها فبكت كثيراً على صدر زهرة وهـي تقول " حتوحشيني موت " ولأول مرة تدرك زهرة أنه لا فرق بين إيفـون وكاميليا ، فالبنتان مثل النسيم ومثل الملائكة الـتى لا يراهـا أحـد . ولم تستطع زهرة أن تمنع دموعها من الإنحدار على وجنتيها متزجـة بالكحـل الأسود .

وقالت وهى لا تقصد : " السلام أمانة لكاميليا لو شفتوها قريـب . ولو حتى شفتوها بعيد . والنبي يا ست مريم ما تجرحوا البنـت . علشـان خاطر سيدنا عيسى وستنا مريم كمان" ، وبينما قالت الست مريم " حاضر يا زهرة ماتقلقيش " جرت إيفون إلى الحجرة باكية . ونزلت زهرة مخلوعـة القلب . لم تكن تدرى أنها أحبت جيرانها إلى هذا الحـد . إنهـا لا تشـعر بالفرحة لعودتها إلى البلد ، فهى تترك خلفها مجد الدين الطيب الأمير ابـن الأصول عارف كتاب الله .

وبعد أن جففت دموعها عبرت الشارع تودع أم حميدو التي ابت ألا أن تنهض من على الأرض . قالت ضاحكة " ما أهو أنا كل يوم أقوم مـرة واحدة بالليل ، مش فضية لما أقوم مرة كمان النهارده علشان بـا زهـرة " وأخذتها في حضنها وقبلها طويلاً على الطريقة البلدية الجميلة حيث وضعت

شفتيها مكورتين على خدها وراحت تصدر صوتاً طويلاً لقبلات متقطعة متتالية ، وكررت ذلك على كل خد ثم قالت لزهرة ، إذا عادت لا تعود إلى هذا البيت ، ففي أفل من عامين قتل البهي ، وضبطت لوللا واختفت كاميليا .. فالت إنه بيت مشئوم العتبة . أجل فالبيوت أعتاب يا زهرة .

وقالت لها إنه تعرف حكاية كاميليا مع الولد المسلم وكل الناس تعرفها. وإن الرجل ديمترى مسكين . لا عاجب المسيحيين علشان ما عرفش يربي بنته ، ولا عاجب المسلمين علشان كسر قلب الولد المسكين . وقالت إن المسكين حقيقة هو ديمترى ومريم مراته طول عمرهم ناس محترمين وفي حالهم لكن نعمل ايه في حكمة ربنا ، وتحركت زهرة وهي تمسح دمعها ولم تجلس أم حميدو إلا بعد أن ابتعدت زهرة كثيراً في الشارع مع مجد الدين .

استطاع مجد الدين أن يقفز إلى القطار ويجلس جوار النافذة وتناوله زهرة بعد ذلك السلالي الوحيد الذي معها والذي به ثيابها لا غير وعلبة حلويات من حلواني " جزر " . بعد أن دخلت العربة جلست مكان مجد الدين ونزل هو ووقف جوار النافذة لا يريد أن يتركها قبل أن يتحرك القطار ،كانت شوفية أمام قدميها واقفة وقالت له زهرة وعيناها احمرتا من البكاء :

- خد بالك من نفسك يا شيخ مجد .

ولم يرد ، ظل ناظرا إليها طويلاً ، كان يود حقاً لو يسافر معها . مكتوب له أن يبتعد أكثر . إلى العلمين سيذهب بعد أيام . لم يسمع قبل وصوله إلى الإسكندرية بهذا الاسم ، ولا حتى قبل أن يعمل بالسكة

الحديد . ها هو يسمع أسماً غريباً لبلدة صحراوية . لم يسبق له العـيش في الصحراء ، لكنها بلاد الله في النهاية ، ولابد أن الله يوليها عنايته . اشـترى أربع بيضات وقطعتى سميط ناولها لزهرة التي وضعتها مع السـلالي علـى الرف .

- ربما يتأخر القطار وتجوعين في الطريق .

وتذكر كيف لم تسافر زهرة إلا بعد أن أعدت له " فرافيش " تكفيـه على الأقل شهراً ، وملأت له " بطرمانات " صغيرة بالملوخية الجافة والشاي والسكر والسمن ومسحت له وابور البريموس ونظفته ووضعت كل شـيء في قفتين ، الفرافيش وسائر الاطعمة في قفة ، وغير ذلـك في أخـرى ، ولم تنس أن ترتب ثيابه وتضع بينها بكرة خيط وعدداً من الإبر ، حتى الكبريت وضعته له وأصابع الشمع لزوم الطوارئ . لم يعد على مجد الدين غـير أن يحمل هذا إلى العربة التي ستنقله لمحطة قطار الصحراء " بالقباري " بعد ثلاثة أيام . تحرك القطار وهو يقول :

- لا تنسى أن تخبريني بسلامتك بعد الولادة .

- لكنها قالت متأثرة :

- لاتبك يا مجد الدين ، لا تبك يا شيخ مجد .

لم يكن يشعر بدموعه التي ظهرت تترجرج في عينيه . أمسك بيـدها وهرول جوار القطار الذي لم يسرع بعد ، وقبلها قبل أن تخذله سرعته أمام سرعة القطار مما أثار دهشة الواقفين بالرصيف والجالسـين جـوار زهـرة وأمامها . وقالت هي بصوت خفيض مع السلامة يا حبيبي . وتركت الطريق

مفتوحاً لدموعها ، أما هو فقد أحس بقلبه ينخلع من بين ضلوعه ويمضي بعيداً . إلى هذا الحد صارت الدنيا كبيرة ، بيضاء حقاً ، لكنها واسعة سماواتها بعيدة وأرضها تميد ، وهو ، هوطفل صغير يبكي ويرتفع صوت بكائه من شدة القهر واليتم .

لقد صارت المسافة من الرصيف إلى خارج المحطة أطول مسافة يمكن أن يمشيها لولا أن ظهر دميان واقفاً وسط الحشود الجالسة ينظر في كل اتجاه . رآه مجد الدين فأحس بشيء من الراحة وتقدم ناحيته . صديقه هذا هو الوحيد القادر على التسرية عنه . ترى ما الذي جاء به إلى المحطة الآن .

كان دميان قادماً مباشراة من الكنيسة بعد أن مر على مجد الدين وعرف من الست مريم أنه توجه إلى المحطة لوداع زوجته . لم يستطع الانتظار وأسرع يركب الترام ليصل ويلتقي بصديقه قبل عودته . الحقيقة أنه كان يمكنه الانتظار حتى عودة مجد الدين . لقد أدرك الآن فقط أنه لم يكن هناك ما يستوجب حضوره ولا هذه العجلة . إنه الحلم الذي رآه . الكابوس الذي رآه في المولد الذي حضره لأول مرة منذ سنوات بعيدة . لقد امتلأ حوش الكنيسة منذ أول أمس بالقائمين والمدين والجالسين على الأرض . عائلات متفاوتة أحضرت فرشها وأكلها وفرشت الأرض وجلست . حصر هنا . ملاءات هناك ، أحرمة من الصوف هنا . أكلمة من القطن هناك رجال بجلابيب قطنية ورجال بجلابيب من حرير ورجال بجلابيب من الصوف ورجال ببنطلونات قديمة أو جديدة ونظارات . نساء

عاريات الأكتاف يجلسن بقمصان البيت ونساء مغطيات بالطرح الحريرية وأطفال من كل سن وشكل وعراة وجلابيب ، وحفاة وبصنادل خفيفة ، ولا أضواء غير الشموع بالشمعدانات التى علقت حول الأعمدة أو ثبتت في الحوائط تحت القبة المظلمة . والجميع تحت القبة وأمامها .فى صحن الكنيسة ، في صلاة وخشوع . وأصوات القداس تتهادى إلى قلب دميان وفي قلب القبة أمامه صورة مار جرجس الشهيرة الكبيرة الكريمة وهو يطعن الحية ، وهذا هو مار جرجرس الذي يرعاه في الدنيا الآن فيالها من رعاية وبالها من غبطة تجعله ينسى زحام الحوش وآلام الناس وهذا الزحام الشديد حول الكنيسة . مسلمون ومسيحيون جاءوا يشاهدون ويشاركون في الألعاب الشعبية ويتسامرون حول عربات اللب والفول السوداني والمكرونة أو يجلسون على الدكك الخشبية التى وضعها بعض القهوجية لتقديم الشاي الذي يعدونه جوار الجدران على بوابير البريموس ، وهم عادة لا يظهرون إلا بين العام والآخر أي كل مولد ، الوشامون بالإبر الدقيقة الملتهبة يدقون الوشم الأزرق والأخضر . علامات صليب للنساء والفتيان والرجال أيضاً وصور الشهيد للرجال ، على أكتافهم وأذرعهم وفي صدورهم ، وللمسلمين يدقون صورة أبو زيد الهلالي رافعاً سيفه مهاجماً الأسد أو راكباً الأسد نفسه في كثير من الأحيان ، فضلاً عن كتابة الأسماء على زنود الرجال وأماكن ولادتهم . وجل هؤلاء الفنانين والباعة هم الذين تراهم فى مولد المرسى أبو العباس ، وسيدى بشر ، وسيدي جابر ، وأبو الدرداء، وسيدى العدوي ، وغيرهم من أصحاب المقامات بالإسكندرية ، وهم أيضاً الذين يسافرون إلى القرى القريبة لإحياء موالد المشاهير من الأولياء ، إنها

حرفة جميلة ومناسبة للشعب أن يفرح ويخرج عـن القـانون في الحـب ، ومغازلة النساء والفتيات . وليس للاحتفاء بمار جرجس خـارج الكنيسـة طقوس تختلف عنها خارج المرسي أبو العباس !!

كانت رائحة البصل تملأ المكان خارج وداخـل الكنيسـة الصـغيرة والشوارع متلئة بالجالسين حتى المحمودية من ناحية وحتى شارع البان مـن الناحية الأخرى وكذلك حتى سيدي كريم . في كل عام قبل الحرب كانت الأضواء تمتد حتى راغب ومحطة السكة الحديد ، محطة كوم الدكـة الـتي أسماها السكندريون محطة مصر لأنهم لا يتصورون أنه توجد بـلاد أخـرى خارج الإسكندرية غير القاهرة التي هى مصر .

لقد نام دميان في حوش الكنيسة ولم يفعل ذلك من قبل أبدا و كـان يسمع في شبابه حكايات المراهقين حول النساء ، وكان يعرف إنها حكايات مراهقين دائماً. الليلة فكر أن يستيقن لكنه بسرعة طلب الغفران من سيده وراعيه مار جرجس ذاته وخرج ليجلس على دكة في زحام الشـارع . في منتصف الليل دخل الكنيسة فوجد أكثر الرجال والنساء يقظـين . أخـذ مكانه جوار أمه وزوجته .كانـت أمـه نائمـة ،وتمـدد هـو نـاظراً إلى السماء..غفلت عيناه قليلاً فوجد الدنيا تشتعل بالنار حول جورجيـوس ، ماري جرجس ، صاحبه وحاميه ، وعبثا يحاول ماري جـرجس الخـروج بالحصان من وسط النار . استيقظ دميان فزعاً مرعوباً تاركاً المكان كلـه . وكان الوقت بعد الفجر . عبر الشوارع اللاصقة ، والناس جميعاً نيام علـى الأرصفة وخرج إلى المحمودية يستنشق هواء صافيا ، لم يعد إلا بعد أن بكى

كثيراً وحده على الشاطئ ، أخذ زوجته وأمه وبنتيه إلى البيت ثم قصد بيت مجد الدين . فلم يجده فأتى خلفه .

لقد ابتعدا الآن عن أبواب المحطة وعن زحام المهاجرين ورائحة العرق وروث الخيل والحمير أمام الأبواب وجلسا في أول مقعد قابلهما في الحديقة ، الشمس طالعة والجو منعش ، لا هو بالبارد ولا هو بالـدافئ . واتضـح لدميان أن الفضاء هنا بعيد والبياض فوق الميدان شاهق يبعث على الراحة وسأله مجد الدين :

- هل جئت لتراني يا دميان ؟

لكن دميان لم يرد على السؤال . قال :

- أنا خائف من العلمين يا شيخ مجد . خايف خالص ... ورفع ذيـل جلبابه يمسح دمعاً تسرب من عينيه فجأة . ومجد الدين في دهشة من صديقه الذي لا يصدق أحد أن داخله روح الطفل الوحيد هذه ..

قص دميان رؤياه على مجد الدين الذي بدوره شمله الخوف ، ولكـن على دميان ذاته ، قال :

- أين تذهب يا دميان ؟ ليس أمامنا غير المكتوب لا يعرفه أحد ؛ ولا تدري نفس ماذا تكسب غداً ، ولا تدري نفس بأي أرض تموت .

وأحس دميان بالأسف لأنه لمح آثار البكاء في عيني صديقه . ما كان له حقاً أن يشغله به الآن .. الأولى أن يجد طريقة يسرى بها عنه .

قال إنه أصبح يتقن القراءة والكتابة وغداً سيشتري الجرنال لأول مرة ويقرؤه . ولم يعلق مجد الدين الذي بدا لم يفارقه الحزن بعد على فراق أسرته .

كانت الليلة الأخيرة لمجد الدين ودميان هي ليلة " قداس عيد القيامة " . خرج فيها دميان وأسرته إلى الدير ، وكذلك خرج الخواجة ديمتري والست مريم وإيفون ، وظل مجد الدين لا يبارح حجرته أسفل البيت .

هل حدث كل ذلك حقاً منذ خرج من القرية قبل أكثر من عام ونصف العام ؟ هل تغيرت الدنيا إلى هذا الحد . هل حقاً وقعت كل هذه النوائب والأحداث ؟ هل قابل كل هؤلاء الناس ؟ يخيل إليه أن الزمن بين يوم خروجه وليلته هذه ، لا يزيد على يوم واحد وليلة واحدة . نهار واحد أو ليل واحد . ساعة واحدة . طرفة عين لا أكثر . لكن ذلك اليوم صار بعيدا جداً في الذكرة الآن . إذن هو وقت أطول بكثير مما هو عليه وليس كما يظن أقصر من يوم .. الرجل القصير قال إن الغارات قد تصل إلى الإسكندرية إذا دخلت إيطاليا الحرب وقال إنهما ، هو وصديقه ، يسافران الإسكندرية يوم وقوع الحرب نفسه . ترى أين يجد الرجل القصير وزميله الآن ؟ لابد أنهما عادا . سمعهما يقولان إنهما لن يمضيا في الإسكندرية أكثر من عام . لكن الغارات بدأت قبل أن ينتهي العام . هل هما حيان أم قتلا في الغارات الثقيلة التي نزلت بالمدينة ، ها هو مجد الدين قد رأى الغارات كلها ، وها هو يذهب إلى العلمين ، إلى الصحراء حيث يدور القتال . العلمين

اسم غريب لكنه يعلق بالذاكرة . اسم يفرض نفسه علـى السـامع فـلا ينساه . هل يصل العلمين فتسـتمر الحـرب ولا تنتـهي . لقـد وصـل الإسكندرية فانتعشت رفعة الحرب وشملت الدنيا . يقولون إن الجيش الألماني الذي نزل بليبيا يختلف عن الإيطاليين .. والحقيقة أنه كان قد جرت وقـائع كثيرة في الدنيا حول مجد الدين في الأسابيع الأخيرة ، تحالفت بلغاريا مـع ألمانيا ودخلتها القوات الألمانية لتنطلق منها بعد ذلك إلى يوغسلافيا واليونان ، وخسرت إيطاليا سبع سفن حربية في معركة بحرية واحدة مـع البـوارج البريطانية شرق البحر المتوسط وتم إنقاذ تسعمائة بحار إيطـالي كأسـرى ، وتبرعت الآنسة دنيز موصيرى بسندات قيمتها ثلاثون ألف جنيه مصـري يتولى ديوان أوقاف الخاصة الملكية صرف ريعهما على أغراض التعليم مـا حدا بالملك فاروق الذي شفى من وعكة طويلة ألمت به أن يصدر أمراً كريماً بقبول الهدية وتنفيذ شروط الآنسة دنيز والإنعام عليها بنيشـان الكمـال تشجيعاً لها ولأمثالها على هذه التبرعات للمشروعات العلمية والإنسـانية ، وقالت الآنسة دنيز إنها لا تنسى عطف المغفور له الملك فؤاد الأول علـى والدها إبلي مصيرى والذي كان له الفضل فيما وصـل إليـه في ميـدان الصناعة والزراعة بمصر ، في نفس الوقت أعلن قلم قضايا الحكومـة عـن ثلاث وظائف شاغرة لمندوبين فيه فتقدم للوظائف حوالي أربعمائة شخص ، وتبرع الملك فاروق بألف جنيه ليوم الفقير الذي تقرر أن يكون في ذكـرى وفاة والده نهاية شهر أبريل وعرض فيلم " علامة زوزو " في مصر لأول مرة ، وتم الاحتفال بالمولد النبوي في جمعية الشبان المسلمين بتلاوة القـرآن ولم يسمح بالإضاءة في الشوارع هذا العام أيضاً ، وزحف الجيشان البريطـاني

والهندي إلى أسمرة ، وسجل الهنود انتصارات باهرة ، واستولت امريكا على ستين سفينة للمحور بموانيها وموانى أمريكا الجنوبية تحت دعوى حمايتها من تخريب البحارة واعتقلت البحارة أنفسهم ووصل الجنرال ديجول إلى القاهرة لأول مرة قادماً من الخرطوم بعد زيارة القوات الفرنسية الحرة التي ساهمت في تحرير " كرن " بأريتريا مع القوات الهندية التي كان لها الفضـل الأكـبر لتحرير هذه المدينة بالذات بعد الاستيلاء على أسمرة العاصمة واسـتقبله في مطار القاهرة الجنرال ويفل القائد العام للقوات في الشرق الأدني ومثل عن السير مايلز لامبسون والبارون دي بنوا رئيس اللجنة الوطنية الفرنسـية في القطر المصري ومعه أعضاء مكتب اللجنة ، وزار ديجول بعد ذلـك قصـر عابدين حيث سجل اسمه في التشريفات ، ثم عقد اجتماعات مـع رئـيس الوزراء والمندوب السامي البريطاني وقادة فرنسا الحرة العسكريين في مصر ، وسافر إلى الإسكندرية وخطب في نادى الفرنسيين الأحرار بشـارع الـنبي دانيال وزار معسكر البولونية وأثنى على ما يبديه الأحرار في مصر من تعاون ، وعزفت الموسيقى النشيد الفرنسي والسلام الملكى البريطـاني والسـلام الملكي المصري . ثم غادر الإسكندرية إلى القاهرة ومنـها إلى لنـدن وقـبل السكر في الإسكندرية وضج الناس بالشكوى فأسـرعت المحافظـة بنقـل شحنات كبيرة من الصعيد وانتهت الأزمة في بضعة أيام ، وفشلت في إيطاليا محاولة لقلب نظام الحكم قام بها المارشال بادوليو الذي لجأ إلى قصر الملـك الذي فرض عليه أن يظل تحت حراسة حرسه هو الملكي الخاص فصار كأنه في سجن لكن أكثر أماناً من أن يقع في يد موسيلني وقبض موسيليني على أعوان بادوليو وأرسلهم إل الجهة الألبانية وعرض على الكسار فيلم " ألف

ليلة وليلة " في مصر ، وانفجرت في الإسكندرية أزمة أخرى هي تأخر شحن الغلال من الأرياف إلى المطاحن تصرفت فيها الحكومة بسرعة كما تصرفت فى أزمة السكر ، وتم تخصيص قطارات لشحن الغلال ، وخطف أربعة شبان عربة بحمار من حوذي مسكين تأخر بالليل ، وطعن شاب صديقه الحـلاق بسكين فكاد يقتله ، واعترف أمام النيابة أنه متعطل من زمان وأن الحـلاق صديقه من زمان أيضاً ويعرف حالته ، لذلك لم يكن يتقاضى أى أجر علـى الحلاقة له ، وتعود المعتدي على ذلك حتى جاء يوم اصطحب صديقاً لـه لا يعرفه الحلاق وطلب منه أن يحلق له بالمجان أيضاً إكراماً لخاطره لكن الحلاق خذله أمام صديقه مما جعله يخرج عن شعوره ويوجه له طعنة بالسكين ، ولما سأله وكيل النيابة عن السبب الذي جعله يصطحب شخصاً ليحلق له بالمجان قال إنه متعطل مثله ولا يجد عملا ، ثم قال إنه في الحقيقة كـان ينـوى أن يأخذ منه فرش تعريفة في السر بعد الحلاقة بدلا من أن يدفع للحلاق فرش صاغ . وانتحر رئيس وزراء المجر الذي لم يوافق على النزول علـى رغبـة الألمان ، ولم يستطع المقاومة ، وحشدت ألمانيا اثنتين وعشرين فرقـة علـى حدود يوغسلافيا ، ثم قامت الطائرات بالإغارة على بلجراد وأعلنت ألمانيا الحرب على يوغسلافيا واليونان معاً . لقد ظهرت الطائرات الألمانية في سماء بلجراد في صباح السادس من إبريل وظلت ثلاثة أيام تلقي بقنابلـها علـى العاصمة بصورة منتظمة ونموذجية فى التكنيك حتى إنها كانت تحلق فـرب أسطح العمارات دون خوف فحل الدمار بالمدينة حتى إذا انتهت الغـارات في اليوم الثالث كانت بلجراد قد امتلأت بجثث عشرين ألف قتيل من أبنائها في الطرقات أو تحت الأنقاض ، وأطلقت الوحوش الضـارية الـتى فـك

حصارها بعد ضرب حديقة الحيوان فراحت تفتك بالجثـث وبالأحيـاء في المدينة التي أصابها الرعب والهلع في أجل صورهما ، في الوقت نفسه كانت القوات الألمانية تجتاح يوغسلافيا من كل جانب لتستسلم بعد سبعة أيـام . لقد أطلق هتلر على هذه العملية اسم " عملية العقوبة " وبعدها مباشـرة انتقل هتلر إلى العدوان على اليونان . راح يطبق بنجاح سياسـته " عـدو واحد في كل مرة " ولم تفلح القوات البريطانية في حماية اليونان . لقد بلـغ عدد القوات البريطانية التى ذهبت من الشرق لمساعدة اليونان خمسين ألف جندي استشهد أو أسر وجرح منهم أحد عشر ألفاً ، فضلا عن القـوات اليونانية أيضاً لكن الإنجليز نجحوا تحت ضغط الهجوم الألمانى في الانسحاب بالباقي من قوتهم بالإضافة لعشرة آلاف من جنسيات أخـرى ، يونـانيين وبوغسلاف وفبارصة ، في الوقت نفسه تقهقر الجيش البريطاني أمام القوات الإلمانية الجديدة في ليبيا ووصلت المعارك إلى القرب من السـلوم بعـد أن خسر البريطانيون مواقعهم السابقة ، وبدأت قوات المحور مهاجمـة فاعـدة طبرق وسجل مكتب الآداب في مصر عموماً القبض على ثمانمائة وخمسـين متسولاً وجامعي أعقاب السجائر وستة وأربعين بلطجياً وفواداً وخمسين فتاة يحرضن على الرذيلة في الطرقات بينهن عشرون قاصرات وثـلاث عشـرة قضية قمار ومراهنات وثمانية منازل مشبوهة وثلاثة وخمسين مكتب تخـديم تعمل في تسهيل الدعارة وخمسين بنسـيوناً أيضـاً ، وصـمدت القـوات البريطانية في طبرق وأسرت ثلاثين ضابطاً ألمانيا وألف جندي وصف ضابط شحنتهم في القطار إلى الإسكندرية ، ورآهم العمال لأول مرة . لقد سـبق لهم كثيراً من قبل أن رأروا الإيطاليين .. هذه أول مرة يشـاهدون الألمـان

الذين ظلوا لغزا منذ اندلاع الحرب ، رأوهم شديدى البياض والشقرة زرق العيون دائماً ، طوالا أصحاء ، ينظرون من عربات البضاعة إلى كل شـيء بلا مبالاة غير مصدقين ونقل ملك اليونان وولي عده ووزراؤه العاصمة إلى كريت وأرسل الملك إلى شعبه رسالة يطالبه فيها أن يظل متماسـكاً غـير منقسم على نفسه حراً طليقاً ودخلت القوات الألمانية إلى أثينا وانتحر شاب في الإسكندرية من فوق فندق إيكاروس ، كما ألقت فتاتان بنفسيهما أمـام ترام الرمل في شارع الإسكندر ، وخيم الحزن على الإسكندرية وتعـاطف شعبها مع جيرانه من اليونانيين والقبارصة واكتشفت آثار ذهبيـة بمقـابر يونانية بكوم الشقافة وعرض فيلم (إلى الأبد) لفاطمة رشدي وسـليمان الجندى بسينما كونكورديا فيلم (سي عمر) للريحاني بسينما الماجستيك ، وقررت أمريكا بناء أربعمائة بارجة وتسعمائة سفينة وعـدد هائـل مـن الطائرات تمول به الحلفاء هذا العام ، واشترى دميـان جريـدة الأخبـار الأسبوعية وذهب إلى مجد الدين في البيت في اليوم التالي لسفر زهرة وطلب منه أن يسعمه وهو يقرأ الأخبار المكتوبة بخط صغير بعيداً عـن العنـاوين الكبيرة السهلة .. وقرأ: " وف ا ة م هرا جامي سور أل حال في لندن " ثم توقف قليلاًوعاد يقرأ :

- جاءنا من مراسلنا في لندن أن هو قد توفي أمس مه راجا مـي سور الحال في لندن " .

وتوقف ناظرا إلى مجد الدين الذي سأله أن يكمل الخبر فقال دميان :

- خلاص كده ، فيه خط وخبر جديد .

فال مجد الدين :

- مبروك ، لقد استطعت القراءة يا دميان .

لكن دميان سكت قليلاً ثم فال :

- ما رأيك في الخبر الذي قرأته يا شيخ مجد ؟

- من أي ناحية ؟

- أقصد يعني إيه لزمنه .. يفيد بإيه ؟

ابتسم مجد الدين وقال :

- والله يا دميان أنا احترت مثلك عندما سمعته .

وسكنا قليلاً مرة أخرى وتساءل دميان :

- هل هذه هى الجرائد التي تعلمت القراءة من أجلها ؟

ضحك مجد الدين بلا صوت . وفال دميان كأنه يحدث نفسه :

- جرايد هبلة صحيح ، مالي أنا والمهراجا الميسور ولا المفلس حتى .

وألقى دميان بالجريدة من نافذة حجرة مجد الدين ، وخرج . ولم ينحن لالتقاطها . وخطب تشرشل معلنا أن على بريطانيا أن تنتصر أو تمـوت ولم يعرف عن حمزة أي شيء جديد ، ولم يعد يتكلم عن ابنه لمجد الدين ، وأعلن الحكم في قضية الخوذ المقلدة ، اعتبرت الجريمة غشاً تجارياً وليست خيانـة عظمى فكانت الأحكام خفيفة فعم السرور الناس وتم تقييد بيع الخمـور في الإسكندرية إلا بتصريح عسكرى بعد العشرين من إبريل بسـبب كثـرة

الحوادث الناجمة عن السكر في الفترة الأخيرة وبسبب استخدام الخمـور في المفرقعات ، وألقت الطائرات الألمانية في غاراتها الجديدة على الإسـكندرية بقنابل صغيرة حارقة تم إرشاد الناس إلى كيفية التعامل معها إذا لم تنفجـر ، ونظرت المحاكم العسكرية بالإسكندرية أيضاً سبعين قضية للإيطاليين الـذين يعيشون بالمدينة ، ولم يستجيبوا للأمر العسكري السابق بضـرورة تسـليم أجهزة الراديو التي يملكونها إلى البوليس وتمت مصادرة الأجهزة ولم يكتشف من بينهم أى جاسوس ، وأعلن أنه سيعرض في الاثنين الأخير مـن الشـهر فيلم شارلي شابلن " الدكتاتورالعظيم " في أكثر من سـينما بالعاصـمة وفي سينما رويال بالإسكندرية وسجل يوم عرضه أكـبر زحـام سكـن أمـام السينمات أيام الحرب ولم يبد على دميان أنه تحدث يوماً عن شوقه لمشاهدة فيلم لشارلي شابلن . عرف وسكت ولم يسمح لنفسه حتى بالتفكير فيـه ، وقابل غفارة مجد الدين في الطريق فعتب عليه أن يصحب زوجته إلى المحطة دون أن يطلب منه توصيلهما بعربته ، ابتسم مجد الدين وشكره وقـال إن ذلك تم الضحى ولم يكن غفارة بالشارع ثم أخبره بسفره إلى العلمين في الغد وسأله إذا أمكن الحضور في الخامسة صباحاً لنقله وصديقه دميان وما معهما من متاع فأبدى غفارة استعداداً كبيراً ثم سأله أين تقع هذه العلمين فأخبره مجد الدين .

والليلة طالت به الآن ، وطافت بذهنه حياته الماضية ، وأحس كـأن دهراً مضى على سفر زهرة ، ولولا أن نزل ديمتري وجلس معه وقتاً طويلاً ما كانت تمر به الليلة . سأله ديمتري هل سيأتي إلى الإسكندرية في الإجازات فقال مجد الدين إنه لن يأتي ، وإذا أخذ إجازة سيذهب إلى القرية – أجـل

هكذا قال بعزم لم يفهم ديمتري سببه – ثم أخبره مجد الدين أنه سيعطيه إيجار ثلاثة أشهر وبعد ذلك سيرسل له الإيجار كل شهر مع دميان الـذي لابـد سيأتي ليرى أسرته . وسأله ديمتري من يكون دميان ، فاندهش مجد الـدين وسكت قليلاً ، ثم راح يذكر ديمترى به ، لكن الرجل الذي بدا عاجزاً عن التذكر قال " آه ، تذكرته " والحقيقة لم تكن كذلك ، مما سـبب إرباكـاً حقيقياً لمجد الدين ، الذي بدأ يفكر فيما يمكن أن يكون قد أصاب عقـل الرجل. لكنهما تحدثا طويلاً في أحوال الناس والبلاد والحرب وسأله ديمترى فجأة ما إذا كان يعرف شيئاً جديداً عن رشدي فأجاب مجد الدين بالحقيقـة وهى أن أباه لم يعد يتحدث عنه أمامه ، قال ديمتري آسفاً إنه يتمنى لو أدرك الفتى خطورة المسألة وتركها تمر بسلام ، وإنه شخصياً لم يكن يحب أبداً أن يعطل رغبة لابنته ، لكن هذه رغبة صعبة ، وهو واثق بأن الأيام ستشفي كل جريح . وشكره مجد الدين على الوقت الذي أمضاه في بيته ، وقال له أنـه تقدم ومعه دميان إلى الإدارة بطلبين للسكن بمساكن المصـلحة إذا حـدث وخلا مكان ، وإنه يأمل خيراً ، وطمأنه ديمتري بدوره على متاعه بالحجرة " كأنك موجود تماماً يا شيخ مجد " وصافحه بحرارة وصعد إلى أعلى تاركاً مجد الدين الذي تمنى لو يأخذ قسطاً قليلاً من النوم الليلة .. فأخذ يقرأ في سـره شيئاً من فصار السور بالقرآن علها تريح أعصابه .

كانت صحف اليوم قد أعلنت عن استعداد البلاد لاسـتقبال تحفـة هوليوود الجديدة التي أنتجها دافيد سلزنك ، وقام ببطولتها أشهر النجـوم كلارك جيبل وفيفيان لي و أوليفيا دي هافيلاند ولسلي هوارد . كما شارك فيها بالتمثيل لأول مرة أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة ممثل وممثلة ، أما هذه

التحفة فهى القصة الشهيرة لمارجريت ميشيل " ذهب مع الريح " كـذلك أعلنت في صفحاتها الأولى اسم القائد الألماني الذي يتولى قوات المحور في ليبيا الآن . إنه " إيروين روميل " القادم من الجبهة الفرنسية والذي بدأ يظهـر براعة في حرب الصحراء . وكان مكتب الصحة في المحافظة قـد أعلـن أن مواليد الإسكندرية هذا الأسبوع قد بلغوا أربعمائة من أبناء المدينة وعشرين أجنبياً ، أما الوفيات فكانت مائة وعشرين من أبناء المدينة بسبب الشيخوخة والحمى بأنواعها ، الملاريا والسل والدوسنتاريا والسعال الديكى والتيتانوس والغارات ، أما وفيات الأجانب فكانت عشرة بسبب السـكر والجنـون والانتحار .

" سندوم رحلتي كثيراً . وأن الطريق
التي أمامي لطويلة.
لقد خرجت فوق عربتي،
عند تباشير الفجر .
وتابعت رحلتي
عبر صحارى العالم .. "

-21-

ساحل مربوط ساحل ليبيا كما أسماه القرطاجنيون قديماً ، الممتد مـن الإسكندرية حتى السلوم ، قبل أن يدخل في الأراضي الليبية ، هو الساحل المنسى في مصر ، وهو الذي يسافر إليه مجد الدين ودميان هذا الصباح .

يرتمى أمام الساحل ، البحر المتوسط ، و أزرق مما هو في الإسكندرية ، شفاف المياه ، ظاهر الصخور والرمال رفراق ، يغريك أن تفـتح كفيـك وتقربهما معاً ، وتحفن منه وتشرب ، ناسياً أنه ماء أجاج ، لكـن السـاحل دائماً ، عند كل من يسمع به أو يراه ، هو الصحراء ذاتها . إنـه سـاحل مهجور تمتد خلفه الصحراء إلى مالا نهاية ولها من كل ناحية أفق ، ولكـل أفق سراب .

على هذا الساحل المهجور مشت من قبل جيوش كـثيرة وكـبيرة ، " شيشنق " الليبي أول من جاء عليه بغزو مصر عام945ق.م . في ذلـك الوقت وصلت الأمجاد الفرعونية إلى السماء ، تربع ملوك الفراعنـة علـى عرش الآلهة ، وتتالت الأسر الحاكمة حتى بلغت إحدى وعشرين أسـرة ،

وكان لا بد من الضعف . ثم جاء دور المصريين في المشي على الساحل إلى ليبيا هذه المرة . كان ذلك في عهد " إيزيس الأول " رابع ملوك الأسرة السادسة والعشرين . لقد خرج قاصداً " فورينا " لتخليصها من حكم الإغريق ولم يفلح . لكن بطليموس الأول نجح فيما بعد ، وصل إلى فورينا وضم ليبيا إلى مصر التي منها انتقلت عبادة إيزيس فأقام الليبيون لها معبداً في فورينا لم يزل ، كما لا يزال باقياً حمام كليوباترا الثامنة ابنة كليوباترا السابعة التى حكمت مصر ، وتماماً مثل حمام أمها بمرسى مطروح كليهما في البحر فراغ بين صخور منحوتة ومسقوفة . هل كانت الأم وأبنتها ابنتين لبوسايدون إله البحر أم كانت إلهتين بحريتين ؟

لم يكن الطريق خرابا إذن .

مشى عليه الإسكندر حتى مرسى مطروح قبل أن ينحرف داخلاً في جوف الصحراء قاصداً معبد الإله آمون في واحة سيوة . مشت فوقه بعد ذلك بألف سنة ، القبائل العربية من بنى سليم وبني هلال مهاجرة من نجد إلى الحجاز ، ثم عادت تحمل اسم " الفاطميين " .

الفاطميون هم آخر من مشوا فوق هذا الطريق قبل أن يمشى فوقه جنود إنجلترا والكومنولث ، الهنود والإستراليون والاسكتلنديون والإيرلنديون والنيوزيلانديون وأبناء الكاب . كذلك جنوب إيطاليا وألمانيا في الاتجاه المضاد ، الساحل الشمالي طريق حرب وموت في معظم الأوقات . في السلم هرب فوقه المسيحيون من الاضطهاد الروماني وبنوا الأديرة الصغيرة في الأغوار السحيقة للصحراء . لقد وصلوا إلى الوادي الجديد ،

وبنوا الكنائس والأديرة في " البجوات " . وفعلو الشيء نفسه قريباً من الإسكندرية في " بهيج " و " كنج مريوط " و " برج العرب " وفي السلم ظلت القبائل العربية تروح فوق الطريق ، وتجيء قبائل " على الأبيض " و " على الأحمر " من أولاد " على " من عرب " السعادى " وقبائل المرابطين من " الجمعيات " و " القوابيص " و " السمالوش " هؤلاء الذين توكل إليهم أعمال الحراسة فيرابطون وسط النجوع والقبائل لحمايتها حين تنشغل عرب " السعادي " في القتال .

" العامرية " هى أول مدن هذا الطريق قرباً من الإسكندرية .. ثلاثون كيومتراً إلى الغرب ، وجنوب غرب بحيرة مريوط التي تحصر الإسكندرية وتضغطها إلى البحر وهى التي عرفت أيام محمد على الكبير باسم " كنجي عثمان " ولم يكن عثمان غير أمين الضيافة عند الوالي . صارت في عهد عباس باشا " برنجي مريوط " أى أول مريوط ، فجاءت " كنجي مريوط " الثانية من المدن . العامرية هذه سوق بزرميط يلتقي فيه عرب محافظة البحيرة بعرب مريوط ببعض تجار الإسكندرية مرة كل أسبوع ، وغير ذلك لا شيء . مجرد عدد قليل من البيوت الصغيرة المتناثرة ، ومحطة سكة حديد قديمة ، وقطار يحمل المياه إلى الصحراء مرة في الأسبوع فيخرج إليه السكان القليلون يملأون " الجراكن " المحمولة على أجناب الحمير .

" كنجي مريوط " هي الأكثر شهرة ، منطقة طوال العام مشتى ومصيف معاً ، ومنتجع دائم ، تبدو كأنما خصها الله بهواء ساحر عجيب فتدور الطواحين الجميلة رافعة الماء النقي المحبوس في جوف الأرض منذ ملايين السنين ليروى أشجار التين واللوز والرومان والعنب وذكريات

الزائرين .." كنجي مربوط " تدخلها فتنسيك البلاد الأخـرى وتلخـص حياتك في إحساس بالراحة والصفاء.

تتشبع بالرضا والسكينة فلا يكون هناك مكان في المكان ولا زمان في الزمن .

العامرية تختلف ، تبدو في كل وقت بلدة بلا هويـة يتكـاثر فوقهـا التراب من كل جانب لخلوها من الحدائق ولوقوف الشمس فوقها باستمرار ، بالنهار وبالليل أيضاً !! وهذه من عجائب العامريـة فعلـى قربهـا مـن الإسكندرية والبحيرات فائظة طوال الوقت ، ويقال أنها حملت اسمهـا مـن قرية " ماريا " اليونانية القديمة والمدفونة قرب البحر والتي كانـت مصـنعاً للخمور والرقص والحب . إسكندرية ماريا وترابها زعفران ! ويقال إن قبائل ربيعة وهلال بن عامر استقرت هنا بعض الوقت قبل أن تأخذ طريقهـا إلى الغرب فحملت العامرية لقب القبائل العربية .

وهذا أقرب الصواب فرائحة الوبر الشعر لخيام القبائل العربية لا تزال في الفضاء . إن البيوت القليلة المترتبة المتناثرة بالعامرية تبدو من بعيد كأوتاد الخيام ، وأحيانا تصرخ بالرغبة بالحركة فوق الأرض بحثاً عن الماء والعشب .

على بعد خطوات من العامرية توجد بلدة (برج العرب) كانت نقطة حراسة حدودية قديمة لا أكثر . لكن الميجور " براملي " مفتش البوليس في محافظة الصحراء الغربية عام 1918 ، اختار ربوة عالية أقام فوقها قصـراً ضخماً جمع فيه ألواناً من التحف وأحاطه بحديقة جميلة ودق فـوق الأرض طواحين الهواء تأتي بالماء العذب ، قامت على السفح بعيداً بيـوت فليلـة

لخدمة القصر المرمرى الذي نقل براملي أعمدته الرومانية واليونانية مبعثـرة منطقة " أبو مينا " القريبة . في " أبو مينا " بقايا آثار رومانية ويونانية مبعثرة وكنيسة " بومنا " التي أقامها الأمبراطور أركاديوس عام 405م على قـبر القديس " سانت ميناس " الذي فر من اضطهاد دقلديانوس ، لكـن هـذا أرسل خلفه فوانه حتى عثروا عليه وقتلوه هنا . لم يكن يعرف أن لا أحـد يموت من أبناء الرب وحواريه . دائماً لا أحد يموت . مـات دقلـديانوس وعاش سانت ميناس .

مات براملي ، وآل قصره إلى الخاصة الملكية ، وينزل الجنود ، حراسه ، إلى السكان القليلين بحكايات عن الجدران المرمرية التي تضـيء ، وعـن أصوات الغناء الجميلة التي تسرى في القصر بالليل مع ريح البحر ، وعـن حالة النشوة التي تتلبس الجنود كل ليلة فيضحكون بلا سبب مشبعين بخمرة لم يشربوها . إنهم يتحولون بالليل دائماً إلى أطفال سعداء ، ويمضون النهار في دهشة مما جرى بالليل !! .

للتين في حديقة القصر مذاق عسل النحل وللوز رائحـة التفـاح ، وللرمان برودة الثلج ! بعد " برج العرب " الصغيرة وحتى " العلمـين " ، لابد من المرور ببلدة " الحمام " التي قامت على أنقاض مدينـة كـامينوس اليونانية التي كانت تشتهر بحماماتها الطبيعية ، لقد بنيت حول سوق قـديم يفد إليه أبناء الغرب ليلتقوا مع أبناء الدلتا من التجار ، فيها مسجد " زياد بن الأغلب " بناه وهو في طريقه إلى فتح أفريقيا ، واستوطنها بعض المغاربة منذ زمن بعيد . مدينة صحراوية تشم فيها رائحة الجمال والماعز والغـنم . حركة الناس منها وفيها وإليها سريعة كأنما كل شـيء يتحـول فجـأة إلى

سراب . من الصعب الاحتفاظ بوجه تلقاه فيها في الذاكرة ، مدينة لا تقف فيها إلا متحفزاً للمسير ، خلقت للتجارة السريعة ، الخروج منها غرباً يعني الدخول إلى العلمين ، والعلمين أرض منسية ، محطة سكة حديد صغيرة ذات رصيف منخفض لا يرتفع عن الأرض بأكثر من نصف متر ، فوقه حجرتان خشبيتان لناظر المحطة وعامل التلغراف ، وعند نهاية الرصيف مزلقان بدائي ، مجرد عمود خشبي ينتهي بحبل من ناحية ، وثقل من الحجارة من الناحيـة الأخرى ، يشد عامل المزلقان الحبل فينزل العمود يسد الطريق . يترك الحبل بعد مرور القطار فيرتفع العمود إلى أعلى بفعل الثقل المربوط فيه من الخلف فتمر السيارات الحربية والجنود . هذا الطريق الممر بالمزلقان هـو الوحيـد بالعلمين ، يأتي من البحر ويدخل إلى البلدة التي هي صفان مـن البيـوت القليلة المبنية بالحجر الأبيض المقطوع من جبال الحمام .

والبيوت هنا خالية الآن . لقد بناها وسكنها بعض البدو الذين تركوا نجوعهم ، إلا أنهم مع بداية الحرب ابتعدوا مرة أخـرى تـاركين البيـوت الحجرية عائدين إلى خيامهم والنجوع على حافة المنخفض . بـين العلمـين والإسكندرية مائة كيلو متر ، وبين البحر ومنخفض القطارة خمسة وعشرون كيلو مترا . إنها إذن عنق زجاجة لا تصلح للمناورات الحربيـة ، وتصـلح منطقة دفاع أخير للجيوش إذا حدث وتراجعت أمام المحور ، والمنطقـة الآن مستودع للأسلحة والذخيرة والتموين وتدريب الجنود . العلمـين هضـبة ترتفع عن البحر بستمائة قدم ، وتنحدر جنوباً إلى منخفض القطـارة عـبر منطقة الرمال الناعمة والمستنقعات الملحية المخيفة . على تخوم هذه الرمـال والمستنقعات يعيش القليل من البدو من أولاد الأحمـر والأبـيض ، مـن

السعادي ومن المرابطين ، في سلام قديم ، بحيث لم تعد لغتهم تحمـل لفظـاً للحرب او القتال .

بعد العلمين لا توجد مدن أخرى مأهولة تستحق الوقـوف عـير " سيدى عبد الرحمن " و " مرسى مطروح " ..كثبان العلمين مميزة بلونها المائل إلى الأبيض الجيري ، وهو اللون الذي يظل يرافقك حتى سيدى عبد الرحمن ، المصيف الذي لم يفطن إليه أحد بعد ، البلدة الصغيرة التي لا تزيد علـى الجامع الذي بناه البدو تقديراً " لعبد الرحمن أبو بطيخة " الذي صار ولياً .

كان عبد الرحمن شاباً وسيماً يمشي مع صديقه الحلاق القبيح الـذى أظهر الشر ، ابتعد كثيرا وسط الصحراء فأخرج الحلاق الموسى من صداره وقطع رقبة عبد الرحمن ثم تركه في الخلاء بعد أن دفنه تحت الرمال . بعـد عام مشى الحلاق في الطريق ذاتها ، كان قد نسيها . في الصـحراء تتشـابه الأرض والكثبان . رأى شجرة بطيخ تحمل ثمرة كبيرة ناضجة على الأرض . لم يستطع المقاومة ، من يستطع مقاومة بطيخة في الصحراء !! حمل البطيخة وفي عودته فكر أن يهديها إلى شيخ القبيلة ففي ذلك فائدة أكثر من أكلها .

فرح شيخ القبيلة بالهدية لكنه ما كاد يغرس بها السكين حتى انسكب عنها الدم . غرس السكين مرة أخرى فخرج الدم . رفح الشـيخ المـرب عينيه إلى الحلاق الذي شمله الرعب وسط الحاضرين .. كان قد تذكر كـل شيء .. طلب من شيخ القبيلة الأمان قبل أن يحكى حكايته .. أمنه الشيخ فراح يحكى كيف قتل صديقه عبد الرحمن في المكان نفسه . بني البدو ضريحاً

لعبد الرحمن فوق شجرة البطيخ ، ودفنوا البطيخة التي أدركوا أن بهـا رأس عبد الرحمن . صار القبر مقاماً قامت حوله البلدة الصغيرة .

لا فصص بعد ذلك حتى مرسى مطروح .." الضبعة " قريـة منسـية هجرها البدوالآن ونزلوا إلى سيدى عبد الـرحمن والعلمـين . " فوكـة " منخفض استراتيجي تتجمع فيه القوات والمركبات التى تنطلق بعد ذلك إلى الحدود الليبية ، مرسى مطروح التاريخية لكليوباترا وأنطونيو صارت مركز قيادة الجيش الثامن ترمح فيها السيارات العسكرية طوال النهار . مرسـى مطروح بلد الحب والموت فيها تعبد أنطونيو في محراب جسد كليوباتر وفيها غدرت به كليوباترا وعادت هاربة من أكتيوم ، وفيهـا انتحـرا . كانـت محافظة الصحراء والآن صارت مقر قيادة الجنـرال وبفـل الـذي كسـر جرازياني منذ أسابيع ليأتي روميل الألماني قائداً للفيلق الأفريقي الذي صـار أغلبيته الآن من الجنود الألمان ، ترى ماذا سيفعل هذا القائد الجديد القـادم من الجبهة الفرنسية منتصراً ؟ إنه يحمل اسما سهلا يبـدو وكأنـه مكـرس للشهرة ، هكذا دائماً أسماء المشاهير من الأخيار و الأشرار علـى السـواء لنابليون سهولة اسم روبن هود وليهوذا سهولة يسوع وليزيـد سـهولة الحسين ولأم كلثوم وأسمهان سهولة ريا وسيكنة !!

الشهرة تسوى بين الجميع ومع تقدم الأزمان قد يصبح للأشرار مكانة الأولياء والقديسين .

- صباح الخير . جاهز يا شيخ مجد .

- صباح النور . جاهز إن شاء الله .

ولم يكن مجد الدين قد نام غير ساعة بعد الفجر ، وقبـل أن ينادي ـه غفارة كان قد سمع صوت عجلات العربة وتخلّعها ، وصوت غفارة وهـو يتوقف قائلاً للحمار " هس " خرج الشيخ مجد حاملاً قفة من الاثنتين اللتين أعدهما . تناولها منه غفارة فوق العربة التي لاحظ مجد الدين أن بها حمـارين الآن.

قال غفارة ..

- مشوار بعيد وحمل كبير ، كان لازم حمار تاني .. أجرته .

ابتسم مجد الدين ودخل إلى حجرته ليعود حاملاً القفة الثانية . لاحظ أيضاً أن غفارة لا يضع القناع على وجهه . وقال غفارة :

- الوقت بدري والهواء نظيف بعد ...

الساعة تتجاوز الخامسة بقليل ، لا يزال النهار يقاوم للانعتـاق مـن الليل ، نسمة طرية مرهفة تشيع في الغبش ، ورائحة طيبة للنور القادم بعد قليل . إن العيون تتفتح مع صعود النهار كما تتفتح الزهور للنور ..

حانت من مجد الدين التفاتة للبيت الصغير بعد أن قفز يجلس جـوار غفارة فوق العربة ، كم تمنى لو صعد وصالح الخواجة ديمترى وأسرته رغـم أن الرجل نزل إليه بالليل . هل يقدر له أن يراهم مرة أخرى . وكان غفارة قد أخذ طريقه إلي بيت دميان ..

كانت هذه أول مرة يرى فيها مجد الدين محطة سكة حديد " القباري " . المسافة طويلة حقاً من البيت إلى هنا . قطعت العربة بهم طريـق فنـال المحمودية كله حتى " كفر عشرى " ثم تجاوزته لتمشي في طريق المكس حتى شارع القبارى الذي دخلت إلى نهايته عند المحطة . لأكثر من ساعة مشـت بهم العربة ولم يكن فى الطريق غيرهم ، وخاصة إزاء ترعة المحمودية ، فجـأة غمر النور كأنه ماء منسكب . لم تكن هناك حركة على الـيمين فالسـفن ساكنة على صفحة المحمودية ونوتيوها نائمون ، على اليسار لم يكـن غـير مخازن سلفاجو ومخازن بنك مصر التى رآها مجد الدين بالليل بعد أن فابـل رشدي المجنون بحب كاميليا . هل كان هو ذلك الذي لمحه مجد الدين جالساً أمام المحمودية ، يعطى ظهره لمساكن السكة الحديد .

لقد بدا له الجالس شاباً نحيلاً ضائعاً . وفكر أنه لم يصادف أحداً مـن زملائه خارجاً للعمل بعد ابتعدوا عن المساكن قليلاً سأله دميان :

- أليس غريباً أننا لم نلتق أحداً فى الطريق ؟

- الوقت مبكر يا دميان .

- فكرت أن الله قد خلقنا الآن فقط ، أجل خيل لى أننا نزلنا للتو من السماء أنا وأنت وغفارة والحماران .

ضحك غفارة وقال :

- والحماران أيضاً ؟!

- والحماران يا غفارة !

- خيالك بعيد جداً يا مقدس دميان .

وحط صمت فكر دميان خلاله أن أحداً من قبل لم يناده " بالمقدس " هيه .. لماذا حقاً لم يحدث أن عامله أحد باحترام ؟

وظلت العربة تمشي تكاد تتخلع على الأرض المفروشـة بالمربعـات البازلتية ، وما هى إلا أن عبرت بهم شارع التجارة الذي يقسم كفر عشري إلى نصفين ، ومدرسة الشيخ عبد الله النديم وبيته المهجـور ، ثم دخلـوا في شارع المكس حتى شاهدوا حركة قليلة للسيارات ، وتراماً ، يمشي وئيـداً شبه خال من الركاب . لقد غمر النور الشوارع ، ونزل غفارة من فـوق العربة ، وأوقفها لحظات تناول خلالها قناع الغارات ، الذي يضعه في مخلاة معلقة أسفل العربة ، ووضعه فوق وجهه ، ثم صعد العربة من جديد ،وأخذ يضرب الحمارين برفق يحثهما على الإسراع . ابتسم كل من مجد الـدين ، ودميان من قناع غفارة ، أو طربوشه العجيب ، ولم يتكلما .

بالمحطة لم ينتظرا كثيراً ، سرعان ما وصل القطار . لم يكن فوق رصيف المحطة غير ثلاثة رجال من البدو يقفون متباعدين . وصل القطار فركب كل منهم فى عربة قطار قديم عرباته حال لونها وسقط فشر دهانها وعلق بها غبار ورمال كثيرة . ودخلا إلى العربة المقابلة لهما مباشرة وضعاً متاعهما فـوق الرف وجلسا متقابلين ، على يسارهما النافذة مهشمة الزجاج مغلق شيشها فلم يفكرا في فتحه فلا تزال في الجو برودة ستزداد مـع حركـة القطـار وتدخل إليهما من فتحات الشيش. كما يحدث عـادة لأى راكـب أدارا رأسيهما يستطلعان العربة فلم يجدا بها أحداً غير رجل متوسط العمـر ، في

عمركليهما تقريباً ، يرتدي جلبابا سمنى اللون نظيف اللون وعمـة بيضـاء حريرية وتحت الجلباب يبرز الصديري الصوف التقليدي .

كان الرجل قد عقد ذراعيه أمام صدره وارتاح فوقهما برأسه ونـام وراح يصدر شخيراً مزعجاً ، لكنه كان ينهض فجأة من نومه فزعاً يمسـح لعابه الذي سال على جانبي فمه ثم ينام مرة أخرى لحظات كي ينهض فزعاً من جديد يمسح لعابه ، وهكذا .

القطار يمشي مترنحاً ، لا مواعيـد خلفـه أو أمامـه . يخـرج مـن الإسكندرية في الصباح ليصل مرسى مطروح في اليوم التالي ليبدأ العودة في اليوم الثالث . ليس هناك قطار آخر غير قطار الثالثة بعد الظهر الذي ينتهي سيره عند الحمام في السابعة مساءً ليعود في الليل . لقد اختصرت حركـة القطارات على هذا الطريق الحربي الآن ولم تعد ترى فوقه غـير قطـارات العتاد العسكري أو الأسري أو الجنود . ورأى مجد الدين ودميـان علـى يسارهما لأول مرة بحيرة مربوط تمتد منبسطة إلى مسـافات بعيـدة فوقهـا فلائك صغيرة وصيادون بكروا في العمل فراحوا يلقون بشباكهم الصغيرة ثم يجذوبونها لتظهر فيها لآليء الأسماك المتحركة تبرق من بعيـد تحـت ضـوء الشمس الذي ملأ الدنيا الآن . على اليمين كانت بحيرات مريـوط أيضـاً لكنها المنطقة الجافة التي تميل إلى اللون الأحمر . إنها أحـواض الملـح الـتي ستأخذ اللون الأبيض مع اشتداد الصيف ، فيبدأ الأوناش والعمال في جمـع الملح الخشن ونقله إلى الشركة القريبة لتنعيمه وتعبئته . هنا يتجمع المـاء في الشتاء ليبدأ في الجفاف مع بداية الربيع ويصير في الصيف ملحاً . مساحات كبيرة من الأراضي الملحية ذات اللون الوردي تبهر الأبصار وتمنعها فى آن .

لقد ترك دميان مكانه أمام مجد الدين على يسار العربة وانتقـل إلى الـيمين يطل من النافذة مخلوب الرشد .

جاء صوت الرجل النائم .

- هذا ملح وهذه أحواض ملح . بعد شهر يصير أبيض .

لقد تكلم الرجل النائم ومسح بكمه اللعاب السـائل علـى شـفتيه ودعك عينيه وسعل عدة مرات فتغيرت نبرة صوته وصارت أكثـر صـفاء وقال

- من هنا يخرج الملح لكل بر مصر .

- يا سلام !

قال دميان الذي مازال مأخوذاً فصار الرجل يقول :

- مصر كلها خير يا أخ . كلها نعم . شوف قـدرة ربـك . علـى الناحية هذه ، الماء ينبخر ويطلع ملح ، وعلى الناحية هذه الماء مهما ينبخر لا ينتهي وتظل البحيرة مليئة بالسمك .

كان مجد الدين قد بدأ يهتم بالحديث الـدائر . ولم يمنـع نفسـه أن تشرئب عنقه ليرى من مكانه أحواض الملح الوردية الباهرة ممتدة بعيداً .

- أين نحن الآن ؟

تساءل دميان فرد الرجل :

- في المكس .

- إذن بعدنا عن الإسكندرية .

ابتسم الرجل وتساءل :

- إنتم رايحين فين ؟

- العلمين .

ضحك الرجل بلطف وقال :

- مشواركما طويل .. الله معكما .

قال ذلك ووقف فبدأ يميل إلى القصر . كان مربع الجسم أو يكـاد . ووضع يديه في جيبي الجلباب وتقدم ناحية مجد الدين ثم جلس جواره ؛ عاد دميان وجلس أمامهما . أخرج الرجل علبة سجائر معدنية مذهبة من جيبـه وقدم لكمل منهما سيجارة ثم تساءل :

- هذه أول مرة تدخلان فيها إلى الصحراء ؟

- نعم .

أجابه دميان فسكت الرجل قليلاً ثم قال :

- أنا دخلت الصحراء ومشيت فيها بعدد ايام عمرى ، لا أعرف في الدنيا غير الصحراء .

تساءل مجد الدين .

- شغلك فيها أم سكنك ؟

-الاثنان ؟

كان القطار قد بدأ يتوقف فسكتوا قليلاً . قال الرجل :

- محطة " مرغم " أول محطة .

صعد إلى العربة أعرابي شاب يرتدى لباس البدو الواسع وفوقه الحرملة ، وعلى الجميع الحرام الصوف وفوق رأسه الفلنسوة ذات الزر الصـغير . تطلع إلى العربة الخالية وإليهم ثم أسرع إلى عربة أخرى بعد أن ألقى السلام بلهجة سريعة جداً .

-كل البدو هنا يتحدوثون بسرعة ويمشون بسرعة . قضيت عمـرى كله أسأل نفسى عن سبب ذلك ولم أصل إلى إجابـة ، الصـحرء تجلـب السكينة والهدوء ، لكن البدو هنا يتحدثون ويمشون كأنهم يركبون الخيل . أى والله .

ضحك دميان وابتسم مجد الدين من حديث الرجل الغريـب هـذا . واستمر الرجل يتحدث فقال :

- أنا اسمى رضوان الفلاح . الحقيقة اسمى رضوان أحمد لكن البـدو ، أعطوني لقب الفلاح لتميزي ، وفي الغالب يسمونني رضوان إكسبريس!

- وأنا مجد الدين .

- وأنا دميان!

اتسعت عينا الرجل وعاد يتساءل :

- دميان !

- أجل . نصراني يعنى .

فال دميان ذلك ليقطع على الرجل أى دهشة أو ارتباك . تأمله الرجل لحظات ثم فال :

- غريبة !

ما هو الغريب يا أخ رضوان ؟

تساءل دميان فتأمله الرجل ملياً ثم فال :

- يا أخ دميان : فقط أنت ذكرتني بصاحب لي كان اسمـه دميـان . كان يبيع البيبسي هنا بالقطارات . كان ولد حلو . شكله حلو وكلامه حلو وروحه حلوة . لا أعلم بأي أرض هو الآن . الله يخـرب بيـت الحـرب والإنجليز والألمان سوا .

وطال الصمت بينهم هذه المرة حتى تساءل مجد الدين :

- لكنك لم تقل لنا ماذا تعمل في الصحراء ، وأين تسكن ؟

- قلت لكما إن شهرتي رضوان إكسبريس . الحقيقة أنـا شـغلتي " أبونيه " هل تعرفانه ؟

ارتبك دميان ولكن مجد الدين فال بعد تردد فليل :

- أظن الأبونيه هو مثل البوسطجى لكن في القطر .

- عليك نور يا أخ مجد الدين : هو مثل البوسطجي لكـن لا يعمـل بمصلحة البريد ولا بأي مصلحة . يعمل لنفسه . يحصل على تصـريح مـن السكة الحديد بركوب القطار . وأبونيه يعفيه من قطع التذاكر . يقوم بنقل بريد ومتاع الناس بين المحطات . أنا كنت أبونيه قطار الصحراء حتى دخـل

موسيليني الحرب . كان لى ركن عند باب العربة هنا ، ركن الأبونيه .في كل محطة كانت الناس تأتي تعطيني خطابات وحقائب وففف وسلال وصـناديق وكل ما يمكن إرساله كبر أو صغر واسم المطلوب توصيل الحاجـات إليـه واسم المحطة . في كل محطة يأتي من يريد الاستلام . وإذا لم أجد أحداً أترك الرسائل وغيرها مع ناظر المحطة . لكن الناس كانت تأتي إلى كثيراً تسـألني عن الرسائل وغيرها بشكل عفوي . وكثيراً ما كانوا يجدون رسـائل مـن ذويهم أو أحبائهم . في كل محطة كنت أرى وجوه الناس فرحانـة و هـي تتسلم رسائلها ، وكنت أرى اللهفة على الرسالة . وفي كـل محطـة أرى الوداعة والطيبة في عيون الذين يرسلون لأبنائهم أو أقاربهم أو أحبـائهم , كثير ما كان الواحد يبكي بمجرد تسلم الرسـالة . طبعـاً . الرسـالة في الصحراء شيء آخر . كنت أعرف مضمون الرسائل من عيون الراسـلين والمستلمين . الآن . الآن كما تريان . القطار خال . لم يبق غـير الجيـوش والبدو . الجيوش لا ترسل رسائلها مع " الأبونيه " والبدو لا يرسلون شيئاً . عاد أبناء الريف والدلتا إلى قراهم ولم يبق غيري وهذا القطار الذي لا أحب أن أفارقه في الحقيقة لا أعرف أين أذهب إذا فارقته ...

وسكتوا.. وتبادل مجد الدين ودميان النظرات ، وكان القطـار قـد توقف بإحدى المحطات فسكت الأبونيه ثم وقف يطل مـن النافـذة علـى الرصيف ويقول :

- لا أحد ركب ولا أحد نزل . حتى ناظر المحطة لم يخرج من غرفته . وتحرك القطار .

" ماذا تكون جيوش الأرض ؟
انظر إلى القمر في السماء "

-22-

لم ير مجد الدين مثل هذا الاتساع الأجرد من قبل . في الريف اتساع حقاً من الحقول الخضراء الطرية فوقها طيور سابحة وعلى أرضها يمرح الناس أو يعملون هادئى البال ، وجوار الترع والسواقي يلـهو الأطفـال وتنـام البهائم وتتحدث النساء ويلعب المسنون " السيجة " والبط يعبث في الماء ، والصفصاف يلقي بظلاله عليه ، وعلى الأرض ظل الكـافور والكـازورين والجميز والسنديان .

الآن لا يرى مجد الدين غير خلاء بلا طيور أو أشجار وهو يقف فوق رصيف محطة العلمين القصير الواطئ وجواره يقف دميان يـدور بعينيـه في الاتساع المهيب مأخوذاً غير مصدق ، لقد تحرك القطار وئيداً ثم ابتعد فبدا لهما مثل دودة خضراء مزركشة بالأصفر تتلوى ذاهبة إلى اللانهاية ، آلات عسكرية بعيدة متناثرة وغيرها متجمع في مناطق متباعدة , وبينها أكشـاك خشبية وجنود يتحركون عراة تلمع أجسادهم من بعيد فـوق الشـورنات الكاكي التي يرتدونها وجنود لا تلمع أجسادهم السوداء . إن القطار الذي أسرع كدودة صفراء مبرقشة مدهشة والسماء العالية البعيـدة وتجمعـات الجنود الغامضة والخلاء الذي لف كل شيء أعطى كلاً مـن مجـد الـدين

ودميان الإحساس بالضياع . لقد نزل معهما عدد قليل من البـدو مـن العربات الأخرى ، خمسة أو ستة ، لكنهم لم يتوقفـوا للحطـة . كـان في انتظارهم عدد آخر فارتفعت أصوات الجميع كأنهما قعقعة سلاح . لم يميـز مجد الدين ولا دميان كلمة أو حرفاً ورأيا الجميع يسرعون في الطريق الضيق المجاور للمحطة الذي تحف به البيوت المنخفضة من حجر أبـيض هجرهـا سكانها . كان البدو يثيرون التراب كما لو كانوا قطيعاً من المـاعز تجـرى تتقافز بالعرض . وكان ناظر المحطة قد خرج يستقبل القطار وتحدث قلـيلاً مع السائق وما كاد القطار يتحرك وبلتفت الناظر ليعود إلى حجرته حـتى رأهما ، مجد الدين ودميان ، عرفهما وتقدم منهما على مهل ، لـن يـنزل بالمحطة أحد يرتدى البنطلون الأخضر والسترة الخضراء غير عمال السـكة الحديد .

فوق الرصيف غرفتان من خشب مسقوفتان بالخشب أيضاً على شكل " جملون " مدهونتان باللون الرمادي الكابي وتبدو طبقات الدهان متعددة في إسراف الجاهل بالصنعة كونت ما يشبه التجلط بين ألواح الخشب .

- أهلاً وسهلاً

قال ناظر المحطة الذي كان قد اقترب منهما للغاية وهما مذهولان من الاتساع ، ولم يردا عليه ، أو هو الذي لم ينتظر الرد فسألهما :

- أنتما العاملان الجديدان ؟

- نعم .

- تفضلا.

مشى أمامهما فتبعاه إلى غرفته . في اللحظة نفسها ظهر بباب الغرفـة الأخرى رجل آخر وقف يتأملهما . حدثه ناظر المحطة قائلاً إنهمـا عـاملا المزلقان الجديد فرحب بهما الرجل بدوره ، وقبل أن يدخلا غرفة ناظر المحطة هتف دميان :

- متاعنا على الرصيف .

ابتسم ناظر المحطة وقال بهدوء :لا تخف . لا شيء يضيع هنا .

في حجرة الناظر جلس الجميع . دميان ومجد الدين على دكة خشبية صغيرة والناظر وزميله على دكة أخرى مقابلة . وقال الناظر :

- اسمى هلال و زميلي اسمه عامر . هو عامل التلغراف . إن عملـه شديد الأهمية . التأخر في إرسال أو استقبال برقية يؤدي إلى نتائج سيئة .

وسكت قليلاً ونظر إلى عامر كمن يحتاج دليلاً على صدق كلامـه ، ثم تابع الحديث – قد يأتي يوم لا تكون فيه حاجـة لوجـوده أو حاجـة لوجودي . ربما لن يبقى غيركما لتنظيم حركة سـيارات الجـيش علـى المزلقان . القطارات الحربية لن تنقطع . عملكما إذن مهم جداً . ونحن هنا نتبع القيادة البريطانية مباشرة. المسئول عن احتياجاتنا ضابط إنجليزي صغير يعرف قليلاً من العربية. متغطرس لكنه خفيف الدم . وهنا مسـكن قـديم للمصلحة خال الآن . وأنا وعامر نحتل بيتا فيه . يمكن احتلال البيت المجاور لنا . قطار المياه يأتينا كل أسبوع وإذا انقطع نستعيرها من الجنود . لا أحد في البلدة غير قليل من البدو هناك من الجنوب في النجع . قد يظهـر بعض رجالهم عند حضور قطار المياه يمـلأون جراكنـهم لكنـهم لايختلطـون

بأحد .يمشون بسرعة ولهم هيئة الجمال . الواحد منهم طويل يكاد يقع على بعضه ! ، أى والله- ضحك وحده ثم استمر يتحدث – إنهم لا يشـعرون بالجوع أبداً . يعيشون على دهن أجسادهم . تماماً كالجمـال . يحتفظـون بكرامتهم بإصرار ، تأتي من بينهم راعية مع غنمها وأخيها الصغير ، وحذر أن يعابثها أحد . لكن لم أتشرف باسميكما :

- مجد الدين .

تردد دميان قليلا في النطق باسمه . كان قد ضاق ذرعا مـن كـلام الرجل وثرثرته ، أجبره الأدب خصوصاً أن هـذا اللقـاء الأول ، علـى الإنصات والاحتمال ، ثم قال :

- دميان .

بدا الامتعاض على وجه عامر التلغرافجي . وسكت هلال لحظات ثم قال كأنما يرد على عامر الذي بان امتعاضه .

- على أى حال عيسى نبي ومحمد نبي أيضاً .

لكن دميان لا يزال يفكر في حديث الرجل الطويل . الرجل يحمـل اسم هلال ويبدو وجهه كالبدر حقاً .

كان الوقت ظهرا . وكانت بحجرة الناظر ساعة حائط دئراية كبيرة فحمد مجد الدين الله على ذلك وإلا كيف كان سيعرف موافيت الصـلاة ، ولا جامع يرتفع هنا صوت أذانه ولا ساعة يحملها هو أو دميان . لم يكـن

يدري أنه سيلتقي بجنود مسلمين من جنود الأمبراطورية التي لا تغيب عنـها الشمس! .

نهض ناظر المحطة ليصحبهما ليرتاحا قليلاً في البيت الـذي خصـص لهما .

ما كادوا يخرجون إلى الرصيف حتى رأوا أمامهم الضابط الإنجليـزي الشاب يرتدي الشورت الكاكي والقميص نصف الكم . كانـت ركبتـاه سوداوان مما يعنى أنه جندي في الصحراء على عكس الجنود الجدد في العادة تبدو ركبهم بيضاء وحمراء باستثناء الأفارقة طبعاً ، وكان على رأس الضابط كاب أخضر .

- هاللو مستر سبايك .

هتف ناظر المحطة بسرعة ، تظاهر الضابط بعد الاستماع إليه فخاطب مجد الدين ودميان :

- Do you speak English ?

فهما السؤال لكنهما توقفا عن الإجابة . ارتبك مجد الدين للغايـة . على الفور طار ذهنه إلى حمزة الذي كان يعرف قليلاً من الإنجليزية ، كثيراً في الحقيقة بالنسبة إليهما ، لقد ضاع حمزة .

وأحس مجد الدين بأن وجهه يربد وأن الغم يصعد إليه وإلا ما هـذه الحرارة ودبيب النمل في وجنتيه . طامن رأسه وأطـرق ينظـر إلى الأرض وكاد يسأل الضابط الشاب ما إذا كان يعرف شيئاً عـن حمـزة ! وسمـع الضابط يتساءل بضيق موجها بصره إلى ناظر المحطة .

- What happened helal ?

لكن دميان قال فجأة :

- بيس سير أفندم ؟!

حملق فيه الضابط مضطرب الوجه حقاً . وعلى وجوه الجميع ظهـر الاضطراب . لقد أدرك مجد الدين الفوضى الكبيرة التي سببها كلام دميان غير المفهوم . وقال الضابط لنفسه بصوت مسموع :

- " Two FooLish Egyptians"?

ثم قال للناظر :

- كله . Donkies

لكن دميان ابتسم وقال وقد احمر وجهه للضابط .

- أنت تعرف عربي ووندر فول جنرال .

وتأمله الضابط الذي لم يملك في النهاية غير أن يبتسم فزال الرعب من على وجهى هلال وعامر والاضطراب من على وجه مجد الـدين . وقـال الضابط لهلال :

- Give them some blankets , Tins of food , and anything else they may need .

صحبهما هلال حتى سكن المصلحة ثم تركهما بعد أن فتح لهما بـاب البيت الذي سيقيمان فيه .

لقد سبق لمجد الدين أن دخل سكن المصلحة بالإسكندرية ليلة أن دعاه شاهين ليري ابنه رشدي ، وتقدم مجد الدين ودميان بطلب إلى المصلحة للحصول على بيت في ذلك السكن في أقرب فرصة . هاهما يتسلمان بيتا في سكن لايختلف كثيراً عن سكن الإسكندرية . لكن هنا الجدران بلا بلاط ولا دهان . الأحجار البيضاء الكبيرة حال بياضها واتسخت . بين شقوقها تظهر العناكب وحشرات صغيرة و السقف الخشبي هنا أيضاً قديم وبلا دهان . يعرف مجد الدين أن ابن آدم إذا حل بمكان صار فيه سيد الكائنات . سيقوم إذن بتنظيف الجدران وطرد كل الحشرات حتى لو اضطر لتسليط لهب وابور الجاز عليها .سيجد لدى الجنود مادة تقضي على الحشرات تماماً . ولعل دميان يشعر بالإحساس نفسه . إن أبا منهما لا يستطيع أن يمضي بقية حياته هنا . هذه أرض حرب . أرض موت .هذا الخلاء الرهيب سيبتلع كل شيء .

وفتح مجد الدين الغرفة الداخلية الصغيرة فرأى أمامه الصحراء الفاسية . كان دميان بالصالة الخارجية الملحقة بالغرفة يتأمل الجدران شديدة القذارة ويندهش من الرائحة التي تصعد من دورة المياه الجافة والخالية من المواسير والحنفيات ، ودخل الغرفة فوجد مجد الدين جامداً أمام نافذة يطل على الفراغ السحيق . قال:

- وحد الله يا شيخ مجد ! هل اشتقت لأم شوقية ؟

اخذ مجد الدين نفساً عميقاً وطويلاً وقال :

- أنا فلاح يا دميان لم أر صحراء من قبل .؟

- وأنا والله لم أر الصحراء من قبل وحالي من حالك رغم كوني ابـن مدينة .

وسكت لحظات فكر فيها مجد الدين في نظام العمل . سيكون عليهما اقتسام اليوم على المزلقان ، إذا عمل نهاراً عمل دميان ليلاً والعكس .

وتساءل مجد الدين :

- تفتكر أن الوقت هنا ممكن أن يمر يا دميان ؟ يخيل لى أن الـدنيا لا تتحرك .

تأمله دميان في دهشة ، بينما انتاب الخجل مجد الدين الذي ظهر لأول مرة مرتبكاً لا يتجمل بالصبر . وقال دميان بوداعة :

- دع الملك للمالك يا شيخ مجد . فادر ربنا يخلي العمر يجري مثـل طرفة العين .

ثم ضحك وقهقه وقال :

- هل تعرف يا شيخ مجد فيما فكرت الآن ؟ في الأبونيه ، رضـوان إكسبريس ، يخيل لي أنه غير طبيعي .

- لأنه لا يترك القطار ؟

ولم يرد دميان . سكت وسكت مجد الدين بدوره . ظهر أن دميـان يكاد يشرع في البكاء . بل دخل فيه بالفعل وقال فجأة :

- أنا حاسس إنى سأموت هنا يا شيخ مجد .

بسرعة أخذ الشيخ مجد الدين سمت الواثق القديم ، وربت على كتف صديقه وقال :

- مثلك لا يموت سريعاً يبا دميان . أجل لابد أن يكون في الدنيا ناس أخيار .

الوقت لا يتوقف من أجل أحد . وقعت غارة خفيفة على الإسكندرية التي وفد عيلها مهاجرون ليبيون من برقة أودعوا الحجر الصحي ثم سكنوا منطقة المكس والورديان . رآهم دميان ومجد الدين في القطار القادم من مرسى مطروح والذي توقف كثيراً بالعلمين . لقد صعد مجد الدين يجوس بين العربات ولم يقابل وجها يعرفه غير رضوان إكسبريس الذي كان يجلس بين جماعة من المهاجرين يتحدث إليهم بحماس . ويستعمون إليه مسحورين بكلامه .لِم صعد إلى القطار ذلك اليوم ؟

حقاً إنه لايعرف لماذا صعد إلى القطار ذلك اليوم . الآن يدرك أنه كان يود لو قابل حمزة . لا يزال يخيل إليه أن إهانته لحمزة كانت وراء ضياعه . لا تكفي أبدا سماحة حمزة لينسي . وكانت خمس سنوات قد مرت على جلوس الملك فاروق على العرش ، فاحتفلت البلاد لمدة أسبوع بعيد الجلوس الملكي بدءاً من السادس من مايو . وأقيمت حفلة عظيمة بدار سينما مترو القاهرة بأسعار خاصة لفيلم ذهب مع الريح يخصص دخلها لضحايا الحرب وامتلأت الصحف بصور فيفان لي وتحتها إعلانات عن كافة المنتجات المصرية والعالمية . العطور والأثاث والثياب والأحذية والغذاء

والسيارات والسجائر والكبريت والأسبرين والرياضة والصحة . وافتـتح مطار جديد في الإسكندرية بالنزهة لاستقبال الطائرات المدنيـة في وقـت توقفت فيه جميع الرحلات المدنية من أوروبا وأمريكا إلى مصر .

واحتفل اليونانيون بزجاجة ملأها مقاتل يوناني من تراب أثينا ، وكان الاحتفال بكنيسة " مارسابا " اليونانية الأرثوذكسية القريبة مـن بيـت " كفافيس " المهجور وكتب اليونانيون على الزجاجة من الخارج " التـراب الحر للشعب الحر " وفي يانصيب المواساة فاز بالجائزة وقدرها " عمـارة " ثمنها خمسة وعشرون ألف جنيه مدرس إلزامي لكن ظهر له زميـل يـدعي محمد إسماعيل قال إنه اشترك مع المدرس في شراء ورقة اليانصيب التي ثمنها خمسون قرشا ، إذ دفع كل منهما نصف الثمن ، ومن ثم فهو يستحق نصف الجائزة ، وأن المدرس الذي كانت الورقة في حوزته رفض إعطاءه نصيبه مما حدا به لرفع قضية أمام المحاكم لوقف فوز المدرس حتى يقر له بأحقيتـه في نصف الجائزة . وانتشرت القصة بالإسكندرية وعموم القطر . فمطـت أم حميدو شفتيها ثم مصمصتهما وقالت : " لما فاز بها واحد مـش عفـت ولا بهجت طلع له فيها عفريت " . وفر الهر هيس بطائرته إلى اسكتلندا حيث هبط بها وعثر عليه أحد الفلاحين الإسكتلانديين . فعرفه إذ سبق له أن رأى صورته في الصحف .

انشغل العالم بهروب هيس ، قيل أنه مختل عقلياً وقيل أيضاً إنه الرجل الثالث في الحزب النازي بعد هتلر وجورنج ، وظهر أن هيس قـد أمضـى طفولته في مصر . وتعلم في إحدى مدارسها الإنجليزية ، وكان والده يقـيم بالإسكندرية قبل الحرب العالمية الأولى وفتح مكتباً كبيراً في الشارع الـذي

حمل اسم سعد زغلول فيما بعد ، وكان وكيلاً للشركات الملاحية الألمانيـة وشركات الأدوية والأفلام الحبر والرصاص والأجهزة الكيمائية ، كما أقام بعض الوقت في " زفتى " قبل الاستقرار في الإسكندرية ومن زفتى أرسـل " روفائيل مسيحة " الحاصل على ليسانس الآداب رسالة إلى الإهرام يقول إن زفتى من أكثر بلاد مصر علاقة بهيس فقد أمضى فيها طفولته مـع والـده صاحب الورشة الميكانيكية ومطاحن الغلال ولا تزال عزبته تعرف باسـم " عزبة هيس " وبين سكان زفتى من لا يزال يذكر الفـتى هـيس وهـو في الخامسة عشرة يمشى في شوارع البلدة قبل الحرب الأولى . تساءل صاحب الرسالة في النهاية ترى هل كانت هذه البلدة المتواضعة على شاطئ النيـل تدرى أنها ستكون يوماً موطن شخصية يتحدث عنها العالم بأسره وهو يجتاز أعظم حرب عرفتها البشرية ؟

وتبارت الصحف في إثبات أن ميلاد هيس كان بالإسـكندرية عـام 1896 ثم التقى مع هتلر عام 1914 في الجبهة الغربية وكانـا صـغيرين متبرمين من الحياة والحرب فاجتمعا على الإحساس بالظلم الفادح الذي لحق بألمانيا وتزاملا في الكفاح ، لكن المشكلة أن الألمان الآن يقولون عنـه إنـه مجنون . والسكارى فى حانات الإسكندرية يعترفون بجنونـه لـيس لأنهـم يصدقون الدعاية النازية لكن لأنه عاش طفولته في " زفتى !؟ " ويضحكون ، وكتب أحد الشعراء في المسألة فقال :

أقَـــرارٌ أم خدعـــة أمـــن جنـــون ؟

أم تـرى هـيس اخطأتـه المنـون ؟

إن يكـــن فـــر فـــالفرار قبـــيح

أو يكـــن جـــن فـــالجنون فنـــون

وفر عزيز المصري ومعه الطياران عبد المنعم عبد الرءوف وحسين ذو الفقار صبري بطائرة قصدوا بها روميل في الصحراء لكن الطائرة سقطت بهم قرب قليوب فاختفوا في الريف وصدرت الحكومة ألف جنيه لمـن يرشـد عنهم .

وحدث إنزال جوى بالغ الضخامة على جزيرة كريت ، هجوم فريد لم يسبق أن رأى العالم مثله سبقه ضرب جوى عنيف لمـدة سـاعات وقـال جورنج إن الهجوم المظلى على كريت هو أعظم ما يمكن أن يقوم به سـلاح مظلات في العالم .

كان على الإنجليز أمام هذا الهجوم الجبار إخلاء الجزيرة ، وإنقاذ مـا يمكن إنقاذه من جنودهم في السفن إلى الإسكندرية . وترك الملك اليونـاني ووزراؤه الجزيرة إلى إنجلترا ، وفي النهاية كان هناك ثلاثة عشر ألف قتيـل وجريح وأسير ، فضلاً عن ألفين من جنود البحرية البريطانيـة ، ووصـل الإسكندرية ستة عشر ألف جندي . كانت كريت أعجوبـة أخـرى مـن أعاجيب الانتصارات الألمانية التي لم يبد حتى الآن أنها يمكن أن تنتهي .

سافر دميان إلى الإسكندرية آخر الشهر وعاد في اليوم التالي مباشـرة حيث صرف راتبه وراتب مجد الدين وأمضى ليلة مع أسرته . قال لمجد الدين إنه لم يستطع الابتعاد عنه ، وضحك . وقال . وربما هى أيضاً بريكة تشدني

بعنف . وبريكة هى الأعرابية الصغيرة التي حذرهما نظار المحطة من الاهتمام بها . ورآها دميان تأتي كل يوم في الضحى بأغنامها مع أخيها الصغير فلم يستطع أن يمنع نفسه عن التقدم للحديث معها ، وجدها تحدثه بعفوية وعذوبة فأعطاها شيئاً ما يعطيه له الجنود الهنود الذين تعرف عليهم ، وبصفة خاصة البسكويت والشيكولاتة ،وصارت بريكة تعود تاركة خلفها في الفضاء رائحة الوبر والغنم لا تفارق أنف دميان حتى المساء ، يحمل الرائحة معه إلى البيت ويندهش ويدرك أن قصة ما ستحدث بينه وبين الفتاة الصغيرة ويشعر بالخوف ممزوجاً بفرح غريب . وكانت فتاة في الصعيد قد ماتت ودفنت ثم بعد ستة أيام عادت إلى الحياة فكانت معجزة شغلت الناس لكن أحد الشعراء دعاها للعودة إلى القبر حيث الهدوء ، بدلا من الحياة في هذا العالم القاتل . وفي القاهرة تم تقسيم المدينة إلى مناطق محددة يتبع كل منطقة عدد من الحانوتية لا يحق لهم العمل في منطقة أخرى مما دعا إلى احتجاج عام للحانوتية على هذا التقسيم وتقدموا بعريضة الاحتجاج إلى قلم القضايا الداخلية قائلين إن عددهم كبير بحيث لا يمكن تقسيم القاهرة بينهم ، كما أن موتى مصر الجديدة ليسوا مثل موتى السيدة زينب ، وهذا التقسيم سيجعل موتى كل منطقة تحت رحمة حانوتييها الذين سيحتكرون الدفن والتكفين وسيبالغون في طلب الأجرة لانعدام المنافسة الحرة ، وأطلق سراح عدد من المعتقلين من محجر الطور بينهم عشرون شخصاً من الإسكندرية ، بينهم حميدو الذي أقامت له أمه الزينات على مدخل البيت في الشارع شبه الخالي من السكان الآن حتى إن عدداً قليلاً للغاية هم الذين جاءوا يهنئونه بالعودة إذ عرفوا أن اعتقاله إنما كان بسبب أعماله ضد

الإنجليز وليس لخطورته على الأمن كما قالت الحكومة ، وسمع مجد الـدين ودميان صوت الطائرات الألمانية وهى تمر في الفضاء فوقهم بالليل ، ورأيـا أضواءها الحمراء وانطلقت المدفعية المضادة من أكثر من مكان بالصحراء ، لكن الطائرات كانت عالية للغاية فلم تصب بسوء ، لم ينم مجد الـدين ولا دميان تلك الليلة . جلسا أمام البيت قليلاً ، كـان القمـر يقتـرب مـن الاكتمال .

تساءل دميان :

- ما اسم القائد الألماني الجديد هنا ؟

- روميل .

- اسم مخيف .

كانا يستمعان حينا لضجة ، أو حركة لبعض الجنود بعيداً ، أو عـدة أعيرة نارية تنطلق في الفضاء ، أو دبيب حشرات ليلية لا ترى ، بعد وقت ليس بالقليل رأوا الطائرات تعود والمدفعية المضادة تطاردها في الفضاء بلا نتيجة ، لقد جاءت الطائرات وعادت أكثر من مرة تلك الليلة .

كانت تأتي مرتفعة فوق الصحراء ، وما تكاد تدخل فضاء المدينة حتى تقترب من الأرض بلا حذر ، بل بتصميم من يعرف أهدافه بدقة ، وكـان أهم أهداف تلك الليلة المدفع الجبار بباب سدرة الذي لم تفلـح الغـارات السابقة في إسكاته . مدفع مضادة للطائرات تدور معه ثلاثة كشافات قوية تمسح له السماء ولا تنقطع قذائف الطائرة طوال الغارة ، استطاعت غارات الليلة إسكاته ودمرت عشرات البيوت في باب سدرة وكرموز ، ما كاد يمر

يومان حتى وقعت غارة أعنف طوال الليل أيضاً شملت الأحيـاء الوطنيـة والأجنبية ، واستهدفت السفن والبوارج البحريـة اليونانيـة والإنجليزيـة الراسية في الميناء ، وكانت القذائف تسقط في الماء فترتفع أعمدة هائلة مـن المياه تشق سواد الليل ، لكن الغارة لم تصب السفن بسوء بقدر ما أصابت الأحياء الشعبية . خرج الناس في ذعر بثيابهم إلى السكة الحديـد تـاركين خلفهم كل شيء ، ووصلوا إلى القاهرة بجلابيبهم وبيجامـاتهم وملابسـهم الداخلية أيضاً . بينما وصلت نساء كثيرات بقصـمان نـومهن . تحولـت الإسكندرية إلى محرقة لأهلها ومات كثير من العائلات ولم يتبق من بعضـها غير طفل واحد أو أمراة واحدة أو فتاة وظهرت لأول مرة مشكلة النسـاء والفتيات الوحيدات والأطفال المشردين ، وأقيمت على عجل خيام الإيواء بأبي حمص وكفر الدوار ودمنهور وقرى الغربية والمنوفية لكل من ليس لـه أهل بالريف ، أما الذين لهم أهل فقد وقف أهلهم في انتظـارهم بالمحطـات حتى أسوان واستقبلوهم بلا زاد ولا مال ولا ثياب ، وجوه شاحبة للرجال وذعر على وجوه الأطفال وحسرة في عيون النساء وحزن مقيم . لقد بـدا أن ألمانيا قد قررت تدمير المدينة .

اتسع عمل رجال الإنقاذ في الأماكن المنكوبة ، وانقطعـت الخضـر والفاكهة عن الوصول وتوقفت السلخانة عن الذبح بعـد غـارة قصـيرة سقطت معظم قذائفها على السلخانة نفسها لقربها من مستودعات الذخيرة العسكرية . ولقد اختلط لحم الباعة مع المشترين بلحم الذبائح ذلك اليـوم وسال دم كثير .وقيل أن ألمانيا تعمل على إخلاء المدينة من سكانها تمهيـدا لدخولها بلا مقاومة وشن الإنجليز هجومهم على روميل غير أنه بعد يومين ،

في السابع عشر من يونيو ، انقلب كل شيء على عقبـه وبـدأ الحلفـاء يتقهقرون تحت حماية الطيران ويتعقبهم روميل ما جعل تشرشـل ينحـى الجنرال ويقل وينقله ليكون القائد العام في الهند وفي الوقت نفسـه يـأتي بأوكنلك القائد العام السابق في الهند ليكون القائد العام للشرق الأوسط . كذلك وقعت أربع حوادث كبرى في ليلة واحدة هى ليلة الثاني والعشرين من يونيو. قبض فى أولها على سيدة تسمى بدرية بتهمة تعدد الأزواج ، وفى منتصف الليل وقعت غارتان عنيفتان على الإسكندرية تسـببتا في هـروب جماعي عند الفجر ، وعند الفجر كان ريبنتروب وزير خارجية ألمانيا يقـدم إعلاناً رسمياً بالحرب على الاتحاد السوفيتي إلى سفيره في برلين ،وفى نهايـة الليلة ، كان مجد الدين قد قام وصلى الفجر وجلس متنشياً يقرأ القرآن . لاحظ أن عيني دميان تلمعان في الظلام ، فقال له :

- الليلة وضعت زوجتى يا دميان .

..... .

- لقد رأيتها ، زهرة توقظنى من نومى ، تقدم إلى كوبا مـن اللـبن الدافئ .. هل تعرف ماذا وضعت ؟

..... .

- غلاماً لقد قلت لها إذا حدث تسميه شوقي ، ولابد أنهـا فعلـت ذلك .

" كان النهار ..
ولم أكن قد هيأت نفسي لاستقبالك.
ولكنك دخلت قلبي.
بلا دعوة ولا سابق معرفة "

-23-

قبل الهجوم على روسيا كان الفوهرر قد طلب من قادة جيوشه أن لا يعامل الجنود الروس كأسرى حرب . بل يقتلوا ويبادوا . وبعد الهجوم على

روسيا استمع العالم إلى خطبة تشرشل في الإذاعة البريطانية وانتشرت كلماته عن هتلر : " سنقاتله في البر وسنقاتله في البحر وسنقاتله في السماء حـتى ننقذ الأرض من شروره ونحرر الشعوب من قبضته وكل من يقاتـل هتلـر سنمد له يد العون ، وكل من ينحاز إلى جانبه فهو عدونا اللدود "

كانت الجيوش الألمانية الجرارة تكتسح الجبهة الروسية الواسعة الممتدة من القطب الشمالي حتى البحر الأسود ، والطائرات الألمانية تحطم سـلاح الجو الروسي على الأرض ، وخمسة ملايين هندي ألماني يغزون المدن والقرى فسقطت " ريجا " عاصمة " لاتفيا " بعد أسبوع من القتال وحدثت معركـة فاصلة في " مينسك " فبدأ الروس ينسحبون أمام الألمان انسحاباً كبيراً ، لم تفلح الغارات البريطانية الشديدة على ألمانيا في التخفيف عـن الـروس ، كذلك لم تفلح الغارات البريطانية هنا في الصحراء على ميناء طـرابلس وتدمير سفن ألمانية وإيطالية ، فلقد ردت الطائرات الألمانية والإيطالية بغارة على الإسكندرية التي لم تعد يرى فيها شخص إلا مهاجراً ، وجـه سـتالين رسالة عبر الإذاعة إلى هتلر ينذره فيها بالخسران الـذي لحـق بنـابليون بونابرت في القرن الماضي ، لكن الروس تراجعوا أكثر إلى خـط سـتالين الدفاعي وبدأت حرب مدفعية على الحدود المصرية بين الجيشـين الثـامن والفيلق الأفريقي ، وحضر الملك جورج مـن إنجلتـرا إلى الإسـكندرية ، واستعرض الفيلق اليوناني ووزع النياشين على جنوده وزارت أم المصـريين الإسكندرية ، وبدأت الدعوة للـزواج مـن السـكندريات المهـاجرات الوحيدات قبل أن تتلقفهن سوق الرذيلة وأنشئت مراكز إطفـاء وإنقـاذ جديدة وتغير طعم الماء بالمدينة فقيل من أثر القنابل التي سقطت بالمحموديـة

وقيل بسبب الطحالب التي نمت في النيل بكثرة واحتفلت البلاد بعيد ميلاد الملكة نازلي في الوقت الذي وضعت فيه فلاحة طفلاً أقرب إلى القرد مـات فور ودلانه ، كما توفي الرئيس بادفسكي أول رئيس لجمهورية بولندا بعـد الحرب الأولى والذي صار من أكبر عازفي البيانو بأمريكا بعد أن ترك الحكم ، وعرضت الست بديعة استعراض " لازم نضحك " ، ووصل الألمـان إلى أبواب كييف وعبروا نهر " دنييستر " ، وبلغ عدد الغارات على الإسكندرية خلال شهر يونيو أربع عشرة غارة قتلت سـبعمائة وخمسـة وعشـرين ، وجرحت ثمانمائة وخمسين ، وتسببت في هجرة اكثر من أربعين ألف إنسـان وتشريدهم ، وبلغ عدد الجنود المتقاتلين من الناحيتين على الجبهة الروسـية تسعة ملايين جندى في حرب لم تعرفها البشرية ضراوة ، ونجح الألمـان في احتلال سمولنسك وبسارابيا وأخذوا طريقهم ناحية لينتجراد ، فاشتد القتال هناك وبنى بالإسكندرية مائتا مخبأ جديد رغم كثرة المهاجرين ، وظهر نشاط ياباني كبير في الهند الصينية ، حيث احتلت اليابان قواعد جديدة لها ونزلت بجيوشها في المستعمرات الفرنسية ، والغريب أن الشواطئ في الإسـكندرية شهدت زحاماً هذا العام ، وبدأت الدعوة لعودة المهاجرين مـن المـوظفين لإنسياب الأعمال الحكومية وبلغ ما خسره الألمان خلال شـهر في روسـيا مليونا ونصف المليون من الجنود وثلاثة آلاف دبابة وألفين وثلاثمائة طائرة ، وبدأت حرب العصابات الروسية الموجهة ووقعت في مصر أول غارة علـى بورسعيد قتل فيها سبعة عشر وجرح ستون شخصاً ، وبلغ طـول سـعيد غازي ، مائين وخمسة وستين سنتيمترا ، ويئس الأطباء من علاج نمو عظامه بهذا الاطراد السريع لكن سعيد غازى ، صار حديث المرضى في المستشفى

الأميرى ،صار كل زائر لمريض يحرص على المرور بقسم العظام ليرى سعيد غازي ولو من بعيد .. لقد صرفت المستشفى لسعيد كرسيا متحركاً حيث لم يعد قادراً على الوقوف فضلا عن السير والاصطدام بأفـاريز الأبـواب ، وازدادت قطارات الجنود القادمة إلى الإسكندرية ، وإنجليـز وإيرلنـديون وسكوتلنديون ومن جنوب أفريقيا وهنود واسـتراليون ومتطوعـون مـن اليونانيين والفرنسيين واليهود . والقطارات ، تفرغ كل هؤلاء في العلمين التي منها يعاد إرسالهم إلى مرسى مطروح والسلوم ، حيث يجـرى القتـال المتقطع على الحدود ، وعندما وصلت فرقة من الجنود الإسكتلنديين بزيهم الموسيقى المميز حاملين القرب على صـدرهم ، وقفـوا مصـطفين فـوق الرصيف وراحوا يعزفون موسيقى مرحة صاخبة ملأت الفضاء ، ووصـل صوتها إلى دميان في البيت ، فجاء مسرعاً إلى المحطة ليروعه المشهد الجميـل للجنود السعداء العازفين . تحرك القطار مغادراً المحطة وتحركوا هـم علـى الطريق الأسفلتي الضيق شمالاً ، حيث تقع بعد نصف كيلو متـر ثكنـات الجنود والقيادة .

- ماذا يفعل هؤلاء الآلاتية هنا ؟

تساءل دميان الذي صار يقف بين ناظر المحطة وعامل التلغرف ومجـد الدين .

أجاب هلال ناظر المحطة :

- إنهم جنود اسكتلنديون مهمتهم العزف في القتال .

نظر إليه مجد الدين ودميان بدهشة واستمر هو يتحدث :

- آخر فرقة اسكتلندية جاءت هنا كانت في العام الماضي ، مشت مع الجنود ودخلت معهم ليبيا أيام جرازياني . لم يعد منهم أحد .

- إذن هم يحاربون مع الجنود ؟

هكذا تساءل مجد الدين فقال ناظر المحكمة :

- إنهم يعزفون وسط القتال ، تشجيع يعنى !

وصمت الجميع ثم تفرقوا إلى أعمالهم ، بينما ظل دميان واقفاً وحـده قليلاً وسط ضوء النهار الباهر القوي . (يا إلهي . أى ظلـم) ، وكانـت الفرقة الاسكتلندية قد ابتعدت وسط الثكنات واختفت ، فلم يعد يراهـا وذاب صوت آلاتهم في الضوء والصمت الكبير . ولأمرة يرى دميان جيداً العتاد العسكري المتفرق على أرض الصحراء حتى انقطاع النظر . مئات من الدبابات الصفراء المغطاة بالشبك الأصفر أيضاً المائل للاخضـرار وفوقهـا أشجار صبار صناعية وشوك للتمويه ، ومئات من العربات التي لا تتوقـف عن الحركة ، ويأتي هدير صوتها من بعيد خافتاً ، وصـفوف مـن المـدافع الجبارة التي لم تستخدم بعد والمغطاة بالشبك والأغصان وأكشـاك صـغيرة متفرقة ، وحركة لا تنقطع للجنود داخلين أو خـارجين مـن الأكشـاك والخنادق ، وفجأة أحس دميان بحاسة الشم تستيقظ عنده ، لم يطل تفكيره وأدرك أنها بريكة قادمة في الطريق بأغنامها وأخيها وعرفهـا الصـحراوي وظهرت فجأة ثلاث عربات جيب يقودها جنود عراة الصدر قادمـة مـن الشمال مسرعة تتقافز على الأرض غير المستوية ، وشوهد أخـو بريكـة الصغير يتدحرج وسط الغنم قائلاً " هر .. هر " . منظما حركتها في الشارع

الأسفلتي متوقعاً الخطأ من العربات الجيب . كان هو يـأتي مـن الجنـوب والجنود من الشمال ، لكنه استطاع أن يتفاداهم ببراعة ، ووقفت بريكـة تتابع حركة العربات المسرعة وتقذفها بكلمات غير مفهومة .

كان دميان يعرف إنها ترعى الغنم خلف المحكة فسـبقها إلى هنـاك . وأقبلت هى رفيقية صغيرة لامعة ثيابها تحت الشمس . كانت هذه أول مرة يري زيا بدوياً ، عرف منها فيما بعد أن هذا الذي فوق هو " حولي " مـن الحرير المشغول على نول يدوي وبه قصب مذهب ، وهو يشـف عـن " مربول " من القطن ، يغطي كل البدن ، أما الذي فوق الحولي فهو حرملـة من الجلد تغطى الصدر حتى الوسط ستخلعها قريباً حين يشتد الحر ، وعلى رأسها " برنوس " من الحرير أيضاً يغطى الرأس كله وينتهي بزهور مصنوعة من الخيوط الملونة والترتر الأصفر والأبيض يبرق في الضوء ولا يترك مـن رأسها إلا خصلة شعر ناعمة تستدير فوق الجبهة فتلفت النظر إلى لمعانهـا ، وإلى الحاجبين الرفيفين تحتهما العينان الواسعتان السـوداوان والأهـداب الطويلة الجارحة ، وكان يلمح عند القدمين ، وفوق الحذاء الصغير المشغول أيضاً بالأسلاك المذهبة والفضية نهاية سروال ذات كرانيش دقيقة .

وتمنى لوحدث له اليوم ما حدث أول مرة التقاها حين توقفت شـاة صغيرة لأمر غير مفهوم جوار قدمه والتصقت بساقه حتى إذا اقتربت منـها بريكة وراحت بعصا رفيعة طويلة تخذها راحت الشاة تلتف حـول سـاق دميان ولا تبتعد أبدا حتى ضحك دميان في النهاية ، وضحكت بريكة الـتي شم رائحة المسك تنضوع من تحت رائحة الوبر العالقة بثيابها . لم يفكـر أن هذه الفتاة الصغيرة قد تتعطر بالمسك أو غيره ، فكر على الفـور أن هـذه

رائحة عرقها . لم يفكر أنه قد مضت عشرة أيام على وصوله هنا – ذلـك اليوم الذي التقاها أول مرة – وأن شوقه للأنثى قد بدأ يستيقظ ، لقد وجد نفسه يبحلق في عينيها السوداوين الواسعتين وسمرة وجهها الشاحب فلـيلاً والنونتين الجميلتين في خديها ، ورأى شفتيها ترتعشان دون كلام ، كذلك وهى تتحدث ، وفوق الشفة العليا زغب ناعم مثير حقاً ورأى كفيها تحـت كمى جلبابها صغيرتين رفيقتين يكاد يظهر عظمها تحت الجلد .

- هر ... هر .

فالت تبعد الشاة التي التصقت بساق دميان وأبت الابتعاد حـتى إن دميان اضطر لإبعاد ساقيه عن بعضهما لتدور بينهما الشاة المتلذذة بالوضع ، ولما صار الموقف مربكاً قال دميان :

- اتركيها لى ، لا تكسرى قلبها .

لكن بريكة انحنت وحملت الشاة ورفعتها إلى صدرها ، فاستكانت بين ذراعيها وادعة ذلولا ، وولت خطمها نحو دميان وثغـت بصـوت رفيـع فضحك دميان وبريكة التي قالت :

- تعرفك .

استمرت تضحك وهى تسرع إلى الغنم وأخيها وتركت الشاة بينهما وزعقت " هر "وكذلك أخوها الصغير وابتعد الجميع عن دميان الذى وجد نفسه في اليوم التالي ينتظر بريكة ومعه قطع البسكويت والشيكولاتة .

وتكرر اللقاء كل يوم لوقت قصير حتى وجد نفسه اليوم يقول لها :

- بريكة .. أنا أعرف اسمك من هلال ناظر المحطة . لكنك لم تسـألي عن اسمي :

ابتسمت وقالت :

- إيش اسمك ؟

- دميان .

سكتت قليلاً ثم رددت الاسم "دميان . دميان . دميان " .

وقالت :

- مليح .

تركها قليلاً إلى البيت ، وعاد حاملاً كمية أكبر من الشيكولاتة.

اليوم كانت تنتظره خلف المحطة ، وأمامها غير بعيد ، يـدور أخوهـا حول الغنم حتى لا تشرد إحداها . أكلت بريكة قطعة شيكولاتة باستمتاع وقدمت لأخيها قطعتين وقال دميان .

- تحبين الشيكولاتة ؟

- نعم . بوي يشتريها لي حين يسافر العامرية ، هذه أفضل .

ووجد دميان نفسه يتحدث بطريقتها :

- إش يدير بوكي في العامرية؟

- يبيع ويشرى .

- يتاجر ؟

- لا . يبيع ويشرى .

سكت دميان مرتبكاً لكنها أضافت :

- يبيع الغنم ويشرى ما نريد . لا يزيد ، لا يربح كثيراً .

فهم دميان وبدا له الأمر معقولاً لكنه وجد نفسه يقول دون إرادة :

- وهذا الصغير ؟

- ماله ؟

- يخبر بوكي إنك جلست معى ؟

ضحكت وقالت :

- أنا أخبر بوي .

أدهشته شجاعتها .. تساءل :

- لا تخافين ؟

- ليش أخاف . نحنا عرب ، بدو ، لا نخاف .

ثم سكتت وقالت :

- اسمك دميان ؟

- أجل.

- اسمك ينفع لبينة !

أدرك أنها تشى على الاسم ، هكذا فهم ،و أدهشه أنها لم تنتبه لكونه مسيحياً. ربما انتبهت ولم تتوقف عند ذلك . وربما كانت هى أيضاً مسيحية . أجل . إلى هنا هرب مسيحيون قديماً أيضاً كما هربوا إلى الصعيد . لكن ماذا يفيده من كل هذه الأوهام ، أو حتى الحقائق .

وتعددت اللقاءات ، ووجد دميان نفسه مرة يمسك بكفيها يقلبهما أمامه وهى تتركهما له ضاحكة مبتهجة ، لم تكن يديها دافئتين . كانتا باردتين وشيئاً فشيئاً ارتفع الدفء إليهما وسرى منهما إليه . لكن ألا يمكن أن تكون هذه البدوية الصغيرة تعامله كوالدها ولا شيء آخر ؟ يمكن أن لا يفكر في ذلك . النظرة السعيدة العميقة في عينيها تشي بغير ما يفكر ولن يسمح لشيء أن يجرده من هذه السعادة التي منحتها له الصحراء الطيبة على غير موعد .

بالليل . أمام البيت وهما سددان على الأرض يدخنان وعيونهما تلمع في الظلام ، سأل دميان مجد الدين ؟

- قل لي يا شيخ مجد ، هل يمكن لمثلى أن يحب ؟

كانت النسمة الطرية تمشي ثقيلة في الصحراء ، لكنها على كل حال كانت تمشي فترطب من غلة قيظ النهار . لم تكن هناك قطارات كثيرة بالليل . مجرد قطار واحد يأتي عادة عند الفجر ، فكانت هناك فرصة دائماً لأن يمضياً الليل معاً أو معظمه ، والحقيقة أنهما لم يستطيعاً اقتسام اليوم بينهما في العمل إلا بضعة أيام في البداية . بعد ذلك كان كل منهما يلحق

بالآخر عند المزلقان ، يجد نفسه وحيداً في البيت ويأخذه الضيق فيذهب إلى زميله يجلس معه . وهكذا صارا لا يفترقان في العمل أو في البيت .

كان عامر قد مر بهما منذ قليل تاركاً مكتب التلغراف لينام مبكـراً كالعادة فلا أحد يرسل برقية بالليل . لا أحد يرسل برقية بالنـهار أيضـاً الآن . ليس من عادات البدو إلا البرقيات ، الجنود القادمون مـن خلـف المحيطات والبحار لديهم طرقهم العسكرية الخاصة لإرسال البرقيات . لقـد توقف عامر أمامهما بعد أن ألقى السلام وردا عليه ونظر حوله ثم سألهما :

- هل تعرف من أرسل آخر تلغراف اليوم من المكتب ؟

تأملاه قليلاً في ارتباك ، لكن دميان ضحك قال :

- محمد عبد الوهاب .

- لا.

- إذن هو الملك فاروق .

ابتسم مجد الدين لكن عامر لم يبتسم . ظهرت السخرية في عينيه مـن كلام دميان وقال بهدوء :

- أنا الذي أرسلته .

نظر دميان إلى مجد الدين الذي بانت الشفقة في عينيه وقال لعامر :

- اجلس معنا قليلا يا عامر ، لابد إنك زعلان من شـيء ، اجلـس وتكلم وفوجئا بعامر يجلس أمامهما . قدم له مجد الدين سـيجارة تناولهـا

الرجل بأصابع مرتعشة . أشعلها له دميان ، وراح هو ينفث دخانها بهـدوء ويتكلم كأنه يحدث نفسه .

- أى والله كان مني أنا ، أرسلته لمراتي ، طلبت منها أن تحدثني عـن الأولاد .

وسكتوا لحظات ثم تساءل مجد الدين :

- عندك أولاد يا عامر.

وعادوا إلى السكوت حتى قال عامر :

- ليس عندى أولاد يا شيخ مجد . أنا لم أنجب .

وحط صمت أعمق من كل مرة . كان مجد الدين قد تلقـي برقيـة حقيقية تعلنه بولادة زهرة لغلام حمل الاسم الذي أراده ، شـوقي ، قـال لدميان في فخر " تماماً كما رأيت في المنام " وبقدر ما أحس بالأسف لعـدم قدرته على السفر أحس بالرضا لأن الله استجاب له وأعطاه الولد ... لقـد فكر فر ذلك كله الآن ، بينما قام عامر وأنصرف وسط الظـلام فراحـا يتأملاه معاً ، وفجأة قال دميان :

لم تجبنى عن سؤالي يا شيخ مجد ؟

- أى سؤال يا دميان ؟

- سؤالى عمن أحب .

- ماذا تقول يا رجل . اعقل . نحن فقيراً يا دميان . ثم إنك متـزوج ولديك أولاد .

وسكتا وبدا دميان غير مقتنع بكلام صديقه . فكر كيف يمنع الفقـر الحب ، ولماذا يكون على المتزوج أن لا يحب غير زوجته وبيته ، لقد تحـرك قلبه ناحية بريكة ولا قدرة له على إيقافه . تساءل :

- ماذا حدث لو أحب مسيحي مسلمة ؟

ولم يرد مجد الدين . تذكر على الفور قصة رشدي وكاميليا . القصـة التي يعرفها دميان تعود معكوسة هذه المرة لكنها القصة نفسها لا جـدال ، فكيف إذن يسعى دميان بقدميه إلى الجحيم ؟ وسمع دميان يقول " دنيا لبؤة وزمن خئون " وهنا قال مجد الدين :

- لا الدنيا لبؤة ولا الزمن خئون يا دميان . نحن الذين نجلب المتاعب لأنفسنا ، ليس من المعقول أن تضعف في السيطرة على قلبك إلى هذا الحد .

- قلبي غلبني يا شيخ مجد . قلبي تعلق بالعذاب لا أستطيع منعـه . لم أكن أقصد . أنا لم أقصد أن أفعل أي شيء في حياتي . هل قصدت أنـا أو أنت أن ننتقل للعمل هنا في العلمين وسط الصحراء ؟ بل هـل قصـدنا أن نلتقي أصلاً .

لم يجد مجد الدين جواباً وفكر في شيء يقوله يخفف من حـدة دميـان وانفعاله . بعد قليل قال :

- الرجل منا بعد الأربعين تهفو نفسه إلى الفتيات الصـغيرات ، لـو تجمل قليلاً بالصبر مرت الأزمة بخير .

لكن دميان كان يفكر في سبب آخر لحب بريكة . ربما لأنها تأتي مـن وسع . من أين تأتي ؟ لا يعلم . يسألها فتقول " من غـادى " وتشـير إلى الجنوب .. إلى أين تذهب هى والغنم وأخوها ؟ لا يبدو أبداً أنها ذهبت إلى مكان معروف خيمة أو بيت أو نجع . يبدو له دائماً أنها صعدت إلى السماء أو نزلت إلى سابع أرض . تأتي من عند الله وتعود إليه ، هى دائماً تأتي مـن وسع . تظهر فيتسع صدره بالهواء الذي لا يعرف مصدره في هذا القـيظ . وقال كأنه يحدث نفسه :

- حياتك في غيط العنب زنقة يا شيخ مجد . بالكاد نشم قليلاً مـن الهواء على المحمودية ... هواء ثقيل غالباً يفسده عليك قتيل يمر فوق الماء ، هذه البنت لغز يا شيخ مجد ، كما تأتي تروح . ربنا هو الذي أرسلها لى كي تشغلني . أنا لا أرفض ما يرسله الرب . هل أستطيع ؟

وسكتنا ... ورأى مجد الدين دميان وهو يمسح دمعة بأنامله .

" وجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا

أن نقبل بعضنا بعضا

بقبلة طاهرة "

-24-

أعلن دميان أنه من الغد لن يأكل البولوبيف واللحوم والبيض والجبن وكل ما أصله روح ماعدا السمك . من الغد سيبدأ صوم العـذراء الـذي يستمر أسبوعين .

كان الغد هو السابع من أغسطس ، وأول مسرى ، ورأي دميان مجد الدين قد شرد عنه قليلاً فقال :

- تذكُر أنى حدثتك عن الصوم الكبير أقدس أصوامنا الذي ينتـهي بعيد القيامة ، وها هو صوم العذراء ، وهناك صوم الـيلاد ومدتـه ثلاثـة

وأربعون يوماً ، وينتهى بعيد الميلاد في السابع من يناير ، وهناك صوم يونان لثلاثة أيام . هل تعرف يونان ؟ إنه مذكور في القرآن . لقد ظـل في بطـن الحوت ثلاثة أيام . وخرج ليعظ أهل نينوي ويهديهم للإيمان .

كان مجد الدين يفكر كيف نسى الشهور القبطية التى لم يكن لينساها أبداً . لا يوجد فلاح لا يعرف الشهور القبطية ولا يتابعها ، وها هو يسمع من دميان أن الغد أول مسرى ، لكنه انتبه إلى الكلام فقال :

- إنه سيدنا يونس عليه السلام .

وسأله دميان :

- طيب . هل تعرف نينوى ؟ اسم حلو لكن أهلها كان أشراراً .

- أظن نينوى هذه بالعراق . و أظنها بلد سـيدنا إبـراهيم عليـه السلام .

- أنت تعرف أشياء كثيرة يا شيخ مجد الدين . أشياء كثيرة جداً . في صيام يونان نمتنع عن الأكل نهائياً ثلاثة أيام ، ومنا من يصومها يومـاً يومـاً حسب القدرة . كذلك نصوم الأربعاء والجمعة من كل أسبوع طول العمر ماعدا الخمسين يوماً التالية لعيد القيامة . أيام الخماسين في مصـر ، وهـى الفترة التى ظل فيها السيد المسيح على الأرض بعد القيامة . نصوم الأربعاء لأنه اليوم الذي اتفق فيه اليهود على صلب المسيح ، ونصوم الجمعة لأنـه يوم الصلب نفسه ، وهما يومان للصوم المقدس لا نأكل فيهما السمك مثل الصوم الكبير تماماً .

عاد مجد الدين إلى شروده . كيف حقاً لصديقه بهذه المعارف الدينيـة وهو الذي أمضى حياته شارداً متشرداً لم يتردد على الكنيسة إلا منذ عام ؟

وتساءل مجد الدين باسما :

- لكنك لا تصوم الأربعاء ولا الجمعة .

صعب على يا شيخ . أنا أيضاً لا أصوم يونان . لا .أقصد : لم أتعود . وسبق وقلت : إن أيامنا لا تختلف كثيراً عن الصيام . أنا أصوم أكثر مما هو مفروض – سكت دميان قليلاً ثم تساءل فجأة – هل كل قصص الأنبيـاء موجودة في القرآن .

- نعم .

- وهي أيضاً موجودة في العهد القديم . سبحان الله . على أي حـال أحببت أن أعلمك بصيامي حتى لا تتقيد بطعامي .

- سأصوم معك يا دميان. سآكل مما تأكل وأمتنع عما تمتنع ؟

وكالعادة مشى الوقت . كتب مجد الدين خطاباً أرسله إلى زهرة مـع الأبونيه رضوان أكسبريس . طلب منه أن يضعه في أقرب صـندوق بريـد بالإسكندرية . كذلك طلب منه دميان أن يمر على عائلته بغيط العنـب . ليطمئن عليهم بعد الغارات الثقيلة في الأيام الماضية . وضحك دميان وهـو يقول لرضوان " أخيراً وجدت لك عملاً وزبائن . حملـه بكرتونـة مليئـة بالشاي والبسكويت والجبن الشيدر والبلوبيف والشيكولاتة ليوصـلها إلى عائلته ، كما قدم هو ومجد الدين له عدداً من علب الشـاي والبلوبيـف

والجين فبدا مسروراً غاية السرور . صحيح أنهما لن يستطيعا إرسال أشياء معه كل يوم ، ولا حتى كل أسبوع ، لكن هناك شيئاً يفعله بدلا من هـذا الفراغ المعتم .إنه لم يقابل في القطار أحداً من المسافرين بعد لقائه بمجد الدين ودميان ، فقط قليلاً من البدو ، يدخل الواحد منهم إلى العربة فيجده جالساً ينظر إليه بحذر ثم يترك العربة كلها إلى أخرى ، وإذا حدث ودخل العربـة جماعة منهم جلسوا معا يتحدثون بسرعة فلا يستطيع متابعة حـديثهم ولا فهمه ، رغم أنه قبل الحرب ، أيام الزحام ، كـان يفهـم كـلام البـدو ويتحدثه .ما الذى حقا جرى له ؟ منذ بدأت الحرب يستسـلم للفـراغ ، ويغط في النوم فوق الكرسي وحيداً في العربة الواسعة .

كان دميان قد تغير شكله كثيراً . ضربت السمرة وجهه من أثر الحر والصهد ، وخلع لباس عمال السكة الحديد المميز ولبس لباس الجند الصيفي ، شورت كاكي وقميص بنصف كم ، وبانت ساقاه رفيعتين للغاية فـوق حذائه الأسود العسكري الضخم . وسأل دميان ناظر المحطة أن يفعل مثله ، في اليوم الثاني ظهر الناظر (هلال) فى الملابس العسكرية كذلك عـامر ، لكن مجد الدين ظل على حاله ، الذي يدهش دميان أن مجد الدين ، وهـو الأبيض البشرة مثله ، لا تضرب فيه السمرة ، بل يزداد وجهه احمـراراً ، ولولا أنه يعيش معه في بيت واحد لقال عنه إنه يدهن وجهه بزيت سحري ، او يشرب الخمر بكميات كبيرة . أجل . لشاربي الخمر وجوه حمراء دائماً . هكذا معظم اليونانيين والإيطاليين بالإسكندرية ، صحيح أحياناً ينطفئ لون وجوههم كما يحدث مع كثير من القبارصة لكن هؤلاء في الحقيقة يشربون الخمر كثيراً ولا يأكلون . هم أفقر الأجانب بالإسكندرية لا يتفوق علـيهم

في الفقر غير اليهود ، لكن البنات اليهوديات جميلات دائماً . هكذا قـال دميان لنفسه وهو يشعر بالزهو لهذه المعارف التي تتدفق في رأسه .

أحس بشوق شديد إلى زوجته . سأل فجأة :

- يا شيخ مجد . هل سنظل دون نساء ؟

بوغت مجد الدين حقاً بالسؤال ، لكنه قال بهدوء :

- حكمة الله يا دميان ، ثم إنك تستطيع أن تسافر إلى زوجتك .

- وأتركك !؟

- أستطيع أن أقوم بعملك حتى تعود . كما ترى نحن تقريبـاً نعمـل معاً .

يمكن لك أن تمضى بالإسكندرية الوقت الذي تشاء . لا أحد يأتي للتفتـيش علينا .

- والضابط سبايك ؟

- إنه في النهاية إنجليزي ، لن يخاطب الحكومة المصـرية مـن أجـل عاملين . ثم إنني سأقوم بعملك كما قلت .

- لكنى فكرت في شيء آخر .أنهم يقيمون للجنود حفلات ترفيهية . تأتي فتيات الأنسا للترفيه عنهم مرة كل شهر ، مارأيـك أن تطلـب مـن سبايك الترفيه عنا بفناتين يهوديتين .

ضحك مجد الدين بشدة ، وقال إنه لو طلب ذلك من سبايك يمكن أن يقتله . وضحكا معاً ، وفكر دميان في سهولة سفره إلى الإسكندرية . وإنه بهذه الطريقة لن يعاني أزمة من الجنس . مجد الدين هذا شيخ عجيب . يقدم أصعب الحلول بسهولة شديدة . كيف حقاً لم يصل دميان إلى هذا الحل وبدا له دائماً مستعصياً مع قربه ؟

- هذا هو الفارق بينه وبين مجد الدين . لو لم يكن مجد الدين فلاحاً أو عاملاً بالسكة الحديد لكان سياسياً وربما قائداً عسكرياً . لكن دميان سرعان ما ادرك أنه لن يستطيع السفر . إذ ليس من السهل عليه أن يترك مجد الدين وحيداً في هذا الفراغ . يا له من شعور جميل هذا الذي يحـس بـه ناحيـة صديقه . يدرك ذلك حين يسافر لصرف المرتب نهاية كل شهر . لا يستطيع البقاء في الإسكندرية أكثر من ليلة على كثرة شوقه لزوجته ، لكنه أيضاً لا يستطيع الانقطاع عن رؤية بريكة . ربما هي السبب الحقيقي لبقائه ، لكـن حبه لمجد الدين سبب قوى بلا جدال .

بالليل ، في ليلة عيد العذراء ، بعد آخر يوم صيام ، قام دميـان مـن نومه على صوت خافت يتردد في الغرفة . كان مجد الدين قد أطفأ لمبة الغاز والظلام شديد للغاية ، لكن عيني مجد الدين تلمعان في الظـلام وصـوت أنفاسه يرتفع . جاءه صوت دميان من الجانب الآخر :

- مالك يا شيخ مجد ؟

- لا شيء يا دميان .

- لكنك تبكي . هل تذكرت زهرة والأولاد ؟

ولم يرد مجد الدين . لقد أحس الليلة بمدى الظلم الفادح الذي وقـع عليه ، كيف حقاً يتحمل أن لا يرى زهرة بعد الـولادة ولا يـرى ابنـه المولود . لماذا حقاً لا يستطع أن يسافر ؟

كيف ترك نفسه فريسة لكل هذا الظلم ولم يقاوم ؟ مـا الـذي في صدره يجذبه بعيداً عن القرية ويجعله يرضى كما لو كان الخـروج عنـه ؟ الحقيقة أنه ظلم نفسه بقدر ظلم العمدة له .

- أجل يا دميان ، تذكرت زهرة والأولاد لكني حمدت الله . بكيـت لحظات ثم حمدت الله وشكرت فضله .

وسكت ، وبدوره دميان سكت لبعض الوقت ثم قال :

- تعرف يا شيخ مجداً أحياناً يخيل لى أننا سنجن هنا . أنا أحب بنتـا صغيرة لا أعرف من أين تأتي أو تذهب ، وأنسى أهلى . وأنت تتذكر أهلك ولا تفكر في الذهاب إليهم . هل كان مجنون ليلى يعيش في صحراء كهذه ؟ إذا كان كذلك فلقد كان على حق في جنونه .

ضحك مجد الدين في النهاية واستمر دميان في الحديث لكن كما لـو كان لنفسه :

- أجل . إذا حدث وأصيب أحد بالجنون فلابد أن يكون على حق – ثم قال لمجد الدين – وقريباً سيلتمس لنا الناس العذر . أقصد أنا وأنت .

ابتسم مجد الدين من هذا الحديث العجيب الذي يتدفق مـن دميـان الذي نهض للتو من نومه .

- تقصد أن الصحراء ستصيبنا بالجنون ؟

- لا .. هذا الظلام الذي حولنا . لا أحد يتحـدث في الظـلام الآن غيرنا في كل الدنيا . نم يا شيخ مجد . أنا سأنام . غداً عيد العذراء . لابد أن أجد عدداً من الجنود الأجانب يحتفلون بالعيـد . سأمشـي لأول مـرة في الصباح . ناحية ثكنات الجنود لعلى أجد قداساً أشاركهم فيه . اسمع يا شيخ مجد .. اقرأ بعض آيات القرآن لتساعدك على النوم هادئ البال .

وسكتنا قليلاً ، لكن مجد الدين تساءل :

- ماذا تقولون في القداس يا دميان عن ستنا مريم ؟

- نقول كلاماً كثيراً لا أحفظ منه إلا القليل .

وراح يرتل بصوت عميق :

مجـــــد مـــــريم يتـعظـــــم
في المشـــــــارق والمغـــــــارب
كرموهـــــــا عظّموهـــــــا
ملّكوهـــــــا في القلـــــــوب
قـــــد تلالـــــت وتعالـــــت

مـــــــا لنورهـــــــا غـــــــروب

- الصافي .. النعيم ... هذا اسم جميل يذكرنا بالجنة .

هكذا دار الحوار بين الجندي السوداني ومجد الدين ، ودميـان يقـف مندهشاً حتى أنه قال :

- ظننتك تقول إن شخصاً مات وانتقل إلى جنة النعيم .

ضحك الجندي السوداني الطويل الضخم ولمعت أسنانه البيضـاء في الفضاء المنير .

لقد نمت صحبة بين مجد الدين ودميان وعدد من الجنود الهنود منـذ الأيام الأولى ، حينما شاهد مجد الدين ساعة الحائط في حجرة ناظر المحطـة اطمأن على تحديد مواقيت الصلاة ، لكنه ما لبث أن سمع في اليـوم نفسـه أذان العصر يتردد وسط الصحراء رفيعاً شجياً نبيلاً وإن لم يحدد مصـدره وعرف أن بين الجنود من الهند مسلمين كثيراً ما تأتي جماعات منهم إلى المحطة لإفراغ قطارات المعدات الحربية .

ووجد مجد الدين نفسه يقف عند المغرب على رصيف المحطة ويـؤذن ،كان يعرف أن الهواء سيحمل الأذان وراءه ناحية الجنوب لذلك أذن بقوة كبيرة وبعدها وقف يصلي المغرب وخلفه هلال وعامر ، في اليوم التالي أقبل أحد الجنود الهنود . شاب صغير أسود البشرة ، يميل سواده إلى الاصفرار ، مربع الوجه ضيق العينين لامعهما ، بل وتشع عيناه ذكاء وفوق رأسه العمة

الهندية الشهيرة . جاء يسأل عن الذي أذن المغرب أمس . قال إن صـوته جميل . ووعد بأن يأتي عند الظهر يصلي خلف مجد الدين . عند الظهر جاء ومعه عدد من زملائه لا يكفون عن المرح . هؤلاء هم الذين راحوا يقدمون كميات كبيرة من البسكويت والشيكولاتة والشاي والجـبن والبولوبيـف والعدس أيضاً والأرز لمجد الدين ودميان وهلال وعامر معاً ، وسمع مجد الدين أسماء لم يسمعها من قبل عن بلد لم يكن يصدق أنها موجودة . كل النـاس تعرف أن هناك دولة اسمها الهند ، لكن أن ترى منها أحدا فهـي معجـزة حقيقية . محمد زمانا ومحمد صديقي وويلايات خان وكرم سنج وتشوهرى رام وراج بهادور وغلام سرور وأرشاد وجنة وإقبال مسلمون وهنـدوس لا تزيد أعمارهم على الثامنة عشرة بل وأكثرهم في السادسة عشرة . أطفـال لا أكثر حملتهم الإمبراطورية البريطانية إلى بلاد غير بلادهم . من بيشـاور ولاهور وكراتشى وبومباي وكشمير لم يفكر أحد أبداً يوم ميلادهم أنهـم سيحاربون في الصحراء المصرية جيوشاً من أوروباً وفي الأغلب سيموتون .

كان عامر قد دخل في اكتئاب عميق فصار يمضـىاليوم في مكتـب التلغراف ينقر بأصابعه على المنضدة ولا أحد يأتيه ببرقيات ولا يستقبل برقية من أحد ، أما هلال فكان ينام معظم الوقت في انتظار الركـاب الـذين لا يسافر منهم غير واحد أو اثنين من البدو في اليوم ، لكن كان يضـاف إلى عمله تنظيم الحركة ، ضبط التحويلات الأرضية ، فهناك خط حديدي قديم ينتهي أمام المحطة وهو الخط الذي تبيت فوقه القطارات التي تـأتي حاملـة العتاد العسكري حتى تتحرك عائدة فارغة في اليوم التالي ، كذلك كان عليه تشغيل السيمافور ، وإرخاء ذراعه المقسمة الألوان بين الأبـيض والأسـود

حال تحرك القطار ، ويفعل ذلك من تحويلة مجاورة للرصيف ، وكذلك تغيير زيت القنديل المثبت في مؤخرة السيمافور مرة كل أسبوع وإشعاله بالليـل كل مساء . كان هناك إذن مبرر لبقائه .

اليوم انضم الصافي النعيم إلى الجنود الهنود ، جاء وحده دون دعـوة من أحد . قال إنه كان يسمع الأذان يأتي من ناحية المحطة وبندهش ، ثم رأي الهنود يتسربون وقت الصلاة ناحية المحطة فقرر أن يتبعهم . لقد تأخر لكنه أخيرا فعلها . وقال دميان ضاحكاً :

- شكلك يقول إنك من السودان !

بانت الدهشة والابتسامة على وجه مجد الدين ، وقال الصافي النعـيم بأدب :

- من أم درمان .

- أطيب ناس .

قال دميان ولا يزال مجد الدين في دهشة . كان يعد الشاي على نـار جوار الكشك الذي تركوه وجلسوا خلفه عند المزلقان ، قدم كوبـاً مـن الشاي للصافي الذي رشف منه وقال :

- شاي تقيل حلو .

قال دميان :

- شاي إنجليزي .

قال الصافي النعيم :

- لا .. شاي سيلاني يعبئه الإنجليز ، لكن الأهم أن الصنعة عربي .

- الله ... الله ... الله . يفتح عليك يا صافي يا نعيم يا حتة من الجنة !

هتف دميان مثل طفل وضحك مجد الدين بسعادة وسـكتوا ليسـأل الصافي دميان عن اسمه :

- دميان .

عادوا للسكوت .. سكوت سرت فيه نسمة طربة . كانت الشـمس قد أوشكت على الاختفاء تاركة الفضاء للظلام ، الحمرة تعم الأفق وتشعل فيه النار . وكان الوقت العاشر من أغسطس الموافق منتصف رجب ، فبـدأ البدر في الصعود مبكراً وليس أجمل من الصحراء وفوقهـا البـدر وقـال الصافي :

- دميان اسم جميل ، اسم فديس !

كان دميان قد سكت معتقداً أن اسمه قد صدم الصافي ، أو بـالأحرى ديانته ، لكن جاء الأمر مخالفا لاعتقاده فقال :

- أشكرك يا أخي .

وبعد لحظة سأله مجد الدين :

- هل توجد هنا فرقة سودانية ؟

- فرقة كبيرة جداً ، هل تخمن عددها ؟

هكذا أجاب الصافي فقال دميان :

- ألف ؟

- لا .

- خمسمائة ؟

- لا . لن تعرف . أنا أريحك . اثنان فقط . أنا وسـراج خليفـة . سراج في مرسى مطروح يعمل بخدمة مكتب القائد العام ، المستر كانينجهام الآن . أنا هنا . كنت أتعجب من حاجة الإمبراطورية البريطانية لنـا نحـن الاثنين من السودان ، لكنها الآن فرقت بيننا ، وتحتاج إلى كل منا في موضع بعيد عن الآخر . لم تعد تفيدني الدهشة . لابـد أنـني أسـاوى الفرقـة اليوزيلاندية أو الهندية ، وإلا لما احتفظوا بكل منا على حدة ، أنتما أيضاً هنا وحدكما . ماذل تفعلان . لا شيء، يمكن للجيش أن يقوم بعملكما لكنكما هنا مثلنا .

بعد صمت طويل انتهوا فيه من شرب الشاي قال مجد الدين :

- ربما نحن هنا لنلتقي بك ونعرفك ، وهذا وحده يسعدنا وزيادة .

جاء برد الصحراء من السحب السوداء تتدافع كالثيران الهمجية إلى الشرق فوق البحر وفوق البر . يقول دميان لنفسه " من هنا إذن يـذهب المطر إلى الإسكندرية كما تذهب الغارات " وفجأة هتف يسأل مجد الدين" من الذي وضع الإسكندرية في مكانها ؟ " ولم يجبه مجد الدين ، وإن تأملـه باندهاش شديد .

لقد تغيرت ملابس الجنود . لبسو السـراويل الطويلـة والسـترات الصوف فوق القمصان التي صارت بأكمام والجوارب السميكة حتى أسفل الركبة والأحذية الشمواه مرتفعة الرقبة ووضعوا في فوهات بنادقهم قطعـاً من الخرق حتى لا تتسلل إليها الندى بالليل إذا كانوا بالخلاء .. ارتفعت في الأرض الواسعة المظلمة التي حجبت السحب نجومها وقمرها ألسنة الـنيران العشوائية يصنعها الجنود ، الهنود بصفة خاصة ، من مخلفـات الصـناديق والكراتين للتدفئة . وبدا أن هناك استرخاء عسكرياً ، فالقطارات لم تعـد تأتي بعتاد ولا جنود من الشرق ولا أسرى من الغرب . لم ير مجد الـدين أو دميان جديداً غير الهندي الضخم الذي يتجاوز الأربعين من العمر ، والذي يمشي في خيلاء الفيل ، صاحب العمة الضخمة الذي جاء أكثر من مرة مع الهنود الشباب ولم يشاركهم الصلاة . جلس بعيداً مع القليلين من الهنـود السيخ ، إنه العريف بهادور شاند من كشمير التي تمتلئ بالمسلمين والسـيخ معاً ، ويثير الإنجليز بينهم الفتنة دائماً . حين رأي مجد الدين العريف بهادور تعجب من قدرة الله على خلق كل هذه الأمم والشعوب ، وتـذكر الآيـة (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) ، وتمنى لو استطاع أن يلم بالكثير من الإنجليزية والهندية ليفهم شيئاً مما حدث في هذا العالم الواسع.. مـا أعظـم الخالق الذي يسيطر على هذا كله . والذي ألقى في طريقه بدميان فجعـل أيامه سهله رغم أنه فى مكان لو ترك فيه القرد لضج وهرب . دميان يعـود كل يوم بعد انصراف بريكة في حالة من السعادة الطفولية ، بدميان فقط تمر الأيام ، وبدونه صمت مقيم . ها هو شهر قدح مضي بعد عيد العـذراء ، وغداً يبدأ شهر رمضان ، فوجئ مجد الدين بدميان يقول له :

- جاء دوري لأصوم معك يا شيخ محمد .

.....

- ألا تصدقني ؟ وسأصوم معك الشهر كله .

- صيامنا صعب يادميان . انقطاع عن الطعام والشراب طول النهار .

- هذا أفضل من أن يأكل كل منا وحيداً في الصحراء .

هكذا أجابه دميان بسرعة . لقد حدد هدفه من قبل بوضوح وكـان لديه المبرر القوى مما جعل التأثر يظهر على مجد الدين ، وسكت الصـديقان طويلاً ثم تكلما :

- متى تعود إلى الإسكندرية يا دميان ؟

تقصد إلى البلدة . أنا أعرف أن رمضان شهر يحب اللمة ، ولو انضم إلينا بعض الهنود نصبح أسرة عالمية .

وقال مجد الدين على غير إرادة :

- طال شوقي يا دميان .

باغته دميان مندهشاً :

- كيف حقاً لا تسافر ؟

ولم يجد مجد الدين مناصاً من أن يحكى الحكاية من أولها . أحس أنه في حاجة إلى أن يحكى لأحد .. هى لحظة غريبة تلك التي تداهم الإنسان فيجد نفسه في حاجة إلى أن يكشف ما اجتهد في اخفائه وقتاً طويلاً ولا يسـتطيع

الإنسان أبدا أن يهرب من هذه اللحظة حين تداهمه . يمتلئ صدره بشـجن ثقيل يصعد إلى عينيه حزناً نبيلاً ، ويبدأ في الحكاية وإفشاء السر الثقيل .

شغلت حكايته معظم الليل . كان دميان يسمع مسحوراً . وقال وهو يتناول طعام السحور مع مجد الدين :

-كل ذلك تحملته وحدك يا رجل ؟

- إرادة الله يا دميان .

- لكن الله لا يمكن أن يرضي بكل هذا الظلم .

- استغفر الله يا دميان.

- ياشيخ مجد أفضل ما تفعله هو أن تأخذ بندقية مـن أحـد الهنـود وتسافر إلى القرية وتقتل العمدة وتعود . لا أحد سيفكر فيـك ولا أحـد سيعرف مصدر الرصاص الهندي !!

وسكتنا بعض الوقت .

- لوكنت أريد كنت قتلته من زمان . أنا خرجت لأمنع إهراق الدم ، وأيضاً لأني كنت أريد . أجل كنت أريد الخروج لا أدري لماذا .

- لا بد أن تعود ياشيخ مجد ..

- سأعود يا دميان ... سأعود لابد .

انقطعت بريكة في رمضان كثيراً عن الحضور ، حتى العيد لم تظهر غير خمس مرات سريعة . قالت لدميان إنها تستعد " للجلاسة " فلم يفهـم ولم يهتم .

في العيد صلي الهنود المسلمون و الصافي النعيم صلاة العيد خلف مجد الدين ، هنأوه وهنأهم . لم يكن هناك شيء يمكن لمجد الدين أن يفعله غـير إرسال برقية لزهرة وأخواته يهنئهم . فرح عامر كثيراً بالبرقية وما كاد مجد الدين يترك الغرفة حتى سمع صوت عامر يبكي خلفه . هذا آخر يوم لعـامر في العمل . لقد سافر مع القطار العائد في المساء . سافرهكذا دون أن يخـبر أحدا وترك غرفته مفتوحة للريح . " ماذا يفعل .. كاد يجن " قال دميـان ضاحكاً لمجد الدين وهلال الذي كانا صامتا ، ثم عاد دميان يقول " يحق لنا أن نفعل مثله . نهرب . ماذا يضير الحلفاء من اختفاء ثلاثة مصريين تعساء ؟ " ومضي العيد في صمت . لا قطارات من أى نوع . بعد العيـد ظهـرت بريكة . كان يوماً مشمساً على غير العادة .

- لماذا لم تعودي تأتين كثيراً ؟

سألها دميان في ألم . قالت ضاحكة :

- بسبب المطر .

- لكنك تأتيت في بعض الأيام ؟

أجابته بلهجتها البدوية .

-أيام ما يكنش فيها مطر .

- تعرفينها ؟

- نحن البدو نعرف الريح من مطرحها

سكتا . تأملته باسمة . ثم سألته :

- إيش تشتغل هنا يا دميان ؟

باغته السؤال . كيف حقاً لا تعرف عمله ؟ أدرك أنه لم يخبرها بنـوع العمل .. أجاب :

- أشتغل في المزلقان .

- أعرف إيش تدير ؟

- لا شيء .. يأتي القطار فأمنع مرور السيارات والناس . يمشي فأترك السيارات والناس .

- عجيب !

- العمل ؟

- إني ما شايفاش سيارات ولا ناس . شايفاش قطارات .

ارتبك دميان بحق . ماذا تفعل به هذه الفتاة اليوم . هذه الفتاة الـتي يخفق قلبه كلما رآها كطفل يتيم ظهر له فجأة أبوان . هذه الفتاة التي يحبها ولا يعرف كيف يعلنها بالحب .. ووجد نفسه يسألها بدوره :

- من أين تأتين يا بركة ؟

- من جبلي .

- فالت ذلك وأشارت إلى الجنوب .

- وإلى أين تذهبين بعد الرعي ؟

- إلى جبلي . ماربتنيش ؟

- ربتك .

أجاب على طريقتها مدركاً سخافة سؤاله . فلقد سبق لـه . وسـألها الأسئلة نفسها من قبل . لكنه قال :

- إيش الجلاسة التي كلمتيني عنها من قبل ؟

ضحكت طويلاً وقالت :

- تريد تشارك فيها ؟

- أنا لا أعرفها .

استمرت تضحك وقالت :

- اسمع إلعب معى . أسألك وتجيبني ، وأنت اسألني وأنا أجيبك .

سكت يأساً . وبدأت بالإسئلة . قالت :

- إيش حلى م العسل وايش مر م الحنظل ؟

لم يعرف أى إجابة فقالت :

- ما أحلى من العسل إلا لعب العيل على الـدبش .وأشـارت إلى أخيها الصغير – وما مر من الحنظل إلا شيل الرجيل على النعش .

وأشارت إلى أحد الجنود الهنود الذي كان يمر أمامها بالصدفة مبتسماً لها .

وفكر دميان أنه من اللائق أن يخرج عن سكوته . أن يلعب معها . ألا يحبها ؟

وبدأ جسمه يرتعش وهو يقدح ذهنه ليسألها فال :

- طيب . أسألك أنا . إيش يغلب النار ؟

ضحكت وقالت وهي تلكزه في صدره :

- تغلبها المية .

- كسبتيني .

- لا . لسة ماكسبتكش . دورى أسألك .إيش يغلب المية ؟

فكر قليلاً وكاد يقول الحائط لكنه أدرك أن الماء يستطيع الدوران حول الحائط أو اختراقه مع الزمن . طال سكوته وتفكيره . قالت ضاحكة :

- تغلبها الصعودة !

وأدرك دميان أن ذكاءها خارق ، وأحب أن يهزمها بحق . لكزها برفق في كتفها وسألها :

- وإيش يغلب الصعودة ؟

قالت بسرعة ضاحكة :

- تغلبها الخيل ، والخيل يغلبها الفرسين ، والفرسين تغلبها النساء .

- تعرف إيش يغلب النساء ؟

- الرجال .

ضحكت طويلاً وقالت :

- لا . النساء يغلبهن الموت يا دميان .

ووقفت تنادي أخاها ليسوق الغنم . أشارت إلى السماء التي بـدأت تمتلئ بالسحب ، فهم دميان أنها تريد أن تسبق المطر . سألها :

- لم تشرحي لى ما الجلاسة .

قالت ضاحكة :

- اليوم عملنا جلاسة . مادريت . وما غلبتني ، الجلاسـة نعملـها بالنجع . الشباب اللى يغلبني يتزوجني هر . هر . هر .

وزعقت تساعد أخاها في السيطرة على الغنم ثم مشـت ضـاحكة ، بينما ظل دميان في مكانه لا يريم ، يتطلع إلى السحب السود التي تتكـاثف على الدنيا ويدرك أنه لا سبيل له إليها ، بريكة أبدا أبدا أبدا .

في جو غزير المطر على ساحل مربوط ، وداخل ليبيا ، قفزت قـوات الحلفاء على قوات المحور في " سيدى رزق " لكن الألمان انتصـرورا بعـد معركة قاسية في منطقة المطار واستردوا سيدى رزق ، وفقد الحلفاء كـثيراً من مدرعاتهم ، وفي اليوم التالي لانتصار الألمان ، في شهر نوفمبر ، أصـدر كانينجهام أوامره إلى الفيلق الحادي عشر بالزحف على سيدى رزق مـن

جديد ، وأوشك هذا الفيلق أن يستردها لكن روميل الذي أدرك سر حرب الصحراء ترك المعارك واتجه بمدرعاته إلى الشرق ، إلى الحدود المصرية ودخل عشرين ميلاً فيها فأخذت الفوضي في مؤخرة القوات الإنجليزية وحلفائهـا وأسر الكثير من رجالهم حتى تدخل السلاح الجوي البريطاني بغارات ضارية فاضطر روميل إلى العودة إلى سيدى رزق تطارده الفرقة الهندية الرابعة ، وما كاد ينتهي شهر نوفمبر حتى كان الجنرال أوكلينلك قد أقـال كانينجهـام وعين الجنرال ريتشي مكانه ، وحاصر روميل طبرق وهى حصن منيع ، بل أمنع الحصون في شمال أفريقيا ، بها حامية بريطانية عنيدة وشجاعة تصل إلى الثلاثين ألفاً يحدها من الشرق والغرب أرض صـخرية وعـرة تصـبح في الجنوب سهلاً منبسطاً ، وكانت قبل عام 1940 حصناً إيطاليـا ، لكـن الإنجليز استولوا عليه واستفادوا من الخطوط الدفاعية التي أقامها الطليـان حول الحصن ، خطوط عميقة في الأرض بها مدافع ومـرابض رشاشـات تستطيع صب نيرانها على المهاجمين في اللحظات الأخيرة ، لاقترابهم فتدمرهم تماماً ، فضلاً عن الموانع العديدة من الأسلاك الشائكة التي تعرفـل زحـف المشاة وخندق عميق يحيط المنطقة كلها يمنع تقدم الدبابات وخلف كل من هذه الخطوط الدفاعية توجد الحشود الضخمة من المدفعية البريطانية وحقول الألغام الكثيفة . لقد انتهى القتال مع نهاية نوفمبر ولم يـنجح روميـل في الاستيلاء على طبرق لكنه أوقع بالحلفاء خسائر كبيرة للغاية زادت علـى الثمانمائة مركبة مدرعة ومائة طائرة وأعداد لا تحصى من الأسلحة الخفيفـة والذخائر وأسرى يزيدون على التسعة آلاف . وخسر هو عدداً كبيراً مـن الأسرى ، أيضاً بدأت قوات الحلفاء في نقلـهم إلى الإسـكندرية حليفـي

الرؤوس بلا خوذ ولا أغطية رأس من أى نوع في هذا البرد القارس لكـن يريدون بلاطي طويلة ثقيلة . ولما قررت القيادة البريطانية الدخول في معركة فاصلة مع روميل وضعت لها اسم " الكروسيدر " ، واندفع مائة ألف جندي من الجيش الثامن لكن روميل ترك الطريق مفتوحاً أمامهم ولم يهاجمهم ، بل انسحب ، في هدوء ، غرباً حتى أوقعهم في الشرك وانصبت عليهم قذائف المدفعية من كل الجهات فدمر كل دبابات البريطانيين تقريباً وصار الـوادي جنوب سيدي رزق بحراً من الغبار والنار والدخان .

كان الروس قد تقهقروا إلى ما وراء نهر الدنيبر ، واشتد القتال أمـام لينينجراد ، وبالطبع توقفت الغارات على لندن وانتهت معركـة بريطانيـا لانشغال الألمان بالميدان الشرقي وأعلنت البحرية الأمريكية عزمهـا علـى تطهير الأطلنطي من السفن النازية بعد أن اجتمع تشرشل مع روزفلت على ظهر بارجة أمريكية في عرض المحيط الأطلنطي ،وأعلن روزفلت عزم أمريكا على الدفاع عن حرية البحار ، وأنذر سفن المحور بالتدمير إذا دخلت الميـاه الإقليمية الأمريكية ، وأصابت غواصة ألمانية حاملة الطـائرات البريطانيـة (آرك رويال) بطوربيد فأغرقتها وبعدها أغرقت الغواصات الألمانية البارجة البريطانية (بارهام) ، وكان على متنها خمسمائة بحار ماتوا جميعاً ، كـذلك اقتربت غواصة إيطالية من الإسكندرية وأطلقت طوربيدات على البارجتين الإنجليزيتين (إليزابيث وفاليانت) فعطلتهما عن العمل ، ولما حاولت القيادة البريطانية الانتقام باصطياد قافلة بحرية للمحور تتجه من إيطاليا إلى طربلس خصصت العملية قافلة بريطانية تتكون من ثلاثة طرادات وأربع مدمرات ، والذي حدث أن القافلة البريطانية هي التي وقعت في كمين بحـري كـبير

فأصيب طرادان وغرق الثالث ببحارته السبعمائة ولم ينج غير بحار واحـد وقع في الأسر ، كانت نهاية مؤلمة حقاً للأسطول الإنجليزي شرق المتوسط .

في فرنسا تم إعدام اثنين وسبعين رهينة فرنسية بيد الألمان في بلـدة " نانت " رمياً بالرصاص جزاء أعمال المقاومة السرية مما دعا ديجول لإعلان الحداد ومطالبة الشعب التظاهر وعم الغضب فرنسا كلـها ، وفي الهنـد تم الاحتفال بعيد ميلاد المهاتما غاندي الثالث والسبعين في قريته الهادئة (سـينا جرام) حيث قضي معظم الوقت مع المغزل والخيط وتدفقت عليه الهدايا من البلاد وكانت كلها عبارة عن مغازل وأقطان . وفي المحيط الباسيفيكي قامت الطائرات والبوارج اليابانية فجأة بالإغارة على هونولولو وبيرل هـاربر ، فدمرت ثلاثمائة طائرة أمريكية وثلاثين بارجة وقتلت سـبعة آلاف وصـار اليوم بالنسبة لأمريكا هو يوم العار ، وكان بداية الدخول الرسمي لأمريكا في الحرب وانتشرت القوات اليابانية في شرق آسيا ، فامتد القتـال في كـل الجناح الشرقي من الملايو وسنغافورة حتى هونج كونج وبدأ أثـر الشـتاء الروسي يظهر على الجنود الألمان فتعطلت مركباتهم وعجزوا عن دخـول موسكو وهم في ضواحيها ، وبدأ الألما في التقهقر . لقد انتفضـت الأمـة السلافية ووجه الجنرال فورشيلوف القائد الأعلى للجيوش نداءً مـؤثراً إلى أهالى لينينجراد قال فيه أن العدو يحاول دخول المدينة وهدم بيوتها ومصانعها وتحطيم حربة الوطن ، وإن لينينجراد هي المركز الصناعي والثقافي لروسـيا ولن تسقط ولن يضع الأعداء أقدامهم في حدائقنا الجميلة .

ومنذ ديسمبر والهزائم تنزل بالألمان ففقدوا على أبواب موسكو ستين ألف قتيل في عشرين يوماً ، مما اضطر القيادة الألمانية لعزل قائـد الجبهـة

الروسية الجنرال فون بوك ، وانتشرت بين النـاس في مصـر شـائعة أن المارشال : تيموشنكو " أحد أكبر القواد الروس مسلم يدين الإسلام لذلك لم يخسر أى معركة .

في مصر كانت الأديبة مى زيادة قد ماتت منذ أسابيع وكذلك طلعت حرب باشا أبو الاقتصاد الوطني ، كما قام جلالة الملك فـاروق والأسـرة الحاكمة بزيارة لواحة الفرافرة وبذلك يكون قد زار كل واحـات مصـر واطمأن على رعاياه بها ، ووقعت غارة كبيرة على الإسـكندرية تركـت خلفها دماراً شديداً وقتلى وجرحى بالعشرات كما يحدث دائماً منذ ظهـر روميل في أفريقيا ، كذلك تم توزيع الملابس علـى المهـاجرين فى الريـف وعرض فيلم " بنت مدارس " المصري ، و " لص بغداد " الأمريكى ، وتمت تنحية شاه إيران عن العرش فتنازل لابنه محمد رضا بهلوي فصارت الأمـيرة فوزية أخت الملك فاروق أميرة مصرية على عرش إيران ، واحتفل مكتـب الآداب في مصر بنجاح دعوته لتزويج الفتيات الوحيدات المهاجرات فـتم الاحتفال بتزويج عشرين فتاة معاً في ليلة واحدة ، وتم القبض على مخدرات بمائتي ألف جنيه على السواحل ، وحدث إقبال شديد على النكبة المصرية في الحجاز ، من أهل الحجاز فطالبت الصحف بزيادة الاعتمـادات المصـرية لنفقات النكبة ، والتقى عيد الأضحى مع عيد الميلاد لكن دميان سـافر إلى الإسكندرية ليومين وعاد بسرعة ليؤنس وحدة مجـد الـدين ، واتخـذت الإجراءات لحماية التماثيل البرونزية في قصر رأس التين من الغارات وسافر رشدي عكس اتجاه ترعة المحمودية .

لقد قرر أن يصل إلى النيل ويمشى عكس سريانه حتى يصل إلى أسيوط وفي طريقه يقلب كل الجثث التي يمكن أن يراها فهو على قناعة بقتل كاميليا وإلقاء جثتها في النيل . إما أن يجد جثتها أو يلقاها ، وكانت شـائعة قـد سرت في البلاد عن راهبة صغيرة يطل النور من وجهها وحـول رأسـها ، صارت تشفى المرضى في أسيوط وبدأ الناس يتوافدون عليها مـن القـرى المجاورة ، وتم القبض على جزار ومحاكمته أمام المحكمة العسكرية لأنه امتنع عن بيع اللحم ، كان هناك لحم معلق بالدكان جاء أحد الزبائن يشترى أقة منه فرفض الجزار ، وقال إن اللحم ليس مخصصاً للبيع ، إنما هـو للعـرض فقط ، والفرجة ، وأحس الزبون أنه يسخر منه فأخـذ طريقـه إلى قسـم البوليس وقدم شكواه وارتفعت أسعار الطيور فبلغ سعر البلبل اثنى عشـر قرشاً والكناريا خمسة وثلاثين قرشاً والببغاء كـذلك . وتعهـدت الـدول المتحاربة أن تتوقف عن القتال في الليلة الأخيرة من هذا العام أيضـاً ليـتم الاحتفال بالعام الجديد ، لكن كانت معظم بيوت الإسـكندرية مغلقـة أو مهدمة أو مهجورة .

" أيها العابر
هل حان وقت رحيلك ؟
أيها العابر،
لا يمكننا أن نتشبث بك،
فليس لنا سوى دموعنا "

- 25 -

استقبل العام الجديد بحركة شديدة في العلمين . الطـائرات الألمانيـة والإيطالية تقوم بغارات تمسح بها الصـحراء إلى الإسـكندرية ، والمـدافع المضادة لا تكف عن الانطلاق من أكثر من مكان في الصـحراء لكـن لا طائرة تقع .

فل عدد الأسرى الألمان والطليان ، فروميل هو الذي يحمل أعـداداً أكثر من الأسرى إلى ألمانيا عبر إيطاليا والبحر المتوسط ، صار اسم روميـل مفزعاً لجنود الحلفاء . في منتصف يناير وفي الساعات الأولى من الصـباح ، أطفأ مصباح القراءة الصغير ، واستلقى على فراشه في مقر قيادته وطلب من سكرتيره الخاص الرقيب بوتشر أن يوقظه بعد ساعة واحدة . استيقظ فعقد الإجتماع الصباحي مع الضباط وقال : " سنقوم بالهجوم فوراً " ، ثم شرح

لهم كيف أن البريطانيين سيغتنمون أى فرصة للاسترخاء للاستفادة من الامدادات الضخمة التي بدأت تأتيهم ، وسيكون تفوقهم كبيراً على قوات المحور ، ومن ثم يجب اختراق خطوطهم وخططهم وتفكيرهم للوصول إلى الدلتا !!

بدأت على الفور عملية خداع كبرى للاستخبارات البريطانية امتدت من روما حتى ليبيا ، فسرت الشائعات القوية عن انسحاب الألمان ، وبدأ رميل في نسف سفن هيكلية ، ومعسكرات هيلكية أيضا ، وكانت الشائعات من القوة في الإسكندرية حتى إن الجنود الحلفاء شربوا نخب انسحاب روميل الذي صار يحرق سفنه ، لكن الراقصة حكمت فهمى وحدها كانت في القاهرة تعرف أن هذا خداع ، وتستدرج الضباط الإنجليز الكبار ، وتلتقط منهم الأخبار والأسرار تنقلها إلى الألمان من عوامتها عبر جهاز إرسال سري بمساعدة الجاسوسين الألمانيين هانز أبلر وساندي .

بدأ روميل هجومه الجرىء المفاجئ بعد تظاهره الانسحاب ، وقسم مدرعاته إلى قسمين ، أحدهما ساحلي والآخر داخل الصحراء ، فاستولى على " إجدابية " ثم " عنتليت " ثم " سوانو " فتقهقرت أمامه القوات المدرعة البريطانية في فوضي عارمة نحو الحدود المصرية ، أصبح الطريق مفتوحاً أماما إلى " بني غازي " من ناحية و " المخيلي " من ناحية أخرى . في أواخر يناير تظاهر بأنه سيثب على ال" المخيلي " فحرك أوكنلك مشاته ومدرعاته إلى هناك ، لكنه في وثبة النمر غير اتجاهه إلى الساحل فاطعا طريق الفرقة الرابعة الهندية لتسقط " بني غازي " ، ورفاه الفوهور إلى رتبة كولونيل جنرال . لقد فر البريطانيون أمامه كما لو كان قد لدغهم ثعبان بعد أن

فقدوا روحهم المعنوية ، لقد سلط روميل على مدرعاتهم مدفعيتـه الجبـارة عيار 88ملم المضادة للدبابات ، ثم اكتسحها بدباباته البانزو الثقيلة .

في ذلك الوقت كانت القوات الروسية قد حطمت ست فرق ألمانية ، وبدأ هجوم روسي كبير يمتد من سيبا ستوبول جنوباً إلى فنلنـدا شمـالاً ، واعترف هتلر بتقدم الروس لأول مرة واستعدت ألمانيا لهجوم بخمسة ملايين جندى ، بينما استعدت روسيا بعشرة ملايين ، ووضعت أمريكا أكبر ميزانية للحرب ، خمسين مليار دلاور للصناعات الحربية والعمليات العسـكرية ، واشتعلت النار في الباخرة الفرنسية نورماندي وهى راسية في ميناء نهـر هيوستون بالولايات المتحدة فمات أربعون شخصاً وأصيب مائـة وخمسـة وستون ، ونزل اليابانيون في جزيرة جاوة وأعلنت سكلة سيام الحرب على بريطانيا بعد أن دخلتها اليابان . ورفض ثوار الهند ، نهـرو وغانـدي ، أى استقلال غيرتام عن انجلترا ، وأقامت بلدية الإسكندرية خمسة عشـر مخبـأ جديداً ،واحتفلت الكنيسة المرقسية في الأسبوع الأول من يناير بعيد الميلاد وسط حزن عام بسبب الغارات ، وماتت سيدة في كرموز تاركة وراءهـا ثلاثة أطفال ، فكان الناس كلما مشوا بنعشها يعودون إلى حيـث يقـف الأطفال امام بيتهم يبكون ، حدث ذلك ثلاث مرات وفي كل مرة يستدير النعش بهم ويعود ، فارتفع تكبير الرجال والشباب وانهمرت دموع النسوة والفتيات وغمر الفضاء نور باهر إذا انقشعت السحب الثقيلة عن المدينة ، وتجلت الشمس فائقة الجمال فانحنى الناس يقبلون الأرض يصلون ويبكون ، ولم يتم دفن الأم إلا بعد أن حمل الأطفال بعيداً ، ونامت الإسـكندرية في حالة من الذهول العجيب ، وأحيط تمثالا محمد على باشا وإسماعيـل باشـا

بالمنشية بالأحجار لحمايتهما من الغارات الثقيلة، وبـدأ الـوزراء يهيئـون لأنفسهم مقرات في أسوان والأقصر ، بعيداً عن القاهرة بسبب الشـتاء ، هكذا قيل ، والحقيقة انهم كانوا يريدون الابتعاد عن روميل بقدر الإمكـان ،وقام الملك السعيد برحلة إلى الصحراء الشرقية زار فيها المناجم وسـكان حلايب من البشارية ، وتصادف أن جاء عيد الغطاس مع أول السنة الهجرية ولاحظ أحد قراء الصحف أنه كثيراً ما تأتي الأعياد الإسلامية مع الأعيـاد المسيحية هذه الأيام ، أو تقترب منها فرد عليه قارئ آخر بـأن ذلـك لا يحدث إلا كل عدة أجيال ، وأن هذا الجيل أسعد حظاً من غيره بسبب هذه البركة الإلهية ، وتولى النحاس باشا رئاسة الوزراء بضغط إنجليزي كبير على الملك ، فاستقال حسين سري باشا أو أقاله الملك ، فخرجت المظاهرات ضد الإنجليز تهتف (إلى الأمام يا روميل) . لقد أظهر الشعب حبه لملكه الشاب ، وكتب أحد الشعراء يهزأ من الإنجليز :

دخلـ ـ ـوا علـ ـ ـى الأسـ ـ ـد العـ ـ ـرين
مسـ ـ ـ ـ ـ ـ ـلحين مدجـجـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـين
ضـ ـ ـ ـ ـلوا الطريـ ـ ـ ـ ـق إلى بـ ـ ـ ـ ـني
غـ ـ ـ ـ ـازي فجـ ـ ـ ـ ـاءوا عابـ ـ ـ ـ ـدين

وعرض بالقاهرة فيلم " دماء ورمال " لتايرون باور وربتا هيـوارث ، كما أصدر طه حسين روايته الجميلة (دعاء الكروان) ودخلـت لحـوم الكاشير التسعيرة الجبرية بالإسكندرية فاشتكى القصابون اليهود ، وطلبت أخوات عبد الفتاح عنايت قاتل السردار لي سـتاك في العشـرينات مـن

النحاس باشا العفو عن أخيهم الوطني الذي أمضى بالسجن ثلاثة أرباع المدة ، وبدأت الدورة البرلمانية بخطاب العرش يلقيه النحاس باشا أمام الملـك . وبدأ ذوبان الثلوج في موسكو وحددت الزيادة السكانية في مصـر كلـها العام الماضي بأربعين ألف نسمة وبدأ دميان ومجد الدين في مشاهدة الجنـود العائدين من الجبهة متعبين ذاهلين في حالة لا تصدق من الإعيـاء ، ليـتم استبدالهم بجنود نشطين نافهين من الإسكندرية . لقد بدأ الجنـود الـذين التهبت حواجبهم ورموشهم من أثر الشمس والبرد معاً لا يختلفون في شيء عن الأسرى حتى لقد ظنهم دميان أسرى حقيقيين ، وفي كل مـرة يـراهم يقول لمجد الدين " هذه دفعة جديدة من الأسرى " فينبهه مجد الدين إلى أنهم من جنود الحلفاء فالأسرى لا يحملون بنادق ويضحك دميان ولا يكف عن الخطأ .

كثرت الشائعات عن تقدم روميل إلى الحدود المصرية . روميل هـو بطل حروب الصحراء بلا منازع الآن ، ثعلب الصحراء الـذي لا يعـرف أحد من أين ستأتي ضربته ، ورأى الجنود الأنجليـز لأول مـرة زملاءهـم يعودون من ميادين القتال بعيون يائسة . لكن في الليل كانـت الموسـيقي تصدح من الراديوهات التي تعمل بالبطاريات في الخنادق والغرف ، موسيقى البوليرو وساحر أوز وقدر بيتهوفن وفالسات شـتراوس، كـذلك يرتفـع الضحك . وقال دميان لمجد الدين :

- ليت لدينا راديو هنا ؟

رأى مجد الدين فكرة صائبة فسكت وقال دميان :

- زهقت من الجلوس مع الهنود والصافي النعيم .

والحقيقة أن انقطاع بريكة هو الذي الذي يقلقه ، والفكرة المجنونـة الـتي تراوده ، أن يذهب إلى النجع ليسأل عنها ويعرف .

كان الصافي النعيم على دراية لا بأس بها باللغة الإنجليزية ، فكـان ينقـل لدميان ومجد الدين مناقشات الهنود العنيفة حـول الاسـتقلال ، وكـان المسلمون من بيشاور ولاهور يؤيدون محمد على جناح الذى يدعو لانفصال باكستان عن الهند ، بينما كان السيخ يرون فىمحمد على جنـاح ، خائنـا للوطن ، وإنه لا يجب انفصال المسلمين عن الهند . وكثيراً ما كـان يحتـدم النقاش لكنه في النهاية يلين ، وينتهى ويقول دميان " طيب يستقلون الأول وبعدين يختلفون " ولا يعقب مجد الدين . وذات مرة قال الصافي النعـيم ، الذي كان يجلس معهما وحده :

- الهند سوف تحصل على استقلالها قبل مصر والسودان .

نظر إليه دميان عميقاً وتساءل :

- لماذا ؟

قال الصافي النعيم بلغة العالم الهادئ الواثق :

- الهند دولة كبيرة بها حوالى ثلاثمائة مليون . صحيح فيها ديانـات كثيرة ، لكن فيها غاندى .

هتف دميان :

- صاحب العزة والمفزل .

- بالضبط . هو الذي يحارب الإنجليز . يحاربهم بلا سلاح ، يقول للـهنود أن يصوموا فيصوموا كلهم ، أن يمتنعوا عن التعامل مع الإنجليز فيمتنعـوا كلهم ، ألا يبيعوا لهم ولا يشتروا منهم، فيمتثلوا ، أن يقفوا علـى رجـل واحدة لمدة شهر فيقفوا . إنهم الرجل الواحد القوى ، غاندي لـيس لديـه جيش لكن لديه شعب كامل .

وسكت الجميع قليلاً ثم قال مجد الدين :

- في مصر أيضاً سيرحل الإنجليز بعد الحرب . الشعب مع النحاس باشا .

قال الصافي النعيم :

- لكن النحاس باشا جاء إلى الحكم بيد الإنجليز .

قال مجد الدين بسرعة :

- الإنجليز جاءوا به حقاً لكن الشعب ضد الإنجليز ، وسيكون هو مع الشعب كالعادة .

وانضم إليهم بعد قليل العريف بهادور شاند ، صار على الصافي النعـيم أن يترجم لهم ، وللعريف ترجمة ركيكة لكنها تحمل المعاني على الإجمال ، كـان الوقت بعد الظهر ، وفي الجو لمسة تكدرها أحياناً عاصفة خماسينية قصـيرة وسريعة ، كأنما هى نذر للخماسين الحقيقية القادمة بعد أيام ، وفجأة قـال دميان للصافي النعيم ألا يترجم كلامه إذ سيتحدث بالإنجليزيـة مباشـرة . تأمله مجد الدين في دهشة وفكر أن دميان مقدم على كارثة ، وانضم إليهم

ثلاثة من الهنود الشباب جاءوا يصلون العصر خلف مجد الدين . وبدأ دميان الحديث بالإنجليزية فتساءل بالعربية " هل حقاً هناك من يعبد البقر في الهند . وإذا حدث وعبرت بقرة في الشارع تتوقف لها المواصلات والناس ؟ " قال دميان ذلك ، وكان يضغط على الكلمات بحيث تبتعد الكلمة عن الأخرى وتتوضح تماماً ، وكان أيضاً يميل في النطق بعض الإمالة ، انتهى من الكـلام وسكت الجميع .

لكن مجد الدين ضحك والصافي النعيم انفجر في الضحك وبهادر شاند اصفر وجهه لأن دميان ، وهو يتكلم كان يشير إليه فتصور أنه يسخر منه ، بينما ابتسم الهنود الثلاثة الشباب ، ولمعت عيونهم ، وهم يتبادلون النظر في أدب وحيرة قال مجد الدين لدميان :

- هل عندما تضغط على الكلمات ، وتميل بالحروف تكـون قـد تحدثت بالإنجليزية ؟ إنك تتكلم باللغة العربية يادميان .

انتبه دميان واتسعت عيناه وانفجر ضاحكاً ثم قال للصافي :

- ترجم للهنود أنني كنت أسال هل حقاً سينالون اسـتقلالهم بعـد الحرب ؟

- لا تتحدث عن البقر .

ترجم الصافي النعيم الحديث فهز بهادور شاند رأسه في ثقـة وإعـزاز وقال الهنود الشباب الثلاثة " Of Course " فقال الصافي :

- لابد أيضاً أن يأخذ السودان استقلاله عن مصر بعد الحرب .

تأمله دميان ومجد الدين مندهشين . تساءل مجد الدين :

- استقلاله عن انجلترا تقصد ؟

- الاثنان ياشيخ محمد .

قال دميان :

- طول عمرى أعرف أن انجلترا تحتل مصر والسـودان ، أول مـرة أعرف أن مصر تحتل السودان ، ربما بسبب ذلك تكثر القـرود في مصـر الآن !

زام الصافي النعيم . الحقيقة أنه أصدر صوتاً كالزئير وإن كان خفيفاً .

وقال مجد الدين :

- طول عمر مصر والسودان أخوة .

فقال الصافي النعيم :

- مضبوط شيخ مجد. كلامك أناناس .

وضحك الجميع باستثناء بهادور ، حتى الجنود الهنود الثلاثة الشـباب ضحكوا إثر ضحك مجد الدين والصافي النعيم ، ربما لذلك أحـس بهـادور بالارتباك لذلك قال للصافي النعيم :

-Translate .

فكر الصافي قليلاً ثم قال بسرعة :

- Sudan looks like India an Egypt , is under Britin .

وهز بهادور رأسه موافقاً فقال الصافي :

- They will be independent as quickly as possible .

عاد بهادور يهز رأسه في فخر ، بينما تهللت أسارير الهنـود الثلاثـة وفجأة اقترح مجد الدين ألا يتحدثوا في السياسة مرة أخرى .

نظروا إليه في دهشة وتساءلوا لماذا ؟ فتردد في الإجابة ، الحقيقة أنه لا يعرف لماذا طلب ذلك ، ولا يعرف بما يجيب . فال :

- لأننا في الصحراء .

ولم يفهم هو أبداً ، حتى بعد ذلك ، ما علاقة الصحراء بعدم الكـلام في السياسة لكن هذا ما صار ، وسكت الجميع غير مقتنعين ، بل ومرتبكين بعض الشيء ، ثم أمعنوا النظر في الاتساع العريض للصحراء .

أضواء خفيفة تنبعث من الغرف المحفورة بالأرض ، والغرف المتباعـدة فوق الأرض ، في الصباح يخرج الضابط والجنود من جحورهم إلى البحـر العظيم ، لقد بدأ الربيع ولم يتبق من الشتاء إلا صـقيع الليـل القـارس ، ظهرت الملابس الصيفية من جديد ، وخرجت العقارب والحشـرات مـن جحورها ومع كل صباح ينزل الجنود إلى البحر عراة إلا مـن السـراويل الداخلية القذرة ، أجساد الجنود لم تعد بيضاء صارت برونزيـة . الجنـود الجدد يعرضون أجسادهم للشمس أكبر وقت ممكن ليبدو الواحـد منـهم

مهاباً صاحب خبرة في القتال . والحقيقة أن الجميع كما يقول عنـهم مجـد الدين مساكين ، أطفال ، أبناء الله الصغار الذين نزلوا من السـماء لهـذا الامتحان العسير . تماماً كما أخرج هو من قريته وربما بالسهولة نفسـها . وسأل دميان بهادور :

- هل مازلت تحمل الثعبان في جيبك ؟

- إنه معى طول أيام الحرب .

وأخرج الثعبان من جيب سترته الأسفل ، ثعبان صغير رفيـع أصـفر مزركش بالسمرة النف على أصابعه ، أعاد كفه إلى جيبه وأخرجها بسهولة بلا ثعبان .

قال الصافي مترجماً ما قاله بهادور : إنهم في الهند يستأنسون الثعابين الكـبيرة والصغيرة ، حتى الكوبرا يستأنسونها ، وهناك فئات من الهنود تعبد الثعابين ، والكوبرا بالذات ، والهنود جميعاً وبلا استثناء مهرة في اسـتئناس الثعـابين والتعامل معها ، والثعبان الذي في جيبه لم يأت من الهند ، إنما هو مصـري اصطاده من الصحراء في الصيف الماضي ، بالليل يضع الثعبـان في علبـة صفيح ، ويضع له فيها طعاما ، بيض مفري وبلوبيف ، الثعبان لم يهرب ولم يفكر في الهرب حتى الآن .

على أن هذا لم يكن أغرب ما قاله بهادور : ترجم الصافي النعيم كلامه ، ولم يصدق أحد أن الدنيا يمكن أن تكون صغيرة إلى هـذا الحـد . قـال بهادور: إن أباه أيضاً كان يخدم في الجيش البريطاني في فرقة الخيالـة أثنـاء الحرب العالمية الماضية . كان يخدم هنا في مصر ضمن قوات الإمبراطورية .

انتهت الحرب وقامت في مصر ثورة كبيرة . فاطعه دميان وقال : كان ذلك أيام سعد باشا ، ولم يترجم الصافي كلام دميان واستمر بهادور يتحـدث ، وحدث تمرد كبير في بلدا أسمه " دروط " . وسكت بهادور يتأمـل وجـوه مستمعيه وقال دميان له :

- إنك لابد تقصد ديروط

واستمر بهادور

قال : إن اسمها " دي روط " – ولم يهتم أحد – وفي قرية قريبة من " دي روط " كان هناك تمرد كبير يهاجم القوات البريطانية فأرسل الإنجليـز الخيالة الهنود من الجنود السيخ إلى القرية. كان أبي بينهم وكـان قائـدهم إنجليزى ، لقد أمرهم باغتصاب نساء القرية أمام رجالها الـذين قيـدوهم بالحبال .

أغمض مجد الدين عينيه متألماً ، وبانت الدهشة علـى وجـه دميـان وارتعشت شفتاه ولم يتحدث . ابتسم بهادور ، واستمر في الحديث ، قال إن أباه روى كيف كانت النساء تجرى لتلقى بأنفسهن في النيل ، تفضل الموت غرقاً على الاغتصاب و لقد عاش أبي متألماً لأنه فعل ذلك خاصة أنـه رأى الإنجليز يغتصبون الهنديات أيضاً . وسكت بهادور . وسكت الجميع حـتى قال مجد الدين بهدوء :

- لكن هذه حكاية غريبة لم نسمع بها أيام الثورة ، لقد اشـتركنا في الثورة ، هاجمنا الإنجليز وخلعنا السكك الحديدية ولم نسمع أن فرقة من أي جيش اغتصبت نساء أي قرية ، لا جيش انجليزي ولا جيش هندى .

كان الهنود الشباب يبتسمون في البداية لكنهم الآن أطرقوا إلى الأرض . وقال الصافي النعيم :

- أنا رأيت الهنود في السودان يمشون منتفخين كالطواويس و كأن الواحد منهم يملك الأرض ومن عليها . لكن لم أرهم يضربون أحدجاً أو يغتصبون امرأة .

لم يفهم بهادور ما قاله الصافي بالطبع ولم يترجمه الصافي ، ودخل دميان في الحوار فقال :

- أنا من ديروط وأعرف القصة . سمعت بها . هي قصة حقيقية.

قال بهادور بصوت عال :

- لقد قتلوا الرجال أيضاً .

وعقب دميان :

- لقد أبيدت القرية عن آخرها . لم يبق لها أثر . أذكر أن اسمها كان " كوم جهنم " لقد اختفى من تبقى من رجال القرية بعد ذلك وتفرقوا في البلاد . أكثرهم مات من القهر.

وسكت الجميع . تفاوتت المشاعر . من الأسف عند الصافي النعيم إلى الحزن عند مجد الدين إلى اليأس عند دميان إلى الرهبة عند الهنود الشباب . وقال مجد الدين :

- بلاد كثيرة اغتصبت الأجانب نساءها .

وقال دميان بلا اكتراث :

- وفي مصر فرى كثيرة تدل على ذلك . رشيد مـن الإنجليـز ، في الصعيد الجواني بنات شقراوات من أصل سلوكى .

فال الصافي النعيم :

- الحمد لله . في السودان لا يوجد رجل أبيض واحـد . لا تـزال النساء سوداء يلدن أولاداً سوداً . سواد اللون حمى نساءنا من الاغتصاب

كان يريد أن يخفف من الحديث السابق لبهادور . كان يدرك أن أحداً سينفجر . مجد الدين أو دميان . لكن دميان هو الذي تحدث فقال :

- لكن يا مستر بهادور لو بحثت في مصر كلها عن أى أثـر لواحـد هندي لا تجد .

وسكت . وانتظر بهادور أن يترجم له الصافي النعيم الكلام . تـردد الصافي فقال له دميان أن يترجم :

فتساءل بهادور :

- هل تعنى أني كاذب ؟

أجاب دميان :

- لا. أنت صادق لكن أبوك والخيالة السيخ هم الكاذبون ، إنهـم لم يفعلوا شيئاً . على العكس . المصريون هم الذين " نطوا " عليهم .

ولم يستطع مجد الدين أن يضحك . ولا الصافي النعيم الـذي أربـد وجهه هلعاً . تغاضى عن القيام بدور المترجم فأمره بهادور أن يترجم صارخاً فيه :

- ترانسليت . ترانسليت كويكلي .

والحقيقة أن الكلام كان قد راق للصافي . لقد أحـس بنـوع مـن الرضا .

إنه في النهاية عربي مثل دميان ومجد الدين وهم جميعاً أبناء وادي النيل ، لذلك ترجم بدقة وعلى مهل كلام دميان . كان غبش الغسـق يغشـى الصحراء ، والنسمة الغازية بدأت تستيقظ ، وفى اللحظة التي انتهى فيها الصافي من الترجمة كانت يد بهادور على مسدسه ، ووقف يصرخ في الفضاء بالهندية لاعنا دميان الذي كان قفز هارباً في اللحظة التي وقف فيها بهادور . لقد دوت طلقات المسدس في الفضاء تتبع دميان لكنها لم تصبه . سـاعده الظلام الزاحف على النجاة . وقف بهادور لحظات مستشاطاً غضـباً ثم زأر بالهندية في الجنود الشباب فانصرفوا بسرعة ، ونظر شذراً إلى الصافي ومجـد الدين اللذين بدورهما قاما على مهل وابتعدا عنه . ما كادا يبتعدان بما يكفي للأمان حتى انطلقا معا في ضحك بهيج .

كان يمكن لفعلة دميان هذه أن تقتله ، ما أهون رصاصة تخـرج مـن مسدس بهادور فتصيبه . الرصاص لا ينقطع طول النهار من تجارب السلاح وقتل العقارب والثعابين والفئران الصحراوية ، ومطـاردة الثعالـب ، وفي بعض الأحيان تنطلق البنادق تتابع طيوراً ظهرت فجأة في السماء ، وأضف إلى ذلك أصوات الطائرات التي تمرق بين الحين والآخر مسرعة للإغارة على الإسكندرية أو عائدة إلى موافعها في طرابلس وبنغازي ، ولا تكف طلقات

المدافع المضادة عن ملاحقتها في الذهاب والإياب . إن طلقة تخـرج مـن مسدس هندي غاضب تقتل دميان لن يتوقف عندها أحد . من يتوقف عند مقتل عامل يقف على مزلقان صغير شبه مهجور في بلدة صحراوية نكرة ، لم يسمع عنها أحد من قبل ؟ كان هذا هو حديث مجد الدين ودميان حـتى انتصف الليل . لكن الذي حدث أن دميان طلب من مـاري جـرجس أن ينقذه من الهندي السيخ البائس . ونذر لو حدث ذلك أن يقـوم بتـبخير كنيسة الشهيد في غيط العنب بنفسه . ويوقد له سبع شمعات ويظل أسبوعاً في خدمة الكنيسة ، ونام بعد أن راوده يقين عجيب أن مـاري جـرجس سيستجيب .

في الصباح طلب منه مجد الدين ألا يبرح البيت حتى يـرى بهـادور ويحاول تهدئته . في الظهيرة جاء الصافي النعيم إلى مجد الـدين في الكشـك الخشبي المجاور للمزلقان . كان مبتسماً وما إن اقترب من مجد الدين حـتى انطلق في الضحك . قال :

- إن بهادور انتقل في الصباح الباكر مع كتيبة ليلحق بالفرقة الهنديـة على الحدود حيث يدور قتال شديد . ابتسم مجد الدين في ارتياح . أحـس أن جسده يشاركه الفرح فلم يستطع البقاء في مكانه . ترك الصافي النعيم ، أسرع إلى دميان يزف له الخبر . كادت الفرحة ترفع دميـان مـن فـوق الأرض . لكنه ظل واقفاً ينظر إلى مجد الدين بإمعان . إلى هذه الدرجة صار الحب بينه وبين الشهيد . إنه لا يخذله أبدا . وترك الطريق لدمعتين ثم خرج منتشياً مع مجد الدين ليرى الصحراء واسعة جميلة بيضاء زاهيـة ، السـماء فوقها صافية الزرقة كالبحر البعيد تماماً والدنيا واسعة إلى أقصى مدى .

بالليل ، وبعد عدة أيام ، وكلاهما مستلق على المرتبة الحصيري فوق الأرض في ناحية من الحجرة قال دميان :

- نفسي تهفو إلى الإسكندرية يا شيخ مجد .

كان دميان قد رأى في الصباح الغنم تظهر قادمة من بعيد يتدحرج بينها الولد الصغير ، وتمشي خلفها " بريكة "..بدت له من بعيد صغيرة ، لكن كالعادة فكرة أنها ستزداد حجماً كلما اقترتب ! وراح قلبه يدق . ها هي تظهر بعد طول غياب ، كان قد فكر جدياً أمس وأمس الأول أن يذهب بنفسه إلى النجع ، بل لقد مشى إلى الجنوب مسافة طويلة ، ولما وجد نفسه فجأة يقف وسط رمال مترامية من كل جهة ولم يعد يعرف الشمال من الجنوب ، ولا يظهر أى شيء أمامه خشى على نفسه من التيه ، وبسرعة عاد مقتفياً أثر قدميه حتى إذا بانت له محطة السكة الحديد من بعيد أخذ نفساً عميقاً وشكر يسوع المسيح و العذراء و مارى جرجس وكل من تذكره من الشهداء والقديسين . لقد كاد ينسى أن عليه نذرا لابد أن يوفيه . آن له أن ينسى بريكة ويسافر ليوفى النذر . لكن ها هى بريكة لا تتركه . تظهر له في الوقت الذي يقرر فيه أن يروض نفسه على النسيان ، إلا أنها لا تزداد حجماً كلما اقتربت . وراحت دقات قلبه تزداد . حتى إذا اقتربت أكثر أدرك أنها ليست بريكة فانطفأ ألق عينيه وفرحة روحه . كان قد فكر أن يسرع إلى البيت يحضر أكبر كمية ممكنة من الهدايا التي اعتاد عليها لبريكة . نسى ذلك ، ورأى هلال من باب غرفته ففكر أنه غريمه

الذي لا يعرفه ، خرج ليراه ويسخر منه ويشمت فيه ، وكان مجد الدين في البيت فاشتاق له . وتمنى لو ألقى بنفسه على صدره كطفل .

ما كادت الفتاة تستقر بالغنم وأخوها خلف المحطة حتى تقـدم منـها وسألها عن بريكة . فالت ضاحكة :

- أنت دميان! .

- من قال لك ذلك ؟

- بريكة .. أنها تحبك . حملتني لك سلام .

هذه الفتاة لا يزيد عمرها على عشر سنوات تتحدث هكذا ببسـاطة الأنثى المدربة وأى ناس هم هؤلاء البدو وما سر هذه الصراحة والوضوح ؟

- وأين بريكة ؟

- أقامت جلاسة وتزوجت . أخذها ابن عمى . فارس يجرا ويكتـب وراسه زين .

تركها وأخذ طريقه إلى المنزل وحمل لها أكبر كمية ممكنة مـن الهـدايا فالت :

- لي ؟

فال:

- لك ولبريكة .

وعاد إلى البيت طالباً من مجد الدين أن يخرج إلى العمل بدلاً منه . نام وأعطى وجهه للحائط . وجد الغرفة خالية من كل شيء .الإنسان حقاً بعد أن يجاوز الأربعين ، يهفو أن يعود شاباً . كان عليه أن يدرك ذلك ويتجاوزه بسلام . ثم هل كان يعول على نجاح هذا الحب الشقي ، وبريكة مسـلمة ، وهو مسيحي ، بريكة مسيحية لكن لا يستطيع تطليق زوجته . على كـل جانب يلازمه الفشل . كان عليه ألا يترك الطريق مفتوحاً لقلبه ، هذا مـا صار عليه على أى حال . ليس أمامه إلا أن يوفي بنـذره لراعيـه ورفيقـه الشهيد جورجيوس .

في المساء سأل مجد الدين :

- ماذا يحدث لو ذهبت إلى الإسكندرية ولم أعد . هل سيسأل عـني أحد ؟ لا أظن وأنت أيضاً يمكن أن تأتي معي . لا معنى لوجودنا هنا . مستر سبايك لم يعد يسأل عنا . المفتش الذي يزورنا كل شهر مر عليه شهران ولم يأت للآن . القطارات فلت . يستطيع هلال أو أي جندي هندي أو أفريكى أو استرالي أو نيوزلاندى أو مصري أو إنجليزي أن يدير المزلقان . وجودنـا هنا عبث لا معنى له وسط كل هذه الجنود من كل العالم .

ولم يستطع مجد الدين الدخول معه في الحديث . لم يتعود من دميـان على هذه النبرة اليائسة . خلل ما حدث في عقل دميان ولا أقل . لكن مجد الدين فكر في وضعهما الشاذ هنا حقاً . وضعه هو بالذات ، حيث تـأخر كثيراً عن رؤية ابنه ، شوقي ، البعيد في القرية ، وهذا فوق طاقة البشر على الاحتمال ، لكنه قال بهدوء .

سافر أنت مطمئن البال يا دميان ، سأنتظرك حتى تعود .

" لن تجد بلدانا ولا بحوراً أخرى
ستلاحقك المدينة ،
وستهيم في الشوارع ذاتها،
وما من سفين من أجلك ،
وما من سبيل "

-26-

وصل دميان إلى الإسكندرية في اليوم الثاني من شهر إبريل ، مع نداء من الوكالة اليهودية والمجلس العام ليهود فلسطين يحث اليهود رجالاً ونساء

على التطوع في الوحدات اليهودية التي تعمل بالجيش البريطاني في الشـرق الأوسط ، فالحاجة ماسة إلى عدد كبير من المتطوعين والمتطوعات للخدمة في القوة الإفليمية المساعدة . وأعلن النداء أن الخطوة الأولى هى تجنيـد غـير المتزوجين ومن لا أولاد لهم ممن تتراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين ، " ولتكن تلبية النداء من جانب فلسطين جديرة بمهمتنا الكبرى ، وخطـورة الساعة " في الوقت نفسه كان الدكتور على إبراهيم رئيس جماعـة إنقـاذ الطفولة المشردة في مصر يوجه نداء لأبناء الوطن لإنقـاذ أطفالـه ، كمـا انشغلت الصحف بحكاية هتلر مع شهر ابريل ، ففي العشرين منـه ولـد ، وكان ذلك عام 1889 ، وفي السابع منه عام 1939 سمح لموسـوليني أن ينزل بجيوشه لاحتلال ألبانيا ، وفي الثامن والعشرين من العام نفسـه ألقـى هتلر خطابه الشهير الذي أعلن فيه نقضه للاتفاق البحـري بـين ألمانيـا وبريطانيا ، وفي التاسع من أبريل 1940 ، قام هتلر بغزو الدانمارك ، وفي السادس عشر عام 1941 هاجم يوغسلافيا واليونان وتساءلت الصـحف عما يخبئه هتلر هذا العام في شهر أبريل ، هل يجتـاز القوقـاز إلى إيـران والعراق أم يخترق تركيا إلى العراق والشام ؟!

في الخامس من أبريل احتفلت الكاتدرائية المرقسية بعيد الميلاد فـأقيم قداس حافل افتتح بالتضرع إلى الله أن يشمل العالم برحمتـه ، وفي العلمـين أقيمت الصلوات ، وظهر بين الجنود بعض القساوسة بالنهار ، لكن بالليـل أقيمت السهرات وظهرت فتيات الترفيه الجميلات يغنين ويرقصـن مـع الجنود ، وكانت غارة شديدة قد وقعت على الإسكندرية قبل ذلك بيومين ، ولم تنته بعد عمليات الإنقاذ وامتلأ المستشفى الأميرى بالمصابين وانتقلـت

أسرة دميان للإقامة الدائمة بفناء المنشية ، وهناك قابـل دميـان الخواجـة ديمترى في حالة من البؤس فصافحه صامتاً وبدا الرجل ذاهلاً عنـه ، وزار الإسكندرية كالعادة كثير من الباشوات لتفقد المنكوبين بصحبة محافظ المدينة ، ووصل عدد القتلى اثنين وخمسين ، والجرحى ثمـانين ، وتقـرر صـرف جنيهين لكل مصاب مؤقتاً ، وفي السابع من أبريل حدثت غارة أكـبر مـن السابقة فجاء رفعة النحاس باشا رئيس الوزراء بعد أن ألقـى كلمـة مـن الإذاعة المصرية :

- " أبناء الإسكندرية الأعزاء ".

أتوجه إليكم بالخطاب وفي القلب أثر عميق مما حـل بكـم ، أيهـا السكندريون ، إننى واثق بأنكم ستظلون في هذه المحنة صابرين كما عهدت فيكم ، طالما ضربتم لمصر في شجاعتكم أروع الأمثـال ، وأقمـتم علـى تحملكم للكوارث خير برهان فلا ريب أن تكون مدينتكم بعد ذلك مثـار الإعجاب وموضع التقدير والإجلال " .

في الوقت نفسه وقع مرسوماً بإلغاء البغاء بدءاً من مايو فيمـا عـدا عواصم المحافظات والمديريات ، ولا يجوز من الآن فتح بيوت دعارة جديدة ، كما استضاف النحاس حوالى ثلاثمائة جندي ناقه من بريطانيا ونيوزيلاندا وجنوب أفريقيا واستمتعوا بالنزهة النيلية والحدائق ، واستمرت الغـارات بشكل كثيف فوزعت إدارة الوقاية المدنية بيانات بها نصائح للجمهور بـأن يحتفظ بهدوئه وقت الغارة ويذهب إلى أقرب ملجأ ، وأن لا ينظر إلى السماء أو يراقب المدافع المضادة للطائرات ، وأن يتجنب التجمهر وأن يتوقف عن

الجري في الطريق لأن سرعة الإنسان مهما كانت لن تفوق سرعة الطائرة ، والأفضل أن ينبطح أرضا إذا لم يجد مكاناً مسقوفاً قريباً ، وأن يبتعد عن الواجهات الزجاجية ، وأن يترك السيارة إذا كان فيها ويطفئ أنوارها ويوقفها إلى جانب الطريق ، واحتفظ ، دميان بهذه الإشارات وحفظها واعتبرها موجهة للسخرية منه ، ومن أمثاله وأخذ يجري أثناء الغارات ليرى ما إذا كانت سرعته أكبر من الطائرات أو القنابل أم لا ، ووصل إلى نتيجة مخالفة للتعليمات فهو ينتقل من جانب إلى جانب في الشارع قبل أن تصل القنبلة إلى الأرض ، والحقيقة أنها لا تصل أبداً فهي عادة تسقط بعيداً في منطقة أخرى ويسمع فقط صوتها بعد وصوله إلى الرصيف ، صار كلما حدثت غارة ترك أسرته في الكنيسة التي بات خادما لها أكثر من المدة التي نذرها ، وخرج ليرى الناس وهل حقاً يبتعدون عن الشوارع إلى الملاجئ ، ومداخل البيوت كما كانوا يفعلون قبل انتقاله إلى العلمين ، أم لم يعودوا يأبهون بشيء ،ورأهم لا يأبهون بشيء .. هؤلاء الذين تبقوا بالمدينة لم يعودوا يخشون على أعمارهم .

وترك نفسه يمشي بلا هدف من غيط العنب إلى كرموز إلى شارع الخديو إلى محطة الإسكندرية وأحياناً يدخل في شارع محرم بك ، وأحياناً يتجه إلى محطة الرمل قاطعاً شارع النبي دانيال ، ومن هناك على الشاطئ حتى قصر رأس التين ويعود ولا هواء الإسكندرية يثيره ، ولا ضوء النهار الرائق ولا زرقة البحر والسماء البعيدة ، الفراغ حوله أكثر من كل وقت ولم يتأخر بالليل فلم يصطدم بالسكاري ، ولابد إنه رأى جنوداً من الأجانب لكنه لم يشعر بوجودهم ، ومقاهي المنشية لا تزال غاصة بالتجار

والسماسرة والغرباء لمن لا يرى شيئاً ولا يعرف لماذا يقطع هذه الـرحلات النهارية الغامضة ، وأدرك أنه لا يفعل ذلك بإصرار إلا بعد كـل غـارة ، والغارات كثيرة ، وهو صار كالمجنون يرى البيوت المهدمة في الشـوارع ، ولا يرى البيوت السليمة ، ويرى الحفر مكان القذائف ولا يـرى الارض المستوية ويشم رائحة دخان اللحم المحترق والأخشاب ولا يشم رائحة اليود القادمة من البحر ويفكر أنه ليست هذه هي المدينة التى عرفها ، هى شـيء أقرب إلى الشريط السينمائى ، ومن زمان لم يدخل أي سـينما ولم يـر أي عرض لشارلي شابلن واكتشف أنه عاد حافياً كما كان فهو لا يلبس الحذاء بالكنيسة ، ويظل طول النهار يدور بين سكان الحي اللائذين بها يخـدمهم ، يسقيهم ، ويطعمهم وينظف الجدران والأعمدة المرمرية والأيقونات ويوقـد الشموع ويجلي المرايا ويزيح الغبار من أيقونة مارى جـرجس الضـخمة ، ويتأمله ويتذكر رؤيته له وسط النار ولا يصدق ويتذكر مجد الدين الـذي لم يصدق أيضاً وكذب رؤياه ان تعود إليه ويريد أن يبقى بالمدينة التي صارت واسعة جداً بهجرة أهلها ، وقديمة جداً بدمار مبانيها ولا يزال الزحام حول وأمام محطة السكة الحديد والخوف يزحف إلى قلبه . هل حقاً يمكن أن يأتي اليوم الذي لا يكون فيه في المدينة غيره ، هذه المدينة كيـف حقـاً لم يعـد يعرفها ؟

إنه حتى لا يجد رغبة في زوجته التي كلما نظر إليها فكر كيف حقـاً يمكن أن تعيش بعده ، ويدرك أن ذلك يعنى أنه سيموت ويرتعش ويفكر في بؤس العالم من غيره ! هل حقاً يمكن أن يستمر الناس في حياتهم بعد موته ، كيرياليسون ما أحوجه لمجد الدين يبث فيه الثقة بطول العمر .

وسقطت بالمدينة بعض الطائرات اليونيكير الألمانية ، وخرج حميدو من المعتقل مع دفعة جديدة من المفرج عنهم فكتب على جـدار المـنزل " يـا تأخذوني إلى الأبد يا تسيبوني على طول " وكان السائرون علـى فلتـهم يعرفون ما يقصد فيضحكون وانهالت التبرعات على المدينة مـن سـلفاتور شيكوريل وصاحبات السمو الملكي و الملكة نازلي . وظل حى كرموز مركز الغارات الألمانية ، وحى الشهداء يصر على أن يكون في مكانه التـاريخي ، حتى الطائرات اليونيكر ، والهنيكل الألمانية صارت تسقط فوقه ، وكـذلك طائرات السوفوي الإيطالية ، لكن يوم شم النسيم كان يوماً عادياً بالمدينة ، خرج الناس إلى النزهة وحدائق الشلالات وامـتلأت ترعـة المحموديـة بالفلائك الملونة بالأعلام يرقص ويغنى فوقها البنات والشـباب ، كـذلك خرج السكندريون إلى الشواطئ غير مبالين بالغارات ، وكان الجو معتـدلاً ومياه البحر مسطحة هادئة بيضاء لازوردية وامتلأ شاطئ الأنفوشي بأبنـاء كرموز فخرجت النساء بالأواني الممتلئة بالأسماك ونزلن الماء بثيابهن وتعابث الفتية والفتيات كالعادة ، وفي المنشية لم يستطع الصبية المشاغبون الـنزول حيث صارت الميناء الشرقية ممتلئة بالبوارج البريطانية لكن في محطة الرمـل أحاط الناس بتمثال سعد زغلول وجلسوا حوله على نجيل الحديقة الصغيرة ، وراحوا يأكلون فسيخهم وسردينهم المملح بهدوء وخلو بال ، ودخلـت الإسكندرية ذلك اليوم خمسون سيارة من القاهرة لقضاء شـم النسـيم في شواطئ ستانلي وجليمو نوبلو وميامي ، ونزلت الفتيات الإنجليزيات مـن " الأتسا " وزملاؤهم بالمايوهات في شاطئ مصطفى كامل ، وامتلأت حديقة الحيوان بالزوار الذين أسرفوا في إكرام الحيوانات ، وفي المساء عاد الجميـع

متعبين إلى بيوتهم فامتلات بهم عربات الترام وعربات الكـارو والحنطـور وشملهم الصمت ، بحت أصواتهم من الكلام والغناء طول النـهار وحـين صفرت صافرة الإنذار لم يهتم أحد أن يترك مكانه ، توقفت المركبات حقـاً لكن أكثر الناس كان يغط في النوم ، لم يطل وقت الغارة وسقطت طـائرة واحدة فوق المدينة .

**

بعد شم النسيم بأيام صدر مرسوم ملكي بتعيين عبد الخالق حسـونة بك محافظاً للإسكندرية بدلا من سعادة محمد حسين باشا الذي أحيـل إلى التقاعد بناء على طلبه ، وصدر أمر ملكى أيضاً أن يكون قصر رأس الـتين الأبيض الجميل تحت تصرف السفارة البريطانية لاتخاذه مستشفى عسـكرياً طول مدة الحرب ، وكان من أهم ما قام به المحافظ الجديد إنهـاء ظـاهرة الدقيق المغشوش في الخبز ، ومن طوالع سعده اكتشاف أثر جديد هو معبد الإله أبيس بكوم الشقافة ، وكان دميان يمشي أمام عامود السواري فوجـد زحاماً من بعض الوجهاء وعرف قصة الأثر فراح يركز عينه علـى الأرض مندهشاً من سر هذه المنطقة ، وانتهى شهر أبريل بغارة قوية قتلـت سـتين شخصاً وجرحت أكثر من مائة وسقطت فيها أربع طائرات للمحور ودارت العجلة كعادتها ، مصابون في المستشفيات وإيواء للمنكـوبين في دمنـهور وكفر الدوار ، حيث لم يعد هناك مكان للإيواء بالإسكندرية الآن ، لكن في هذه الغارات تهدم المعبد اليهودي بشارع النبي دانيال . لقد بنى المعبد عـام 1870وجدد منذ عشر سنوات ليتسع لخمسمائة شخص ، وقيل أن الذي بنى المعبد في ذلك الوقت كلفه عشرة آلاف جنيه في وقت كـان الجنيـه

يشترى فدانين من الأرض ، وسرت شائعة أن الطائرات الألمانيـة كانـت تبحث عن المعبد اليهودي طوال الأيام السابقة ولما وجدته هدمته وذلك سر انقطاع الغارات أسبوعاً بعد ذلك ، لكنها حين عادت بعد الأسبوع توغلت في محافظات الوجه البحرى مما تسبب في انقطاع الغذاء عـن الإسـكندرية والقمح بصفة خاصة لكن سرعان ما عالج المحافظ الجديد المشكلة ، وقيل إن الناس صارت تأكل كثيراً بسبب القلق والخوف ، وصدر أمر فتال يومي عن القائد العام للجيوش البريطانية بالقاهرة الفيلد مارشال سيركلود أوكنلـك إلى جميع الضباط العظام والقادة في القيادة العامة للشرق الأوسـط ، بـأن هناك خطراً حقيقياً من أن يصبح اسم روميل شبحاً ترتعب منه القـوات ، كما أصبح اسمه موضوع مناقشات طويلة لا تنتهي ، وأن روميل مهما كان قديراً أو كفئاً فإنه ليس إنساناً خارقاً للطبيعة وحتى ولو كان ذلك فإنه مـن غير المرغوب فيه أن تصفه قواتنا بتلك الصفات ... ولذا أرجـو – يقـول القائد العام – أن تبذلوا قصارى جهدكم لمحو هذه الفكرة عن روميل ، لأنه لا يزيد في الواقع على أن يكون قائداً ألمانياً عادياً ، لذا يجب ملاحظة عـدم ذكر اسمه عندما نشير إلى العدو في الصحراء الغربية فنقول الألمان أو قوات المحور أو العدو ولا نقول (روميل) وإننى أطلب منكم التأكد من تنفيذ هذا الأمر ومن صدور التعليمات اللازمة إلى القادة الأصاغر بذلك ، علماً بـأن لهذا الأمر أهمية سيكلوجية عظمى .

وعادت حملة التبرعات من أجل الإسكندرية وانضم إليها هذه المـرة الأمير عمر طوسون ، والأمير يوسف كمـال والأمـيرة سميحـة حسـن وصبدناوي وسليم وسمعان وعادت الشكوى من الدقيق المخلوط فأعلن أن

الأمر يحتاج إلى وقت هذه المرة ، وقامت إدارة الرقابة بتوزيع الخوذ على المتطوعين ففاز غفارة بواحدة ، حيث انضم للمتطوعين وخصص عربته لنقل المصابين لكنه تأخر بعدد من الجرحى الذين كانوا ينزفون فماتوا فأعفى من نقل الجرحى وخصصت عربته لنقل الموتى فكتب على أحد جدرانها (عربة الرحمة الإلهية) وعلى بقية الجدران الخشبية التى أعادها إليها آيات من القرآن وأحاديث عن الموت وأبرز من الأمثال " الحي أبقى من الميت " بخط واضح للغاية ، وكذلك " يمهل ولا يهمل" .

وفي الخامس من مايو احتفل بعيد الجلوس الملكي كما يحدث كل عام في كل أنحاء القطر فأقيمت القداسات بالبطريركيات والصلوات بالمساجد وأقيمت المهرجانات الأدبية وعزفت الموسيقى في الشوارع وفتحت مطاعم الشعب للشعب ، وعرضت سينما أولمبيا فيلم " أحب الغلط " لتحية كاريوكا وحسين صدقي ، وبدأت لجان محلية فى مكافحة الحفاء فقامت بتوزيع خمسة وعشرين ألف زوج من الأحذية كما قامت وزارة الشئون الاجتماعية بتوزيع ثمانية آلاف زوج من الأحذية على الفلاحين بالقرى باعوها في المراكز " الجوز بربع جنيه " ومنع الحاكم العسكرى البريطاني أى أضواء ليلية حتى لو بمناسبة عيد الجلوس ودارت فرق الجيش والبوليس الموسيقية بالشوارع تعزف موسيقاها وفي الحدائق ، وروعت الإسكندرية بحادثة قتل بشعة بعد غارة عنيفة راح ضحيتها ثلاثون فرداً ، فنسى الناس الغارة التي تعودوا عليها وتحدثوا عن الحادثة البشعة حيث عثر في صندوق قمامة على جثة لسيدة جوار سور حديقة النزهة ، تم التعريف على القتيلة واسمها فتحية جاب الله وهى في حوالى العشرين ، فانقطع الناس عن زيارة

النزهة خاصة وقت العصاري والمغيب ، لا العشاق الرومانيسـون عـادوا يذهبون بالنهار ولا طالبو المتعة الذين كانوا يذهبون بالليل ويستغلون الظلام الدامس في الطريق المجاور للحديقة المحاط بالأشجار من الجانبين ، الجميـع يعرفون أن رجال البوليس السري ينتشرون في المكان الآن ، ولا يعرف أحد ما الذي جعل دميان يستيقظ في الصباح الباكر ويأخذ طريقـه إلى شـارع البان ويعبره ويقطع الشارعين الجنوبيين ليصل إلى سور السكة الحديد ، ومن المكان الذي تهدم يوم ذهب إلى العمل أول مرة عبر كما كان يفعل دائمـاً ومشى إلى البوستة . لم يجد الرجل الجالس على الغـراب ذلـك الصـباح فانقبض قلبه لكنه مشى في طريقه وما كاد يدخل بالبوستة على زملائه وهم يشربون الشاي حتى قفزوا غير مصدقين يأخذونه فى أحضانهم واحداً بعـد الآخر ، وصافحه الأسطى غبريال بابتسامة واسعة هذه المـرة ، وأجلسـوه بينهم ، لم يجد حمزة فعرف أنه لم يعد ، ولم يجد شاهين فسأل عنه ، قيل لـه : إن ابنه رشدي ترك الإسكندرية إلى الصعيد مشياً على قدميه بحثاً عن حبيبته كاميليا ، وإن الرجل مريض بالبيت ينتظر عودة ابنه ، ووجد دميان نفسـه يذهب بعد ذلك إلى شاهين ، كانت عينا الرجل شديدتي الاحمرار من فـرط البكاء . جلس معه دميان كثيراً ، قال له إنه عرف من الكنيسة أن كاميليـا دخلت الدير ، وأنها في الدير ستكون بخير وتنسى وأنه لو حـدث وفابلـها رشدي سيشفى من أثر حبها لأنه سيجدها شفيت من أثر حبه .

في الثامن والعشرين من مايو قبض على إبراهيم عطـا قاتـل فتـاة صندوق النزهة التي اتضح أنها راقصـة وعـاد العشـاق الرومانسـيون "والعمليون "يذهبون إلى النزهة ليلاً ونهاراً ، وتم توزيع بطاقات تموين على

الناس لمواجهة جشع التجار وبدأ هجوم كبير لقوات المحور بعد أن وصـلت روميل إمدادات كبيرة ، بدا واضحاً أن المعركة الكبرى قد أزفت وأرسـل الجنرال ريتشي رسالة عظيمة إلى الجيش الثامن لتشجيعه مذكرا الجنود بأنهم يزودون عن الحرية والديمقراطية ، وكما فعل ريتشي فعل أوكنلك ، وبدأت معركة كبرى في بير حكيم أبلى فيها الفرنسيون أعظم بلاء وبدأت تصـل الإسكندية طلائع الأسرى الألمان ، ولكن الألمان استطاعوا احـتلال بـير حكيم ، فانسحب منها الحلفاء والفرنسيون الأحرار الشجعان الذين حاربوا بشجاعة منقطعة النظير ، و ازدادت صيحات الشيوعيين في أوروبا بضرورة فتح جبهة ثانية ضد ألمانيا للتخفيف عن الاتحاد السوفيتي ، وتم الاتفاق بـين روسيا وإنجلترا وأمريكا على ذلك ، لكن لـيس في أوروبـا بـل هنـا في الصحراء ، كانت هذه رؤية تشرشل أن يتم طرد جيوش المحور من أفريقيـا ثم يتم غزو إيطاليا من الجنوب لطرد موسيليني فيبقى هتلر وحيداً وسـاعتها يمكن فتح الجبهة الفرنسية وعبور المانش ، لكن الألمان كانوا يتقـدمون في الصحراء ويحشدون الملايين في روسيا .

ترك الفرنسيون بير حكيم بعد ستة وعشرين يوماً من القتال وظلـوا مرتفعي الروح المعنوية ، وانسحبت قوات الجيش الثامن من حاميتي العضم وسيدي رزق وانتقل القتال إلى جنوب وغرب طبرق فترك روميل طـبرق خلفه واندفع إلى الحدود المصرية .

مع بداية يونيو كانت الـدبابات البريطانيـة جرانـت وكروسـيد وستيورات تقف هنا وهناك مثبتة فوق الرمال الساخنة والجنـرال ريتشـي يقف عاجزاً لا يعرف أين سيضرب روميل ضربته ، وكانت الورقة الرابحـة

عند روميل هى المدفع 88 ملم المضاد للدبابات حيث يستدرج الـدبابات البريطانية إلى أرض قتل ثم تنطلق عليهم هذه المدافع الجبارة مجنونة من كـل ناحية لتدميرها ، وتتولى دبابات البانزر تدمير ما تبقى .

في فجر العشرين من يونيو ألقت الطائرات الألمانية المنقضـة القاذفـة قنابلها فوق طبرق بكثافة مرعبة ، فتطايرت الأسلاك الشـائكة وتفجـرت مواقع الفرقة الهندية ، وتوالت موجات الطيران تدك المواقع الدفاعية . بـدأ الهجوم الألماني المدرع بالفرقة 21 البانزر تسبقها المدفعية ، كما قامت فرقة أخرى باجتياح الميناء وفرقة ثالثة بسحق رجال الأسطول البريطاني .

ظل في الحامية أربعون ألف يقاتلون فأقام المهندسـون الألمـان فـوق الخنادق العميقة المضادة للدبابات وبدأت أرتال البانزر تأخـذ طريقهـا إلى الحامية تعاونها وحدات المشاة الميكانيكية وتمهد لها الطائرات بالضرب .

كانت الساعة الثامنة والنصف صباحاً وروميل يتابع المعركة مبتـهجاً برجاله ، وفتح المهندسون الألمان ثغرات عديدة من حقول الألغام ، وجاءت موجة جديدة من الطائرات الألمانية للضرب فتحطمت المقاومة البريطانية في المواقع الأمامية وبدأ الاستسلام الكبير فاهتز العالم واهتـزت الإسـكندرية أكثر ، وأدرك الجميع أن روميل قادم إلى الدلتا، وفي نهاية المعركة قاد روميل بنفسه مجموعة القتال خفيفة الحركة ، وكان بنفسه ينزع " بيض الشيطان " – الألغام- من الخنادق المضادة للدبابات ،وأبرق قائد الحامية البريطاني إلى القاهرة بأنه لا فائدة ثم استسلم ومعه ثلاثة وثلاثون ألف جندي حى شحنوا إلى إيطاليا ، وألف عربة مدرعة وأربعمائة مدفع وغيرها من المعدات أضيفت

إلى قوة روميل وخطب روميل يشكر جنوده ويطلب منهم التقدم إلى الهدف الثاني ، مصر ، ورقصت حكمت فهمي رقصة طبرق في ملهي الكيت كيت ، كان الحاضرون يغنون أغنية جديدة انتشرت في أوروبا : " الشمس علـى موعد مع القمر لكن القمر غائب " وذاع خبر سـقوط طـبرق فشـاعت البهجة في وجه هانز أبلر وزميله ساندى وطلب المصريون مـن حكمـت فهمي أن ترقص رقصة طبرق دون أن يعرفوا أنها جاسوسة للألمان .

وصل روميل هكذا إلى قمة المجد . كتب إلى زوجته " عزيـزتي لـو . كانت معركة رائعة . طبرق . يجب أن أنام بعد كل هذا الجهد . إننى أفكـر فيك كثيراً . سقوط طبرق هو زهوة انتصاراتنا في الصـحراء ، في الوقـت نفسه كانت سمعة الجيش البريطاني قد اهتزت تماماً إذ سقطت أيضاً سنغافورة في يد اليابانيين واستسلمت فيها قوات تبلغ ثمانين ألفا . كان تشرشـل في أمريكا يزور روزفلت ، الذي أظهر كياسته ، وسأل تشرشل عمـا يمكـن لأمريكا أن تفعل فطلب دبابات التشيرمان الجديدة بأعداد كبيرة ، وعلـى الفور تم شحن سفن حاملة ثلاثمائة دبابة إلى قناة السويس .

تأخر دميان كثيراً في الإسكندرية .. راقت له خدمة الكنيسة وخدمة اللائذين بها من الغارات وصعوبة الحياة . ترددت حكاية القديسة الصغيرة ، التي تحدث المعجزات على يديها في أسيوط . فتاة لم تدخل الـدير إلا منـذ شهور صارت الآن تشفى الناس من كل مرض شيطاني بلمسة من الصليب على الرأس أو من يدها ، وكثيراً ما تشاهد في الدير تحدث فيها أو كائنات

لا يراها أحد ولا تنقطع عن العبادة ، وتصوم الوقت كله ، لكن النـور لا يفارق وجهها ، لقد بدأ الناس يأتون إليها من القرى المجـاورة بأطفـالهم المجدورين الممعودين والمصدورين ويذهبون بأنفسهم لتشفيهم مـن الربـو والحمى وضعف القلب والصرع ، وكذلك النساء الريفيات العـاقرات ، صارت الطوابير تحاصر الدير ، والقديسة الشابة تخرج ساعتين في الضـحى وساعتين بعد الظهر والناس تتقاتل في الاندفاع إليها .

كان رشدي لا يزال يمشي ضد اتجاه النهر يأكل ما تطوله يـده مـن غيطان الخضر ، باذنجان ، أو طماطم ، أو خيار ، أو غيرها ، أو ما يجود به الناس الذين يرقون لحاله ، صار معروفاً أن هناك شاباً مجنوناً يمشي عكـس اتجاه النيل ، وكلما رأى جثة في النهر نادى أهل القرية وصرخ ولم يسكت حتى استخروجها ، وفي كل مرة كان تتسع عيناه ولا يكف عـن الحركـة حتى يعرف القتيل وشكله وعمره ، ولم يصادف كاميليا أبداً فظل يمشي نحو الجنوب . لقد مضت أربعة أشهر حتى الآن أو أكثر على رحلتـه ، ولقـد اقترب للغاية من أسيوط وها هو يسمع عن الشابة التي دخلت الدير منـذ عام واحد ، وصارت قديسة ذات كرامات تفوق كرامات القديسة تريزا ، اتسعت عيناه وهو يسمع اسمها " كاميليا " وانسالت دموعه . حدث ذلك لدميان أيضاً حين وصل خبر القديسة إلى الإسكندرية . وصار يبحث عـن الخواجة ديمتري فلم يجده في الكنيسة في أى يوم ، وعرف إنه هاجر مع أهله من الإسكندرية إلى أسيوط أيضاً ، فكر دميان في نفسه . هل كان يمكن أن يكون قديساً . لقد فشلت قصة حبه مع بربكة . ونجاه ماري جرجس أكثر من مرة من موت محقق ، وها هو يحب الكنيسة والعمل بها وخدمة أهلـها

وزوارها واختيار أحقر الأعمال وإنجازها بفرح ، لكن قصة حبه مع بربكة لم تكن إلا كما قال مجد الدين نزوة رجل تجاوز الأربعين . لماذ ا لم تحدث هذه النزوة مع فتاة مسيحية ؟ لماذا كانت الفتاة مسلمة ؟ لابد أن ماري جرجس لا يريد له أن يقع في الخطيئة من أى نوع . فتاة مسلمة يعنى إنه لا فائدة من الحب ترجى !

ذلك يعصمه من الإثم حقاً ، لكنها تعنى أيضاً أن يقهر قلبـه وعقلـه وكل حواسه . أى ظلم .

ومشى رشدى بسرعة في البلاد ، كان يدرى أنها تـراه في صـحوها ومنامها .

كانت تحب أن تنظف الحجرة التي عاشت بها السيدة العذراء وطفلها في الدير في بطن الجبل . لقد تحت الفراعنة المغارة الكبيرة ليصعدوا إليها عند الفيضان . مغارة ترتفع عن السهل الزراعي بمائة متر أو أكثر قليلاً . انتهت السيدة العذراء وابنها ويوسف النجار إليها في رحلتهم التي فروا فيهـا إلى مصر. وصارت المغارة كنيسة للعذراء ودبراً يزوره الناس ، وتقـوم حولـه بيوت الرهبان . كاميليا تحت أن تنظف حجرة العذراء ، وذات ليلـة رأت النور ، النو الذى لا يدور بخلد أحد ، الذي لا يتخيله أحد ، النور الذي له لون عسل النحل ، والذي له مسرة النسيم في يوم فائظ ، والذي له طعـم الماء الزلال ، رأته ينبعث في الغرفة صغيراً كشمعة ثم يكبر ويزيـد بريقـه وتزداد إضاءة الغرفة ثم يخرج النور يضىء المغارة التي تضـيئها الشـموع الهزيلة فكأنها شمس دخلت المغارة وصار فيها ركن يـبرق . إنهـا العـذراء

تتجلى نوراً في كل مكان . ورأتها كاميليا تمضى أمامها وتبتسهم ابتسـامتها التي لا تختفي وأحست بها تمسح شعرها برائحة طيبة ، وقالت للأب ميخائيل إن العذراء تجلت لها ، وصارت العذراء تتجلى لها في كل وقت ، وحلـت فيها البركة والقداسة السرمدية ، ورأت رشدي يمشى في البلاد . تماماً كما كان السحرة يرون ما يحدث في البللورة السحرية . لم تخف أبـدا عليـه ، كانت على يقين بنجاته ووصوله إليها ، كانت فقط تنتظـره وتـدعو لـه العذراء أن تحفظه من أى مكروه . هو الذي أنشأ فيها الرفة ، هـو الـذي أيقظ فيها هذه الروح الشفافة ، هو الذي أثار فيهـا الطبيعـة الملائكيـة ، يستحق إذن أن تدعو له العذراء أن تحفظه . كانت تعرف أنه سيصل إليها . وظل هو يمشي في البلاد . القديسة الشابة هي حبيبته . قلبه يـدق ويخـبره بذلك . لم تقتل ولم تمت . وشاعت القوة في روحه هو أيضـاً ، وأضـاءت عيناه الذابلتان وحملته قدماه ونزل يستحم في ماء النهار أكثر من مـرة . لم يرض أبداً أن يقابل كاميليا على هيئته الجديدة ، حافياً ، ممزق الثياب ، أغبر الوجه والشعر ، وأدرك أنه رأى في الريف دنيا أكثر بهاءً ونضـرة . الأرض خضراء والشمس حانية والناس في دعة تمشي على مهل والأطفال يلهون في الغدران . حقاً يبدو الفلاحون فقراء مهملين ، شاحبي الوجـوه ضـامري الأجسام ، لكن سمات الرضا على وجوههم ، والبِشر والبهجة على وجـوه الناس في الحقول جوار السواقي تحت أشجار السنط والسـنديان والجميـز العجوز ، والطيور سابحة في الفضاء حرة تنزل هادئة تلتقط الحب والحشرات وتعود ترتفع إلى أعماق السماء لا يعطلها شيء ، وجرب العمل في الحقول ، وصار معروفاً أنه لا يمكث في القرية الواحدة أكثر من يـوم أو يـومين .

ويختفي دون إنذار . يندهش الناس لأمره . يقولون إنه شاب مبروك . عمل في صمت وأكل وشرب في صمت والحقيقة أنه كان شارداً شرود الأنبيـاء ساعة الوحي ، لقد تفجر فيه نبع الشعر ووجد نفسه يقوله مختلطاً بأشعار من أحبهم من الفرنسيين وغير الفرنسيين وبانـت في عينيـه فرحـة الخلـق وزهوه ... ياللألم الجميل الذي أيقظ الشاعر من مرقده الدفين . أيقن أنـه كان مخبئاً لرسالة . سيحمال عن الناس آلام المعرفة ويمتعهم بما يشدو به منها ، هذه الآلام المسكرة . لكنه رأى أيضاً الفلاحين مهانين مذلين ورأى أسياد الأرض يضربون ورآهم ينامون مع البهائم ، ويـأكلون أحقـر الأطعمـة ويشربون ، كالبهائم ، من ماء الترع ، ويحمدون الله على كل حال ، أدرك القوة الخفية في المصريين . يتركون الحاكم الظالم للحاكم العادل الـذي لا يخذلهم مهما طال الوقت . كيف حقاً انحدر المصريون من الأزمات السحيقة إلى هذا الزمن ؟ أى معجزة يقدمها هذا الشعب . البقاء مع الظلم أكثر من الثورة عليه . وكلما طالت المسافة أمامه اقترب من أسيوط وازداد فرحـه وأحس بجسده يهتز من طرب خفي . طرب الشعر ، أم طرب اللقيـا ؟ لا فرق . في الشعر واللقيا ميلاد جديد للروح ، سيراها فقط ويعود ، تلـك التي شفت ورفت مثلما رق ولم تمت مثلما عاش وصار هو شاعراً وصارت هي قديسة . الاثنان في زمرة الأنبياء .

دبر من العمل ثمن ثياب نظيفة وحذاء ، وكان أول ما فعله في أسيوط أن دخل أحد الفنادق الرخيصة ، يستحم وينام طويلاً بعد أن حلق ذقنـه . نام أكثر مما ينبغي وقام لينظر فى المرآة ، أى وجه جميل يحمله رشـدي . أى عذاب فوق هذا الوجه . واندفع يبكي متحسراً على الذي فعلـه بنفسـه

وفعله به الحب ، وفكر حقاً في الرجوع . إلى هذا الحد اطمأنت روحه بعد أن أدرك بقاء حبيبته حية . لكنه في الحقيقة في حاجة أن يراها . مشـى في شوارع أسيوط الحارة يتسكع قليلاً ، وعاد لينام ، لقد قـرر في الصـباح الذهاب إلى الدير الذي عرف الطريق إليه .

في الطريق فكر أن يعود ويكتفي بالتحولات التي حدثت لكليهمـا ، لكنه كان من القوة ليذهب ويراها دون أن ينتكس أو ينهار . قال لنفسه : إنها لابد بلغت القوة أيضاً .. كلاهما صار في منطقة بين اللاهوت والناسوت

ورأى الزحام الشديد من المرضي والنكالي والمقهـورين في الحـب والحياة ، في الروح والجسد ، على ذلك السفح الممتد مـن الجبـل حـتى الوادي ، وعلى طول الطريق حتى قرية درنكة رجالاً ونساء .. وقف بعيداً حتى أقترب موعد انصرافها . لقد تشبع بهالة النور التي تكلل رأسها وتشيع حول وجهها . تشبع بحركة شفتيها الصغيرتين بالكلمات المبهمـة الـتى لا يمسها أحد . تشبع من زيها الأبيض السماوى ، من جسدها الهش كجسـد عصفور ، وتقدم . لقد جاءت اللحظة التي كانت بعيدة كيـوم الدينونـة ورفعت وجهها إليه . ارتعش الصليب الفضي الصغير في يـدها الدقيقـة . ارتشعت شفتاها بلا كلام . لقد أحست برائحته . ولم تعد قـادرة علـى الوقوف حتى إذا صار أمامها كادت تنهار . لكنها تماسكت وتركت دموعها تنزل على خديها أمامه وبين دهشة المرضى النكالي والمعذبين .. "رشـدي " كانت الكلمة التي طال انتظاره لسماعها . وقال " لقد شفيت " قالـت " كنت أعرف ، كنت أراك وأنت تأتي ماشياً في الحقول . أنا أيضاً شـفيت " قال وسأذهب إلى فرنسا بعد الحرب ، وأعطاني الله القدرة على الشعر " وأنا

لن أترك الدير . أعطاني الله القدرة على المساعدة ، الحب طريق الرب يـا رشدي " وسكتا . كانت دموعه هو أيضاً قد انحدرت " هل تبـاركينني ؟ " أومأت برأسها فركع على ركبيته ومشت بيديها على رأسه وقرأت رفية ثم أخذت بيده تنهضه وأمام الناس جميعاً وقفت على أطراف أصابع قـدميها وقبلته على جبينه وقالت "مع السلامة ياحبيبي" وشق صـفوف المرضـي عائداً ودخلت هى إلى الدير ولم تكمل بركتها ذلك اليوم ولم تخـرج لأيـام ثلاثة بعد ذلك ظل فيها الناس ينامون حول الدير حتى خرجت إليهم يسبقها نور وجهها .

كان السيد الجليل المثلث الرحمات الأنبا يؤانس بطريـرك الأقبـاط الأرثوذكس وبابا الكرازة المرقسية قد مات في الإسكندرية ، وتم انتخـاب نيافة الأنبا يوساب مطران جرجا من المجلس الملي العام وفتحـت الكنيسـة المرقسية أبوابها للتبرك بزيارة جثمان الفقيد قبل أن يوارى ، وزارها ديمـان الذي خرج ذاهلاً . لماذا حقاً يموت الناس ؟ لأول مرة يسأل نفسه ذلـك ، وخشى أن يكون الإيمان الغامر الذي تمكن من قلبه في الشهور السابقة قـد تسرب في الصحراء ولم يعد كافياً . لكنه لم يكف عن السؤال . وباللیـل ، وهو نائم في صحن الكنيسة على حصير فوق الأرض بين أسرته ، وغيرهـا من الفقراء عاودته رؤية ماري جرجس على فرسه تحيط به النار من كـل جانب ولا يعرف كيف يخلص نفسه منها .

كانت الدبابات الأمريكية الجديدة الشهيرة مـن ماركـة جرانـت وشيرمان تصل ميناء السويس وتتدفق على الإسكندرية ثم إلى الصـحراء، بينما القوات البريطانية تنسحب أمام روميل إلى الحدود المصرية ثم السـلوم وسيدى براني وتوقف الجيش الثامن في مرسى مطروح ودخلـها روميـل وتقهقر الحلفاء أمامه وفي الضبعة حدثت معارك بالسلاح الأبيض أبلى فيها النيوزيلانديون وظهرت شجاعتهم لكن من يستطيع الآن أن يوقف روميـل ذا الاسم الساطع ، إن اسمه وحده يلقي الرعب في خصومه ويكفي لكسب الحرب . كانت العلمين هي نقطة التوقف للمنسحبين والمهاجمين . هى عنق الزجاجة الذي لا يزيد عرضه على خمسة وعشرين ميلاً من البحـر حـتى منخفض القطارة . وهى منطقة بعيدة عن قواعد قوات المحور بليبيا .

يحتاج روميل إلى الراحة عندها بعض الوقت . وهى بالنسبة للحلفـاء خير منطقة للدفاع لقربها من قواعد امدادهم ، ولضيق أرضها على المناورة العسكرية التي برع فيها روميل . هنا سيكون مضطراً أن يهاجم مباشرة فلا مساحة للالتفاف .

روميل ... روميل ... روميل .. الاسم تحمله الرياح وتردده النـاس ملحقا بالقوة والدهاء والعبقرية والخوارق . روميل لا يمكـن هزيمتـه . لا يمكن قتله . انفجرت العربة المدرعة التي كان يركبها جنوده منـذ قليـل . فرقة من الكوماندوز الإنجليز تنزل إلى الشاطيء الليبي من غواصتها ، وتصل إلى مقر قيادته لكنه كان خارجه يحضر حفل زواج أحد الأصـدقاء ويقـع

الكوماندوز فى الأسر بعد معركة يموت فيها بعضهم . تعطلـت سـيارته في الصحراء فدخل خطأ مع هيئة أركان حربه معسكراً بريطانياً به مستشـفي ميدان فأمر مدير المستشفى والأطباء بالوقوف أمامه ، وتصرف كما لو كان قد احتل المكان ، فسألهم ما إذا كان ينقصهم شيء يقدمه لهم بعـد تنظـيم أوضاع الأرض التي احتلها ! ووعدهم بتلبية مطالبهم . وبعد أن غـادرهم اكتشفوا الخدعة طار الصيد الثمين .

ازداد الهلع في البلاد فازداد خروج اليهود منها وبيعـت ممتلكـاتهم بأبخس الأثمان ، وسمع السكندريون دوى المدافع في العلمين فارتبكت أحوال المدينة وبدأت القنصليات الأجنبيه في حرق أوراقها كما فعلـت كـذلك السفارات بالقاهرة ، وفكرت السفارة البريطانية في تهريب خمسمائة فتاة من فتيات الأنسا إلى الأقصر فليس من المرغوب فيه أن يتم ترك هـذه النعمـة البهيجة للألمان و انتشرت شائعة قوية أن الإنجليز طلبوا من الحكومة المصرية إغراق الدلتا في حالة احتلال الألمان الإسكندرية لكى تتحول الأرض إلى بحر من الطين تغوص فيها المركبات الألمانية فازداد سخط الناس على الإنجليز .

ومن جانبهم ، الإنجليز ، ألحوا على ضرورة إخراج أم كلثوم ومحمـد عبد الوهاب كرها أو طواعية من القاهرة حتى لا تستغل الدعاية الألمانيـة أغانيهما . وهجمت الناس على البنوك لسحب أموالها . ودب الخـوف في نفوسهم ولزموا بيوتهم أياماً لا يخرجون إلا للضرورة وجماءـات بسـبب الأخبار التي شاعت عن وصول حيوانات شاردة من الصحراء وتحت وطأة الحرب . أسود ونمور وذئاب وثعالب وقرود . وبالفعل وجد الناس أكثر من فرد قد تسلق الأشجار فطاردوه بالحجارة حتى قتلوه . كما تحولت الكلاب

بالليل إلى ثعالب وذئاب يفر كل من يراها ، أما الأسود والنمور فلم يرهـا أحد ، غير أن الأخبار حملت نبأ أسد عجوز ظهر في منطقة مينا البصل نـام على شريط الترام بالليل فدهسه أول ترام صباحي ومزقه وكـاد ينقلـب وهكذا صار الناس يتوقعون ظهور الأسود والنمور في أى وقت وارتبك قائد منطقة الإسكندرية العسكري وهو ضابط مصري إذ ليس لديـه تعليمـات محددة في حالة دخول الألمان إلى المدينة فأرسل خطابـاً إلى وزارة الحربيـة يسألها عما يجب عمله في هذه الحالة ، هل يقـاوم أم يستسـلم ؟ عـرض الخطاب على وزير الحربية فأمر بعدم الرد عليه لكن قائد المنطقة المرتبك عاد وأرسل خطابا بالمعنى نفسه فصرخ وزير الحربيـة " انقلـوا ابـن مـن الإسكندرية " كان الوزير يخشى إذا طلب المقاومة أن يحاكمه الألمان في حالة النصر وإذا طلب الاستسلام أن يحاكمه الإنجليز بتهمة الخيانة ! ووقعت على المدينة غارة هدمت شارع منشه كله في ليلة واحدة وخرج سكان كرمـوز وراغب وغيط العنب هلعاً إلى شاطئ المحمودية لكن الطائرات الألمانية ألقت على المحمودية كثيراً من قنابلها هذه الليلة ، فغاص كثير من السفن مشتعلة مدمرة في الماء وقتل العشرات مما كانوا على الشاطئين وبدأ خروج كبير إلى الريف عن طريق القطارات والسيارات . سيارات أجرة وملاكي وكـارو بحمار وكارو بخيل وحنطور ودراجات . ومشاه كانوا يشـغلون الطريـق الزراعي والنساء خرجن من المدينة هلعاً بملابس البيت أو قمصان النـوم ، طاف دميان بالشوارع القريبة من الكنيسة ليرى الأثر السيئ للغارة كمـا يفعل بعد كمل غارة ، فوجد بيوتاً كثيرة مهدمة ، ومنها بيـت الخواجـة ديمتري حيث سقط الدور الثاني فوق الدور الأول ولم ينـهر غـير جـدار

الواجهة الذي سقط إلى الخارج فسد الرصيف أمام الباب المغلق الذي ظـل واقفاً . لم يكن أحد بالبيت أثناء الغارة ، لا سكان ، وديمة ـري رحـل إلى الصعيد .. فكر دميان أن يصحب أسرته إلى الصعيد لكنه تذكر أن الصـلة انقطعت مع أخواته البنات من زمن فليهاجر إذن إلى مساكن الإيواء الـتي أقامتها الحكومة بكفر الدوار .

في الطريق كان دميان يجري جوار العربة التى يقودها غفارة وطربوشه على وجهه ، وفوقها أم دميان وزوجته وبناته . لقد عاد غفارة ورفع جدران العربة الخشبية ليجلس الناس فوقها بسهولة في طريق الهجرة الطويل . لقـد انقطع عن نقل الموتى ، لم يحتمل ، وصار ينقل الأحياء إلى كفر الدوار تسبقه سيارات الأجرة والحنطور التي تجرها الخيل والعربات الكاور الطويلة الـتى تجرها البغال العفية ، لكن لا بأس فالحماران الضعيفان يوفيـان بـالغرض والناس فقراء خرجوا من بيوتهم عراة فهو يكتفي بالقليل ويطلب دميان أن يقفز جواره لكن دميان الذي يدرك بطء العربة وضعف الحمارين يكتفـي بالسير جوار العربة ، وبالهرولة . لماذا حقاً لا يرى المشهد من حوله جيداً ؟ هذا الطابور المشوه من الهاربين ، أزياء مختلطة وعرى وأصوات عالية وبكاء ومتاع كثير وقليل نظيف وقذر والشمس فوق الجميع تفضحهم والقطارات تمرق جوارهم ، قريبة منهم ، أكثر زحاماً ، والجميع ينظرون إلى الجميـع ، واللحظات لا معنى لها ، فكر دميان في بريكة ، لقـد وصـل روميـل إلى العلمين ولابد أنها والبدو جميعاً قد رحلوا ، قد فروا أمام الجيوش الغبية ، يا الله . هل تظهر بريكة في معسكرات الإيواء .لا يظن . لو حـدث ذلـك سيتزوجها .. هى متزوجة . وهو متزوج . سيخطفها . لا يمكن أن يراهـا

مرة ثانية و ويتركها . ذكراها فقط تكاد تخلعه عن الأرض ، لا تكفي خدمته في الكنيسة وقيامه بأحقر الأعمال لينسى . حتى الهراحيض كان ينظفها ويطيل الوقت في تنظيفها لكن الفضاء الذي هو واسع جداً يجري خلاله الناس والمركبات جميعاً يقول لا سبيل لعودة بريكة . كانت تأتي من " وسع " وتعود إلى " وسع " . الرب أرسلها . الرب أخذها البدو لا ينامون في دور الحكومة . بريكة ذرة رمل حملتها الريح ، ولابد من العودة إلى مجد الدين .

في كفر الدوار كانت هناك خيام الملكة نازلى تستوعب القادمين تمهيداً لإقامة مساكن من حجر . إذن ليس أجمل من النزول في بيوت أقامها الملوك حتى ، ولو كانت خياماً من قماش . كذلك كانت عربة غفارة التي حملها بجزء من متاع الأسرة وركب فوقها الجميع ومشت بهم ببطء على الطريق الزراعي المزدحم بالمهاجرين الذين يمتدون فوقه بلا انقطاع من الخلف ومن الأمام حتى بدا لدميان إنه هدف للجميع ! كانت الحكاية الغريبة التي أدهشت الناس وأبكتهم في الإسكندرية هى حكاية السيدة اليهودية سمحون التي كانت تسكن في فيللا صغيرة بشارع منشة مع عشرات من القطط . إنها تنتمي لعائلة سمحون الشهيرة التي كانت من أوائل قاطنى الشارع في عهد إسماعيل باشا . لا يعرف أحد اسمها فأعطوها اسم العائلة ، و لا يعرف أحد متى كان مولدها ولا اليوم الذي ظهرت فيه سمحون بالشارع ، لكنها صارت معروفة منذ الحرب العالمية السابقة . كانت تحب شاباً يهودياً ذهب إلى الميدان الشرقي مع اللورد اللنبي ، ودخل معه فلسطين ، ولم يعد ، كان قد وعدها أن يراسلها لتلحق به بعد الانتهاء من الحرب ، والانتصار لكنه لم

يفعل . قتل في القتال الدائر مع الأتراك وأنصارهم وهى بـدورها لم تشـأ الذهاب إلى الأرض التي قتل فيها حبيبها . اكتشفت أنها لا تستطيع أن تترك مصر أبداً . ظلت بالبيت وحيدة بعد موت أمهـا وأبيهـا وزواج إخوتهـا وأخواتها وانتقالهم إلى سابا باشا . لا أحد يتذكرها إلا يوم السبت حين تخرج فاصدة المعبد في شارع النبي دانيال

منذ تهدم المعبد لم تعد تخرج أيام السبت أيضاً . لا يعرف أحد كيـف تعيش . يقال إن لها خادمة تأتي من الحدرةَ " وتعود كل يوم . لكـن حـتى الخادمة كانت لا ترى إلا قليلاً ، وعلى غير عادة الخادمات لم تكن تتحدث مع أحد . كانت تشترى كل شيء من الوكالـة في الحـدرة ، وتـأتي في الصباح .نادراً ما اشترت شيئاً من شارع منشة وبوالينو أو محـرم بـك . سقطت قذيفة مباشرة على فيللا سمحون فتكومت مـع البيـوت المجـاورة جاءت فرق الإنقاذ وتجمع الناس أكثر ما تجمعوا حول بقايا الفيللا . أيـن ذهبت السيدة سمحون أشهر عاشقة في الشارع ؟

كانت فرق الإنقاذ تعمل وتتقدم في العمل فتخرج من تحت الأنقـاض قططاً صغيرة وكبيرة حية تجرى تموء في الطريق غير مصدقة ما جرى لهـا ، ووجدت السيدة سمحون مكومة في ركن محاطة بجوانب قوية من الجدران ، ومغطاة بجزء من خشب السقف . لكنها معفرة بالتراب مغمضة العيـنين لا تتحرك . لا حول ولا قوة إلا بالله . يا لها من نهاية لعاشقة حقيقية . كانـت أجمل الجميلات لكن الوحدة أصابتها بشيخوخة باكرة . لابد أن معها أموالاً كثيرة ! تناثرت الأحاديث وانتظر الناس ظهور المال فاستمر رفع الأنقـاض ثلاثة أيام ، وشارك في ذلك ناس من كل الإسكندرية ، عـاطلون وفقـراء

جاءوا يبحثون عن الكنز المدفون لعائلة سمحون , لا أحد يسأل نفسه لماذا لم يظهر أحد من أبناء العائلة إلا للحظات لاستلام جثة أختهم ثم اختفـوا ، في النهاية وجدوا بعض أوان قديمة ، وأثاث متهالك وأعواد بخور . حزم كثيرة ملونة من أعواد البخور . كانت تحتفظ بها السيدة الجميلة سمحون .

" لك الحمد إن الرزايا عطاء
وإن المصيبات بعض الكرم .
لك الحمد مهما استطال البلاء،
ومهما استبد الألم "

-27-

دق قلب مجد الدين بسرعة مع مجيء القطار .. إلى متى تكذب على أيها القلب الضعيف ؟ قال لنفسه . يحدث ذلك كل يوم ، ولا يأتي دميان لا شيء يملأ الخلاء حوله . حتى الحركة الكبيرة في الجيوش لم تملأ الخلاء .التراجع والذعر أمام روميل ، طوابير الجرحى الذين حملتهم القطارات ، الأسى من عيون الجنود مختلفة الألوان ! البكاء أحياناً . صمت عازفي القرب .. الغبار الذي ملأ الفضاء ، الطائرات التي أتت وراحت ، ذهبت ولم تعد وعادت !! القذائف الشيطانية . ملازمته البيت أياماً كاملة . تضوره جوعاً . إذ انقطع الهنود والصافي النعيم عن المجيء ، وهرب هلال ناظر المحطة ليلحق بعامر الذي ترك من قبل حجرة التلغراف مفتوحة تعوى فيها الرياح . كل ذلك لم ينسه دميان . هل كان دميان سبب بقائه ؟ لن يجد مرة أخرى أحداثاً في قوة ما مضى لدفعه لترك المكان . لابد أنه دميان . إنه ينتظر عودته ، ولسوف يعود . وها هو يراه ينزل من السبنسة آخر عربات القطار الذي جاء يحمل عتاداً عسكرياً .

إنه يراه واقفاً وسط الرصيف ينظر حوله ، تماماً كما حـدث عنـدما جاءا أول مروة معاً . دميان يبدو غير مصدق أنه عاد إلى صديقه ، تماماً كما لا يصدق مجد الدين ، أسرع كل منهما ليكون في حضن الآخر .

في غرفة الناظر تحدثا كثيراً ، وصف مجد الدين بؤس انسحاب الجنود أمام روميل ، وحكى دميان عن بؤس الإسكندرية . لا أحد يبقى . لا أحد ينام . ومجد الدين غير قادر على الابتعاد بعينيه عن إكليل النور الذي يحيط بوجه دميان . هذا شيء لم يكن في دميان من قبل .

- مالك ياشيخ مجد تحملق فى كثيراً ؟

- لا شيء يا دميان .. فقط أوحشتني . لم أصد أننا سنلتقي ثانية .

لكن دميان شرد بذهنه عنه . لقد سـبق وتأمـلـه القسـيس ، الأب إبشوي ، كثيراً ، وسحبه من ذراعه إلى حجرة الاعتراف وأجلسـه وراح يعيد النظر إليه . " ما الحكاية يا أبانا " " لا تترك الكنيسة يـا دميـان ، لا تبتعد عنها " الشمامسة والقساوسة كثيراً مـا ينظـرون إليـه ويجتمعـون ويتحدثون . شيء ما يحدث في وجهه لا يدركه . لكن لماذا لا ينظر إليـه أحد من أهله . ولا من أولئك الذين لاذوا باالكنيسة ؟ ما الذي يجعل مجـد الدين مثل الأب إبشوي والقساوسة والشامسة ؟

- كان عليك أن تترك هذا المكان وتلحق بي .

قال دميان ذلك وهو يكذب . لقد أحس في الأيام الأخيرة أنه لم يعد يعرف الإسكندرية ، وأنها لم تعد تعرفه ، إنه لا حياة له بعيداً عن مجد الدين ، وهو الآن يشعر أنه لن يستطيع البقاء هنا ... وقال مجد الدين :

- نعم كان على أن ألحق بك .

- لماذا إذن لم تفعلها يا شيخ مجد ؟

لم يجد مجد الدين أن لديه رداً . اكتشف أنه كاد يفقد الإحساس بالزمان . بأن الدنيا أوسع من العلمين . وظل يحملق في وجه دميان ، الذي استمر يتحدث عن الإسكندرية ، ولما عرف مجد الدين أن بيت ديمتري انقبض صدره ، وشم رائحة البيت ، الرائحة الوادعة الأليفة التي تبعث على الراحة والنوم . بيت لا تسمع فيه صوتاً خارج الجدران ، كان بيت الخواجة ديمتري . تذكر البهي فتذكر على الفور هالة النور التي ظلت أزماناً طويلة حول وجهه . ترى هل يجد دميان مصير البهي ؟ لقد أمسك مجد الدين بصورة البيت الصغير فأمسك بكل الصور التي ضاعت منه , لُوللا وكاميليا وإيفون والست مريم وغفارة والبهي وزهرة ، أجل ، زهرة حبيبة روحه التي لابد تزوى في القرية حزناً على فراقه الآن . ياللفرح المباغت الذي يكاد يرفعه عن الأرض وهو يتذكر شوقية وشوقي ، لقد اقترب موعد عودته إذن . هاتف سري ، سحري ، يتردد في صدره ، وقال دميان :

- لم أكن أعرف أنهم ألغوا القطارات إلى المدينة .

- لم تعد تأتي منذ الانسحاب ، إنها تنتهي عند الحمام الآن .

- ركبت إحداها ، ومن الحمام تعلقت بالسبنسة ، لم يكن بالسبنسة جنود . كانوا فوق العربات والمعدات العسكرية .

- أنت دائماً لا يعطلك شيء يا دميان . هيا إلى البيت .

الحقيقة أن مجد الدين كان يريد أن يستوثق من هالة النور حوله وجه دميان ، وهل تظهر في الظل داخل البيت ، وهل يدرك دميان هـذه الهالـة ويعرف معناها ؟ دميان يدخل مدارج القديسين والأولياء ولا يـدرى ، وفي الطريق سأله دميان :

- هل لديك معلومات عن بريكة ؟

- البدو جميعاً غادروا المنطقة إلى الحمام أو العامرية .

في الليل كان دميان قد ضاق بحملقة مجد الدين فيه . لكنه اعتبر ذلك عرضاً جديداً ألم بصديقه . وتحدث مجد الدين عن ضرورة بقائهمـا حـتى تصلهما تعليمات بالمغادرة فسأله دميان عن العمل الذي يمكن أن يعمـلاه الآن . قال مجد الدين ، إن تحويل القطار إلى الخط الحديدي القديم ليبيـت فوقه ويعطى الفرصة لقطار آخر يصل المحطة عادة بالليل عمل مهم يجب ألا يتخليا عنه . ذلك برغم إنه لم تعد هناك فائدة للمزلقان فالقطارات لا تبتعد عن المحطة ، ومن ثم لا عمل للسيمافور الآن . وكانت هالة النور تـزداد في الليل ، ويزداد لمعانها الهامس ، وسمعا صوت وقع أقـدام تقتـرب . كانـا بالحجرة الداخلية لكن الباب الخارجي كان مفتوحاً . ازداد اقتراب صوت الأقدام وأصبح عند الباب ، ثم صار بالصالة فملأ فضاء البيت ثم رأياهمـا يقفان أمامهما . إنه الضباط الإنجليزي ، مستر سبايك شخصياً ، الذي غاب عن الحضور طويلاً ، وإلى جواره رجل قصير مهوش الشعر طويـل الـذقن أحاطت وجهه كله ، والوجه معفر ومتعب للغاية والثياب ممزقـة في كـل

مكان . مجرد شورت كاكي وسترة من الكـاكي ، والسـافان سـوداوان محترقان . لقد وقف مستر سبايك محملقاً في دميان ومجد الدين ثم قال :

- This man is Egyptian , We found him in the desert , please help him .

وترك لهما الرجل المتعب ومضى ، والرجل المتعـب بـدوره وقـف يتأملهما ثم قال بصوت مرتعش :

- ألا تعرفني يا شيخ مجد . ألا تعرفني يا دميان .

- من ؟ حمزة ؟

هتفا معاً وانقضا عليه يحتضنانه ويخلعانه عن الأرض فرحاً ، وما هـى إلا لحظات حتى صار جالساً بينهما يبكي ويضحك ويحكى .

أبدأ منين يا شيخ مجد ؟ أقول إيه يا دميان ؟! حكايتي دى لابد عن يوم يحيكها الناس على الربابة زى حكاية أبو زيد والزبر سالم . أى والله . آخر شيء فكرت فيه هو الرجوع لمصر . هي كانت فين مصر ؟! من ساعة مـا شدنى العسكري الأفريكي الغبي ابن الكلب وضاع أملي في الرجـوع . الله يسامحه انفجرت بطنه قدامي . الله يسامحه خدنى منكم ، من أولادي . مـن أهلى وبلدي وبعدتم عنى كلكم . شفتكم طايرين في الهوا لورا والتراب فام غطى حتى على عيني ما عتش شايف حد ... أنا بصيت لقيـت نفسـي في مرسى مطروح . أيوه . مرت على ليلة كاملة في القطر العساكر بتضـحك على وتمسخر فيّ ماعاطونيش أى فرصة أقرب ناحية الباب كنت نطيت إنشا

الله أموت ..يا الله .. طول الليل يضحكوا على استراليون وهنود وأفريكان وإنجليز . كل الدنيا كانت تهزأ فى ، أي والله . وأنا تايه وسطيهم ، يسألونى اسمك إيه ، وات إذ يورنيم ؟ أقول حمزة يقولـوا همـزة وأمـزة وجمـزة ويضحكوا ويزقوني من واحد لواحد وأنا مذعور وسطيهم زي الفار أبص في عيونهم وأترجاهم بليز هيلب مي ، بليز ليت مى جو هوم ، ولا حياة لمـن تنادي ، وياريتني ما كنت أعرف ولا كلمة إنجليزي كنت فعدت ساكت ، لكن لأني أعرف كنت أطلب و ألح عليهم يسيبونى وأبقى عارف إنهم فاهمين كلامي ولا يهتموا ولا يتحركوا . كنت أتألم . لو كنت أخرس أو جـاهلاً كنت سكت وانتظرت ورضيت لكن ركعت على ركبتي وتوسلت بليز ليت مى جو باك. ليت مي جو هوم . هوم بليز ، ماي هوم . هوم ، يضـحكون ويقولوا هوم : هوم! وات إذ هوم ؟ وى آر هومليس . يو آر لايـك أص هومليس همزة ، ويضحكوا ، همزة إذ هومليس . ويضحكوا لغاية ما جـه ضابط شاب عجبه عجزى وحيرتي وانزعاجي وربت على كتفي يطمـئنى . تحدث مع الجنود فازدادوا ضحكاً وشراسة في الضحك وأدركت أنه هـو أيضاً لن يساعدني لكنه أشار إلى ركن في العربة فجلست فيه وضعت يـدي على خدى ، وأدركت أني ضائع لا محالة وسمعت الضابط يقول وهو بيشاور على لايك مونكى ! وضحك العساكر وفقدت الأمل ، تذكرتك والله يـا شيخ مجد ، وأنت كمان يا دميان ، والغريب إني خفت لما أرجع وأحكي ما تصدقنيش يادميان وابتسمت رغم المصيبة وقلت بس أرجع وما يصـدنيش حد ، وبعدين قلت زي الشيخ مجد يحلها من لا يغفل ولا ينام وحلها والحمد لله والشكر لكنه تأخر على كثير قوى .

أكيد كان اختبار. أكيد.. لكن كان صعباً ..

المهم . الحمد لله على كل شيء . قلت لنفسي ونمت مكاني . صحيت لقيت نفسي في مرسى مطروح وغارة شديدة على البلد والمحطة والقطـر . شفت العساكر بتجرى في الصحراء وأنا ساعات فدامهم وساعات وراهـم وشفت القنبلة وهى بتقع قريب من الأفرنكي الغبي اللي خطفنى فتشيله عن الأرض عشرة متر وزيادة وتنزل بيه مفتوحة والدم يشلب منـه . شـفت معدته ومصارينه . قربت منه لا فيته حى لكنه لا يتألم ، بس كان يـبص لى جامد زي اللى حاسس إنى شمتان فيه ومش عايز يبان ضعيف ، لكن أنا كان صعبان على يادوبك اتلوى مرة واتألم مرة وفطس وغطيته بالرمـل في عـز الضرب . أى الله . المهم في النهاية انتهت الغارة وبقينا وسط تكنات الجنود ، وقفت متحير . توقعت أنهم يتركونى لكنهم زقونى على المطبخ . شـفت الضابط نفسه اللى كان في القطار وسمعته يقول لعسكرى أسود : تيك هـم تو ذا كيتشين . هى إذ آسير فانت . وسحبني العسكرى الأسود أبو سـنان بيضاء وسألني وات إذ يور نيم ؟! فلت زي المذهول : حمزة .؟ سألني وات إذ همزة ؟ فلت : يا ربي لازم الواحد يعنى يعرف معنى اسمه . قلت له حمار ، بالعربي ، سألني : وات إذ همار ؟! فلت له حمزة . بص لي وسكت شـوية وبعدين . قال فيري جود همزة !

فعدت طول النهار والليل أشـيل في أكـل وأغسـل في صـحون وحلل .قلت : زى بعضه أدينى بأكل ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خـير لكم ، ومسير حد يعرف حكايتي الحقيقية ، يسيبني أروح المحطـة وآخـذ القطر وأرجع لعيالي لكن ماحدش سأل فى ، فعدت أفتش في المعسكر إزاي

أهرب لقيت نفسي مش عارف الشرق من الغرب ، جنود من كـل ملـة وسلاح من كل صنف وسط الصحراء ، سلمت أمري لله قلت يارب تيجي غارة ألماني تهد المعسكر على اللي فيه وحلمت إني راجع لوحـدى وكـان الضابط كل يوم يبص لي ويضحك ويتكلم مع الضباط ويضحكون لغايـة يوم شاور لي راح قلبي طب ومشيت وراه لحد عربية كبيرة فوقها عساكر . كان فيه عربيات كتير فوقها عساكر بسلاحهم . قال لي " جامب " وقفت متحير ، العربية عالية وأنا قصير لكن عسكري أسود برضه مد لى إيـده ، تعلقت بيها ورفعنى ، وشوية ومشيت العربيات حواليها دبابات ومـدافع ، وسألت العسكري الأسود وأنا مذعور ،مذعور زى الكلب ، آه والله ، زى الكلب ، اليتيم كمان سألته : " تو وبر وي جو سلولدجر " .

قال لي وهو بيضحك : " تو ذا وور " وضـحك زي المجـانين وأنـا عرفت طبعاً أنها الحرب وإن في الحرب نهايتي ، أتغميت وتمنيت من الله شيئاً واحداً هو أنه يهزم الإنجليز والحلفاء في كل حرب ضد الألمـان الطلابنـة الغلابة وأنى أقع أسير في إيد الألمان أو الطليان لأنهم ممكن إذا عرفوا حكايتي يسيبونى . طول الطريق الضابط يزعق ويشخط في العساكر . ظهـر أنـه شرس وابن كلب . سمعت الضباط ينادونه بشكسبير . الظاهر دا كان اسمه لكن العساكر كانوا بيقولوا عليه ماكبث. الظاهر دا اسم الشـهرة . أنـا ظنيت كده وجيت في مرة وقلت " مستر ماكبث " فزغر لي زغرة خوفتني ، وعرفت إنه انضحك على من العساكر وإن ماكبث دى كلمـة وحشـة ، أمال أية اللي زعله كده . لابد إنها كلمة وحشة أو اسم تجربس وهلـس . قلت لنفسي قطيعة تقطع شكسبير على ماكبث في يوم واحد . بعد كـده

طلعت عيني في توزيع الأكل على العساكر في مواقعم . لبسوني طبعاً لـبس الجيش . وكانت الكتيبة اللى باوزع عليها الأكل هنودا، كلها هنود فلـت يمكن دول أرحم وخدمتهم تكون أهون ، أهم مستعبدين زينا ، لكن طلعت خدمتهم طين وماكانش فيهم حد مسلم ولا حد أتكلم معايا كلمة ، وكانوا طبعاً كلهم أطول مني لابسين عمم حتقع من على رؤوسـهم ولا يهتمـون بلبس الخوذ ، وكانت كل أوامرهم لى بالإشارة ، خلوني كما الأخـرس ، فكنت بانام بالليل في المطبخ وأقعد أسلي نفسي بالشعر والغنا وأعيط .

شـوف الزمـان مـا عمـل في النـاس وراهـم
إن زهـزه لهـم يـوم جـاه في العقـب وراهـم
زمـــن الهنـــا راح جانـــا زمـــن عايـــب
وادي أنـــدل النـــاس ع الجـــدعان يتعايـــب

وفي أول معركة مع الطليان وقعت أسيراً . أخذني الطلاينة مع عساكر إنجليز وهنود واسترال ومشوا بينا مسافات بعيدة في صحراء حمراء رملتـها ناعمة تهب شوية ريح عيوننا تتعمي . صحرا تربط فيها القرد يقطع ، لغاية ماشفنا معسكراً كبيراً متحوط بسلك . ربك الحق ظهرت الشماتة في عيني خصوصاً أني أنا ماشفتش المعركة قبل الأسر " أمال اتمسكتوا أسرى إزاي " لقينا كده بدون مناسبة فرقة مدرعة ألمانية ، وسط المعسكر حواليها عساكر مشاه زي العفاريت . كله عرف إن الألمان وصلوا سلموا نفسيهم . الحرب كانت بعيدة عن المعسكر ومادام ظهر الألمان والطليـان يبقـى الإنجليـز انهزموا . بعد كده لما حيجي روميل حيجنن الإنجليز لأنه أول ما تبدأ المعركة

يسيبها ويعدى في لمح البصر ويبقى ورا الإنجليز فيسلموا على طول . لكن لسة ما ظهرش . أيوه . أمال اسمه روميل ليه . روميل لازم تكون معناهـا تعلب .أيوه يا شيخ مجد . والله يا دميان . " دا أنت حكايتك طويلة يا حمزة " أنا لسه في الأول يا دميان . دا أنا مش مصدق إنها خلصت " طيـب .. طيب .. وماتعيطش إتكلم يا حمزة فك عن نفسك " . وحشتنى خالص يـا شيخ مجد . " وعملت إية الطلاينة " أيوه يا دميان أخذونا معسكراً كـبيراً مليان أسرى من كل الدنيا وكل الملل وكنا نبات فيه ، في الخلاء بالنهار حر وبالليل برد وزي ماشفت الإنجليز بيعملوا في الأسرى شفت الطليان بيعملوا نفس العمل يرموا لنا الأكل من فوق السلك ونجرى عليه زي الحيوانات . لكن الحقيقة كان العساكر بعد ما يجمعون الأكل يعيدون تقسيمه بينـهم . كانوا محترمين رغم أن الحرب وحشة وكانت الروح حلوة . أنـا شـفت الأسرى الألمان والطليان قبل كده في مرسى مطروح بيعملوا كده برضه . لا أحد يهين نفسه أو كرامته فليه أهانوني أنا وأهانوا كرامتي ؟!. المهم الطلاينة كانوا بياهخذوا كل يوم شوية يستجوبوهم وما يرجعوش تاني . يشحنوهم على إيطاليا . جه الدور على خفت ، ما فلـتش غـير كلمـة واحـدة " إيجيبشيان " وجملة واحدة " أيام إيجيبشيان " بصوا لبعض الضباط الطلاينـة واتكلموا بصوت عال وبسرعة زي القطر وضحكوا . فجأة قام ضابط من بينهم ولف حوالي وهو بيبص لي ويقول " إيجيبشيانو " وحبيت أقـول إنى مش جندى ولا رتبة وأنى عامل في السكة الحديد المصرية خطفني الإنجليز ، لكن ضاعت منى كل الكلمات الإنجليزية اللى عرفتها في حياتي ومافضـلش منها غير " إيجيبشيان " وقعدت أعيط . رجعوني المعسكر وأنا مش مصدق ،

شفتهم بيرحلوا كل اللي استجوبوهم على إيطاليا . حمدت ربنا وقعدت أمشى جنب السلك العالى في المعسكر أفكر ليه سابونى مخبيين لى إيه ، أبص للسما البعيدة والدنيا الواسعة وأقول معقول ربنا حيسمعنى من هنا . أى الله يا شيخ مجد . لكن ربنا كبير ، سمعنى ، وشفت بين جنود الحراسة عسكرى ملامحه عربية . كلمته عربي رد على ، طلع ليبي ومتجند غصب عنه ، حكيت له حكايتي ولقيت في عينيه نية طيبة إنه يساعدنى . قال لى انتظر كام يوم أكون دبرت لك حل . انتظرت . افتكرت غارة مرسى مطروح والقنابل بتنفجر قدام عيني وصوت المدافع بعد كده على الحدود ، والقذائف تنزل على العساكر تطيرهم تقطعهم في الجو حتت ، وافتكرت الصوات بتاع الجرحى طوال الليل في مستشفى الميدان القريب من المعسكر . أنا كنت دايماً في الخطوط الخلفية للإنجليز ، لكنى شفت جهنم أكثر من مرة لأنهم ساعات كانوا يزقوني قدام مع فريق التموين . أيوه . هى جهنم إيه غير النار . تعرف يا شيخ مجد أنا رأيي إن الأجانب دول أصلاً من جهنم . ناس قلبها حديد بيرموا على بعض كل يوم ملو فطر فنابل . يا ستار . تفتكر إحنا المصريين ممكن نحارب كده. إحنا ناس طيبين بنعيط . دا لو حصل حرب وجه العدو قدامنا وقال موال حزايني حنعيط ونسيب الحرب . " طيب يا حمزة ما تعيطش . بلاش تكمل الحكاية النهاردة . استريح " أنا استريحت لما شفتكم . الحرب وحشة قوي يا شيخ مجد . يا ما شفت عساكر طارت رؤوسها وهي واقفة وراء المدافع ، ومدافع تطير في الهواء وتتفكك ميت حتة وعساكر فجأة يتجننوا ويجروا يصرخوا فى الجو وبركبهم عفريت ويتنططوا فى الأرض وزملاؤهم يكتفوهم ويدوهم إبر

منومنة وبنقلوهم على بلادهم . أنا شفت مجانين كتير لدرجة أنى فكرت إن إنجلترا وإيطاليا وألمانيا والهند وأفريقيا صارت مورستان . شـفت عسـاكر تبص في السماء وتصرخ وعساكر تجري تقع في النـار ، تنتحـر يعـنى ، وعساكر تنهار وتعيط زي النسوان المكسورة الخاطر . دول غلابـة قـوى العساكر يا شيخ مجد كلهم أطفال يصعبوا عليك . دي الحرب وحشة قوى يادميان . المهم بعد كام يوم لقيت معسكر تاني بيتنصب جنبنـا وبتجهـز مستشفى ميدان وعربيات بتنقل مئات الجرحى وغبار وحركة كأن القيامة قامت . سألت العسكرى الليبي قال لى جاك الفرج يا مصـري . الإنجليـز كسروا جرازياني . انتظر لازم يأتون هنا .. وحصـل . وصـل الإنجليـز وأخذوني مع الأسرى وشحنوني معاهم إلى الحدود المصرية . شفت عنايـة ربنا . لقيت نفسي في مصر تاني لكن أسير المرة دى . مـين يصـدق . " لاحول ولا قوة إلا بالله . دا أنت تعبت قوي يا حمزة " . أسير في بلـدي ، لكن الحمد لله ، في النهاية رجعت . سلموني لأومباشي اسـترالي طويـل . طويل قوي .رجله لوحدها طولى . أى والله أخذني لضابط عظيم . عرفـت إن شكلي هو اللى كان دايماً يخلى اللي يشوفني يشك في . مـش شـكل عسكري ولا يمكن يكون فيه ضابط فصير كده . يبقى أكيد جاسـوس . . أدي كل الحكاية آدي سبب غلبي . سألني الضابط أنت إية ومين ؟ قلت له أنا إيجبشيان غلبان . ماعرفتش يعني أية غلبان بالإنجليزي . لسـة الكـلام الإنجليزي ضايع مني . بص لي الضابط وامتعض بس أنا حسيت إنى أقـوى من الأول . أيوه . أنا واقف على أرض مصرية على كل حال . الضـباط تشكك في فحبسني فى أوضه خشب لوحدى واقف عليها عسكري حراسة

أفريكي أعرف أن الليل دخل من شقوق الخشب لما يختفـي وشـه وتبـان سنانه ! تعرف يا شيخ مجد حسيت إني لي قيمة كبيرة جوه الأوضة المقفولـة دي . انتشيت . فرحت لأول مرة وافتكرت مراتي وعيالى وأصحابي كلهم . فرحت لأول مرة وافتكرت مراتي وعيالي وأصحابي كلهم . لكن بعد كـده كنت أحس بحاجة للعياط . أحبس دموعي وأفتكر المواويل .

بصوا شـوفوا فـلاح مكسـور ذليـل منـهان ،
جـوا حنـك تمسـاح مـن سـالف الأزمـان
يـا مـن رمـاك دهـرك في فـم دا التمسـاح
قـول لي علـى أمـرك ومـا دهـاك يـا صـاح

وبعد شهر أطلقوا سراحي من الحبس ، فلت ضروري أتقصوا عـنى وعرفوا إنى غلبان وحيسيبونى أروح ، لكن ما حصلش . حطونى في المطـبخ أطبخ للعساكر ومع الهنود تاني . كأنهم عارفين اللي حصل قبل كده ، قلت زي بعضه ، واصبر وما صبرك إلا بالله ، وصبرت لغاية ما شـفت بعـينى العساكر الإنجليز راجعة من على الحدود متبهدلة قدام روميل . كانـت دي أول مرة نسمع فيها اسم روميل اللي حل محل جرازباني وسمعت أن جنرال الإنجليز الكبير " ربتشي " أتجنن . صار عندي احساس إن نجـاتي حتكـون على ايد روميل . واتحسرت . أنـا في بلـدي ومحتـاج الفائـد الألمـاني ينقذني .وحصل . كنت في المطبخ لما شفت الـدخان طـالع مـن غـرف

الضباط . كانوا بيحرفوا كل حاجة بسرعة وبركبـوا عربيـاتهم الجيـب وبرمحوا . ماسمعتش غير كلمة واحدة ، روميل . لقيت جماعة جرحى قعدت معاهم . فين أروح ؟ ولقيت المعسكر امتلأ ألمان والدنيا حولنا دخان ونار .

أخذني الألمان لضابط كبير فهداني تفكـيري وقلـت " روميـل " . يسألوني بالألماني أقول " روميل " ، بالإنجليزية أقول " روميل " قلـت لازم يكون فيه عاقل يخلصني من الورطة اللي طالت ولا عاقل إلا " روميـل . " وعرفوا إنك عايز تشوف روميل ؟ " أيوه حصل . رجل غريب وشه مدور وعينه خضرا غويطة وشعر رأسه خفيف وما بيتكلمش كتير . بعد ثلاثة أيام أخذوني ليه . ثلاثة أيام رعب – ونظر دميان إلى مجد الدين قائلاً في نفسه ها هو حمزة يعود لأصله القديم – وفي غرفة روميل شفت واحد بدوى واقـف جنب روميل اللي قاعد .؟ حكيت لهم قصتي وسمعت البدوي بيترجمها ألماني وروميل يبتسم بدهشة ووشه راح زي وش طفل . أى والله . قـال جملـة واحدة ترجمها لى البدوي . قال إني حافضل معاهم شوية وهمـا بيطـاردوا الإنجليز والجيش الثامن حتى إذا وصلوا إسكندرية أدلهم علـى شـوارعها وبعدها يتركوني . ساعتها دعيت ربنا أنهم يوصلوا إسـكندرية بسـرعة ، واستغربت إزاي البدوي يعرف ألماني وقلت أكيد أنـه جاسـوس لابـس بدوي ." طيب يا حمزة كفاية كده النهارده ونام " استني يا دميان الحكايـة قربت تخلص أنت أكيد مش مصدق . " أبداً يا حمزة دا أنت حتى شـكلك تعبان أكتر من اللي حكيته " . بعدها يا دميان تقـدم الألمـان إلى مرسـى مطروح وأنا في الخلف مع فرق الإمداد . حطوني عهدة سواق جيب مجنون خلع عظامي من المطبات والسرعة ، بشوفني بتألم يضحك ويقول (إيجيتر)

يعنى مصري وأنا أقول يارب كملها على خير خايف من الألغام . في مرسى مطروح شفت المعركة الكبيرة . شفت الدبابات وهي بتضـرب قـذائف والدبابات وهى بتولع والمدافع تتنطط من القذائف والطيارات تيجـي مـن البحر وتروح وبالليل سمعت أصوات الموتى وأنين الجرحى والأحياء الـدنيا راحت سواد في حمار في غبار وبالليل كنت أقعد وسط الظلام واتكور وعايز أخش في بعضي من اخوف وأقول يارب خدني بأه . يارب كفاية على كده ، لكن الألمان كسبوا ودخلوا مرسى مطروح والضبعة بعد كده لغايـة مـا وصلوا هنا . إسكندرية بقيت قريبة وما حدش سأل فيّ وأنا قلت لنفسـي معقول روميل يكون محتاج لواحد زيي يدله على شوارع إسكندرية وفعدت بالليل أقول مواويل لنفسي .

الـ ـبين عطـ ـاني بـ ـلاوي زود أمراضـ ـي
مرعـ ـوب منـ ـها قـ ـوي دخـ ـلاش في مـ ـرادي
القلـ ـب قـ ـال لي زمانـ ـك سـ ـد مـ ـش راضـ ـي
تنتنى أبكـ ـي لمـ ـا جفـ ـن العـ ـين صـ ـب منـ ـه دم

كل دا وأنا لسه عهده العسكري المجنون سواق الجيـب ، وفي ليلـة أخذني ومشي بي أكتر من نصف ساعة بالعربية وشاور لي على النجـوم في السما ووقف ونزل ونزلت ، فشاور لقدام بإيده وقال الكسندريا وكـرر الكلمة أكتر من مرة وبعدين شاور لي أمشي فمشيت زي المسحور ، بسرعة حددت لنفسي نجم قدامي وكنت عارف إن البحر على شمالي وإن الوشيش اللي باسمعه هو صوت البحر اللي مش شايفه ومشيت لكن بعد شوية ضاع

صوت البحر وتشابهت على النجوم وافتكرت إن الجيوش وهي بتنسـحب دايماً تحط في الأرض ألغام وأكيد الإنجليز عملوا كده بينسحبوا قدام روميل وعرفت إن نهايتي حانت وإني لازم حادوس على لغم في الضلمة دي ، ولو حتى في النور ، رحت قاعد في الأرض زي العيل التايه وبصـيت للسـماء البعيدة وقلت ياربي أنت شايفني وأنا مش شايفك وسامعني وأنا مش سامعك ، يارب أشكو لك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يـارب إذا كان بيك غضب على فأجله وكفاية على كده . يارب أنا مديت إيدي آخذ علبة بسكويت للأطفال دا كل اللي عملته فهل استحق كل دا العذاب يـا كريم يا أرحم الراحمين ، يارب خد بإيدي ، لمين سايبني ؟ مرة لأعداء أشرار يهدلوني ، ودلوقت للصحراء والألغام والدبابة . أيوه إن كانش لغم ينسفني ديب يطلع على ياكلني . يارب فين رحمتك اللي وسعت الدنيا كلها. يارب أرض عنى وأنقذني ... يا سلام . كنت تعبان قوي يا شيخ مجـد ، فنمـت مكاني . نمت كتير ؟ دقيقة لاقيت فيها وشه منور ولابس أخضر وفاءـدين بين أصحابه منورين ولابسين أبيض رميت السلام ورد السلام وسألني أنت مين قلت أنا حمزة يا رسول الله راح مبتسم لي ووسع لي مكان جنبه وقال لي تعال أقعد مع أصحابي أبو بكر وعمر يا حمزة دا أنت اسمك غالي ، رحـت قاعد جنبهم وقمت من النوم شبعان كأني نمت ميت سنة واتأكدت إن ربنا حينجيني ، وحسيت بإيد دافية حنونة تمسك بإيدي قمت ماشي بثقة وصوته ، الرسول ، يقول لي يمين أمشي يمين شمال أمشى شمال وكل ما رجلي تغوص في الرملة يمسكني الرعب ، يقول لى ماتخافش ويروح الرعب وأمشي علـى كده لحد ما طلع النهار . أول مرة أشوف النهار شكله جميل وحلو الشمس

فرحانة فوي . أيوه أنا شفتها كده . فلت يارب تم جميلك ، بصيت لا فيت فدامي عسكري هندي كأن الأرض انشقت عنه هو اللي أخـذني لمركـز القيادة الإنجليزي ، وهناك استغربوا إزاي عديت حقول الألغام وشكوا طبعاً فيّ ، لكني افتكرت كل الكلمات الإنجليزية اللي كانـت ضـاعت مـني ، وحكيت لهم القصة حجزوني ثلاثة أيام لغاية ما تأكدوا من صحة كلامـي وبعدها جابني الضابط ليكم والحمد لله ... ياه .. دانتم وحشـتوني قـوي قوي ... و ي ...

وتحشرج صوت حمزة فلم يعد قادراً على الكلام .

" أيها الموت..
يا موتى.
يا آخر إنجازات حياتي
تعال وتحدث إلى همساً ،
لقد انتظرتك يوما بعد يوم ،
وتحملت من أجلك ،
أفراح الحياة وأتراحها .. "

-28-

تركهما حمزة بعد يومين استرد فيهما قوته وأعصابه . أخذ طريقـه إلى الإسكندرية سيراً على قدميه حتى " الحمام " . رفض أن يركب أي قطـار جنود . المسافة أربعون كيلو متر يا حمزة حتى الحمام . " أمشيها ولكـني لا أركب أبداً مع الجنود " وكان معروفاً أن حمزة سيركب من الحمـام قطـار الركاب العادي .

أخذ حمزة طريقه بين القضيبين الممتدين إلى الإسكندرية . هـذه هـي الطريقة الوحيدة للوصول بسلام . وحين غاب حمزة في الفضاء فكر كل من مجد الدين ودميان في هذه الدنيا الواسعة التي تحـدث فيهـا كـل هـذه الحكايات . كيف حقاً تتحمل كل هذه القصص المؤلمة ؟ وظلا لعدة أيام بعد ذلك لا يتحدثان إلا همساً ، وقليلاً حتى أقبل الصافي النعيم ذات مسـاء ، وأعلنهما بأنه لن يراهما بعد اليوم .كان قد تغيب طويلاً عنهما من قبـل .

فال إن قائداً جديداً اسمه مونتجمري تولى قيادة الجيش الثامن وهـو قائـد شديد في التعامل مع الجنود وضع برنامجاً قاسياً للتدريب . وقال يبـدو أن حرباً جديدة ستنشب قريباً بين روميل ومونتي . هكذا صار اسم الضـابط الجديد بين الجنود .

لقد أحضر لهما الصافي النعيم عدداً كبيراً من علب الجبن والبولوبيف والشاي والسجائر ، ونقل لهما تحيات الجنود الهنود الشباب وحدثهما عـن مصرع بهادور شاند ، ثم ابتسم وهو ينظر إلى دميان ويقول : إن بهادور كان مصمماً على قتلك بعد العودة ثم قال " يبدو أن الألمان يحبونك يا دميان " . وكان دميان قد أحس ببعض الضيق حقاً لموت بهادور شـاند . يعـرف أن الذي يحميه هو ماري جرجس نفسه لكنه تمنى لو شمله بالحماية بطريقة أخرى هذه المرة ، أن يعود بهادور إلى الهند مثلاً . إلا أنه بسرعة اعتـذر لمـارى جرجس ووضع على صدره علامة الصليب وقال هى الحرب تأكل الجنود .

كان تشرشل قد زار مصر ، والتقى مع الجنرال ألكسـاندر القائـد الجديد للشرق الأوسط الذي حل محل أوكنلك ، وزار معه الجيش الثـامن بالعلمين بعد أن التقيا بالجنرال مونتجمري في مقر قيادته ببرج العرب . لقد شاهد تشرشل بنفسه التغير الذي أحدثه مونتي في الجنود .. ورأى عدداً من الجنود ينزلون إلى البحر في الصباح بسراويل داخلية فذرة فضايقه ذلـك ، وتألم للجنود ، وعاد مع ألكساندر إلى القاهرة وزار كهوف طـرة ، تلـك المغارات التي حدثت في الجبال بأثر اقتطاع أحجار الأهرام قـديماً ، والـتى صارت الآن كهوفا سرية لإصلاح وإخفاء المعدات العسكرية . لقـد تمـنى تشرشل لو كان الفراعنة قد اقتطعوا أحجاراً أكثر . لو حـدث لكثـرت

المستودعات السرية للمعدات الإنجليزية ، واتخذ مع ألكساندر الترتيبـات الدفاعية عن القاهرة إذا سقطت الإسكندرية ، وعلى رأس هذه الترتيبـات الخطط النائية لإغراق الدلتا . وعرفلة تقدم الألمان بفتح القناطر والسدود . ثم أمر بتوزيع البنادق على الموظفين البريطانيين في كـل الـبلاد وعـاد إلى إنجلترا .

لقد وعده ألكساندر أن يرسل إليه بكلمة (زيب) ، إذ اندلع القتال وزيب هى ماركة ملابس تشرشل .

كان معروفاً أن روميل لن يتوقف عند العلمين ، وكان الاستعداد يتم لاستقباله . لابد أن تكون العلمين آخر نقطة يصل إليها روميل وأول نقطة ينسحب منها إلى الغرب ، ولا يجب أن يأتي أبداً اليوم الذي تنفذ فيه خطط إنقاذ القاهرة ! وطبيعة المكان كان لا تترك لروميل فرصة المناورة ، فلـيس أمامه إلا طريق واحد هو اجتياز نطاق الألغام بالمدرعات في الطرف الجنوبي من الجبهة ليتجه بعد ذلك شمالاً لتطويق مؤخرة القوات البريطانية وجناحها من الأيمن . وحتى يفعل روميل ذلك كان عليه أن تحتل روابي علم حلفـا ، لذلك وزع مونتي فوانه بحيث يصبح سقوط هذه الروابي مستحيلاً .

استعدادات للهجوم واستعدادات للدفاع حول مجد الـدين ودميـان اللذين يزدادان وحشة ، وذات ظهيرة لمح دميان باب غرفـة التليغـراف مفتوحاً فدخلها . الحقيقة أن الباب مفتوح منذ ترك عامر الغرفة لكن هكذا رآه دميان الآن كما لو كان لأول مرة . ليس هناك شيء في الغرفـة غـير

دولاب خشبي قديم مفتوح به دفاتر صغيرة ، وكبيرة صفراء متربة وأوراق مبعثرة على الأرفف والأرض والمنضدة التى فوقها آلة الإرسال والاستقبال متربة كالحة وكذلك الآلة التى فجأة راحت تدق ..تك تك تك .. تـك .. تك ..تك تكتكتكتك .

كان مجد الدين قريباً على الرصيف .؟ بسرعة ناداه دميان . شاهد مجد الدين وسمع آخر دفات الجهاز . وحط صمت .

- من يا ترى الذي يرسل هذه البرقية ؟

تساءل دميان بينما كان مجد الدين شارداً عنه بذهنه وهما في طريقهمـا إلى البيت . صارت الأيام تمضى في صمت . صمت اتسع ليشـمل الصـحراء كلها . وجوم ثقيل منذر استقر حتى بالهواء .طوابير المدرعات التي تتحـرك طول النهار لم تفلح في طرد الإحساس بالصمت ، كذلك لم تفلـح حركـة الطائرات التي تأتي وتعود بسرعة إلى البحر والشرق . الطائرات الإنجليزيـة والأمريكية التي يبدو أنها تتدرب على المعركة القادمة ، وازدادت قطـارات الأسلحة يقودها الهنود وصارت تعود فارغة بلا جنـود ، لا مرضـى ولا أفواج للراحة . يتحرك الجنود حول قطارات الدبابات والمدافع والـذخائر دون حديث ، ويمضون بها جميعاً إلى الصحراء الواسعة التي يبدو أنها تبتلـع كل شيء . الصمت هو الإحساس الذي تلبس مجد الدين ودميان وشمل كل شيء متحرك حولهما وساكن . حتى الشمس بدأت تبتعد فيتسـع الكـون ليساهم في ازدياد الصمت والوحشية ، ورأي مجد الدين ساعة الحـائط في غرفة ناظر المحطة وقد علاها التراب وتوقفت ، وإنه هو نفسه انقطع عـن

الأذان في الفضاء .. كل شيء صار قديماً هنا ينذر بالنهاية . لكنه حـتى لا تختلط عليه المواقيت ، غرس عصا بالقرب من كشك المزلفان يعرف منـها موعد الظهر إذا اختفى ظلها ، وموعد العصر إذا ظل الظل شرفاً ، والمغرب إذا طال وتضاعف طوله ، أما موعد صلاة العشاء فلم يكن في حاجة لشيء يرشده إليه فهو يصلى عادة في وقت متأخر من الليل ... وبالليل ، والوقت يقترب من الفجر ، وليل الصحراء قد نصب خيمته على الدنيا ليس فيه غير صوت حركة حشرات مبهمة ، تساءل دميان الذي أدرك أنه يخفي من زمان رغبته في عدم البقاء هنا :

- ماذا يحدث يا شيخ مجد ؟

كان يقصد حركة القطارات التي زادت تحمل السلاك ، وحركة الطـائرات بالنهار والليل في بعض الأحيان . كان مجد الدين يقرأ القرآن فارتفع صوته (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص مـن الأمـوال والأنفـس والثمرات وبشر الصابرين (155) الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنـا لله وإنا إليه راجعون)* وتوقف ليرد على دميان :

- لابد أن الحرب واقعة يا دميان .

أحس دميان بشيء من الضيق في كلام مجد الدين . ضيق لم يلحظه من قبل . هل هذه أول مرة يدرك فيها مجد الدين أن هناك في الدنيا حربـاً ؟ وقـال دميان :

- لو قلت الحرب ونحن هنا سنموت يا شيخ مجد .

أجاب مجد الدين :

- (وإذا سألك عبادي عنى فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ...)

أطرق دميان واستمر مجد الدين :

- (قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ماشاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستئخرون ساعة ولا يستقدمون ...)

إنك تخيفني الليلة يا شيخ مجد ، أنا أرى كل ليلة ماري جـرجس يخلـص نفسه من النار وأنت تخيفني أيضاً الآن . ثم لماذا لا تكف عـن النظـر إلى وجهى كل حين ؟ . لقد رأيته فى المرآة أكثر من مرة فوجدته أصفر شاحباً هلى سأموت هنا ؟ لابد أن نهرب . إذا لم تهرب معي في الصباح سـأهرب أنا . لقد عدت من أجلك لكنك تخذلني . هل تعرف ماذا كانـت تعـنى دقات التلغراف التي سمعناها . رسالة أن نغادر المكان . لا يمكن أن تكـون غير ذلك . إذا لم تكن من المصلحة فهي من عند ربنا . هل عندك كـلام ياشيخ مجد .. لماذ لا ترد على ؟

وجاء الرد من بعيد .. أصوات انفجارات جبارة متتالية كأنها السموات تقع فوق الأرض وضوء يكشف السماء عريض أحمر خاطف . الله . الله . مـا هذا يا شيخ مجد ؟ وأصوات صراخ طويل رفيع حاد ، صـفير المقـذوفات الطائرة من الأرض والساقطة من السماء . الأرض ترتفع وتنخفض بمجـد الدين ودميان فينهضان في ذعر يبتعدان عن البيت ينظران إلى النـار الـتي تشعل الليل وديب الأرض تحت أقدامهما لا ينقطع .

كان روميل قد انتهى لتوه من كتابة رسالة إلى زوجته ... " عزيـزتي لـو . لدينا بعض أوجه العجز الشديد الخطورة لكني أقدمت على المخـاطرة .إذا

نجحت ضربتنا فسوف تقرر بعض الشيء مصير الحرب كلـها " . وكـان الجنرال ألكساندر قد أرسل إلى تشرشل من القاهرة بكلمة (زيب) وكان مونتى مطمئناً إلى خطته الدفاعية . كانت هناك أربعمائة دبابة ألمانية نصـفها من ذات المدفع الشيطاني عيار خمسة وسبعين ملليمترا ، تنتظرها سـبعمائة دبابة بريطانية وأمريكية . لقد جرت العادة أن يهاجم روميل بقوات صغيرة فوات العدو الكبيرة بسرعة ويطوقها ثم يعمل على تصـفيتها .. وبـدأت الطائرات الألمانية غاراتها على مواقع الجنود المتقدمة والخلفية في وقت واحد لإرباكها وإحداث الفوضي بينها .

- الضرب بعيد يا دميان لا تخف .

لكن دميان كان يتلو رقي وتعاويذ يسمع مجد الـدين فيهـا كيرياليسـون وجورجيوس ويسوع وبؤانس وبوساب وكيرلس والعذراء ويتراجع دميـان إلى البيت وهو ينتفض ويتبعه مجد الدين . ما كاد يقتربان حتى انهار دميان مستنداً على الجدار وتمدد مجد الدين جواره وأشعل لنفسه سيجارة وأخرى لدميان متظاهراً بالتماسك .

- الدنيا نور وسيجارة لن يهتم بها الألمان وسط هذا الضرب .

وراحا يدخنان في صمت .لاحظ مجد الدين أنه لم يخلع ملابـس العمـل ، وكذلك دميان ، بل إن في قدمى كل منهما حذاءه . الحقيقة أنهمـا كانـا عائدين من عند المحطة منذ قليل حيث وصل قطار ذخائر قبل الضرب .

كانت كتائب الرويال تانكس والرويال سكوتش تدافع عن هضـبة علـى حلفا أمام الهجوم الألماني المدرع ، وكانت الطائرات الألمانية قـد انقطعـت

لكنها مع اقتراب النهار عادت أكثر ، وبشكل مخيف وراحت تضرب مـن جديد في كل مكان . ومن الشمال والشرق جاءت الطـائرات البريطانيـة والأمريكية ودارت في الجو معركة مخيفة وبسرعة انتهت وعادت طـائرات الحلفاء مستعرضة في الفضاء إلى موافعها في الإسكندرية والدلتا وإلى حاملة الطائرات الأمريكية في المتوسط ، بينما عادت الطائرات الألمانية والإيطاليـة إلى مطاراتها في الصحراء لتعود بعد قليل بكثافة أكثر وتتوغـل في مـؤخرة الجيش الثامن القريبة للغاية من محطة السكة الحديد ومن البيوت المهجـورة ومن مجد الدين ودميان . لقد حملهما الهواء بعيداً عن مكانهمـا ليصـطدما بالأرض صدمة قوية . يالها من قذيفة تلك التي سقطت من السماء فخلخلت الهواء حولهما و وأطارتهما . لقد رأى مجد الدين وجه زهرة الذي كـادت تضيع منه ملامحه ، وسمع صرختها في الفضاء لكنه هتف بصوت متحشرج (دميان) فلم يسمع جواباً . كان دميان بعيداً يتلفت باحثاً عنه . رآه مجـد الدين فاقترب منه .

- هل أنت بخير ؟

- لا .

- أصبت ؟

- لا.

وفهم مجد الدين ماذا يقصد دميان فسكت .وقال دميان يائساً ..

- هل مازل لوجودنا هنا أي قيمة ؟

وسقطت قذيفة أخرى بالقرب منهما كانت أصغر من السـابقة فلـم تخلخل الهواء لكن مجد الدين هتف :

- هيا يا دميان .

وجدا نفسيهما يسرعان جوار المحطة بين قضيبي السكة الحديـد في اتجـاه الشرق . من خلفهما يسمعان صوت القنابل الساقطة والطائرات فتـزداد فوتهما . وحينما ابتعدا كثيراً عن المحطة حدث انفجار جبار اهتز له الهواء ، وفقدا اتزانهما وسقطا فوق الفلنكات وأضاء الكـون باللـهب الجحيمـي وأدركا أنها النهاية وتذكر دميان رؤياه الكابوسية واستسلم للموت وتافت نفس مجد الدين إلى شوقى الذى لم يره بعد ، لكنهما شاهدا اللهب بعيـدا واستقرت عيونهما على صفحة السماء الحمراء فأدركا أنه عند المحطة . لقد انتظمت الرؤية الآن واستعادا اتزانهما وشاهدا القطار الواقف عند المحطـة وهو يتحول بكل عرباته إلى نهر من لهيب لاتنزال الطائرات الألمانيـة تلقـي حممها فيه ، وشاهدا الكشكين الخشبيين ، حجرة الناظر وحجرة التلغراف ، وهما يطيران مشتعلين في الفضاء ويصيران هباء . كل شيء خلفهما يصـير هباء . يا أرحم الراحمين . ساعدنا يا حي يا قيوم يا يسوع ساعدينا يا عذرا يا رسول الله أدركنا وأغثنا فليجريا من جديد ..

ويجريان ويجريان و إحساس بأى جروح أو رضوض مـن أثـر السـقطة وباللنهار الجميل ، هذا النهر من اللبن الذي بدأ يشق الظلام ، ويتفجـر في قلبه بالضوء المغسول . هذا العالم الذي خلقه الله جميلاً لماذا يفسده الناس ،

والطائرات لا تنقطع قادمة فوقهما من الشرق والغرب تلـتحم في معـارك قصيرة ثم تختفي لتظهر من جديد الطائرات الألمانية تلقي قذائفها فوق كـل شيء حتى تبدأ معركة جوية جديدة وهما لا يكفان عـن الجـري والعـرق يتفصد من مسام الجسدين والنار تشتعل في الجلد والصدر والأقدام تكـاد تتخاذل لكن من يستطيع التوقف وسط كل هذه النيران . إنني أطـير يـا دميان ، ورآه جواره وسمعه وأنا أطير يا مجد الدين .. الله .. الله . إنـني لا أجري بل أطير يا دميان أطير وأنا يا مجد الدين . أي طائر هذا الذي يحملنا على جناحه الآن ، إنه جبريل ولا أحد غيره هو الذي أتى بالبشارة لرسول الله ، وهو الذي جاء يخبر مريم البتول بحملها الطاهر ، وانقطعت أنفاسـهما فلم تعد تسمع وصارا شبه مخدرين نائمين فوق موج حان ، الطائر يسـبح بهما في الفضاء في اطمئنان ودعة ويجف عرقهما ويرتويان من ماء سـحري وتسرى في عروقهما البهجة . هل يأخذهما جبريل إلى الإسكندرية أم إلى الله في السموات العلى ؟ كلاهما اطمأن إلى نهاية آمنة ...

المسافة بين العلمين حتى بلدة الحمام أربعون كيلو مترا تلبستهما فيها قـوة إلهية والضرب خلفهما إذا نقطع يعود فالمعركة لاحتلال روابي علم حلفـا لم تننه وروميل يعرف أن مركز قيادة مونتي في " بـرج العـرب " وحولـه احتياطي استراتيجي كبير من المركبات والمعدات يجب مهاجمتها أيضاً .

لقد صعد النهار وتقدم وعبرتهما الشمس إلى الجبهة الألمانية وهما لا يشعران بغير أنهما محمولان على جناحي جبريل حتى لقد ناما وهما يجريان !! ولـو لم

يكن هناك في الحمام قطار واقف لاستمرا في الجري حـتى الإسـكندرية . كيف حدث حقاً أنهما لم يشعرا بجوع أو عطش . لقد هدأ الضرب مع أول الظلام الجديد ، في اليوم التالي ، وكان القطار المدني يقف خاليـا بالمحطـة الخالية بدورها من البشر . كانت العربة الأخيرة هي الأولى بالنسبة إليهما . دخلا العربة وعلى أقرب مقعد ألقى كل منهما بنفسه وعـادت أصـوات المدافع تزداد وتهيأ القطار للرحيل بل ما كادا يتنفسان النفس الطويل الذي يحدث بعد أن يبلغ كل أمرئ غايته ، نفس الطمأنينة ، حتى تحرك القطار . يا للفأل الحسن : نظر كلاهما للآخر راضياً بالحال وسقطا معاً في نوم عميق .

هل كانت لحظة أم ساعة أم دهرا تلك الدقائق التى استسلما فيها للنـوم ؟ لكنها كانت كافية للراحة كي تدب في جسديهما . لم يكن سكناً الإبغال في النوم وسط كل هذا الهدير للمدافع الذي انطلق مع المساء الجديد . وأحس دميان بالعطش فنهض يمشي بين العربات حتى وجد صنبور ميـاه في أحـد الأركان ففتحه لتنزل مياه صفراء صدئة لكنه شربها وعاد . لقد كان القطار خالياً تماماً ومظلماً إلا من ضوء البدر الذي يدخل عبر النوافذ المحطمة .

- لقد فزنا يا شيخ مجد ، الآن أدركت أن الكابوس الذي كنـت أري فيه جورجيوس وسط النيران كان من عمل الشيطان .

- الحمد لله على كل شيء يا دميان

وبدأ القطار يهتز وصوت الانفجارات يقترب والخوف ينفجر في عيونهمـا لكن سرعان ما استقام القطار وابتعدت أصـوات الانفجـارات وازدادت السرعة كثيراً .

- لابد أن السائق هندي .

- الهنود لا يقودون القطارات المدنية .

- لكنه يجري بجنون .

- ليته يسرع أكثر يا دميان . أين وجدت مياه الشرب ؟

- في العربة الخامسة .. مياه مخزونة لكني شربتها .

- سأذهب لأشرب وأعود لك ... انتظرني .

ابتسم دميان بدهشة .. أين يمكن أن يذهب ؟

أسرع مجد الدين ليشرب . لماذا يسرع ؟ إنه يهتز بقوة بين المقاعد الخالية والقطار يتأرجح ، ويصل إلى صنبور المياه ويفتحه ويحفن من مياهه الصفراء الصدئة ويشرب لكن صوت الانفجارات يقترب فيهتز القطار ويختل توازن مجد الدين فيسقط جالساً فوق المقعد القريب ويرتطم رأسه بظهر المقعد يكاد يتهشم . إنه لا يستطيع أيضاً الاحتفاظ بتوازنه جالساً . يقف فيميل القطار ميلاً عنيفاً إلى الجانبين فيرتطم بالمقاعد على الجهتين ويصرخ هاتفاً " دميان " ويرى من النوافذ المفتوحة القذائف المتوالية تسقط غير بعيدة عن القطار تثير الغبار وتطير الأحجار التى ترتطم بجانبي القطار ويقع مسدداً بين صفي المقاعد .. الطرقة التي بين صفي المقاعد ضيقة فليظل ممدداً بها ويمسك بيديه في حوامل المقاعد من أسفل فلا يؤذيه اهتزاز القطار ولا يتخبط في مقاعده . إن وضع المصلوب الجالس هذا أفضل وضع لمن كان مثله . وكان دميان قد اهتدى إلى الوضع نفسه لكن كانت اهتزازات عربته أكثر وأعنف فهي

الأخيرة ذيل القطار .. وفي الوقت الذي كان فيه دميان يقول أنت هـو الله الرحوم مخلص كل أحد الذي تجسد لأجل خلاصنا الذي أضاء لنـا نحـن الخطاة الذي صام عنا أربعين يوماً وأربعين ليلة الذي أنقذنا من الموت .. في هذا الوقت كان مجد الدين يتمتم (وأن ليس للإنسان إلا ما سـعى (39) وأن سعيه سوف يرى (40) ثم يجزاه الجـزاء الأوفى (41) وأن إلى ربـك المنتهى (42) وأنه هو أضحك وأبكى (43) وأنه هو أمات وأحيـا (44) وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى (45) من نطفة إذا تمنى (46) وأن عليه النشأة الأخرى) . ولايزال القطار يميل الميل العنيف . ويهتـز ، وتقعقـع عجلاته وتتوالي القذائف التي تسقط حتى الآن غير بعيدة ، (هذا نذير مـن النذر الأولى (56) أزفت الآزفة (57) ليس لها من دون الله كاشفة).

ويدخل ضوء القنابل من النوافذ يشعل فضاء العربة التي كان يتسلل إليهـا ضوء القمر الضعيف ويهتز القطار بعنف ويميل أكثر من كل مرة ويسـمع صوت ارتطام وصوت شيء ثقيل يجر جراً على الأرض ، ويحتك بالقضـبان والفلنكات والقطار يقفز إلى أعلى أكثر من مرة وإلى اليمين وإلى الشمال . إنها إحدى عربات القطار قد سقطت فوقها قذيفة هى التي تقاوم الانفصـال وهى التي يجرها القطار علـى الأرض . دميـان . دميـان . ولم يسـتطع الوقوف . القطار يمكن أن ينقلب إذا لم تنفصل العربة أو يتوقف .. إنـه لا يتوقف والعربة لا تنفصل .

هل استغرق ذلك وقتاً طويلاً ؟ هى أجزاء من دقيقة لكنها طالت مثل عمر كامل . كأنما حياة كاملة قد مرت على مجد الدين . لقد استقام القطار أخيراً

وانتهت الضجة . صار كل شيء ناعماً وهادئاً بعد القعقعات والضـربات العنيفة .

أنتهت الحشرجة وصعد الغريق فوق الماء . حتى أضواء القنابل ابتعدت وعاد ضوء القمر يدخل إلى العربة والهواء الذي كان يصفعه رق . لقـد اتـزن القطار وانتظم صوت عجلاته ويستطيع مجد الدين الآن أن يقف في اطمئنان ويستطيع كذلك دميان . دميان ! إذا كانت العربة الأخيرة هل التي أصيب فقد ضاع دميان ، إذا كانت عربة قبلها فقد ضاع أيضاً . وبسرعة غـادر مجد الدين العربة غير مبال بأي شيء يمكن أن يصيبه ، ثم غادر العربة التالية لها ثم الثالثة فالرابعة ولم يبد أن هناك العربة الأخيرة . كتلة من اللهب الأحمر وسط الليل الأسود والصمت الذي نزل على الدنيا الآن . ليس ثمة شيء له وجود غير النار .دميان . صرخ . لكنه رآه يرتفع وسط النار ذهبي الجسد . ذهبى الوجه . يمسك في يده الذهبية رمحاً طويلاً من ذهب ويقود فرساً مـن ذهب أيضاً ويغرز الرمح في رؤوس التنين التي تفح النار ويسـمع صـوت صهيل الحصان الذهبي . دميان وينغرز الرمح في رأس التنين فينفثئ الدم ناراً متجددة فيصوب للرأس الآخر لتجدد النيران . الفارس محاصر لا يبالى يشد رمحه من كل رأس بعد الآخر ويعود للضرب وتصعد النار تحيط بوجه دميان الشاحب وصهيل الجواد لا ينقطع في الفضاء ، دميان . ويراه وقد ارتفعت به الفرس يسبح نحو السماوات العلى ، تطارده النار حتى ترتفع خلفه تكاد تلمس قدميه وينقطع الصهيل ويظل دميان يمضى في الأعـالى مشعشـعاً في الكون الفسيح . دميان . لقد تضاءلت الشعلة الذهبيـة وصـارت نقطـة تلاشت وساد الظلام . لقد ابتعد القطار كثيراً وهو لايدرى فتراجع ليجلس

على أقرب مقعد والنار قد احتلت صدره والعرق يتفصد من جلده ويتمدد على المقعد خالعاً حذاءه مستنداً بظهره إلى القطار مدركاً لأول مـرة أنـه يتيم . هل كان لابد أن يأتى إلى الإسكندرية ويقابل دميـان ؟ دميـان .. دميان . وبدأ يرتعش ، برد الصحراء يأتي مبكراً وإلا لماذا يرتعش . لكـن العرق لا يزال يتفصد إنها الحمى يا دميان . دميان . دميان (الـرحمن (1) علم القرآن (2) خلق الإنسان 3) علمه البيـان (4) الشـمس و القمـر بحسبان (5) والنجم والشجر يسجدان(6)) " دميان . دميان" (والسـماء رفعها ووضع الميزان(7) ألا تطغوا الميزان) " دميان . دميان " ويرتفع صوته فجأة ثم يتلاشي ، ويرتعش ويقول في نفسه (فبأي آلاء ربكما تكذبان(25) كل من عليها فان(26) ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام(27) فبـأي آلاء ربكما تكذبان) " دميان . دميان " (يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن (29) فبأي آلاء ربكما تكذبان) " دميان . دميـان " (سنفرغ لكم أيها الثقلان (31) فبأي آلاء ربكمـا تكـذبان) وتسـقط دموعه غريزة " دميان دميان " والقطار الذي اقترب مـن الإسـكندرية لم يدخلها ، فتح له الطريق ليمضي إلى القاهرة فالغارات الشديدة لا تنقطـع فوق المدينة والمعارك لم تنته حول علم حلفا . لقد تجاوز القطار بلدة كفـر الدوار تاركاً الإسكندرية خلفه . لقد أدرك مجد الدين ذلك الظلام الـذي يلف القري واختلاف نسمة وأبراج الحمام البيضاء فتنفس غير مصـدق أن الله هو الذي يحمله إلى القرية الآن حملاً . هل كان لابد من فقد دميان ليعود إلى القرية .. " دميان . دميان " (فإذا انشـقت السـماء فكانـت وردة كالدهان (37) فبأي آلاء ربكما تكذبان) (ولمن خاف مقام ربه جنتـان)

دميان . دميان (فبأي آلا ربكما تكذبان (47) ذواتا أفنـان (48) فبـأي آلاء ربكما تكذبان) " دميان دميان (فيهما عينان تجريـان) ولا تـزال دموعه تنشال (تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) " دميان دميـان " لم يمت ولم يحرق بل رفعه الله إلى السماء ولقد رآه وإلا من ذلك الذي كـان يصعد فوق الجواد الذهبي مبتعداً عن نار التنين في الفضاء . دميان دميـان . وراح يعيد تلاوة السورة الجميلة التى لم يعد يتذكر من القرآن غيرهـا الآن واسم صاحبه حتى سحبه النوم سلطان الوجود .

أيقظه الهواء البارد الذي يدخل خفيفاً من النوافذ .. من النافذة رأي الظلام عميقاً في برزخ مستطيل فأدرك أنه إنما يعبر فوق النيل هذه الأضـواء هـى البيوت الصغيرة لمدينة كفر الزيات ، إنه لا يخطئ رائحة الهواء هنـا مهمـا ابتعد وطال ابتعاده ولا يخطئ رائحة الأشجار ، التي تمتد على الشاطئ جوار الفيللات والبيوت الصغيرة . لقد اقترب كثيراً من بلدته وعليه أن ينـهض ويركز عينيه جيداً حتى إذا أدرك الرصيف قفز . أجل لـيس أمامـه غـير ذلك . القطار لم يقف في محطة كفر الزيات نفسها فهل سيقف عند القـرى الصغيرة . لابد أن مع السائق جهازاً يتلقى منه الأوامر بالمضي بسـرعة إلى القاهرة وبلا توقف . لقد ابتعد عن الغارات بما يكفي ولا يـزال السـائق مسرعاً . وقف بقرب باب العربة المفتوحة ... الهواء البارد يجفف عرقـه . وأدرك أنه يقف حافياً لقد ترك حذاءه ، بجوار المقعد . لم يفكر فى ارتـداء الحذاء . لقد غادر القرية حافياً وها هو الرصيف الأبيض يقتـرب بسـرعة

(تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) ومد قدمه ينزل بهدوء كشـخص مخدر ... طار في الهواء

.....

.....

آه .. خرجت عميقة وبطيئة واهنة .

كان ناظر المحطة يتأخر كثيراً بالليل بسبب عمليات التهجير التي لا تنقطـع من الإسكندرية . لقد سمع صوت ارتطام جسم ثقيل بـالأرض . ارتطـام عريض مكتوم . بل لقد رأى شيئاً يطير فوق الرصيف ليسقط على الأرض الترابية بعده بقليل . إنه ليس صوت انفجار قنبلة على أى حال . بل هـو شبح ذلك الذي رآه يطير .

- آه ..

ترددت الآهة .. شجع الصوت الإنساني ناظر المحطة علـى الاقتـراب وإن كان ببطء . كانت أصوات الجنادب وصريرها ، ونقيق الضفاع لا ينقطـع من الترعة المجاورة للسكة الحديد ، وتقدم الناظر وفي يديـه فنـديل أزرق الضوء ويشده إلى الخلف كل ميراث الريف من الخـوف مـن الأشـباح والعفاريت . لكن العينين الخضراوين لمعتا في الظـلام .يـا الله يـا أرحـم الراحمين .. هذا ابن آدم حقيقي . اقترب أكثر وقرب القنـديل إلى وجـه الإنسي وهتف :

- الشيخ مجد الدين ؟!

كان الناظر ولا يزال هو " عبد الحميد " زميله في حفظ القرآن منـذ ربع قرن ، والذي وقف يودعه يوم خروجه . سمع مجد الدين صوته فأغمض عينيه في ارتياح ..أيقن أنه لن يموت ..

.....

.....

" وقال لى :
أى عيش
لك في الدنيا
بعد ظهورى ؟ "

-29-

لم يفلح روميل في اختراق جبهة العلمين . لستة أيام يحاول ولايفلح . تكلف ثلاثة آلاف ضابط وجندى بين قتيل وجريح وأسـير ، وسـبعمائة مركبة مدرعة بينها خمسون دبابة . خسر الحلفاء أيضاً ألفاً وستمائة ضـابط وجندي بين قتيل وجريح وأسير وسبعين دبابة . كفل التفوق الجوي وقرب خطوط الإمداد النصر للحلفاء . وكانت هـذه أول خسـارة لروميـل في

الصحراء . الجنود في الجيش الثامن يدركون الآن أن روميل ليس أسـطورة هو قائد عسكرى يمكن أن ينجح أو يفشل .

استغل منتجمري الموقف ، واستمر في تـدريب الجنـود ، وإقامـة المناورات الجبارة بالصحراء من الإسكندرية حتى العلمين ، توقفت الغارات على الإسكندرية بعض الوقت . استمر الهلع في القنصـليات الأجنبيـة ، ومازال اليهود يتدفقون على القنصلية البريطانية لاستخراج تأشيرات دخول لفلسطين وجنوب أفريقيا ... ومجد الدين الـذي نقلـه نـاظر المحطـة إلى مستشفي طنطاً في أول سيارة تعبر الطريـق لا يـزال في الجـبس . لقـد تكسرت ساقاه وعظامه وعدد من ضلوعه وعاش بمعجـزة ..نقـل نـاظر المحكمة الخبر إلى القرية فوارته زهرة وأخواته وأزواجهن وأمه الـتي قلـت أيامها في الدنيا . كان عليه أن يمضي في الجبس شهوراً ثلاثة لا يبرح فيهـا المستشفى ، وخلالها تم القبض على حمكت فهمي في القاهرة والجاسوسـين هانز أبلر وساندي بتهمة التجسس لصالح الألمان ، ودخلت الجيوش الألمانية ضواحي ستالينجراد فوقعت مجازر بالسلاح الأبيض وأحـاطوا بـالجيوش . كان تصميمهم على إسقاطها كبيراً فهى مدينة الصناعة الحربية التى تحمـل اسم ستالين ، وكان تصميم السوفييت على الصمود كبيراً لأن المدينة تحمل اسم ستالين! وزحف الجنرال المسلم " تيموشنكو " إلى نهر الـدون محـاولاً قطع مواصلات الألمان واحتفلت البلاد في صمت بعيد ميلاد الملكة فريـدة الثاني والعشرين ولم ترتفع الزينات أو تشتعل الأضواء في الإسكندرية مسقط رأسها ، وكان مونتجمري مشغولاً بتكوين فيلق جديد هو الفيلق العاشـر ليكون في قوة الفيلق الأفريقي الألماني ، وتوالت الدبابات الأمريكية شيرمان

وجرانت والمدافع ذاتية الحركة عيار مائة وخمسة ملليمترات على الجبهة واستمرت الفاذفات البريطانية والأمريكية في تعقب امدادات الجيش الألماني في البحر والبر فاشتد ضغط الدم على روميل وآلام الكبد فسافر إلى ألمانيا للعلاج وحل محله الجنرال شتومي القادم من الجبهة الروسية وكان شهر رمضان قد بدأ فازدادات أحزان مجد الدين الرافد بلا فدرة ، إن أسراته وأهله حوله الآن حقاً لكنه لا ينسى رمضان الماضي ، وخلاء الصحراء وخشوع غروبها ، ووحدته مع دميان عند الإفطار . دميان . دميان . كيف حقاً ستمضي الحياة بدونه لقد عرف إن أخواته بعن أرضه لأنفسهن في غيابه ولم يعلق ، وارسل إليه العمدة شيخ البلد يزروه ويعلنه أن العمدة سيزوره قريباً ويعتذر عن كل ما مضي ولم يعلق . لقد اعتبر كل ما مضى من قضاء الله الذي لا راد لقضائه .

كان شتومي أكبر من روميل بست سنوات ، ومصاباً مثله بضغط الدم العالي الذي يصيب القادة عادة ، وكانت الأهمية الاستراتيجية لمصر كبيرة لعمل كماشة كبرى تنطلق منها القوات الألمانية فى حالة احتلالها للتقدم شرقاً لمقابلة القوات القادمة من القوقاز الروسي . وكان هتلر قد وعد روميل من قبل بالدبابات التايجر الحديثة المخيفة والمدفع الهاون متعدد المواسير لكنه لم يف بوعده ، وأحس روميل بالخذلان بعد فشله في علم حلفا وقرر ألا يهاجم مرة ثانية ، وأن يلجأ إلى الحرب الدفاعية لأول مرة منذ تولى القيادة في الصحراء ، فأقام حقول الألغام الكثيفة بينه وبين الجيش الثامن ، حقول الشيطان الجبارة .

كان الضغط شديداً على تشرشل ليفتح الجبهة الثانيـة ، وإذ اقتنـع ستالين وروزفلت بأن تكون هذه الجبهة في الصحراء الأفريقية كان عليه أن يبدأ .

كانت الخطة الإنجليزية العادية أن يتم تدمير مدرعات الألمان ثم يـتم التعامل مع مشاته لكن مونتجمري افترح العكس . كان يشعر بثقة أكبر في المشاة وبصفة خاصة الأستراليين والنيوزيلانديين ، وكـان ينتظـر منـهم بطولات كبيرة كذلك كانت فرقة الهايلاند الحادية والخمسون الـتي أعيـد تشكيلها حديثاً بديلاً عن فرقة الهايلاند الأولى التي تبددت في فرنسان عام 1940 . وكانت الأخيرة حريصة على الانتقام .

صار على الجيش الثامن التقدم وسط نصف مليون لغم ألماني . احتاج ذلك روحاً معنوية جديدة للجنود جعلها مونتجمري شـغله في الشـهرين اللذين فصلا بين معركة علم حلفا التي انتهت والعلمين التي على الأبواب .

كانت هناك مائتان وثلاثون ألف من الجنود الحلفاء يقابلـهم سـبعة وسبعون ألفا من جنود المحور . ألف وأربعمائة دبابة للحلفاء بينما أربعمائـة طراز باتون وشيرمان وجرانت الأمريكية يقابلها ستمائة دبابة ألمانية . ألـف وخمسمائة مدفع مضاد للطائرات للحلفاء يقابلها ألف مـدفع للمحـور ، وتسعمائة طائرة للحلفاء يقابلها أربعمائة طائرة للمحور ، وأهم من ذلـك كله خطوط إمداد قصيرة للحلفاء ، مائة كيلو متر حـتى الإسـكندرية ، تقابلها خطوط إمداد طويلة المحور ، ألف كيلو متر حتى طبرق .

كانت الفناصل الأجنبية قد انتهت من حرق أوراقها في الإسكندرية . وخفت حدة الهجرة من المدينة إذ لم يتبق فيها غير القليلين من أهلها الأصليين أو الهاربين إليها من بلادهم من قبل . أجل . يمكن للإنسان أن يلجأ إلى النار في بعض الأحيان إذا كانت هناك فرصة للنجاة من الموت! .

كان شهر رمضان قد انتهى ، وأيام العيد بعده ، وفي منتصف شوال وليلة الرابع والعشرين من أكتوبر ، والقمر بدر ، والنسمة منعشة ، كان كل شيء ينبئ بالانفجار . ليس من المعقول أن تشهد الصحراء ليلة بهذا الجلال في زمن ملىء بالبغضاء والجنون . في تمام التاسعة وأربعين دقيقة انطلقت غلالة من القذائف والحمم من ألف مدفع في وافت واحد على العدو البعيد وحقول الألغام التي أمامه .. في الوقت نفسه أقبلت الطائرات من الإسكندرية والدلتا تلقى بالقنابل الهائلة على دفاعات المحور الحصينة ، وتقدم الفيلق الثلاثون والفيلق الثالث عشر وخلفهما فرقتان مدرعتان من الفيلق العاشر الجبار . الجنود يتقدمون في حالة هياج هيستيري بأثر صوت القذائف ، التي تسقط وسط حقول الألغام فتصعد النيران الوامضة السريعة تخطف الأبصار ، وتتراقص وسط الأرض الحرام ،وميض قادم من السماء ووميض صاعد من الأرض ، وميض قادم من الشرق ، ووميض قادم من الغرب ، ومهرجان من نيران شيطانية الجمال تتجاوز حدود الخيال .

بعد ثلث ساعة ، في العاشرة تماماً ، حل موعد نوم مونتجمري فدخل إلى مكمنه مطمئناً ونام بينما ظل العالم كله يقظاً ينتظر المعركة الفاصلة ،

ووصل صوت المدافع إلى الإسكندرية ، ورأى الناس حركة الطيران فوقها ، فارتعدت القاهرة وسهرت سائر البلاد .

تقدم المشاة وسط الغبار والتراب والنـار بسـراويلهم القصـيرة ، وفانلاتهم الصوفية واختفى برد الصحراء القارس وسـط الـنيران . علـى أكتاف المشاة البنادق ذات السناكي وفوق ظهورهم كل ثروتهم . بسكويت وبلوبيف معلب وسجائر . وبعضهم يحمل هاون خفيفاً أو رشاش البربـت ومعهم جميعاً قنابل يدوية وأكياس رمل فارغة سيملأونها حين يكسبون أرضاً جديدة يتمركزون فيها .

كان يقود كل موجة اقتحام ضابط ملاحة يحمل في يده بوصلة صغيرة ومعه لفة من شريط تفرد وراءه ليرشد من خلفه إلى طريق السـير وسـط الألغام والغبار . لقد مات كثير من ضباط الملاحة تلك الليلـة وفي الليـالي التالية ، أما جنود الفرقة الأسكتلندية العازفون على القرب وسـط هـذه البراكين ، فلقد خفتت أصواتهم تمزقهم الألغام ويخنقهم الغبار ، وتـدمرهم المدافع وتغطى على موسيقاهم أصوات القنابل وأزيز الطائرات . مجموعات المهندسين تتقدم الجميع وتكشف عن الألغام المضادة للـدبابات والأفـراد وتخسر كثيرا من رجالها ، الأستراليون على اليمين ، والنيوزيلانديون على اليسار ، ونافخو القرب المبثوثون بينهم يتساقطون والجنود يهذون بالضحك والبكاء . لقد تحول الهجوم إلى ما يشبه الفوضى . ذهل الجميع عن الجميع ، وفذائف المحور أطلقت بين الحلفاء ألسنة الجحيم ، وطلع النهار ولا صـوت لموسيقى القرب في أى مكان ... الفرقة الثلاثون مشاة كانت قد أحـدثت

ثغرة كبيرة في جبهة المحور .. والقائد شتومي مـات بنوبـة قلبيـة . لقـد استطاعت كتيبة استرالية أن تتقدم وسط الخطوط الألمانية وتهاجم سيارته !

استيقظ مونتجمري مبكراً صباح اليوم التالي . كانت طلعات الطيران لا تزال مستمرة . لقد أنجز سلاح الطيران بالليل ألف طلعة بالإضـافة إلى مائة وخمسين طلعة للطيران الأمريكي . لقد اختفى الطيران الألماني في السماء ، وصارت السيادة الجوية للحلفاء . لقد امتلأ مونتى بالسرور .

في اليوم الثالث للحرب وصل روميل إلى الجبهة قاطعاً رحلة علاجـه وفي اليوم الخامس للحرب قرر مونتي القيام بهجومه الرئيسي الـذي أسمـاه " الشحنة الزائدة " وكتب روميل لزوجته .

" مازالت هناك فرصة اليوم . ربما لا يزال في وسعنا الصمود . لكـن قد نخفق ويكون لهذا نتائج وخيمة على الحرب كلها .. "

قرر روميل الانسحاب إلى فوكة ستين ميلاً إلى الغرب . وأرجأ مونتى الشحنة الزائدة إلى الثاني من نوفمبر . وأرسل هتلر أوامره بالصمود لكن بلا فائدة . صار جيش المحور منهكاً وخرج الأمر من يد روميل . قـام اللـواء الهندي الخامس بشن هجوم خاطف بالسيارات على بعد خمسة أميال جنوب تل العقاقير ، أصبح بعده الطريق مفتوحاً أمام سلاح المدرعات لمطاردة المحور في الصحراء . الجنود الأطفال المبتهجون من فقراء الهند أتباع غاندي ونهرو ومحمد على جناح فوق مدرعاتهم يطاردون جيشا كـان بـالأمس وحشـا

أسطورياً والآن يتحلل وسط الصحراء الواسعة بعد حقول الألغـام الـتي أخترفوها ونفذوا منها نفاذ الشيطان من الجحيم .

بدأ روميل انسحابه السريع الكامل . لم تكن لديه وسائل نقل كافيـة فضلاً عن نقص الوقود ، دبت الفوضى بين المحور ولاذ الألمان بالسـيارات تاركين ست فرق إيطالية هائمة بالصحراء دون غذاء أو ماء وليس أمـامهم إلا الأسر . كان يمكن للحلفاء أن يحولوا الإنسحاب إلى مجزرة كبرى لكـن المطر تحالف مع روميل . نزل فجأة وبقوة فتعطل الحلفاء حتى ترك روميـل الحدود . الصحراء الآن مقبرة للدبابات العطوبة والمحترقة والمدافع المحطمـة والسيارات المشتعلة وجثث الجنود كاملة ومشوهة ، خـوذ فيهـا رؤوس عيونها مفتوحة . أحذية فيها أقدام . أذرع بلا أجساد . سـيقان . ملابـس محترقة . رائحة الشواء تملأ الصحراء ..وحومت الحدأ والنسور العجـوزة . لقد انتشرت رائحة الموت في الفضاء .وكتب روميل لزوجتـه .." جـارى سحقنا ببساطة ، قمت بمحالة لتخليص جانب من الجيش . هل ستنجح ؟ في الليل أستلقى مفتوح العينين مجهداً عقلى في سبيل إيجـاد مخـرج لجنـودي المساكين من هذه المحنة . إننا نواجه أياماً صعبة ، ومن أصعب ما يمكن أن يمر به إنسان . الموتى محظوظون فقد انتهى كل شيء بالنسبة لهم " .

أمر تشرشل أن تدق أجراس الكنائس في لندن لأول مرة منذ اندلاع الحرب ، فاشتعلت لندن وسائر المدن الإنجليزية بدفات النوافيس ، وخـرج الناس إلى الشوارع مبتهجين ، وابتهجت الإسكندرية فأضيئت شـوارعها

لأول مرة منذ ثلاث سنوات . أضيئت هكذا فجأة قبل أن ينتصف الليـل فصارت مثل كمهرمانة لا نهاية لحجمها ، لقد انمحى اللون الأزرق من فوق مصابيح أعمدة الإنارة العالية بالشوارع بمرور الوقت ، وتغيرت الأحـوال الجوية فصار للمدينة سقف من عنافيد الفوسفور لا أول لهـا ولا آخـر ، والذين كانوا في الشوارع صرخوا من الفرح وهللـوا والـذين كـانوا في البيوت خرجوا يتفرجون على اللؤلؤ والماس الـذي صـار يعلـو فضـاء الشوارع . هل كان من الممكن أن تظل الإسكندرية مظلمة أكثر من ذلك ؟ لقد خرج أصحاب المحلات المغلقة وفتحوها بالليل ، وخـرج الرجـال إلى المقاهي التي قررت السهر حتى الصباح وزغردت النساء من النوافذ وتركت الأطفال يهللون في الشوارع وسط البرد ، اتفق الجميع على السهر حـتى الصباح وصدحت الموسيقي في المونسينور واللوفر والوندسور وتبادل الجنود القبلات مع فتيات الأنسا في الشوارع وانفجـرت زجاجـات الويسـكى والشمبانيا في المواخير الراقية التي ارتفعت فيها الأصوات الضاحكة والروم والبراندى ، والعرق في المواخير الفقيرة التي عاد إليها الصخب في لحظة كأن الجميع ، العاهرات وطالبي المتعة ، كانوا يقفـون في الشـوارع المجـاورة ينتظرون أن تضيء المدينة ورمحت عربات الحنطور بالعشاق على الكورنيش وصوت الموج صار أكثر انتظاماً بسبب الريح الخفيفة ، والمدمرات والسفن الحربية أضاءت مصابيحها وراحت تطلق صواريخها الملونة فـوق المدينـة، وصعد الآلاف فوق أسطح المنازل وأطلقوا البلونات إلى السماء ، وانطلقت المدافع من الطوابي ، فأفزع صوتها الناس للحظة ، أدركوا بعدها أنها طلقات احتفال . فهتف رجل على الكورنيش وهو يرى السماء الملونة بالقـذائف

الفوسفورية والموج يرتفع عالياً : " يا أسكندرية هدى . هدى يا إسكندرية هدى علاكى ، يا إسكندرية هتلر ما جاكي ! " ، وسمعه آخر فرددها ومشت الكلمات في المدينة فصارت على كل لسان ثم صارت أغنية ولم يتوقف الناس عن الكلام يحكون لبعضهم قصصاً يعرفها الجميع عن أيام الحرب التي انتهت بالأمس فقط ، وقررت البلدية إقامة الزينات في كل مكان ، كما قررت شركة الترام أن تنقل الناس بالمجان لعدة أيام ، وأقيمت الأحتفالات في المدارس ، وبدأ المهاجرون يعودون بسرعة ومشت فرق الجيش والبوليس الموسيقية تصدح في الشوارع والميادين ، وصعدت الشمس بيضاء فوق الدنيا لينة ، شمس خريف حقيقية ، وأطلق سراح حميدو الذي كان قد اعتقل من جديد ولم يفده ما كتبه على الجدران وأقامت له أمه الزينات كالعادة ووقف يضحك وسط المهنئين السعداء ، وخلع غفارة طربوشه مقررا ألا يعود إليه ، وفوجئ أنه بعد أن فقد الزجاج فقد الفلتر وأنه كان يتنفس الهواء العادي . كيف حقاً لم يشعر بسقوط الفلتر الثقيل ؟ ضحك وأعاد لعربته جوانبها الخشبية وكتب عليها " عربة نشارة . الحمولة أربعة أطنان . النقل لعموم القطر " واستعد للعودة إلى عمله القديم ، وظهر الخواجه ديمترى أمام منزله ومعه عدد من العمال سرعان ما راحوا يزيلون ما تهدم استعداداً لإعادة بناء البيت من جديد ، وظهر جندى الجيش المرابط الذي كان يشترى اليوسفي من أم حميدو . فجأة وجدته يقف فوق رأسها يضحك ويهز رأسه ويقول :

يا بتاع اليوسفندى .

ما تقول لي العشرة بكام .

وضحكت أم حميدو ، وجلجلت ضحكتها وقالت وهى تهز كتفها :

العشرة اليوسفندى

يا حبيبي ببلاش

وزيادة

فرقص أمامها وأمسك بيديها وقال :

أنا عايز الزيادة يا أم حميدو بالحلال .

ولم ترد طامنت رأسها ، وأغمضت عينيها ، فأنكفأ عليهـا يحتضـنها ويقبلها وهى جالسة ففزعت ، ودفعته بعيداً وهى تنظر إلى الشارع .

وافقت هذه المرة على الزواج . هى غير مصدقة عودته وهـو غـير مصدق موافقتها وأدرك رشدي أن ألمانيا إذا هزمت مرة ستهزم كل مـرة ، فصار على يقين باقتراب انتهاء الحرب وسفره إلى باريس وأعلـن مكتـب الصحة بالإسكندرية أن عدد مواليد هذا الأسبوع مائة فقط بسبب النزوح الكبير الذي كان قد حدث للسكان ، وأجنبي واحد للسبب نفسه ، بينمـا كانت الوفيات خمسين من أبناء المدينة بسبب الشيخوخة والحمى بأنواعهـا والدوسنتاريا والتيتانوس والسعال الديكي ، وخمسة من الأجانـب بسـبب السكر ، ولم توجد حالة واحدة بسبب الانتحار . بل سجل مكتب الصحة لأول مرة خمس حالات وفاة بين السكندريين بسبب توقف القلـب أثنـاء الجماع! واقترب موعد مغادرة مجد الدين للمستشفى فطالـت نظرتـه إلى زهرة ، وطالت نظرتها إليه . لقد دبت فيه الروح من جديد وأشرق وجـه زهرة كوردة وفهم كلاهما مشاعر الآخر .

- لن أبقي في البلد .

- أعرف .

- ستأتين معي ؟

- طبعاً .

وسكتنا ، ورأته قد دخل فى وجوم .. ظل من الحـزن هـبط فـوق وجهه .

- لا أعرف كيف ستكون الإسكندرية دون دميان ، ولا كيـف سـتكون عندى القدرة على العودة إلى العمل دون أن يكون معى .

ومسح دمعه الذي ترقرق لكنها لم تشأ أن تثنيه عن العودة إلى المدينة التي ذهبت إليها من قبل مكرهة ، وتركتها مكرهة إذ خلفتـه وراءهـا .. ستذهب هذه المرة راضية مسرورة حتى لو لم تجد الناس ، كما كانوا بنفس الروح الصافية والمرح . المدينة البيضاء زرقاء البحر والسماء ستعيد الروح لأبنائها .

فالت :

- نسافر في الصباح الباكر هذه المرة .

- فال :

- طبعاً .. دخول المدينة بالليل أمر صعب .

وكانت نذر الشتاء قد أتت متعجلة ، فهطل مطر كثير غزير لم ينقطع بالليل والنهار ، واستمر لعدة أيام لكن لا أحداً لم يضج ، والحركة لم تنقطع،

والمحلات لم تغلق ، وأصوات الراديو لم تنخفض في المقاهي ، لقد بدا للجميع أن السماء تغسل المدينة . لقد كانت السحب عالية وبيضاء وتلك كانـت معجزة . فمن أين حقاً يأتي كل هذا المطر ، وعندما جـاءت موجـة مـن السحب السود واستقرت فوق المدينة نسى عامل محطة الكهرباء الرئيسـية في كرموز أن يقطع الكهرباء عن مصابيح الشوارع بالنهار فظلت المدينـة مضاءة بالنهار والليل . كان الناس قد أزالوا اللون الأزرق من فوق نوافـذ البيوت وواجهات المحلات ، وكشافات السيارات ، وترك الجميع النـور في البيوت والمحلات بالنهار والليل أيضاً . صارت الإسكندرية مدينة من فضـة تسرى فيها عروق من ذهب .

انتهـت

القاهـــرة 1996

ببليوجرافيا نقدية :

كتب تناولت الأعمال الروائية بالدراسة

- (الملامح الأسطورية في رواية المسـافات) السـهم والشـهاب دراسات في القصة والرواية . د. شاكر عبد الحميد – مطبوعـات مجلـة الرافعي – طنطا 1986 .

- (الإسكندرية في ثلاث روايات جديدة) الصياد واليمام لإبراهيم عبد المجيد – دراسات أدبية في القصة والرواية – حسين عيد – أصـوات أدبية – القاهرة 1989 .

- (الصياد واليمام) الرواية في الوطن العربي – د. على الراعـي – دار المستقبل العربي 1991 .

- (حول قصة الحرب) أدب معركة حرب 6 تشرين 1973 أحمد محمد عطية ، دار الجيل ، بيروت 1974 .

- (المسافات – ليلة العشق والدم) أسئلة الرواية ،جـدل الرؤيـة والتسجيل في الرواية المعاصرة ، محمدج الجزائري ، الموسوعة الصغيرة ، دار الشئون الثقافية ، بغداد ، 1989 .

- (البنية الدالة لبيت الياسمين) شفرات النص ، د. صلاح فضـل ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة 1990 .

*** من أهم المقالات والدراسات في الصحف والدوريات عن أعماله الروائية :**

- نظرة في رواية ليلة العشق والدم - د. على الراعـي – المصـور أغسطس 1983 .
- المسافات ورأس الثور – د. عبد الحميـد إبـراهيم – إبـداع – أغسطس 1985 .

- ليلة العشق والدم قراءة في رواية جديدة ، حسين عيد ، أدب ونقد 1984 .
- ليلة العشق والدم (رواية) – شوقي فهيم – إبداع يناير 1983 .
- نجمة جامعة في ليلة العشق والدم – محمود حنفي كساب - الطليعة الأدبية ، آذار 1984 .
- البناء الفني في رواية المسافات ومحاولات الهروب من المصير المحتوم – حسين عيد – إبداع – نوفمبر 1984 .
- الإسكندرية في ثلاث روايات جديدة (الصياد واليمام) حسين عيد – آفارق عربية . شباط 1985 .
- نحو واقعية أسطورية في الروايـة المصـرية المعاصـرة – د. سـيد البحراوي – إبداع – أبريل 1986 .
- الصيام واليمام – شمس الدين موسـي – القـاهرة 15 ديسـمبر 1986 .
- آه لو عاد اليمام – د. علـى الراعـي – المصـور – 11 إبريـل 1986 .
- الواقعية السحرية والجنس في رواية المسافات – عبد العزيز مـوافي الطليعة الأدبية – فبراير 1986 .
- بيت الياسمين – شوقي بدر يوسف – الإذاعة والتليفزيـون – 21 مارس 1987 .

- الوحيد الذي ربح من زيارة نيكسون (رواية بيت الياسمين لإبراهيم عبد المجيد) د. محمد برادة – اليوم السابع – 27 أبريل 1987 .
- بطل من هذا الزمان (قراءة لرواية بيت الياسمين) عايدة لطفي – القاهرة 15 أكتوبر 1988 .
- بيت الياسمين (رجل بلا صفات) محرر المجلة – الشاهد – يونيو 1988 .
- بيت الياسمين الواقع – الحداثة – د. حامد أبو أحمد – العربي 1989 .
- المسافات أيديولوجيا الثابت والمتغير – د. وليد منير – شئون أدبية .
- تأملات ساخرة في شخصية الموظف الانتهازي (قراءة في بيت الياسمين) محمد زهدى – الشرق الأوسط – 26 يوليو 1989 .
- إبراهيم عبد المجيد يعيد تراثنا في أدب السخرية – عبد المنعم تليمة – القبس الكويتية 13 يونيو 88 .
- بيت الياسمين بين الظل والنور – زينب منتصر – جريدة العرب بلندن – 19 يونيو 1989 .
- الملامح الأسطورية في رواية المسافات د. شاكر عبد الحميد – القاهرة مايو 1988 .
- البنية الدالة لبيت الياسمين د. صلاح فضل – المنار – سبتمبر 1989 .

- الصعود من بئر النسيان – د. شكرى عيـاد – الهـلال – يونيـو 1990 .
- الشكل الفني فى رواية بيت الياسمين – مفرح كريم – البيان الكويتية – فبراير 1990
- مسافات إبراهيم عبد المجيد وصياد اليمامة – محرر المجلة – نصـف الدنيا – 7 يونيو 1991 .
- البلدة الأخرى والأوهام الضائعة – عبد الرحمن أبو عـوف – أدب ونقد – أغسطس 1992 .
- المسافات ودائرة القهر الجماعي – محمد كشيك – الثقافة الجديـدة – مايو 1991 .
- البلدة الأخرى – د. على الراعي – المصور – 21 فبراير 1992.
- تبوك أرض الحكايات – بلال خبيز – الناقد – يونيو 1992 .
- البلدة الأخرى والفرار من المكان إلى الكتابة – حسـن خضـر – إبداع – عدد الرواية – ديسمبير 1992 .
- البلدة الأخرى من عزلة الفرد إلى عزلة الجماعة – حسـام الـدين محمد الشاهد – سبتمبر 1992 .
- قراءة سياسية للبلدة الأخرى - د. شكرى عياد – الهلال – فبراير 1993.

- قراءة في البلدة الأخرى – محمود عبد الوهاب – الثقافة الجديدة – مايو 1993 .
- قتل اليوتوبيا (قراءة في البلدة الأخرى) د. رمضان بسطاويسي – القاهرة – يناير 1993 .
- تراجيديا الثورة والقهر في رواية الستينيات (البلدة الأخرى) عبد الرحمن أبو عوف – فصول ربيع 1993 .
- من البلدة الأولى إلى البلدة الأخرى – أحمد درويش – فصول 1993 .
- التجوال في مدن الغربة (إبراهيم عبد المجيد) محمد كشيك - الطليعة الأدبية – كانون الأول 85 .
- قصاصون سكندريون (إبراهيم عبد المجيد) د. السعيد الورقي – نادي القصة - يونيو 1980 .
- " قناديل البحر " الواقع الهلامي وتأثيراته الخارقة – كريم عبد السلام – الثقافة الجديدة – سبتمبر 1993 .
- قراءة في رواية البلدة الأخرى (قهر الأنا وقهر القهر) د. مدحت الجيار - الرافعي – أبريل 1993 .
- المسافات / الصياد واليمامة – محرر المجلة – الثقافة الجديدة – أكتوبر 1991 .

- المسافات أو لفح الأسطورة - د. شاكر عبد الحميـد – الإذاعـة والتليفزيون – 12 يناير 1985 .
- قناديل البحر وأزمة جيل – عبد الرحمن أبو عوف – إبداع – 10 أكتور 1993 .
- في مواجهة أدب الضد (حول تجربة إبراهيم عبد المجيد الروائيـة) نادية المسلماني – فاطمة الرشيدي – جريدة صوت العرب – 25 يوليو 1993 .
- الأدب والرواية في الإسكندرية (حول إبراهيم عبد المجيد) عبد الله هاشم – المساء 21 سبتمبر 1990 .
- موج يجري وراء موج - د. شاكر عبد الحميد – القاهرة – يونيو 1996
- هل يستطيع الإنسان أن ينام في الإسكندرية ـ د. سيد البحراوي – أخبار الأدب 1996/8/18 .
- أساطير وبحث عن زمن ضائع ـ عبد العزيز موافي – الحياة اللندنيـة 1996/8/22 .
- حكايات إسكندرية ـ نبيل زكى – الأخبار 1996/148 .
- لا أحد ينام في الإسـكندرية ـ عـلاء الـدين – صـباح الخـير 1996/8/15 .

- إسكندرية إبراهيم عبد المجيد ـ د. صلاح فضل – المصور، أغسطس 1996 .
- لا أحد ينام في الإسكندرية ـ د. محمد برادة – الوسط 1996/9/2 .
- لا أحد ينام في الإسكندرية- د. حامد أبو أحمد – الرياض 1996/11/21 .
- لا أحد ينام في الإسكندرية- محمد زهدي – الشرق الأوسط 1996/8/15
- لا أحد ينام في الإسكندرية - ربيع جابر – الحياة اللندنية 1997/2/15.
- مع رواية لا أحد ينام في الإسكندرية- د. محمد على الكردي – إبداع – نوفمبر 1997 .
- التفكير البصري وأحلام الليل والنهار في رواية البلدة الأخرى- د. شاكر عبد الحميد – الثقافة الجديدة – القاهرة – عدد يناير 1994 .
- التاريخ السري للإسكندرية في بيت الياسمين – عبد الرحمن أبو عوف– الثقافة الجديدة – القاهرة – عدد يناير 1994 .
- إبراهيم عبد المجيد (البلدة الأخرى)– فتحى إمبابي – الثقافة الجديدة – القاهرة – عدد يناير 1994.

- العين والذاكرة (قراءة في قناديل البحر) – مجدى توفيق – الثقافـة الجديدة – القاهرة – عدد يناير 1994 .
- بيت الياسمين والطفل الذي سيأتي – محمد برادة – الثقافة الجديدة – القاهرة – عدد يناير 1994 .
- تخطيطات حول (الصياد واليمام) – كريم عبد السلام – الثقافـة الجديدة – عدد يناير 1994 .
- رؤية العالم في (ليلة العشق والدم) – سيد عبد الخـالق – الثقافـة الجديدة – القاهرة – عدد يناير 1994 .
- ما وراء الوافعية السحرية – تأليف حسام أبو العلا- ترجمة: محمـد عيد إبراهيم – الثقافة الجديدة – القاهرة – عدد يناير 1994 .

لا أحد ينام في الإسكندرية

" البحر المتوسط بحر صغير للغاية ، إن عظمته وامتداد تاريخه يجعلاننا نتخيله أكبر مما هو عليه الآن ، إلا أن الإسكندرية لا يقل وافعها عما يمكن تخيله عنها .. "

(لورانس داريل)

-